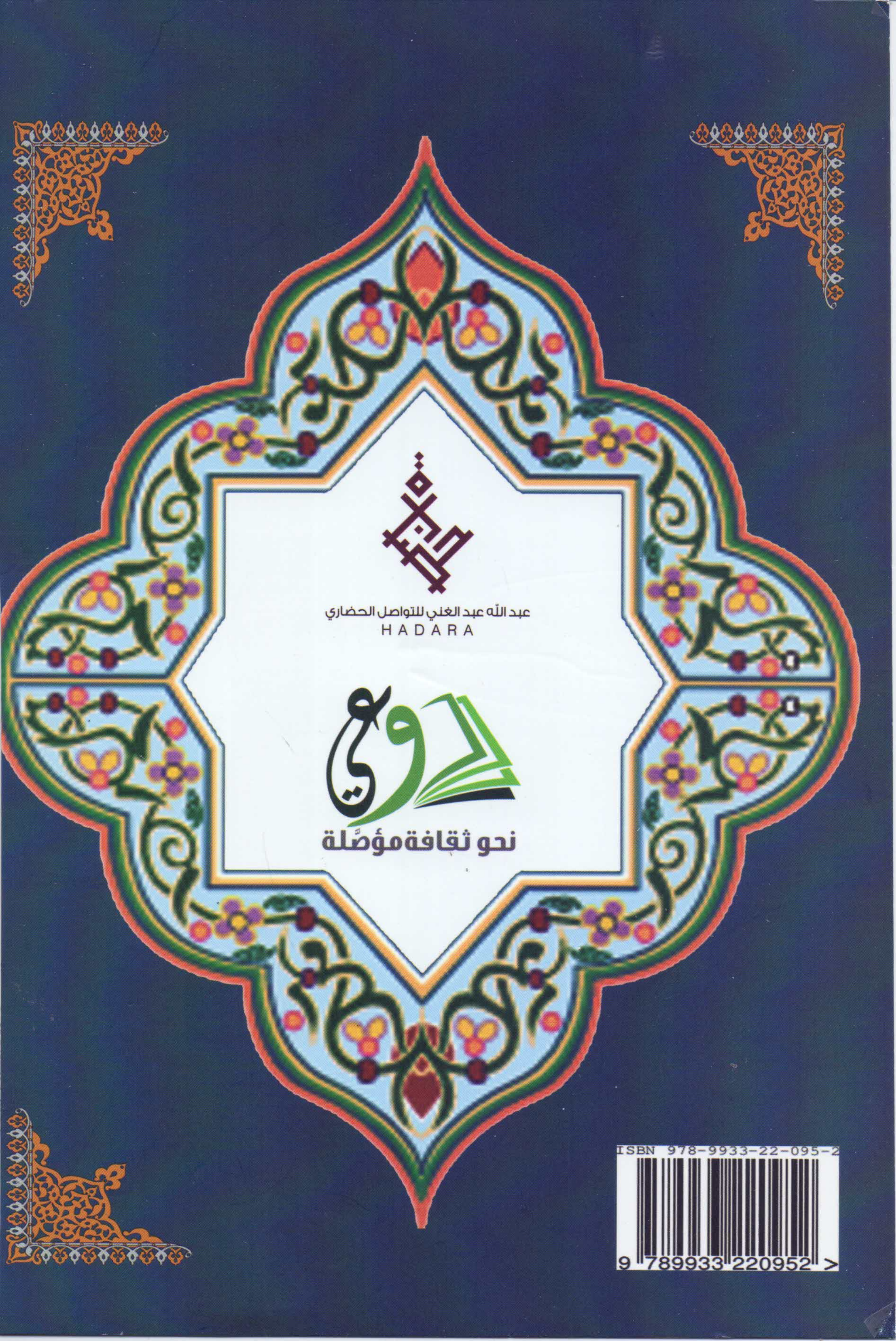


نحو ثقافة مؤصّلة
عبد الله عبد الغني للتواصل الحضاري
HADARA
سؤال الاستغراب
في
النظام المعرفي الإسلامي
عادل بن بوزيد عيساوي



ISBN 978-9933-22-095-2
9 789933 220952 >

مؤسسة عبد الله عبد الغني للإبداع الفكري

سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي:

نحو أنموذج إرشادي علمي متكامل لدراسة الغرب

سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي:

نحو أنموذج إرشادي علمي متكامل لدراسة الغرب

تأليف:

عادل بن بوزيد عيساوي

العنوان: سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي

المؤلف: عادل بن بوزيد عيساوي

الناشر: مؤسسة وعي للأبحاث والدراسات

سنة النشر: ٢٠١٦

الطبعة: الأولى

الترقيم الدولي: ٢-٠٩٥-٢٢-٩٩٣٣-٩٧٨ ISBN

مؤسسة وعي للأبحاث والدراسات

الدوحة- قطر

www.wa٣icenter.com

دار عقل للنشر

دمشق – سورية

٠٠٩٦٣٩٣٤١٦٩١١١



مقدمة:

شكل الآخر كل الآخر في المتن المعرفي الإسلامي، مكانة لا تقل أهمية عن تلك التي يحتلها و يشغلها الفرد داخل المجتمع الإسلامي والجغرافيا الإسلامية، بمكوناتها الدينية والثقافية واللغوية المختلفة، ومرجع هذا الاهتمام إلى كون الرؤية الإسلامية الكلية الكونية التي تؤطر حركة الحياة تنطلق من نظام معرفي قاعدته الرئيسية تتوكأ على المعاني المتدلية من آيات التعارف والمعروف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات: ١٣، فمن الطبيعي والحالة هذه أن تحتل دراسة الآخر وفهمه وقراءته ومعرفته موقعاً مناسباً ضمن هذه الرؤية.

وإذا كان الآخر عند الغرب هو العذاب والجحيم، فإن الآخر عندنا هو ساحة تعارف واعتراف، تعارف على المعروف واعتراف بالمشترك الإنساني في ساحته وفي مسيرة الكدح الإنساني إلى رب العزة جل جلاله، ومن هنا شكلت المقاربتين "**الاستشراقية** " **والاستغرابية** " في الحضاريتين فرقا فارقا بين رؤيتين ومنظورين لا تزال آثارهما تصنعان الواقع. إن الغرب منظورا إليه من زاوية الاستغراب ليس إلا الإنسان في حاجة إلى يد العون لانتشاله من خطيئته وخطئه وأوهام المادية الغربية التي فككته وسلبته إنسانيته،.. بعكس

الشرق منظورا إليه من زاوية الاستشراق ليس إلا العدو أو العبيد ،ولذا بقي الآخر الشرقي في الوعي الجمعي والمتخيل الغربي مادة دسمة لهذه التمثيلات من خلال قناة الاستشراق التي تخصصت في دراسة الشرق الإسلامي دراسة لم يسبق إليها في تاريخ الأفكار والحضارات على هذا القدر من الكم والكيف والكثافة والدقة .

وفي الطرف المقابل؛ وبالرغم من أن موضوع دراسة الغرب في الرؤية الإسلامية لم يكن نافلة من نوافل البحث العلمي، ولا مادة للتفكه والمثاقفة العابرة ، إلا أن الأمة تفتقد إلى هذا اللون من المعرفة العلمية على هيئة علم يختص برصد ومتابعة وتحليل الظاهرة الغربية يتيح لها فهم مجريات الأمور وطبيعتها في العالم الغربي بالرغم من قوة وضغط الاحتياجات الواقعية الدافعة إلى مثل هذا المنحى والتوجه .فالغرب بسط ذراعيه بوصيد العالم الإسلامي، قرونا من الزمن، يتحكم في قوته ووقته، وقوته، ولمّا يزال !..وهذا لوحده كان كافيا لأن تتداعى الأمة لتأسيس جهاز فكري لتقوية مناعتها وأمنها الاستراتيجي من خلال منظومة رصد مؤسساتية علمية تنطلق من "**علم الاستغراب**" تتابع كل حركة وسكنة لهذا الكيان في عالمه، وتمنحنا القدرة الكافية للاستفادة من منجزاته.

لا يزال الكثير، بل الغالب الأعم من جمهور المثقفين في العالم الإسلامي ومعهم منظومة الحكم السياسية من طنجة إلى جاكارتا تنظر إلى الغرب من سَمِّ الخياط ، تعوزهم الرؤية الواضحة والمنهج السليم، ويفتقرون مع كل ذلك إلى فهم الواقع الغربي وحجم التطور والتغير الحاصل فيه ..لا تزال الكثير من القطاعات تنظر إليه على أنه كتلة موحدة مصمتة، ومعلوماتها عنه مستقاة من كتب أقربها إلى الواقع أُلّف قبل قرون من الزمن، ولعله مولع باستدعاء تمثيلات ابن بطوطة وابن جبير وابن فضلان إلى ذات الواقع اليوم وبنفس الإحداثيات الزمانية والمكانية ،وأخرى ترى فيه النور والإشعاع وشعارها

"مكتوب بالغرب وحده يحيا الإنسان " وتستقوي على نظيراتها في الساحة العربية **بالكوجيتو التغربي** المولَّد من صنم المركزية الغربية **"أنا غربي إذا أنا موجود"**.

لم يكن الاستشراق لمَّا درس الإسلام يرى النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ولكن كان يرى يتيم أبي طالب، كما لم يكن يرى في العرب حين درس الحضارة الإسلامية أنهم أرباب الحضارة ، ولكن كان يرى فيهم البداوة والقساوة، فكيف ليتيم أن يكون نبيا، وكيف للأعراب أن يصنعوا الحضارة، وكيف لأمة خرجت من واد غير ذي زرع أن يعجب الغرب نباته ،هكذا كان اللاَّوعي الغربي يخاطب الوعي الغربي في كل تاريخه القديم والمعاصر، وهي نتائج ومخرجات طبيعية من عقل يستند إلى نظام معرفي مدخلاته تصطرع بمفردات القوة، والهيمنة ،والاستعداء، والاستعمار، فمن الطبيعي أن نرى مصاديق هذه المدخلات تصطخب في واقعنا العربي والإسلامي ..

لقد استشرق الغرب واستغربنا، واستغربت معنا أمم كثيرة من غير العرب والمسلمين، ولكن شتان بين الرحلتين المعرفيتين والاستغرابين .استشراق الغرب أثمر دراسة لأطراف وبُنى ودالة هذه الحضارة وفلسفتها، واستغراب الآخرين مثل اليابان والصين للغرب ..دفعهم لأن ينافسوه في عقر داره بعد حين من الدراسة والمتابعة حتى أصبحوا معه كفرسي رهان في العلم والتكنولوجيا، أما استغراب المسلمين فلا وبعد مضي قرون من الزمن على وجود فكرته وأصوله ومنابعه في تراثنا يراوح مكانه مكبل بعجزه عن صياغة وإبداع نظريات تمكنه من رؤية الآخر بوضوح.

ومن هنا غدا التوجه إلى هذا الميدان ومحاولة صناعة تيار يمثل الكتلة الحرجة المنظِّرة لهذا العلم مع المرافعة عن آلياته ومقاصده، ضرورة وفريضة؛ ضرورة لأن العالم اليوم لا يمكن التفاهم معه إلا بفهمه.. وفي هذا السياق

تأتي هذه الدراسة كإضافة من الإضافات إلى هذا المشروع الحضاري الكبير في الأمة.

وفي هذا السياق نسجل الملاحظات التالية:

على الرغم من محاولات تشكل تيارات أقرب ما تكون إلى مدارس استغرابية إلا أن هناك ملاحظات دقيقة ترصد أسباب بطئ نمو هذا الفكر وتطوره بالشكل اللائق به:

أولا: من بين كل هذه المدارس وبين كل الأقلام والكتابات التي طرحت موضوع دراسة الغرب ..قلة ممن صح منهم العزم على ترجمة فكرة (الاستغراب) إلى مشروع وقوالب ونظريات، وقلة من هؤلاء من أنفق له معظم أوقاته دون فضولها .. فمن الطبيعي، والحالة هذه أن، يُكتفي بمجموعة من المقولات أو يكرر دعوات الرواد الأوائل في تنبيه الأمة إلى أهمية هذا المنحى .. فقد تمر على الأمة عشرة قرون أخرى والكل يلوك مقولات جمال الدين الأفغاني وصيحات محمد عبده دون أن نرى استغرابا جديا يضارع ما كتبه الاستشراق في الكم والكيف.

ثانيا: لقد كان موضوع دراسة الغرب رغم الاهتمام والإقبال الكبير عليه من مختلف قطاعات الفكر في العالم الإسلامي، لا يزال مع الكثيرين جملة اعتراضية داخل مشاريعهم الفكرية، ومن شأن الجملة الاعتراضية أنه يمكن الاستغناء عنها أو حذفها ...وبالتالي؛ فإن الشيء الوحيد الذي لا نتوقع وجوده في هذه العينات التي درست الغرب هو العمق في دراسته ..مع تذكيرنا باستثناء استغراب مالك بن نبي السنني الذي يؤكد الظاهرة ومحاولة حسن حنفي.

. أهداف الدراسة:

هيمنت في الدراسات الاستغرابية الأولى قبل قرن من الزمن مقاربتان أساسيتان في النظر إلى موضوع الغرب، المقاربة الاستغرابية الإصلاحية التي اتخذت من شعار الإصلاح والاستفادة من الغرب منطلقا من منطلقات مدرستها ....، والمقاربة الاستغرابية التغريبية التي تبناها زعماء التغريب في العالم العربي والإسلامي ومنهم تلامذة المستشرقين، والتي تصب في مشروع دراسة الغرب لإلحاق العالم الإسلامي به ثقافة، ولغة، وهوية .. وكان الصراع بين المدرستين واضحا منذ البداية .

وبعد ردح من الزمن دخلت مقاربات أخرى على ميدان التنظير الاستغرابي تمثلت في الاستغراب الحركي والاستغراب الإسلامي اليساري والاستغراب المعرفي السنني والاستغراب الأكاديمي .. إلا أن المشكلة تكمن في أن هذه المدارس الاستغرابية رغم محاولاتها التنظيرية في دراسة الغرب ـ كل من زاويته ـ إلا أنها تفتقد إلى نظريات واضحة المعالم تنطلق منها في فهم الغرب وتحليله ماعدا الاستثناء المتمثل في الاستغراب السنني الذي نظَّر له مالك بن نبي في تحليل الحضارة الغربية وواقع مجتمعاتها .

من هذا المنطلق ومحاولة لسد هذا الفراغ في ميدان التنظير الاستغرابي تأتي هذه الدراسة لتندرج في الإطار التالي:

أولاً: المساهمة في تأسيس هذه الشعبة المعرفية، وبالتالي فإننا ومن خلال هذه الدراسة لا نبحث في الغرب ولا عن الغرب، وإنما في علم الاستغراب الذي يُعنى بهما معا أي بدراسة جوانية وبرانية الظاهرة الغربية من منطلق علمي يسهل علينا البحث في أي موضوع من مواضيعه استناداً إلى الأصول والقواعد المرجعية المنبثقة من هذا العلم، بما معناه أن الإطار النظري والعملي للدراسة كله يصب في تقديم مجموعة من المقاربات الممكنة لدراسة

الغرب من داخل حيز معرفي داخل منظومتنا المعرفية الإسلامية.

ثانياً: تقديم إطار منهجي تحليلي يستند إلى قواعد استغرابية دقيقة للكتابة في دراسة الغرب ، لأن الكاتب حين يفتقد إلى علم كامل المعالم والقواعد والنظريات والتصورات له مفاهيمه ومقولاته، مع وضوح مستنده المعرفي الإسلامي ، فإن أي تنظير استغرابي مهما كان موقعه وحجمه وأهميته بل ومصداقية كاتبه ؛ فإنه سينطلق والمكان الذي ارتحل إليه هو المكان الذي ارتحل منه، وهذه مسألة طبيعية ،لأنه يفتقد إلى الإطار النظري والنموذج الإرشادي والوضوح المنهجي الذي يرشد به حركته التنظيرية في غدوها ورواحها . من هنا غدا الاهتمام أولا بإنضاج نظريات هذا العلم ومقولاته حجر الزاوية الذي يمنح الإبداع في الكتابات الاستغرابية ،ودون هذا المسار والمنطلق ليس إلا خرط القتاد.

ثالثاً: المساهمة في بلورة تصور واضح مع المشاركين في هذا الميدان يمكننا من خلاله أن نتابع المنحنى البياني والمعرفي لأي إنتاج استغرابي ونقيمه من خلال بيّنات هذا العلم ..وهو ما يمنحنا القدرة على تثمين الأبحاث العلمية وفق معايير واضحة أو تقييمها وتقويمها .

رابعاً: دراسة علم الاستغراب انطلاقاً من قاعدة بيانات النظام المعرفي الإسلامي المتنوعة يمنحنا اكتشاف القدرة التنظيرية الهائلة لهذا العلم ، ويجنبنا من الوقوع في فخ صدمة المعرفة بالغرب جراء الفجوة المعرفية الهائلة بين العالمين "الغربي" و"الشرقي"، والعلمين " الاستغراب" " والاستشراق " ، وهذا ما يخرج المعرفة الاستغرابية من دائرة رد الفعل، وأمراض اللازمة الاستشراقية (التفكيك، التحيز ، التعالي ، التجاوز ..) النابعة من المركزية الغربية .. إذ ليس في منطلقات "الاستغراب الإسلامي" مفردة تؤسس لمفهوم كوجيتو المركزية والتعالي، ومدلول الشرق والغرب في النهاية لم يصنعه الشرق الذي

يؤمن بالتنوع والتعدد والتعارف على قاعدة القرآن التوحيدية الحضارية (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)،وإنما صنعه الغرب.

خامساً: سيلاحظ القارئ التركيز في الكثير من الأحيان على استحضار واستدعاء المفردات السننية كثيراً .. وهذا لأن البحث في الاستغراب في منحى من مناحيه بحث سنني بامتياز، فالوظيفة المقاصدية الكبرى من دراسة الغرب ليس مراكمة المعلومة، وإنما اكتشاف قيمتها الحضارية والبحث في مداليلها الواقعية ؛ ولهذا فالسنن الإلهية في ميزان علم الاستغراب هو نَحوُ الحضارات والأمم والدول والمجتمعات، ومن هنا كان تركيزنا على هذا التوجه لتثمين مدرسة الاستغراب السنني وهذا ليس تفضيلا ولا تجيزا، وإنما هو اختيار من الاختيارات المعرفية التي نرى ضرورتها.

الإشكالية:

بداية، وكما في كل دراسة، لابد من عرض الإشكالية التي عليها مدار البحث ودائرته، وهي خطوة ذات أهمية بالغة ، تعين القارئ على تصور مسائل الدراسة على حقيقتها كما هي ،حتى يتوافق واقع الدراسة مع ما هو متوقع منها من تحرير مستشكلاتها والإجابة الواضحة على أسئلتها التقليدية المتعلقة بها ، ولذا كان من فقه السلف المنهجي، التعرف على الإشكال والتعريف به أول الدراسة حتى قال الإمام القرافي:" **إن معرفة الإشكال علم في نفسه وفتح من الله** ".

وفي دراستنا هذه ننطلق من مجموعة من الإشكاليات والأسئلة التقليدية: في الظروف والأحوال التي نفتقد إلى علم خاص اسمه "الاستغراب" ، من أين نبدأ في دراسة الغرب ؟، وكيف ندرسه ؟، وما هي الأولويات التي يجب التركيز عليها ؟، وما هي المنهجية والمناهج التي تتناسب مع كل موضوع من مواضيعه .؟ وقبل كل ذلك، ما هي مقاصد هذا العلم وقواعده.؟، وما هي

الاحتياجات المعرفية والمنهجية المطلوبة للوصول إلى نموذج استغرابي سليم يغذي العقل الإسلامي بالمعلومة والصورة الحقيقة عن الواقع الغربي.؟ وما هو ترتيبه في سلمه المعرفي ضمن إطار فلسفة العلوم، وإذا رجعنا القهقرى شطر التراث العربي الإسلامي، هل يمكن التنقيب عن مادة الاستغراب الأولى في مجموع الأدب الجغرافي ،والأدب السياسي، والأدب الفقهي للأمة، مع جمعها لتخدم الوظيفة المقاصدية لهذا العلم ؟ .. كيف نستطيع أن نوظف هذه المادة في التحقيب المعرفي لتاريخ علم الاستغراب.؟

المنهج المعتمد:

أن تصل ما أمر الله به أن يوصل في البحث العلمي، معناه أن تربط المقدمات بالنتائج والأسباب بالمسببات، وتبحث في القضايا والمسائل المعرفية بمناهجها المناسبة وأدواتها اللازمة، وغير ذلك فهو قطع لما يجب وصله في عالم الفكر والأفكار .. إن طبيعة المادة المعروضة والإشكاليات المطروحة في الدراسة هي التي تفرض عادة المنهج المناسب للإجابة عليها؛ فاعتبار الموضوع مادته الغرب لا في حيزه الجغرافي ولا في تحيزاته المعرفية ولا في انجازاته المادية، وإنما الغرب كل الغرب بمحتوياته الكامنة في عالم الأشياء وعالم الأفكار وعالم الأشخاص الخاص به؛ أي حقيقته وكينونته وواقعه. وهي دراسة ومقاربة تنطلق من تصورات وقواعد وأسئلة واستشكالات من داخل حقل وعلم الاستغراب للكيفية والمنهجية التي يجب علينا دراسة الغرب بها ، هذا ما يفرض علينا استدعاء أدوات المنهج التحليلي الاستقرائي، وعملية التتبع والاستقصاء للجزئيات المختلفة يؤدي في نهاية الأمر إلى التركيب بين القضايا والجمع بينها، وهو ما يفرض علينا توظيف المنهج التركيبي، فكان المنهج تحليليا تركيبيا، وهو الأنسب إلى روح الدراسة وموضوعها.

أما بالنسبة لمفردات الدراسة، فسترد الكثير من المصطلحات والمفاهيم لها

دلالـة خاصـة فـي إطـار الدراسـة ..تفهـم مـن خـلال الموضـوع .فمصـطلح الاستغراب اعتمدناه بدون مشاحة أو تحفظ، لما له من دلالة تعبيرية واضحة عن هذا العلم، ولكونه يحمل شحنة دلالية مفاهيمية تفهم عن طريق هذا المصطلح أكثر من غيره.. هذا فضلا عن كثرة توظيف اشتقاقات هذه الكلمة مثل: الاستغرابية، والإستغرابي، المستغرب ، النظريات الاستغرابية، والتنظير الاستغرابي، الاستغراب الحركي، والاستغراب الإصلاحي... كلها مصطلحات تفهم من خلال سياق المعنى ودلالتها على هذا العلم على وجه الخصوص، وكذا سيتوقف القارئ عند مصطلحات مثل الكوجيتو التغريبي ، والأركيولوجية السننية .. وغيرها من المفردات والمصطلحات إذ يجب قراءتها ضمن سياق الدراسة.

خطة الدراسة:

اخترنا للدراسة عنوان "سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي: نحو أنموذج إرشادي لفهم الغرب ودراسته" .. قسمناه بعد المقدمة إلى فصل أول عبارة عن **مدخل معرفي ومنهجي** تناولنا من خلاله جدوى دراسة الآخر من زاوية النظام المعرفي الإسلامي ،أما الفصل الثاني فقد كان بعنوان :**المعنون بالعائد المعرفي للدراسات المتأملة في الغرب في الدول الإسلامية الأولى** ،ضمنته سبعة مباحث تعرضت فيها إلى المضان التي يمكن ان نجد فيها مادة عن "الآخر الغربي" في تراثنا المعرفي الإسلامي بداية من الادب الجغرافي ، إلى التأليف الإسلامي الاثنوجرافي، والتأمل الاثنولوجي، والكتابات الكارتوغرافية ، وصولا إلى مؤلفات مقارنة الأديان ،والأدب الفقهي .

أما الفصل الثالث والذي كان عنوانه: **التحقيب المعرفي الكرونولوجي للعلاقات الإسلامية الغربية**، فقد قسمته إلى أربعة مباحث تناولنا فيها العلاقات الإسلامية الغربية في مختلف مراحلها بداية من عصر النبوة

والخلافة الراشدة، إلى العصر الاموي والعباسي ، ثم مرحلة دخول الاستعمار إلى العالم الإسلامي ،وطبيعة هذه العلاقات بعد خروجه، ولكن من منظور التحقيب المعرفي حيث يتجلى لنا من خلال هذا المنظور الخاسر والمستفيد الأكبر من هذه العلاقات بتموجاتها المختلفة مع محاولة وضع سمة معرفية سننية لكل مرحلة يمثل عنوان المرحلة الكلي.

أما الفصل الرابع فقد كان عنوانه **مدارس الاستغراب في الفكر العربي والإسلامي المعاصر: الفكرة، والمشاريع، والاتجاهات**، ضمنته سبعة مباحث كان المبحث الافتتاحي على شكل استشكال معرفي ومنهجي: لماذا الاستغراب جملة اعتراضية في مشاريع النهضة العربية والإسلامية المعاصرة. وفي المباحث الأخرى تناولت بنوع من التفصيل الاستغراب الإصلاح والاستغراب الحركي، والاستغراب الأكاديمي، والاستغراب الإسلامي اليساري، والاستغراب المعرفي السنني، وأخيراً الاستغراب التغريبي.

أما الفصل الخامس والمعنون **بالبناء المعرفي للاستشراق ودوره في فهم العمق الاستراتيجي للشرق**، فقد كان مناسبة لبسط القول في طبيعة هذا الفكر الذي درس الشرق دراسة معمقة لم يسبق إليها في التاريخ القديم والمعاصر ..تناولت فيه موقع الاستشراق كعلم في النظام المعرفي الغربي ثم كرونولوجيا المعرفة الاستشراقية ، والمنابع الفكرية والأصول المرجعية المؤطرة لفكر الاستشراق ، ومدارس الاستشراق ومناهجه ، وعرجت على مسألة ضرورية تمثلت في الاحتياجات الغربية من الاستشراق ، والروافع المساعدة على نجاح الفكر الاستشراقي في دراسة الشرق .

أما الفصل السادس والأخير وهو خلاصة وركيزة الدراسة كلها فقد كان بعنوان **التنظير الاستغرابي: مفهومه، أدواته، نظرياته، مستقبله**، قسمته إلى خمسة مباحث، كان عنوان المبحث الأول: علم الاستغراب وسؤال المقاصد (المقصد

التدافعي والشهودي والتعارفي والعلمي) وفي المبحث الثاني تناولت مسألة علم الاستغراب وسؤال التنظير، أي كيف ننظّر لعلم الاستغراب باعتبار التنظير أداة من أدوات إنتاج الفكر، تعرضت في هذا المبحث إلى مسائل كثيرة كل مسألة تصلح عنوانا مستقلا في إطار فلسفة الاستغراب وتنظيراته، ومنها الفجوة التنظيرية بين الاستشراق والاستغراب ،وأسرار تفوق التنظير الغربي ومرتكزاته، وشروط نجاح التنظير الاستغراب مستقبلا .. وعلاقة التنظير الاستغرابي بالتنظير السنني ضمن إطار الأركيولوجية السننية باعتبارها أداة من أدوات الحفر في تاريخ الكدح الإنساني بكل تلوناته..

وفي المبحث الثالث، تناولنا موضوع علم الاستغراب وسؤال المنهجية ،تعرضنا من خلاله إلى أهم الإشكالات والتحديات التي تعترض هذا العلم، اما المبحث الرابع والمعنون بعلم الاستغراب حتى لا يكون فتنة (الاستغرابوفوبيا) فقد كان إطاراً جيداً لعرض موضوع فوبيا الاستغراب الذي عبر عنه الكثير من المفكرين والباحثين في هذا الشأن، تنولت فيه مبررات هذه الظاهرة ،وسبل تجنب الوقوع في مطبات الاستشراق واخطائه ومزالقه .. كل ذلك حتى لا يكون الاستغراب فتنة، كما كان الاستشراق في الكثير من مراحله. أما المبحث الأخير وعنوانه: علم الاستغراب حتى لا يكون كلاً على الاستشراق داعيا من خلاله إلى ضرورة التجديد في أليات تناول الدرس الاستغرابي، بداية من ضرورة مأسسة الرؤية والفكر الاستغرابي في إطار مراكز فكرية وفضاءات علمية، مع إتاحة الفرصة لحركة الفكر والحراك الفكري داخل هذه المراكز بضمان استقلايتها ..وقد ركزنا في المبحث كذلك على ضرورة الابداع في أساليب التنظير الاستغرابي وقدمنا مقاربة لسبل هذا الابداع من خلال روافد مثل دعم الوقفيات الاستغرابية وتشجيع الابتعاث الاستغرابي، وقد ضمنا في نهاية الدراسة جملة من التوصيات والتي تعتبر خلاصات مركزة لما نراه ضروري لنجاح مثل هذه المشاريع الحضارية

المرجحة لكفة الميزان في واقع الأمم والمجتمعات.

وفي الأخير أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يقيّض له من يعمل بصوابه ويصوّب خطأه، ولا يهضم حقه، وإن اختلفت معه في الأحق، أو كما يقول الإمام النورسي رحمة الله عليه: "إن كان الاتفاق في الحق اختلافاً في الأحق، يكون الحق أحيانا أحق من الأحق، والحسن أحسن من الأحسن. ويحق لكل امرئٍ أن يقول في مذهبه: هو حق، هو حسن، ولكن لا يحق له القول: "هو الحق هو الحسن".

عادل بن بوزيد عيساوي

الفصل الأول:

مدخل منهجي ومعرفي

دراسة الغرب من خلال

النظام المعرفي الإسلامي

المبحث الأول:
دراسة الغرب من أين نبدأ؟

ترتبط الرؤى والأفكار والأحكام والدراسات ارتباطا موضوعيا وموضعيا بنظامها المعرفي الذي تنتمي إليه موطنها الأصلي الذي ولدت ونشأت فيه، هذا الارتباط هو ارتباط نسب وصلة وقرابة وهوية معرفية ، ومن هنا غدت أي ممارسة أو دراسة مهما كانت قيمتها في ميزان البحث العلمي، إنما تستند إلى رؤية كونية، هذه الأخيرة تستمد مرجعيتها وتكتسب قيمتها ومكانتها من نظامها المعرفي الذي استلهمت منه الأدلة، والنصوص، والمراجع ، والمقولات، والقطعيات، وحتى المنهجيات...هذه المسائل بمجموعها تشكل نظاما معرفيا تُستخرج منه الرؤى والتصورات التي تدفع حركة الحياة قدما في صورها الايجابية والسلبية.

وموضوعنا في هذه الصفحات عن دراسة الغرب . أو علم الاستغراب بكل شحناته الدلالية والمفاهيمية التي نراها والتي ستتراءى لنا فيما بعد . تنطلق من منظور النظام المعرفي الإسلامي، وهو الأرضية البنيوية الذي سنتخذه كوحدة تحليلية لدراسة الظاهرة الغربية بكل أمشاجها وحيثياتها وتشكلاتها المادية والمعرفية، والنظام المعرفي الإسلامي جاهز ليجيب عن تلك الأسئلة والاستشكالات التي يصطحبها علم الاستغراب سواء كانت أسئلة مدرجة ضمن السياق المعرفي أو المنهجي، بما معناه أننا سنقدم في هذه الصفحات على دراسة حالة تنتمي إلى نظام معرفي مغاير للنظام المعرفي الإسلامي في الكليات فضلا عن الجزئيات ،نخرج في نهايتها بجملة مفيدة واضحة المعالم والأركان حول هذا الفقه الذي آن الأوان أن يتصدر مكانته في هذه المرحلة الحرجة التي أصبح الغرب يبسط فيها ذراعيه بوصيد العالم الإسلامي ونحن في فجوة منه عاجزين عن الحراك الايجابي تجاه دراسة ذواتنا الحضارية

فضلا عن دراسة الآخرين أو فهمهم.

وفي هذا السياق، قد يشكك أحدهم في مدى القدرة على استخراج المنهجية الملائمة والموائمة لدراسة مثل هذه الحالة الحضارية الخطيرة، من خلال نظام معرفي لم نتمكن إلى اللحظة الراهنة من التحكم في قواعده وآلياته التي تمكننا من دراسة أنظمة معرفية أخرى بكل مخرجاتها. والظاهرة الغربية مخرج من مخرجات النظام المعرفي الغربي، هذا فضلا عن كوننا لا نملك من علم الاستغراب إلى الصورة العامة ،فليس لدينا إلى اليوم تجربة في دراسة الغرب كما كان للغرب ممثلة في الاستشراق ومناهجه وفلسفاته ونظرياته ومنظريه ، فأين المنهجيات التي توصلنا إلى القدرة على الخروج بنتائج تدعم فقه الاستغراب ،وتمكنه من التأهل إلى مستوى دراسة الغرب دراسة مثقلة بالوعي الحضاري الشهودي الذي يتخذ من هذا العلم متكأ للشهادة على الناس.

أقول تعليقا على هذا الاستشكال الواقعي ،بأن الناظر في فلسفة النظام المعرفي الإسلامي وبنيته المقاصدية حتما سيلاحظ أن هناك سلسلة تربط بين المفاهيم وليس هناك فراغات أو ثغرات داخل هذا النظام كما أنه لا يوجد مفردات تقع تحت سلطان هذا النظام يمكن أن تشذ أو تشرد عن حقائقه أو أن تعجزه عن فهمها والحكم عليها، والغرب هو أحد هذه المفردات التي يستطيع النظام المعرفي الإسلامي أن يحيط بها خبرا ويمد من خلاله **"علم الاستغراب"** بمدد تأصيلي يؤمن له طريق المعرفة عن الغرب ،ويوصله إلى عين الحقائق وذروة سنامها ،حتى يغدو هذا العلم إضافة نوعية تساهم في معرفة هذا الجزء من العالم معرفة علمية دقيقة تمكننا ليس فقط من القدرة على مواجهة الأخطار القادمة منه، أو اكتشاف طرائق الحضارة الغربية التي أوصلتها إلى أمجادها فنتتبع أسبابها وسبلها وننخل مسالكها، بل إن بيت القصيد فضلا عن كل ذلك هو امتلاك المفاتيح الشهودية التي ندخل بها عليهم الأبواب فننشر رحمة الله بينهم، فكل نفس تموت فيهم على غير الإسلام هي أنفاس فلتت منا

إلى النار، أي هي بحسبان الرسالة خسارة إنسانية، ولذلك، فإن عين الحقيقة تقول كم خسروا بسقوطنا وكم ضعفوا بضعفنا، وكم جهلوا بجهلنا ..

وهكذا شأن العلوم التي تنطلق من الرؤية الإسلامية- وعلم الاستغراب منها . يرتبط أولها بآخرها ربطا محكما دقيقا " ولذلك ،فإن وظيفة .. ودور المفكر المسلم المعاصر لا يقتصر على ضرورة استخدام رؤية العالم بوصفها وحدة تحليل للأفكار والمواقف والأشخاص والمؤسسات، ليعرف أين وكيف تختلف رؤيتنا للعالم عن الرؤى الأخرى، بل عليه أن يجعل الرؤية الإسلامية للعالم معروفة لأصحاب الرؤى الأخرى، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة! " [١].

وأخال أن علم الاستغراب إن أحكمت مادته وآلاته ومناهجه ومسائله واستوى من بعد ذلك على سوقه سيكون حلقة من الحلقات التي تزدان بها المعرفة الإسلامية وتساهم من خلالها في تجسير وتجويد العلاقة مع العالم الغربي حيث سنكتشف الكثير من المشتركات الإنسانية التي تعزز أصول التواصل بين العالمين .فليس الغرب شر كله، هذا فضلا عن المخرجات التي ستعود علينا حين نتوجه لدراسة الغرب ،من اكتشاف مستوى الأنا الحضارية والدينية والعلمية عندنا. فمن سنن الله أن الكشف عن طبائع الأشياء والمخلوقات يكون من خلال تحريك صور ومستويات التدافع بين المتماثلات حيث تظهر الحقائق كما هي، ومن مسالك الكشف عن صورة ومستوى العالم الإسلامي التعرف على نظيره وما يماثله أي الآخر، وهذا ما تحيلنا عليه أبسط قواعد الفهم في النظام المعرفي الإسلامي حيث يجب الكشف والاطلاع على رؤية الآخرين حتى نستبين عن قوة رؤيتنا وموقعها بين مجموع الرؤى .

يقول الدكتور وائل أحمد خليل :"هنالك إجراءً منهجياً لا بد أن يتبع

---

(١) فتحي ملكاوي ،رؤية العالم ،إسلامية المعرفة ،العدد ٤٠ ، ص:١٣ .

بصدد تحقيق التفسير الكلي للمفاهيم في نسق نحن نؤمن به. هذا الإجراء هو قراءة العقل الأخر لفهم منطلقات الأنا ego في أبعادها الحقيقية؛ أي إننا إذا أردنا تكوين رؤية كونية شاملة من خلال نسق فكري معين، فلا بد أن يكون من ضمن العناصر الأساسية في فهم هذا النسق -ومن ثم تكوين الرؤية الكونية الشاملة خاصتنا -عنصر التفاعل المتداخل بين موقفي الذاتي ونمط الوعي وما اتبع إليه من نسق، وبين موقف الأخر ونمط الوعي لديه وما يتبع إليه من نسق. فهناك الكثير من عناصر الوعي الذاتي التي لا تكشف عن نفسها إلا باطلاعها على عناصر مقابلة في الوعي الآخر. واختصاراً، اكتشاف الأنا أمام الآخر؛ أي أن ما يتمم معرفتي بذاتي هو مظاهر استجابة هذه الذات على مواقف الذات الأخرى وما يترتب على هذه الاستجابة من انفعال وسلوك. وبدون هذا الآخر سيظل هناك الكثير من الأشياء التي لن أعرفها عن ذاتي وهذا ينسحب بدوره على ما اعتقد فيه من نسق."(٢)

فالاطلاع على الغرب ودراسته من كل النواحي من خلال علم الاستغراب -وفهم منظومته الفكرية والعقدية والسلوكية يمنحنا القدرة على فهم رؤيتنا الكونية وتنزيلها على الواقع أكثر فأكثر، وهو ما يزيد بل ويعمق من قدرات الوعي لدينا برسالتنا الحضارية الاستخلافية في الأرض، وقد استفاد الغرب من هذه المنهجية في الكشف عن ذاته وقدراته حين درس العالم الإسلامي ممثلا في الفروع المختلفة لشعب الاستشراق إذ "،الملاحظ -على سبيل المثال- أن الميدان الواسع لدراسة الاستشراق في الغرب ليس الغرض منه فقط التأثير على الوعي الشرقي؛ بقدر ما يبدو الغرض من ذلك هو فهم الوعي الغربي واكتشافه لذاته بوضعه أمام نمط الوعي الشرقي. ونحن بدورنا

---

(٢) وائل أحمد خليل ، مسألة الحرية في الوعي الغربي ، إسلامية المعرفة، العدد ٣١ ، ص: ٦٣

إذا أردنا فهما كليا للنسق الإسلامي في أي مجال من المجالات، فلا بد أن يكون عنصراً أساسياً من عناصر هذا الفهم هو وضع هذا النسق أمام الأنساق الأخرى المغايرة، وضرورة قراءة هذه الأنساق الأخرى، لنعيد بصورة متطورة قراءة نسقنا الذي نعتقد، فنحن ندين إلى الوعي الغربي وأنساقه كل الثغرات والتساؤلات الفكرية التي فتحها، ليكون سدُّنا نحن لهذه الثغرات وإجابتنا على تلك التساؤلات هو تحقيق إضافة جديدة في الفهم والاستيعاب والاكتشاف لحقيقة ما نعتقد فيه، وهذا يردنا إلى مبدأ ارتباط العلم بالعمل، فالعمل باعتباره العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر، وبين الأنا والكون، هو ما يحقق التطور المطرد والمستمر. "[٣]

(٣) وائل أحمد خليل، مسألة الحرية في الوعي الغربي، إسلامية المعرفة، العدد ٣١، ص ٦٣

المبحث الثاني:
ماذا سيقدم النظام المعرفي الإسلامي لعلم الاستغراب؟

إن دراسة علم الاستغراب من زاوية الرؤية الكلية الكونية، وانطلاقا من قاعدة بيانات النظام المعرفي الإسلامي، يمنحنا اكتشاف القدرة التنظيرية الهائلة لهذا العلم، ويجنبنا من جانب آخر الوقوع في فخ صدمة المعرفة بالغرب كما يقول الدكتور جابر عصفور حين قال: إن " أن التحديق في الغرب بعيون عربية انطوى على صدمة المعرفة بمدى تخلف الأنا القومية عن الآخر الذي يواجهنا، فالعلاقة بيننا لم تبن على مبدأ التساوي والتكافل بين طرفيها، لذلك لم نر الغرب بطريقة صحيحة، ولم نر أنفسنا بطريقة صحيحة أيضا. "[٤]

وعليه؛ فإن دراسة علم الاستغراب، والسير به إلى آفاق التأسيس من خلال مستوى" النظام المعرفي ليس تكلفاً لما لا حاجة إليه، ولا تنظيراً لما لا فائدة فيه، وليس مقصوراً على الدوائر الفلسفية والبحوث المتخصصة، فجميع الناس ينطلقون في تفكيرهم وفي عمليات الإدراك التي يمارسونها من نظام معرفي، سواءً بوعي منهم على ذلك أم بدون وعي. ويتمثل ذلك في أبسط أشكاله بالمسلمات والمبادئ والافتراضات النظرية الكامنة في أقوال الناس وأفعالهم، تماماً كما تمكن قواعد النحو في اللغة التي ينطقون بها أو يكتبونها. وعليه فإنَّ البحث في النظام المعرفي الإسلامي هو بحث في الهوية الحضارية للأمة المسلمة، وأي إسهام في بناء النظام المعرفي وبلورته هو إسهامٌ في البناء الحضاري للأمة". [٥]

---

(٤) أنظر: د محمد المنسي قنديل، متى نتخلص من الرؤية المشوهة للذات ولآخر؟ ، مجلة " العربي" ، وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد ٥٤٤، مارس ٢٠٠٤ ، ص ١١٦-١١٧

(٥) جمال البرزنجي ، أهمية البحث في النظام المعرفي ، إسلامية المعرفة ، العدد ٢١ ، ص: ٣

ومن هذا القبيل؛ فإن دراسة الغرب أو التنظير لعلم الاستغراب من منطلقات النظام المعرفي الإسلامي من شأنه أن يعزز من قدرات النظام أكثر فأكثر في تحليل القضايا من زاويته، كما من شأنه أن يجنبنا مطبات تقليد الاستشراق، ومحاولة محاكاته في تأسيس علم الاستغراب، فكلنا يعلم أن هناك مزالق جمة قد تقع فيها الأقلام المنظرة لعلم الاستغراب إذا انطلقت من زاوية رد الفعل، وهذا ملا يجب أن يكون.

مع ملاحظة أن الوصول إلى تأسيس علم الاستغراب أمر متصور من الناحية النظرية، ولكنه من الناحية العملية يحتاج إلى منظور معرفي كامل متكامل يستوعب المشهد كله بصوره القديمة والحديثة المتجددة، حتى يصبح هذا العلم بمثابة نموذج إرشادي لفهم الغرب فهما متوازنا، يعزز قدراتنا على فهم العالم مع خرائطه المعرفية، والفكرية، والثقافية، والسياسية، والعقدية . فالغرب الذي نقرأ عنه في المتن المعرفي العربي والإسلامي، ليس هو ذاته الذي نراه ونعايشه اليوم ، و "الغرب " الاستراتيجي" الذي تحكمه نزعات القوة والاحتواء هو غير الغرب " الثقافي" الذي يعارض تلكم النزعات، كما هو غير الغرب" الشعبي" الذي لا تنقصه مشاعر المسالمة والتعاطف مع الآخرين. ..، الغرب اليوم لا يمكن اختزاله في مدلول جغرافيّ ضيّق، بل إنّه أمسى يعبّر عن منظومة متكاملة ومتنوعة ومتداخلة، إذ ثمة غرب مصالح، وغرب أديان، وغرب ثقافات، وغرب أنظمة وقوانين، وغرب مبادئ وقيم، وغرب منهج حياة، وغرب تاريخ، وغرب واقع.. وكل واحد من هذه الجوانب في الغرب يستحق دراسة وتحقيقا وتنظيرًا وتأصيلا، " [6]

ومن هنا ؛ فإن توسيع المدارك عن الآخر سيقوى من مدى رؤيتنا الكلية النابعة من نظامها المعرفي .. وعلم الاستغراب كما أنه سيتخذ من ذات

---

(٦) علي القريشي ، الآخر في المنظور الإسلامي، ص: ١٠

النظام قاعدة للانطلاق والتحليل والرصد والمتابعة كذلك سيقدم خدمة جلى لهذه الرؤية حتى تستبصر بالمحيط الخارجي عن علم وبصيرة وفقه فتزيد قوة إلى قوتها... وهذا بناءً على قاعدة الابتلاء البيني الذي جرت عليه التفهيمات السننية الربانية للكون والمعمورة إذ "ولو تحددت رؤية العالم عند الفرد المسلم المعاصر بموقعه هو في هذا العالم فإنه لن يجد نفسه بعيداً في التاريخ والجغرافيا، ولن يكون الناس الآخرون في العالم خلقاً آخر لا معرفة له به أو علاقة له معه. وإنما سيجد أنه جزء من هذا العالم، يتحدث عن الأجزاء الأخرى وتتحدث الأجزاء الأخرى عنه، يراها وتراه، وينفعل بما يحدث في أي جزء من العالم." (٧)

وهكذا الأمر، فإن العلاقة بين النظام المعرفي الإسلامي وعلم الاستغراب ليست علاقة خطية سطحية سهلة الاقتناص، وإنما هي علاقة تمتاز بنوع من التعقيد في الكثير من المسائل والاستشكالات التي ترد تباعا من جهات متعددة. تارة من حقل الدراسة نفسه " الغرب " وتارة من علم الاستغراب وما يعتوره من صعوبات في مسألة التنظير لهذا العلم وقضاياه المتنوعة ،وإن كانت الحالة في الغالب الأعم أن النظام المعرفي يمدنا باليقينيات والقطعيات ضمن الرؤية الكلية الكونية الشاملة، وتبقى تفاصيل المسائل تابعة لأصولها وكلياتها .

يقول الدكتور الملكاوي في هذا السياق، ولذلك كانت "العلاقة بين رؤية التفاصيل والرؤية الكلية ليست علاقة سطحية خطية، وإنما هي علاقة تفاعلية جدلية معقدة؛ فالرؤية الكلية تضع التفاصيل في موقعها المناسب. وإدراك التفاصيل في حدودها الخاصة بها لا يقتصر على التقاطها وتمييزها في موقعها من الزمان والمكان، وإنما يتجاوز ذلك إلى ربطها برموزها ودلالاتها

(٧) فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم عند الإسلاميين، إسلامية المعرفة، العدد ٤٥، ص، ١٠

وما يرتبط بها من أفعال وردود أفعال، وهذا يعني الارتقاء بها إلى مستوى من التجريد الدلالي الذي يتطلب بالضرورة إعمال العقل والتأمل العميق، مما ينتج عنه تعديل في الرؤية الكلية وتوسيع في مجالاتها"[٨] .

وعليه؛ فالأمر ليس من السهولة كما قد يعتبره البعض، وإن كان المعهود لدى الكثيرين تناول مثل هذه المواضيع بنوع من البساطة والاختزال والابتسار. وهو أمر إن سُمح له فيما مضى، فلا عذر لنا اليوم ،خاصة وأن القوارع والخطوب قد حطت رحالها وبسطت ذراعيها بالوصيد تحمل معها النذر والمثلات ، ولذلك اعتبر أي عمل في هذا الاتجاه خاصة إذا كان يهدف إلى الكشف عن معالم فقه كامل متكامل "**لفقه الاستغراب**" في غاية الخطورة؛ **فدراسة الغرب** ليس هدفا عشوائيا يسهل اقتناصه، ولا أمنية متاحة لكل الباحثين، بل هي نتيجة تحريك وتحرك الأمة مع تداعي الجسد تداعيا علميا منهجيا لتأسيس هذه الشعبة الحضارية الهادفة .

ولذا أعتقد جازماً أن الكشف عن هذا الفقه وإخراجه من دائرة القوة إلى دائرة الفعل هو نوع نجاح في السير في ملكوت الله، كما هو خطوة نحو فهم آيات الله في الأنفس والآفاق، وما يربطهما من قوانين وسنن ونواميس باعتبار "المجتمعات" و"الأمم" على اختلاف أديانها وأيديولوجياتها قطعة من الابتلاء البيني مصداقا لقوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾الفرقان: ٢٠، والصبر هنا صبر بنكهة العلم الذي يمنحنا القدرة على فهم الأمور كما هي في الواقع. ولذا أدرج هذه المحاولة "مجرى التضرع إلى الله تعالى في استنزال هذا العلم من عنده"[٩] كما قال

---

(٨) فتحي ملكاوي ، رؤية العالم عند الإسلاميين ، المرجع السابق ،ص: ٤٠

(٩) الفخر الرازي ،التفسير الكبير ، دار الكتب العربية ، بيروت لبنان ،الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، ج١،ص: ٣٤٨ .

الإمام الرازي من قبل، حتى يكون حلقة تضاف إلى تلك المحاولات التي تقصد هذا الهدف وتتغياه.

لا يمكن أن نفهم الغرب أو ننطلق انطلاقة سليمة في دراسته من دون أن نتمكن من فهم جذور الظاهرة الغربية وتاريخها، عبر كل الفصول التي مرت بها وصولا إلى مراحل اصطدامها بالعالم الإسلامي، ولهذا فإننا سنتعرف من خلال الفصول القادمة وفي تحليل معرفي شامل عن تلك القنوات التي تعارف من خلالها العالم الغربي بالعالم الإسلامي، سواء تلك القنوات التي اعتبرت أدوات عسكرية لحسم العلاقة ممثلة في لغة الصراع التي تبناها الغرب مبكرا - وهي لغة ولدت من رحم فلسفة النظام المعرفي الغربي - أو من خلال شكل العلاقة بين الطرفين في بعدها المعرفي التعارفي التثقيفي بين الشرق والغرب ..

نحاول من خلال ورقات هذا البحث ومباحثه أن نكشف عن البدايات الأولى لفكرة دراسة الآخر بين الطرفين انطلاقا من زاوية ومنظور التحقيب المعرفي للفكر الاستشراقي الغربي والفكر الاستغرابي الإسلامي.. فقد حاول العالم الإسلامي فهم الآخر الغربي والتعرف عليه مبكرا امتثالا لمبادئ الرسالة الاستخلافية في الأرض ، كما حاول الغرب فهم العالم الإسلامي ودراسته أكثر خاصة بعد خسارة الحروب الصليبية حين صدمت جيوشه لا بقوة وتفوق العسكرية الإسلامية فحسب، بل بصدمة المعرفة والتفوق العلمي والحضاري الذي يتمتع به العالم الإسلامي، فطفق إلى بلاده ليؤسس أكبر حركة في تاريخ الإنسانية تعنى بدراسة الآخر الإسلامي، كما يقول مؤرخو العلم والمعرفة تمثلت هذه الحركة العلمية فيما سمي بالاستشراق أو علم دراسة الشرق. هذا العلم الذي أصبح المصدر والمرجع الرئيس في العالم الغربي لفهم الشرق الإسلامي.

حين نتابع دراسة الآخر بين الطرفين من زاوية التحقيب المعرفي؛ فإننا نتعرف أكثر عن السلبيات والايجابيات التي تمخضت من فكر الاستشراق في دراسة العالم الإسلامي، أو تلك التي نتجت عن فكرة الاستغراب في صورها الأولى، إن أكبر خطايا الاستشراق التي منعت الخير عن الغرب وصدته عن السبيل اختراعه لكذبة كوجيتو المركزية الغربية التي بنى الفكر الغربي كل أبحاثه ومنطلقاته منها، معتقدا في باقي الشعوب الشرقية وغيرها الدونية والاستعباد والتبعية للغرب، وهذا ما يضاد أبسط حقائق السنن الإلهية الخاصة بطبيعة وأصل الشعوب.

ليس في منطلقات "الاستغراب الإسلامي" مفردة تؤسس لمفهوم كوجيتو المركزية والتعالي، ومدلول الشرق والغرب لم يصنعه الشرق الذي يؤمن بالتنوع والتعدد والتعارف على قاعدة القرآن التوحيدية الحضارية (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا).

ففي " البعد التوحيدي التكاملي الكوني، يتبنى الآخر، تكامليا مع كل أنا، ويتبدى الأنا تكامليا مع كل آخر، وكل ذلك في الرؤية القرآنية الكونية عبارة عن دوائر متداخلة في نسيج حضاري توحيدي إعماري بديع ،يقوم على الغائية والتكامل والتناسق والتفاعل الإعماري البناء ، فالأنا والآخر ،ينتمون ويتفرعون شعوبا وقبائل في منظومات بشرية تحقق في وحدتها التنوع ، يتم التفاعل والتعارف الكامل بين البشر، لأنه لو تماثلت الأجزاء لما كان هناك مجال للتكامل والتفاعل بين متماثلين ، لأن التكامل شرط التفاعل ، ولذلك فإن التفاعل لا يتم إلا بموجبين ، أو سالبين ".[١٠]

وهكذا ، فلا مركزية في الإسلام بالمفهوم الغربي، لأن الكل في ميزان الحق من أصل واحد لله الواحد ، لقد خط حسن البنا قبل عقود من الزمن

---

(١٠) عبد الحميد أبو سليمان ، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية : المنطلق الأساس لإصلاح الإنساني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠٠٨ م ، ص: ٥٨،٥٩

مقولة أشبه ما تكون بالبيان الدعوي والحركي لهذه الأمة أوجز فيها هذا المعنى قائلا :"والشرقية :لها في دعوتنا مكانها وإن كان المعني الذي يجمع المشاعر فيها معني وقتياً طارئاً، إنما ولده وأوجده اعتزاز الغرب بحضارته وتغاليه بمدنيته، وانعزاله عن هذه الأمم التي سماها الأمم الشرقية وتقسيمه العالم إلى شرقي وغربي، وندائه بهذا التقسيم حتى في قول أحد شعرائه المأثور : الشرق شرق والغرب غرب ولا يمكن أن يجتمعا . هذا المعني الطارئ هو الذي جعل الشرقيين يعتبرون أنفسهم صفاً يقابل الصف الغربي ، أما حين يعود الغرب إلى الإنصاف ويدع سبيل الاعتداء والإجحاف فتزول هذه العصبية الطارئة وتحل محلها الفكرة الناشئة ، فكرة التعاون بين الشعوب علي ما فيه خيرها وارتقاؤها ." [(١١)]

وسواء عاد الغرب إلى الإنصاف أو لم يرجع ، فإن دراسة الغرب من المنظور المعرفي الإسلامي دراسة شاملة متكاملة أصبح احتياجا معرفيا ضروريا للأمة والإنسانية على السواء، وذلك بغية إعادة الآخر (الغربي) إلى المسار الطبيعي لمفهوم الكدح الإنساني إلى رب العزة على قواعد الاستخلاف والشهادة على الناس ..

---

(١١) الإمام الشهيد حسن البنا، مجموعة الرسائل ، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة، بيروت، دط، دت .ص: ٢٤٤.

الفصل الثاني:

العائد المعرفي للدراسات المتأملة في الغرب في الدول الإسلامية الأولى

المبحث الأول:
دراسة الغرب في الأدب الجغرافي العربي والإسلامي

لقد شجع الإسلام العباد على السير في الأرض، واكتشاف طبائع العمارة الكونية وخارطة العمران البشري.. وجعل لذلك من المحفزات الكثير ... وحتى يذكي فيهم روح السير والحركة في الأرض والتعرف والتعارف على شعوبها جعل الحج إلى البيت الحرام ركنا من أركان الإسلام، يزيد فيه المسلم إضافة إلى حصيلته في التقوى حصيلة أخرى تتعلق بمعرفة طبائع الشعوب وسيكولوجيتها. وقد ذكر القرآن رحلة ذي القرنين بتوصيفاتها المهمة (الأماكن / طبائع الشعوب / عاداتهم / لباسهم / لغاتهم..) تنبيها إلى هذا المعنى.

حين كانت طلائع الرحالة العرب تجوس خلال الأرض شرقا وغربا وهي تردد قول الحق تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ العنكبوت: ٢٠، كشفا لمجاهيل وغوامض وتركيبة الأرض. كان العالم الغربي المسيحي لا يزال يردد مقولة القديس أمبروز Ambrose في القرن الثالث الميلاد "إن البحث في طبيعة الأرض ومركزها بالنسبة للكون لا يفيدنا في الحياة الأخرى". (١٢)

بل اعتبر هذا الفن في عداد التخصصات الاستراتيجية لرجال الدولة وكل من له علاقة من قريب أو بعيد بهيئات القرار لما يدره عليها من معرفة الآخر من كل الوجوه، حتى ذكر ابن حوقل في كتابه صورة الأرض علم الجغرافيا "علم يتفرد به الملوك الساسة وأهل المروءات والسادة من جميع

---

(١٢) عبد الفتاح محمد وهيبة ، مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية جامعة بيروت ، ١٩٧٩ م، ص١٠ .

الطبقات ".[١٣]

لقد استطاع العرب والمسلمون أن يحصوا قوة الغرب (البيزنطي والإفرنجي) طيلة الفترات التي تمتعوا بها بالقوة وحتى وهم في أشد لحظات ضعفهم سجل لنا التاريخ ظهور موسوعات وكتب لم تغفل وضع تلك الدول من حيث القوة والضعف والرصد العام وهو ما يوحي أن مسألة متابعة الغرب ودراسته ورصد منحنياته البيانية في المجالات المتنوعة لم تكن نافلة في تاريخ الإسلام وهذا ما يخطئ الاعتقاد السائد لدى لعض النقاد أن الأدب الجغرافي الذي انطلقت منه الأبحاث لدراسة الغرب والكشف عنه في الدول الإسلامية الأولى كان أدبا يحمل من الترف والغرائب .

وقد كانت المنطلق في ذلك إضافة إلى مقاصد التعارف مع الأمم والتعريف بالإسلام كان يسعى إلى من موقع الثقة بالذات ؛" فقد استطاع العرب والمسلمون التعرف على ثقافة الفرس ، والهند ، والصين ، فضلا عن الثقافة اليونانية ،بينما لم تتعرف أوروبا الغربية على تلك الثقافة حتى عصر النهضة،... كما تعرفوا على خبرة الحكم والإدارة ، وتراث بيزنطة الشرقية ،في وقت كانت أوروبا كما يقول لويس " معزولة بين المياه المتجمدة شمالاً ، ومياه المحيط غرباً ، والإسلام جنوباً ، والبراري شرقاً ."[١٤]

وسنتعرف في النقاط التالية على تلك المجالات التي تناولت دراسة الغرب وفحصه في مختلف أطوار نشأة الامة والدول الإسلامية المتعاقبة على قيادتها في كل لحظات القوة والضعف ، فقد اطلع العرب على الغرب وتعرف عليه

---

(١٣) محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، صورة الأرض ، دار صادر ، افست ليدن بيروت ،دط، ١٩٣٨م .

(١٤) أنظر : شمس الدين الكيلاني ، مجلة الاجتهاد ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر ، بيروت، لبنان ، ص: ٣٥٠ .

منذ القرون الأولى وبدأت معارفه به تنمو وتزداد من خلال أدب الرحلة الذي كان المصدر الأساسي للاطلاع على الآخر وتحديث المعلومات عنه ،وزادت معرفتهم أكثر حين زاد اهتمامهم بفنون الكارتوغرافيا Cartography (فن رسم الخرائط) والكوزموغرافيا Cosmography (علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام) والاقيانوغرافيا oceanography (دراسات في جغرافية البحار والمحيطات).

لقد كان تطلعهم إلى معرفة العالم الغربي لا يضارعه إلا ظمأهم المعرفي للاطلاع على مجاهيل الأرض الأخرى، لنشر الدعوة أو زيادة بسط نفوذ الدولة فالمعلومة قوة. يقول المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكو فيسكي: "ثم إن مصالح الدولة، التي أصبحت أكبر قوة عالمة لذلك العهد، حالت دون أن تكتفي بمعرفة أراضيها وحدها، بل كان من الضروري أن تحصل على معلومات دقيقة من الأقطار الأخرى المتاخمة لها، وقد ساعد على هذا الحرب والسلم معا "(١٥)، فمن الطبيعي والحالة هذه أن يزدهر هذا الفن العلمي على يد المسلمين في تلك المرحلة، وهو في ذلك تبع لازدهار قوة الدولة والأمة .. وكان الافتراض الطبيعي كذلك على غرار كثرة الرحلة ونفوذ الدولة إلى أقصى الشرق أن يتبعه توجه جديد لاكتشاف أراضي العالم الغربي .. ولهذا مّهد لهذه الخطوة بخطوات أسبق تمثلت في مسح جغرافي أوقيانوغرافي أو كوسموغرافي تلتها حركة الجيوش وطلائع الفتح الإسلامي.

يقول الباحث شمس الدين الكيلاني:" لكن العامل الحاسم في ازدهار الرحلات ، وبعث النشاط فيها إلى أوروبا، وغيرها من البلدان، هو تحول المسلمين إلى دولة كبرى، فرضت عليهم ضرورة التعرف على الذات والآخر

---

(١٥) أغناطيوس كراتشكوفيسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صاح الدين عثمان هاشم، طبعة جامعة الدول العربية ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م،ج١،ص: ١٩

المحيط بهم ، وعلى العالم .. "[١٦] ،ولهذا نلاحظ أنه لم يخل عهد دولة إسلامية مهما كان موقعها في خارطة العالم الإسلامي إلا ونبغ فيها من درس الغرب (البيزنطي أو الإفرنجي) وخبر مضاربه بشكل من الأشكال، ويندر أن يخلو كاتب من هذا الشأن ولو على سبيل الاقتباس والإشارة ..بداية من الأدب الجغرافي المتنوع وصولا إلى ما نسميه بالدراسات الاستراتيجية التي كتبها من يعرفون في تاريخنا بخبراء الشؤون الرومية (الغربية)، وانتهاءً بالمعلومات الكثيرة التي نستلها من الأدب الفقهي المتنوع أو مدونات السياسة الشرعية التي حوت مادة كثيفة عن فلسفة الأنظمة الغربية وطرق إدارتها للحكم وتسيير الشعوب.

مع الإشارة هنا أننا سنلاحظ أن التأليف في دراسة الغرب وتأمله في الدول الإسلامية الأولى، كانت تحكمه مستجدات الواقع وحلقات الصدام والصراع العنيف بين العالم الإسلامي والغربي، ولهذا نسجل ما يلي:

أولا: أن الكتابة عن الآخر (البيزنطي والإفرنجي) قد تأثر بواقع العالم الإسلامي مع الغرب المسيحي في مرحلة الحروب الصليبية وهذا التأثر سواء من حيث زيادة مادة التأليف عن الغرب أو نوعية المعلومات وقيمتها الاستراتيجية في تلك المرحلة .فمن الطبيعي، والحالة هذه أن نجد في كتابات "رحالة هذه الحقبة وما بعدها، صورة عن هذا الاحتكاك وتخيلاً للأوروبي الفرنجي في ظل هذا العراك المديد، فشهدنا رحلة ابن جبير والهروي وابن منقذ وما بعده ابن بطوطة، كما شهدت هذه الحقبة وما بعدها، تصنيفات لرحلة جغرافيين عن أوروبا كالإدريسي والبكري وابن سعيد المغربي

(١٦) شمس الدين الكيلاني ، مجلة الاجتهاد العدد ٥٢ السنة ١٣ ، ٢٠٠٢ م . ص: ٣٤٤

والغرناطي."[17].. وسنرى كيف أن منسوب التأليف في مقارنة الأديان قد زاد عن الفترات السابقة وذلك لكون الاحتكاك الإسلامي المسيحي في الحروب الصليبية اقتضت زيادة التعرف على الآخر والتعريف به وبعقائده وفلسفته ...

ثانياً: أن الدراسات العربية والإسلامية عن الغرب بعد الحروب الصليبية ، وفي فترة المماليك قد أدرجت ضمن إطار الأعمال الموسوعية الكبرى استهدفت بها أكبر قدر ممكن من شرائح المجتمع بعدما كان البحث في موضوع الغرب وشؤونه مقتصرا على سادة القوم ورجال الدولة "كموسوعة القلقشندي والعمري والنويري، جمع فيها أصحابها المعارف العربية الإسلامية، وضمت مكتسبات الرحلات في التعرف على الآخر، بما فيها أوروبا وكأنهم أرادوا بذلك أن يحفظوا ذاكرة الأمة، تقوية لجذورها بعد الاختراق الإفرنجي المفاجئ لبلادهم، وما ولّده من جرح لشعورهم بالتفوق والأمان وسنشهد مصنفات جمعت وقائع الرحلات وبوّبتها، كمؤلفات القزويني، ثم تأتي مؤلفات ابن خلدون على مشارف الانقلاب التاريخي الكبير، الذي سنشهد فيه صعود أوروبا في أقصى الغرب، مع نهاية فصول (حرب الاسترداد) والسيطرة النهائية على بلاد الأندلس مع سقوط غرناطة، واختراق العثمانيين لأوروبا من الشرق، بما تضمنته من خلاصة عربية لحال أوروبا في عصره، إذ ستبدأ بعده دورة جديدة من علاقات القوى بين أوروبا والعالم العربي الإسلامي، ستنتهي لصالح تأكيد السيطرة الغربية على العالم، عندها ستتبدل جذرياً زاوية الرؤية العربية لأوروبا وللعالم." [18]

ثالثا: أن الكتابة عن الآخر كل الآخر، بما فيه الغربي البيزنطي والإفرنجي، قد كان يحكمه منطق المبدئية العالية في الحضارة الإسلامية ،الذي يجعل من

---

(١٧) فيصل خرتش ، رحلات رافقت الحروب الصليبية ،جريدة الشرق الأوسط، الاربعاء ٢٧ جمادى الثاني ١٤٢٦ هـ ،٣ اغسطس ٢٠٠٥ العدد ٩٧٤٥ .

(١٨) المصدر السابق.

التعرف على الآخر لونا من ألوان العبادة، لا بقصد استيراد منتوجه المعرفي والمادي إن وجد ولكن بقصد توصيل الخير الذي بي أيدينا إليهم ،فقد" كتب فـي عصـر الحضـارة العربيـة الإسـلامية تصـانيف كثيـرة عـن العـالم غيـر الإسلامي، بما فيه أوروربا ، كما لو أن الشعور بالوحدة الداخلية التي تجمع الأمة الإسلامية، بما تحمله من ثقة بالذات ومعرفتها، قد نقل حب الاطلاع إلى الحدود ، فأمضت دار الإسلام ثلاثة قرون، من منتصف القرن السابع الميلادي حتى منتصف القرن العاشر، تعمل على اكتشاف تنوع البشرية تحت شعار وحدة رسالتها". (١٩)

لقد كتب الأوائل عن الغرب المسيحي بوعي مثقل بهموم المرحلة وضروراتها ، ولذلك لم تكن كتاباتهم مجرد نهم معرفي عابر، ولا ترف فكري يستوجبه الترويح عن النفس ، لم يكونوا يقصدون الغرائب ولا كانت تستهويهم الأساطير والمرويات التي تناقلها الشعوب فيما بينها، بقدر ما كان يحدوهم واجب نشر الخير للناس ..فرحلة ابن فضلان مثلا كانت مليئة بمناظراته للآخرين وأمره بالمعروف والخير ونهيه عن المنكر ،وسنرى فيما يلي ضخامة وحجم الاهتمام العربي الإسلامي بالآخر من خلال الكتابة عنه في مختلف المجالات.

---

(١٩) أندويه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر. الطبعة الأولى : منشورات وزارة الثقافة السورية .ج١ ، ص:٢١٠.

المبحث الثاني:
التأليف الإسلامي الإثنوجرافي عن الغرب المسيحي

تعتبر كتب المسالك والممالك أهم الكتب التي اهتمت بالأمم الغربية المسيحية حيث كانت تحتوى معلومات اثنوجرافية [٢٠]ضخمة وعلى قدر كبير من الأهمية والخطورة عن العالم المسيحي الغربي.. وقد استقى هؤلاء الرحالة معلوماتهم من المعاينة المباشرة في هذه البلدان التي زاروها بشخوصهم.

ويدخل في هذا المجال كل كتب المسالك والممالك والرحلات على اختلاف في بعض حيثياتها، فمنها ما يمكن أن يدخل في الجانب الإثنوغرافي مباشرة أي يغلب عليه التركيز على خصائص وطبائع الشعوب ومن ضمنها الأوروبية ومنها ما يغلب عليه الطابع الكوزموغرافي الذي يركز أكثر على الجانب الجيولوجي وإن كان كل كتب الرحالة والجغرافيين كوزموجيين بالطبع فمن الطبيعي أن يهتموا بوصف جغرافية المكان وطبيعتها، كما نجد الكثير من هذه الكتب والتآليف عن الأمم الغربية المتنوعة تحتوى مادة اثنولوجية ويظهر ذلك بجلاء حين عملت هذه الكتب على دراسة وتحليل ومقارنة ما جمعوه من معلومات اثنوغرافيا عن الشعوب التي زاروها.

ونسجل هنا أن الكتب التي كتبت حول تلك الأمم كانت أهمها من منطلق المعاينة والمعايشة المباشرة لتلك المجتمعات والدول. فابن بطوطة مثلا في رحلته الإثنوغرافي المتنوعة " استطاع أن يمتزج مع سكان البلاد التي وصلها عن طريق المصاهرات، وعن طريق الوظائف السامية التي تقلدها

---

(٢٠) يسعى هذا العلم إلى اعتماد منهج البحث الوصفي، أو منهج المسح معتمدا على الملاحظة المباشرة والمشاركة أحيانا، موجها عنايته للثقافات الإنسانية والظواهر الاجتماعية بالوصف الدقيق، وبهذا فالكثير من المستكشفين المسلمين وغير المسلمين قد قاموا بذلك تلقائيا دون أن يقصدوا التأسيس لهذا العلم.

والاتصالات التي كان يجريها مع مختلف الأوساط، الأمر الذي كان يرضي فضوله وتطلعاته المتنوعة والمتجددة في ذات الوقت "[٢١] ،وقد وصل في رحلته إلى أوروبا الشرقية وتحديدا إلى بلغاريا محاولا الدخول منها إلى ما يسمى بحر الظلمات.

ويمكن أن نرصد في هذا السياق كتاب رحلة ابن فضلان الذي يعتبر بحق أقدم الكتابات العربية عن أقصى الشمال الأوروبي، والذي يدل على مدى الاهتمام الذي كان يحمله ابن فضلان الذي جمع بين السفارة الرسمية والعلم في ضرورة معرفة العالم الأوروبي، وقد بدأت رحلته سنة ٩٢١هـ، فجمع من المعلومات الثقافية والاجتماعية والدينية عن تلك البلاد ما لم يسبق إليه حتى قال عنه المستشرق الألماني "فراهن":" إذا كان الغرب قد أغفل روسيا فإن العرب تحدثوا عنها، فألقى العرب أنوارا كثيرة على تاريخ الغرب القديم، وأدلوا بمعلومات وخاصة عن البلغار وروسيا في العهد البعيد".

وقد بلغ الرجل أعماق البلاد الإسكندنافية الممثلة في السويد والنرويج والدنمارك وآيسلاندا.. وعايش الفايكنج وكتب عن تناقضاتهم العجيبة ومعتقداتهم وثقافاتهم.. محققا بذلك أول سبق تاريخي اثنولوجي يقوم به مسلم إلى غاية القرن العاشر، حتى قال كريشون: "يعد مخطوط ابن فضلان أقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الاسكندنافي، وهو بذلك وثيقة فريدة من نوعها، تصف بدقة متناهية أحداثاً وقعت منذ ما لا يزيد عن ألف عام ." [٢٢]

---

(٢١) ابن بطوطة ،رحلة ابن بطوطة ، مقدمة المحقق ،أكاديمية المملكة المغربية ،الرباط ، ١٤١٧هـ، دط، دت، ج١، ص٨٩

(٢٢) مايكل كرايتون: أكلة الموتى ، ترجمة تيسير كامل – سلسلة روايات الهلال – ، الطبعة الثانية: ١٩٩٩م ، ص٨

كما أشار كل من ألف في هذا الفن إلى أحوال الروم والمماليك الرومية.. ونذكر منها المسالك والممالك لابن خرداذبه (ت ٢٨٠هـ/٨٩٧م)، المسالك والممالك للإصطخري (٣٤٦هـ) ، والمسعودي (ت ٣٦٤هـ) في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر، والمسالك والممالك للبكري (٤٨٧هـ). يذكر ابن رسته (ت٣٠٠هـ) في كتابه الأعلاق النفسية فقرات تتصل بشعوب أوروبا مثل وصف القسطنطينية وروما وتعاليق تهم الصقالبة والبلغار.."[٢٣]، وفي كتاب إسحاق بن الحسين المنجم (ت: ق ٤هـ) المعروف" بآكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان" وهو من كتب القرن الثالث الهجري كتب عن أوروبا والحروب السائدة فيها " وبدأ حديثه عن إيطاليا وفرنسا وبلاد الصقالبة السلاف). والبلغار، ويعكس هنا القلق الذي ساد أوروبا مع غزوات النورمانديين والهونغاريين..كما يصف قوة البيزنطيين وحروبهم مع الإفرنج ويقدم معلومات جديدة عن بلاد البلغار." [٢٤]

إننا نقف أمام اهتمام كبير من لدن العالم الإسلامي بالعالم الغربي من كل نواحي الحياة وتفاصيلها وقد كان للأدب الجغرافي في تلك المرحلة الفضل الكبير في تعريف العالم الغربي للمسلمين ،وصدق من قال "إذا كان الرحالة جغرافيين بالقوة، فإن الكثير من الجغرافيين كانوا رحالة بالفعل، وقد حفظوا لنا الكثير في مصنفاتهم من الرحلات كابن خرداذبة، وابن رستة، وابن الفقيه، والمروزي، المتأثرين بالمنهج اليوناني، لا سيما بمنهج بطليموس. أعقبهم في القرن الرابع الهجري، جغرافيون رحالة انطلقوا من منهجية عربية إسلامية

---

(٢٣) انظر: سعد غراب ،مقدمة المسالك والممالك للبكري ، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢ م ، ج١، ص:٢١

(٢٤) انظر: فهمي سعد، مقدمة التحقيق، كتاب آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، لابن اسحاق بن الحسين المنجم ،عالم الكتب بيروت الطبعة الأولى :١٤٠٨هـ.

أصيلة، تنطلق من دار الإسلام، مركز العالم، لتنتهي إليه، اعتمدوا في تصانيفهم على تجاربهم المعاشة كرحلة جوابي الآفاق، الإصطخري، ابن حوقل، والمقدسي، والمسعودي، قدم كل منهم على حاشية معرفته لدار الإسلام صورة عن أوروبا في عصره." [٢٥]

(٢٥) فيصل خرتش ، رحلات رافقت الحروب الصليبية ،جريدة الشرق الأوسط الاربعاء ٢٧ جمادى الثاني ١٤٢٦ هـ ٣ اغسطس ٢٠٠٥، العدد ٩٧٤٥

المبحث الثالث:

التأمل الاثنولوجي الإسلامي في العالم الغربي

إذا كانت الاثنولوجيا Ethnology التي هي فرع من فروع الانثربولوجيا تعني فيما تعنيه علم الثقافات المقارن.. تهتم بخصائص وإنجازات الشعوب وأحوالهم الحضارية المتنوعة، فإن ما قام به أسلافنا من العلماء في هذا المجال في دراستهم للشعوب الأخرى والحضارات المتعاقبة ومن ضمنها دراساتهم لثقافات ومعتقدات وسلوكيات الإنسان في الشطر الأوروبي يعتبر اجتهادا أنثروبولوجيا اثنولوجيا خالصا ..فالمادة الجغرافية التي نستلها من كتابات "ابن بطوطة وأسامة بن منقذ ابن جبير... وغيرهم عن طبائع هذه الشعوب التي حلوا وارتحلوا إليها تؤكد ذلك.

وليس غريباً ولا عجيباً أن تنبت هذه المحاولات في البيئة الإسلامية مبكرا، فإذا كانت الأنثروبولوجيا أو علم دراسة الإنسان أو علم الإناسة " مهمته الأساسية هي تمكيننا من فهم أنفسنا عن طريق فهم ثقافاتنا بالإضافة للثقافات الأخرى ، وينصب اهتمامه على عوامل الوحدة ، والاختلاف في المجتمع البشري ، لكي نقدر أن نفهم بعضنا " [٢٦] ؛ فإن الدراسات الإسلامية سباقة إلى تأسيس هذا الجانب المعرفي المهم ، "ونجد هذا في كتب الراغب الأصفهاني ، في تفصيل النشأتين ، والذريعة إلى مكارم الشريعة ،كما نجد في كتب ابن صاعد الأندلسي والبيروني والهمذاني وابن جبير وابن بطوطة ، وابن خلدون اهتمام بعادات الشعوب وأحوالها وتحليل الفروق بين الأجناس ..

---

(٢٦) ليث عبد الحسن العتابي ، الإنتربولوجيا الإسلامية " علم الإنسان الإسلامي " مجلة المسلم المعاصر ،السنة السابعة والثلاثون ،القاهرة ، العدد ١٤٨ ،ص:٢١٦ .

مما لم يتناوله علماء الغرب إلا بعد قرون عدة ."[٢٧]

بما معناه أن علماء المسلمين الرحالة الذين اهتموا بدراسة الشعوب كانوا أنثربولوجيين بالقوة والفعل بأتم ما للكلمة من معنى ، وقد مهدوا الطريق لتأسيس هذا العلم، ولكن أنثربولوجيتهم لم تكن لأهداف استعمارية وإنما لأغراض معرفية استخلافية، وقد تطور هذا العلم فيما بعد على يد الغرب ليوظفه في إطار فلسفته في استعمار الشعوب انطلاقا من نظامه المعرفي الذي يرتكز هو الآخر على فلسفة الصراع والهيمنة، ولذا عمدوا إلى إخضاع المجتمعات التي دخلت تحت نطاق دراستهم،" صحيح أن ظهور هذا العلم من حيث الاصطلاح الفني كان سبقا أوروبيا صرفا في بريطانيا سنة ١٥٩٣ م، وكان المقصود به دراسة الإنسان من جوانبه الطبيعية والسيكولوجية والاجتماعية " [٢٨] ، إلا أن مفهومه الحقيقي كان إسلاميا، ويتضح ذلك من خلال أعمال الانثربولوجيين الإسلاميين الأوائل، لما درسوا المجتمعات والأمم وعادات الشعوب وأصولها

وسنورد فيما يلي شيئا من التأليف والاهتمام العربي الإسلامي بأنثربولوجية الشعوب الأوروبية :

نجد الكثير من الشخصيات ألفت حول الأمم الغربية وركزت على وصف عاداتها وسيكولوجيتها وفلسفتها في الحياة وخطورة مخططاتهم، من هؤلاء ابن جبير(ت: ٦١٤هـ) وأسامة بن منقذ (ت ١١٨٨هـ) . أما الأمير أسامة بن منقذ رسول صلاح الدين وصديقه، فقد كتب عن أخلاقيات المجتمعات الصليبية في كتابه المشهور "بالاعتبار" ويصف جانب الانحراف الشاذ عن

---

(٢٧) جمال الدين عطية، نحو منظور إسلامي لعلم الإنسان ،بمجلة المسلم المعاصر، السنة ٣٧ ، العدد١٤٨ ،ص:٢٠٨

(٢٨) (٢٨)ليث عبد الحسن العتابي، الانثربولوجيا الإسلامية " علم الإنسان الإسلامي " ، مجلة المسلم المعاصر المرجع السابق

الفطرة فيهم... بقوله " وليس عندهم شي من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى" [٢٩].... ويضيف في موقع آخر "والإفرنج خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلاّ للفرسان ولا عندهم ناس إلا الفرسان فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم." [٣٠]

لم يكن من مقاصد التأليف عن الغرب تتبع السلبيات، فما وجدوه وصفوه، فكما وصف لنا أسامة بن منقذ حالهم من قبل، فقد وصف غيره الكثير من المظاهر الايجابية في الحياة اليومية للكثير من المدن. يقول صاحب كتاب الروض المعطار "وفي الإفرنج جمال، وأكثرهم بيض شقر وقد يوجد فيهم سمر وسود الشعور، ولهم عقول صحيحة، وفيهم كيد ودهاء وكبر وبأس شديد وقسوة، لا رأفة عندهم، ...، وهم أسخياء بطعامهم، ويأكلون في اليوم مرات، ويغتسلون ويتطيبون ويغسلون شعورهم بالصابون، ولهم حمامات يصنعونها لاستخراج فضول الأبدان بحجارة محماة يضعون عليها الكراسي ويصبون فوق تلك الحجارة الماء، فيرتفع لذلك بخار يسيل عرق الأبدان"[٣١] .

نسجل في هذا السياق الكثير من الملاحظات النقدية لما كتبه المؤرخون والرحالة والأدباء عن الظواهر الاجتماعية في البلاد الغربية في زمانهم، إذ يعيبون عليهم تركيزهم على الجانب الاجتماعي والأخلاقي، وعادة ما يوردون

---

(٢٩) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير : فيليب حتي ،الدار المتحدة للنشر بيروت لبنان ،١٩٨١ م، ص ١٥٤

(٣٠) المرجع ذاته ، ص ٨٧

(٣١) الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية دار السراج بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٠م،ص،٣٩١

توصيفات ابن منقذ السابقة وبعض ملاحظات ابن فضلان في أخلاق نساء الروم.. وإظهارهم نوع من اللامبالاة في شؤون القوم السياسية والعسكرية الإيجابية. وبالرغم من أن برنارد لويس يبرق بجواب عام من زاوية نظره فحواه أن القراءة والمتابعة الإسلامية الفاترة والضعيفة لقوة وطبيعة أوروبا بعد الحروب الصليبية سببها الانبهار، "بفكرة تفوقهم على الغرب معتبرين أنه ليس عند أوربا من جديد تقدمه لهم ويستأهل قيامهم بأي جهد للاستفادة مما قد تملكه في الجوانب الثقافية أو العلمية. وظلت تلك الفكرة، حسب قراءة لويس العامة، غالبة عند العرب والمسلمين برغم تقدم أوربا عليهم فيما بعد وتحقيقها لكثير من الإنجازات العلمية والفكرية، ليس في عصر النهضة الأوربية فحسب، بل وقبله وبعده كذلك"[٣٢].

وبغض النظر عن صحة هذا التحليل من عدمه، فإننا نسجل هنا الملاحظات التالية :

أولاً: أن التآليف والدراسات الإسلامية عن الشأن الغربي في مختلف جوانبه في الدول الإسلامية الأولى قد أخذ نصيبه جيدا، وإن ركز بدرجة أكبر على الجانب الاجتماعي الأخلاقي والثقافي دون غيره من الجوانب السياسية والعسكرية . صحيح أنه لم يصل إلى درجة التشبع في المجال السياسي رغم انه وصف طبيعة أنظمة الحكم في البقاع التي نزل فيها ، إلا أنه كان يعتبر مادة كافية إلى حد مقبول لفهم الآخر من كل جوانبه، فالاحتياج المعلوماتي والمعرفي عن الغرب كمجتمعات ودول كانت كافية إلى حد ما لتشكيل تصور عن هذا القسم من الأرض.

ثانياً: أن المادة العربية والإسلامية التي ألفت عن الغرب في زمن الحروب الصليبية مثل كتابات ابن منقذ وابن جبير.. كان من الطبيعي أن تتجه إلى تعرية الجانب الديني الصليبي في الآخر الذي كان يقود معركته التنصيرية

(٣٢) محمود حداد ، برنارد لويس يرد على برنارد لويس ، محمود حداد ، مجلة العربي العدد : ٥٤٠

بشراسة تحت غطاء ومسمى الحروب الصليبية ، وقد لاحظ ابن جبير وابن منقذ البعد الماورائي لهذه الهجمة، فقد ذكر" محمد مؤنس عوض من خلال عرضه للرحالة المسلمين ولا سيما عند وقوفه مع ابن جبير في رحلته وابن منقذ في كتابه أنهم أدركوا الدور الصليبي الخطر في تغيير هوية المنطقة وتحويلها عن الإسلام من خلال البعد التنصيري ، فابن جبير يذكر أنه بعد خضوع عكا لسيطرة الصليبيين فقد تحولت مساجدها " وصارت كنائس ، وصوامعها صارت محل أحد النواقيس، وفي مثل ذلك التعبير نجده يكشف بجلاء عن دور الصليبيين في تغيير هوية المنطقة الإسلامية ومحاولة تنصيرها... وابن منقذ يشير إلى خطورة البعد التنصيري كأحد أهداف المشروع الصليبي الذي رغب في تحويل مسلمي الشرق الأدنى إلى مسيحيين يدينون بالولاء لكنيسة روما وفق المذهب الكاثوليكي .. ولا مراء في أن رواية أسامة بن منقذ لها شأنها في ذلك المجال مع ندرة ما ورد في هذا الشأن ، في المصادر التاريخية العربية المعاصرة ".(٣٣)

ولاشك أن الكثير من معطيات واقع العالم الإسلامي اليوم نتج من جراء الغفلة عن تلك الدراسات التي ما فتئت تشير إلى خطورة بعض تلك المسائل، وقضية التنصير في المشروع الصليبي كان حجر الزاوية فيها. ولاشك أن الواقع الطائفي المعقد اليوم في لبنان هو إحدى خطيئات الحروب الصليبية التي قصر المسلمون في فهم نوايا الغرب فيها.

ثالثاً: أن الدراسات العربية والإسلامية المقدمة عن الغرب المسيحي في تلك الحقبة باختلاف طبيعتها ومنطلقاتها ركزت بشكل كبير على بنية المجتمعات وطبائعها ،ولم توجه اهتماماتها إلى بشكل زائد إلى وصف مؤسسات الحكم وسير الملوك وقوة أو ضعف أنظمتهم ،لأن الفلسفة المعرفية التي كانت تحرك

---

(٣٣) أنظر :علي بن إبراهيم الحمد النملة ، التنصير ، مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته ، الطبعة الثانية ،١٤١٩ هـ ،ص ٢٣ .

هذه الكتابات كان توجها يرى في طبيعة المجتمع بسلبياته وايجابياته مرآة نظام الحكم ومخرج من مخرجاته. مع إشارة أخرى إلى أن أغلب الأنظمة الأوروبية في ذلك الوقت كانت أنظمة موبوءة لا تقل عن تلك الكيانات المريضة في بعض أقطار العالم الإسلامي، فكان الاتجاه والتركيز على الظواهر الاجتماعية والدينية والثقافية أجدى وأقوم لكسب معارف أوفر عن البنية الاجتماعية والثقافية لهذه الشعوب.

وقد التقط هذه الملاحظة الاستراتيجية "فولتير" كبير المصلحين في الغرب، ولذا لم يقصر جهده في محاولة إعادة توجيه عجلة البحث التاريخي وتوجهات الرحلة الأوروبية إلى العالم الإسلامي حيث " اتهم المؤرخين بأنهم لا يهتمون إلا بالانكباب على دراسة أعمال وأخلاق وتصرفات الملوك قائلا :" إن المؤرخين يشبهون بعض المستبدين الذين يتحدثون عنهم : إنهم يضحون بالجنس البشري لحساب فرد واحد " ..ويعلق هنري لورنس على هذا قائلا :وفي مجال الاستشراق، ربما تحت تأثير أدب الرحلات ، يجري بسرعة تحسس الآثار الضارة المترتبة على مثل هذا الموقف .فيجري السعي إلى تأليف كتب مكرسة على وجه الحصر لعادات ولحضارات بلدان الشرق "(٣٤)

وفي الأخير نشير إلى بعض تلك المؤلفات التي أعطت اهتماما كبيرا للغرب، وتأملته تأملا يدل على رغبة ملحة في كسب معارف أكثر عن هذا الجزء من العالم، كتابات القزويني (٦٠٥ هـ / ٦٨٢): ففي مؤلفه "آثار البلاد وأخبار العباد " يذكر عن الأمم الأوروبية الكثير من المعلومات خاصة في الإقليم الخامس والسادس. إذ كلما ذكر مدينة إلا ويذكر معها أهم أخلاق العباد فيها، وأحصى عددا من المدن الأوروبية مثل رومية والقسطنطينية ،

---

(٣٤) هنري لورنس ،الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا: ١٦٩٨ـ ١٧٩٨ م،ترجمة بشير السباعي،دار شرقيات للنشر والتوزيع القاهرة ،الطبعة الأولى: ١٩٩٩م،ص

وأبولده، وايرلندا فمثلا يقول عن إفرنجة بلدة عظيمة ومملكة عريضة في بلاد النصارى.. في آخر غربي الإقليم السادس. ذكر المسعودي أن بها نحو مائة وخمسين مدينة. قاعدتها باريس وأهلها نصارى. ولهم ملك ذو بأس وعدد كثير وقوة ملك.. وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء، ويرون الموت دون ذلك. لا ترى أقذر منهم وهم أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ لبسوها إلى أن تتقطع.." (٣٥)

(٣٥) القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر بيروت ، دط، دت.ص ٢٠٤

المبحث الرابع:
التأليف الكارتوغرافي الإسلامي عن الغرب

لم يغفل علماء الإسلام البحث عن الغرب ودراسته مستعينا بفن التصوير الخرائطي أو ما يطلق عليه "علم الكارتوغرافيا" لكون هذا النوع من البحث العلمي يسهل الوصول إلى الأهداف بسهولة.. وقد استعان الفاتحون في الدول الإسلامية بالخرائط والخبراء للوصول إلى فهم جغرافية الآخر وتوصيفها وصفاً دقيقاً.

ويعتبر كتاب الإدريسي:" **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** " أول هذه المؤلفات التي تؤسس لهذه المنهجية، فقد فرض الاحترام لقرون متتالية في كبرى الجامعات الأوروبية والأمريكية، وكان بحق في زمانه اسما على مسمى. إذ اخترق الآفاق الأوروبية ووصفها وصفا دقيقا باعتماده على ما شاهده هو عيانا أو من خلال المقابلات الموثوقة، تعرض الكتاب إلى ذكر أجزاء مهمة من جغرافية الغرب ذكر فيها أوروبا الغربية وانجلترا وفرنسا استونيا وفنلندا وصقلية... وتعتبر جهود الإدريسي ١١٦٠ - ١٠٩٩ م في التعرف على أوروبا ورسم خرائط تفصيلية لها أول جهد عربي إسلامي متكامل المعالم (بتمويل غربي مسيحي) استطاع أن يوصف بتلك المواصفات العلمية الدقيقة هذا الجزء من العالم . حتى قال عنه صاحب قصة الحضارة: " وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط في العصور الوسطى، لم ترسم قبلها خرائط أتم منها، أو أدق، أو أوسع وأعظم تفصيلاً." (٣٦)

هذا الإبداع الإدريسي الكارتوغرافي في دراسة العالم هو أحد الدراسات

---

(٣٦) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود ، دار الجيل بيروت، ١٩٨٨م، ج١٣، ص٣٥٨

الإبداعية المهمة والمتأملة ليس في الغرب فقط ، وإن كان تركيزه واهتمامه بالعالم الغربي في كتابه وخرائطه قد فاق المتوقع في زمانه، يقول المستشرق الإسباني بالنثيا "أن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة في الغالب، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التي تسكنها شعوب نصرانية ".(٣٧)

بقي أن نقول إن الإدريسي ترجم الأوامر القرآنية بالسير في الأرض ومعرفة جغرافية وحضارة العدو قبل الصديق... ترجمة خرائطية كاتوغرافية لم يسبق إليها في تاريخ الإنسانية. حرك فيه آليات البحث والنظر الدقيقة حتى جعلها تتوافق مع سنن الله في الأرض توافقا استثمره في تحقيق مطلب "ابتغاء القوم" مع منطق "ولتستبين سبيل المجرمين" استبانة شاملة من كل المناحي، ولذلك كان عمل الإدريسي العلمي أحد أهم المنجزات الإسلامية في ذلك الزمان، وهكذا "عندما يكون البحث العلمي اقترابا من سنن الله يزول التنافر بين الجانبين.. ، فلا يكون العلم لأجل الفهم والتنبؤ فحسب، ولا لأجل التذكرة والتفكر والاعتبار فحسب ،بل لأجلهما معا، فالله عزوجل أقام هذا الكون على سنن ليكون عونا للإنسان على خلافته في الأرض، وخلافته في الأرض تصديق بالغيب وعمل بالشرع، والكون عون له على شطري الخلافة، فهو عون له على التصديق بالغيب عندما يعتبر بآياته وسننه، وعون له على العمل بالشرع عندما يسخرهما لفعل الخير ونشر الحق والعدل والسلام ".(٣٨)

وصنيع الإدريسي الفقيه قبل الإدريسي الجغرافي كان يترجم الحس الحضاري لسيدنا عمر رضي الله عنه، حين بعث إلى أحد حكماء المسلمين

---

(٣٧) أنظر: محمد عبد الغني، الشريف الإدريسي أشهر جغرافي العرب والإسلام، سلسلة أعلام العرب، رقم ٩٧، الهيئة العليا للتأليف والنشر، د.ن، ١٩٧١، ص ٧٦-٧٧ نقلا عن موقع الألوكة ..

(٣٨) أنظر: محمد عز الدين توفيق ، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية ،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٢م ،ص: ٨١

في العراق والشام ومصر يقول له " إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ويريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار فصف لي المدن وأهميتها ومسالكها، وكيف تؤثر الترب والأهوية في سكانها". (٣٩)

لم يكن الإدريسي النموذج الوحيد في تاريخنا فقد نبغ آخرون تركوا بصماتهم في دراسة الآخر جغرافيا، باكتشاف المزيد من أرضيه ومضاربه، فمثلاً في زمن الدولة العثمانية "يظهر اسم الريس بيري في زمن السلطانين سليم الأول، وسليمان القانوني، وكان الريس بيري، قائداً للبحرية العثمانية، وعالماً جغرافياً فذاً، ولد عام ١٤٦٥م وتوفي عام (١٥٥٤م)، كان هذا العالم الجغرافي رائداً من رواد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني وله في هذا المضمار خريطتان هامتان، الأولى لإسبانيا وغرب أفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية من الأمريكيتين.. وهذه قدّمها إلى السلطان سليم الأول في مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إستانبول (٦٠×٨٥سم) وعليها توقيع الريس. والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (٦٨×٦٩سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو بإستانبول أيضاً.والجدير بالذكر أن الخريطة التي رسمها الريس بيري لأميركا هي أقدم خريطة لها." (٤٠)

ويضيف الدكتور الصلابي في كتابه :" في ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأميركية ندوة إذاعية عن خرائط الريس بيري، اتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط الريس

---

(٣٩) عبد الفتاح محمد وهيبة ، مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٩ م، ص ١١

(٤٠) محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر ، الطبعة الأولى :٢٠٠١، ص ٥٠٣

بيري لأمريكا: (اكتشاف خارق للعادة).وقد كان الريس بيري على معرفة بوجود أمريكا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب البحرية : (إن بحر المغرب – يقصد المحيط الأطلسي – بحر عظيم، يمتد بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغار سبته. وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارة هي قارة أنتيليا)، وتعبير قارة أنتيليا هي الدنيا أو أميركا. وقد كتب الريس أن هذه القارة اكتشفت عام (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) أي قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي ٢٧سنة " (٤١)



خريطة الريس بيري عن أوروبا والعالم الإسلامي

(٤١) محمد علي الصلابي، المرجع ذاته ،ج٢،ص١٥٦

لا نطيل البحث أكثر ونكتفي بهذا القدر من الإشارات للاستدلال على أن أجدادنا درسوا الغرب من كل المناحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ،ولم يكن نهمهم المعرفي مسقفا بذلك القدر من المعرفة عنه فقط ، وهم الذين أذن لهم أن يخترقوا وينفذوا من أقطار السماوات والأرض، فطفقوا إلى البدء في أقطار الأرض ونخلوها نخلا من خلال علم الكارتوغرافيا أو التصوير الخرائطي حتى يسهلوا على الدولة كما الأفراد الحركة إلى تلك البقاع لنشر الرسالة والخير فيها. والكل يعرف أن البحرية الإسلامية العثمانية، ما كان لها أن تتفوق وتتربع على سيادة البحار والمحيطات في العالم، لولا دراستها وامتلاكها لهذا المخزون الاستراتيجي من المعلومات عن السواحل الأوروبية وغيرها، وهذا أحد أسرار سيادة هذه الخلافة على العالم في القرون الماضية .

وقد تطور هذا الفن فيما بعد وازدهر بعيدا عن أعيننا واستغنينا عنه فيما التقفه غيرنا ليدخل الاستعمار أقطار العالم الإسلامي ويتأبطها بلمح البصر استعانة بهذه الدراسات الكارتوغرافية التي تعلموها من الحضارة الإسلامية، ويكفي أن نشير إلى أن "عمليتين عسكريتين أثناء الحرب العالمية الثانية، وعلى جبهتي شمال إفريقيا وساحل نورماندي بفرنسا استخدمت حوالي ٨٠ مليون خريطة بلغ وزنها ٣.٩٩٠ طن"[٤٢]، وبهذا نتأكد أن الحركة الواعية - أي حركة - تفتقد على الأرض إلى فلسفة الكارتوغرافيا ستفقد الكثير من الوقت والجهد والطاقات ، لقد آن الأوان لتوظيف هذا الفن كأحد الميكانزمات الاستغرابية المهمة، والتي تساعد على فهم وتحليل أي ظاهرة من الظواهر في

---

(٤٢) .أنظر : مقال بعنوان البعد الكاتوغرافي، موقع :
www.onefd.edu.dz/infpe/٢MEF/cours-Pdf-٢mef/.../L٢-ENV٢-GEO.pdf

الغرب مهما كان نوعها بطريقة رقمية فائقة الدقة والسرعة تساعد على التساؤل والتحليل والمقارنة وبسرعة ". [٤٣]

لو فتحنا على سبيل المثال في "الاستغراب الكارتوغرافي" ملف الجماعات المؤثرة في القرار السياسي الغربي، واستعنا بمؤشرات كارتوغرافية الجماعات، وحاولنا أن نركز على الجماعات اليهودية والمسيحية (الإنجيلية مثلا) المتواجدة في أمريكا وأوروبا؛ فإننا سنحتاج إلى مسح كارتوغرافي نحصي من خلاله أماكن تواجد وتمركز هذه الجماعات ونقاط قوتها وضعفها وعلاقاتها السياسية ونفوذها وقوتها الاقتصادية في إطار ما يعرف " **باقتصاديات الجماعات**"، ثم العمل بعد ذلك على تحويل الكم الهائل من الأرقام والمعلومات المستخلصة عن هذه الجماعات إلى منتج كارتوغرافي استغرابي هدفه الحصول على معلومات جديدة عن هذه الظاهرة في الغرب وتأثيرها على القرار السياسي .

وفي الطرف المقابل نستطيع أن نقوم بإعداد خرائط كارتوغرافية عن أماكن تمركز الأقليات الإسلامية في المجتمعات الغربية تمهيدا لدراسات علمية أعمق لها علاقة بمشاريع حضارية تخص مستقبل الجاليات الإسلامية .. وهذا ما يساعد على سلاسة الحركة الدعوية في الغرب والتمكن من تحريك عناصر القوة فيها إلى المناطق الرخوة في المجتمعات الأوروبية والاستفادة منها.

وكذلك لو أردنا أن ندرس ظاهرة اجتماعية في الغرب، مثل ظاهرة بيوت العجزة في أوروبا لتقدير حجم التفكك الاجتماعي في دولها؛ فإنه باعتمادنا

---

(٤٣) أنظر موقع :- www.onefd.edu.dz/infpe/٢MEF/cours-Pdf-٢mef/.../L٣-ENV٣-GEO.pdf

على هذا العلم سنتمكن من جمع المعلومات والانتهاء من الخارطة الرقمية في زمان قياسي جداً. كما لو أردنا أن نحصي مثلاً مواقع وعدد المراكز العلمية في القارتين الأوروبية والأمريكية، فإن استعمال تقنيات الكارتوغرافيا كفيلة بمسح سريع لكل تلك الأماكن. وهكذا فإن أجدادنا درسوا الغرب ورسموه وفحصوه فحصا دقيقا لغرض التعرف عليه وفهمه، وأي مشروع استغرابي مهما كان حجمه وقيمته ومخرجاته فإنه حتما سيكون استمرارا لخطواتهم الأولى.

المبحث الخامس:

عينات من خبراء شؤون الغرب في الدول الإسلامية الأولى

لم يكن الاهتمام العربي والإسلامي بالتأليف عن العالم الغربي مقتصرا على طلائع الرحالة الجائلون في المشرق والمغرب، كما لم يقتصر الأمر على أولائك الذين لهم باع في السفر والسفارة فقط ، إذ هناك نوع من التأليف في تاريخنا لم يسلط عليه الضوء بالرغم من أن أغلب من كتب من الرحالة والمؤرخين يحيلون إلى أعمالهم أو خبرتهم وقلما يستغنى عن إفاداتهم .. ذلك هو مجال" سير **الثغور**"، والثغور كل مكان قريب من أرض العدو وجغرافيته سواء من ناحية البحر أو البر، ثم أصبحت تعرف باسم "**الثغور الرومية** " إشارة إلى كل منطقة قريبة من أرض الروم.

يعتبر عادة شيوخ الثغور الرومية من أهم المحللين والخبراء الاستراتيجيين بشؤون "الأوضاع الرومية " في زمانهم وكانت كتاباتهم عن الغرب الرومي تعد بمثابة وثائق ودراسات استراتيجية لا يمكن التغافل عنها. وقد حضي هؤلاء بقدر من التبجيل والاحترام باعتبارهم " من أهل الثغور" حيث قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى:(قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩. " (٤٤)

تحفل كتب التراجم بأسماء الكثير من المؤلفين والملاحظين او المتابعين

---

(٤٤) أنظر: شيخ الإسلام ابن تيمية، الفتاوى الكبرى ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى :١٩٨٧م، ج٢٨، ص٤٤٢

لشؤون العالم الغربي في الدول الإسلامية الأولى .. ولعل أحد هؤلاء الذين كانوا يكتبون بمنطق " **اعرف عدوك** " كما يقول المحقق إحسان عباس، مسلم بن أبي مسلم الجرمي، ومنهم أيضا الكاتب الأسير المعروف باسم هارون بن يحيى الذي اعتمد الكثير من المؤرخين والمؤلفين عن الروم رواياته ومعايناته الشخصية، ومن المؤلفات التي اهتمت بذكر أحوال الروم وتتبعها وتقصيها فضلا عن خبرته بأحوال أهل الثغور من المسلمين كتاب سير الثغور، لأبي عمر وعثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوسي ، وقد ذكره المحقق إحسان عباس في كتابه المشهور "شذرات من كتب مفقودة في التاريخ "(٤٥) .

ومنهم أيضا أبو اسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين، يصفهما صاحب "الروض المعطار في خبر الأقطار" بأنهما شيخا الثغور الشامية ، إذ لا يقوم خليفة المسلمين بحركة في بلاد الروم إلا باستشارتهما وأخذ خبرتهما في أهل الروم وديارهم ومسالكهم وأحوالهم وشؤونهم العسكرية ، وقد كانا مستشارين لهارون الرشيد رحمه الله في شؤون الثغور الرومية، وكانا معه في فتحه لمدينة هرقلة المشهورة" (٤٦). والذي يظهر من تراجم هؤلاء وقدراتهم التحليلية والاستشرافية في شؤون الغرب أنهم من علماء الإسلام الأجلاء المشهورين بالورع الشديد ..حتى قال مؤلف "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "وقال:" كان أربعة في زمانهم:

واحد: لا يقبل من الإخوان ولا من السلطان، وهو: يوسف بن أسباط ؛ ورث سبعين ألف درهم فما أخذ منها شيئاً، وكان يعمل الخوص بيده. والثاني: كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً، وهو: أبو إسحاق الفزاري؛ فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون، والذي يأخذه من

---

(٤٥) أنظر: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ ، إحسان عباس ،درا الغرب بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٨٨.

(٤٦) انظر : الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، مرجع سابق، ص ٥٩٣

السلطان يخرجه إلى أهل طرسوس (طرسوس كانت من أهم الثغور الرومية). والثالث: كان يقبل من الإخوان، ولا يقبل من السلطان، وهو: عبد الله بن المبارك.والرابع: كان يقبل من السلطان ولا يأخذ من الإخوان، وهو: مخلد بن الحسين، وكان يقول: السلطان لا يمنّ، والإخوان يمنّون! ".[٤٧]

وسنذكر هنا نموذجا إضافة إلى النماذج السابقة عن تلك الكتابات وأهميتها في تزويد الوعي والعقل الإسلامي بالمعطى الجغرافي الغربي ومكوناته السياسية والثقافية والعسكرية والاقتصادية، وهي إشارات وتنبيهات لها دلالاتها إلى المدى الذي تركه هذا الموضوع في العقل الإسلامي وهو يتشوف إلى معرفة الآخر/ الغربي القريب من جغرافيته.

ومن أشهر هؤلاء الذين يصح فيهم مصطلح "خبير الدراسات الاستراتيجية الغربية ومحلل شؤون الروم " في زمانه المشهور بمسلم بن أبى مسلم الجرمىّ قال عنه المسعودي في التنبيه والإشراف أنه " أنه كان ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها، وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم، وبلادهم وطرقها ومسالكها، وأوقات الغزو اليها والغارات عليها، ومن جاورهم من الممالك من برجان والابر والبرغر والصقالبة والخزر".[٤٨]

يستشهد به ابن خرداذبه وغيره من الرحالة والمؤلفين كثيرا في كتبهم باعتباره خبيراً ومحللاً لشؤون الروم. وسنذكر له هنا مثالين للدلالة على دربته وخبرته الدقيقة بأمر الثغور الرومية:

أولاً: "وذكر أن مسلم بن ابى مسلم الجرمىّ قال إن أعمال الروم التى يولّيها الملك عمّاله أربعة عشر عملاً منها خلف الخليج ثلثة اعمال أوّلها عمل

(٤٧) انظر: في الهامش : أحمد بن يحي بن فضل الله القرشي العدوي تقي الدين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي أبو ضبي الطبعة الأولى : ١٣٢٣هـ ،ج٨، ص١٢٨

(٤٨) المسعودي، التنبيه والإشراف، دار الصاوي القاهرة ،دط،دت، ص ١٦٢

طافلا وهو بلد القسطنطينيّة وحدّه من المشرق الخليج الى بحر الشأم ومن المغرب السور المبنىّ من بحر الخزر الى بحر الشأم وطوله مسيرة اربعة ايّام وهو من قسطنطينيّة على مسيرة يومين ومن الجنوب بحر الشأم ومن الشمال بحر الخزر، والعمل الثاني خلف هذا العمل هو عمل تراقية وحدّه من المشرق السور ومن الجنوب عمل مقدونية ومن المغرب بلاد برجان ومن الشمال بحر الخزر وطوله مسيرة خمسة عشر يوما وعرضه مسيرة ثلاثة ايّام وفيه عشرة حصون، والعمل الثالث عمل مقدونية وحدّه من المشرق السور ومما يلى الجنوب بحر الشأم ومن المغرب بلاد الصقالبة ومن الشمال برجان وطوله مسيرة خمسة عشر يوما وعرضه مسيرة خمسة ايّام وفيه ثلاثة حصون ودون الخليج احد عشر عملا عمل أفلاجونية". [٤٩]

ثانياً: ومما يدل على كونه خبيراً استراتيجياً بالمعنى الحديث للكلمة معرفته الدقيقة بمضارب الروم وتفاصيل أيامها على مدار كل أيام السنة معرفة تربو عن تلك التي يعرفها أهلها عنها .. حتى قال ابن خرداذبه وهو مقتبس منه "مما يعرفه أهل الخبرة من **الثغريّين** أن تقع الغزاة التي تسمّى الربيعيّة لعشرة أيّام تخلو من أيار بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابّهم وحسنت أحوال خيولهم فيقيمون ثلاثين يوما، وهى بقيّة أيار وعشرة من حزيران؛ فإنهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكنا، وكأنّ دوابّهم ترتبع ربيعاً ثانياً ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً، وهى بقيّة حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلو من تموز، فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوما."[٥٠]

(٤٩) ابن خرداذبه، المسالك والممالك ، دار صادر أفست ليدن، بيروت، ص: ١٠٥

(٥٠) المرجع ذاته ،ص: ٢٥٩

المبحث السادس:

كتابات مقارنة الأديان مدخل التعرف على الآخر في الدول الإسلامية الأولى

فهم أسلافنا أن الأديان مدخل استراتيجي لفهم العقل الغربي، ولذا فقد تشكل هذا الاتجاه مبكرا في تاريخنا الإسلامي مع البدايات الأولى للاحتكاك بأهل الديانات الأخرى المسيحية واليهودية على وجه الخصوص، وقد تمثل هذا الاتجاه في كوكبة من العلماء في الدول الإسلامية الأولى مثل : ابن حزم، الشهرستاني، والمسعودي، وابن تيمية، والجاحظ ، وأبو عيسى الوراق في كتابه الرد على الفرق الثلاث، والجاحظ في الرد على النصارى، والقاضي عبد الجبار في الفرق بين الأديان، وأبو منصور البغدادي في الملل والنحل ، وأبو الريحان البيروني، والنوبختي في كتابه الآراء والديانات، والمسبحي في كتابه دار البغية في الأديان والعبادات،. الباجي في كتابه "جواب القاضي الباجي على رسالة راهب من فرنسا إلى المقتدر بالله صاحب سرقسطة "... وكم تمنينا لو تتوج هذا الاهتمام بتوليد شعب معرفية جديدة تحتضن فكرة دراسة الغرب ،كما ولدت الإنثربولوجيا *Anthropology* من الاستشراق ..

ومهما يكن من أمر؛ فإن حصيلة هذه الدراسة، وثمرة ذلك العلم ساهمت بشكل أكبر في التعرف على العالم الغربي أكثر فأكثر. وكان رصيدهم في هذا المجال المعرفي إضافة نوعية إلى رصيدهم ووعيهم السياسي والفكري والثقافي بالمجتمعات الغربية ..وقد ساهمت هذه المعرفة بالآخر الديني في تحسين العلاقة مع مختلف الملل والنحل التي كانت تسكن بين ظهراني المسلمين، أو تلك التي كانت تساكن حدود الجغرافيا الإسلامية ، حتى أرجع بعض الغربيين نشوء علم مقارنة الأديان إلى هذا المقصد بصورة من الصور.

وأنقل هنا ما كتبه آدم متز المستشرق الألماني في كتابه القيم الحضارة الإسلامية ١/٧٥، يقول متز إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين

أوروبا، التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين يتمتعون بنوع من التسامح .. مما أوجد أول الأمر نوعاً من التسامح، الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم."(٥١)

لقد كان علماء مقارنة الأديان بمثابة خبراء في الأوضاع والشؤون الدينية لأصحاب هذه الملل وبلدانهم، ولم تقتصر معرفتهم على مجرد الردود والمناظرات ، وإن اعترفنا هنا أن علم الأديان على كثافة مادته، وكونه الأقدر على فهم الآخر من خلال دينه، لم يوظف توظيفا معرفيا كما يجب في فهم الغرب، وبقي حبيس دائرة علم مقارنة الأديان ومناظراتها ... ولم يستثمر كما ينبغي في دوائر أخرى، وفوتوا بذلك فرصة التأسيس لهذا النوع من الدراسات، وإن سجلنا هنا أن هناك استفادة كبيرة لهذا لتخصص في مواقع أخرى في فهم الآخر ،ولكن من طرف الأوربيين حيث خطو به خطوة أكبر، فكان القناة التي تم عبرها ومن خلالها التعرف على العرب والمسلمين ... ولاشك أن أغلب المستشرقين قد استثمروا في مقارنة الأديان واتخذوها قاعدة لفهم الشرق.

يقول فرانز روزنتال Franz Rossental "إن الغرب يعترف اليوم صراحة بأن الدراسة المقارنة للأديان تعدُّ واحدة من الإنجازات العظيمة للحضارة الإسلامية، أسهمت في التقدم الفكري للإنسانية كلها، وأقرتْ بذلك دائرة المعارف البريطانية."(٥٢)، لقد كان علم مقارنة الأديان في العالم الإسلامي بمثابة ناقل صادق لوضع الدين وموقعه في عقل الآخر المسيحي

(٥١) آدم متز ،الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة: ، ١٩٩٤م،ج١ ،٧٥ ص٧٥

(٥٢) المرجع السابق ، ج١ ،ص ٧٥

وواقعه، كما كان النافذة والقناة التي نقلت لنا الكثير من المعطيات الدينية عن الأمم الأخرى، وهذا مورد من الموارد المهمة في فهم الظاهرة الغربية من خلال المنظور الديني، وقد "أشار البيروني إلى أن الوصول إلى الموضوعيّة العلميّة في الكتابة عن الآخر ليست بالأمر الهين، وتكاد تعدّ ضرباً من المستحيلات، لكنها ممكنة. وتناول البيروني أسس المنهج العلميّ لدراسة الدين، ذاكراً أنَّ هذا العلم يمثّلُ نوعاً من أنواع الخبر، مقارنًا بين الخبر والكتابة، وعدّ الكتابة العلميّة عن الأديان الأخرى جزءاً من الخبر عنها؛ إذ في رأيه: "لولا خوالد آثار القلم"، لما تيسر لنا، "العلم بأخبار الأمم". (٥٣)

لقد استطاعت مؤلفات علماء الإسلام في مقارنة الأديان نقل واستيعاب ودراسة معالم الجغرافية العقدية في العالم الإسلامي والغربي على السواء، من خلال متابعة حقيقة المسيحية ومساراتها في ديار الإسلام وديار الغرب البيزنطي والإفرنجي تتبعا تجاوز حدود النقل إلى تحليل المضامين المعرفية والسياسية والثقافية لهذه العقيدة. ولهذا نفهم أن علماء الأديان في الإسلام لم يكونوا مجرد رواة أو محاورين ومناظرين فقط، بل كانوا خبراء بأتم ما للكلمة من معنى في هذا الجانب عن المسيحية وما يرتبط بها في مجتمعاتها .

---

(٥٣) أنظر: عبد الرزاق عبدالله حاش ، علم مقارنة الأديان بين سؤالي المفهوم والموضوعية: دراسة تحليليّة مقارنة ،إسلامية المعرفة ، ص ٦٧ ، ص٨١

المبحث السابع:
تأمل الغرب ودراسته في الأدب الفقهي الأول.

المدقق في كتب الفقهاء أو ما يسمى بالأدب الفقهي في الدول الإسلامية الأولى يجد فيه مادة دسمة عن الآخر المسيحي سواء تلك الأقليات التي تعيش ضمن نطاق الجغرافيا الإسلامية أو تلك التي تقطن فيما يسميه الفقهاء في اصطلاحاتهم الأولى (دار الحرب، دار الكفر، دار الشرك)، في مقابل دار الإسلام، ودار العهد أو الصلح، والظاهر أن هذا التقسيم الفقهي لجغرافية العالم الغرض منه التمييز بين البيئة الإسلامية وبين البيئات الأخرى التي تخرج عن نطاق السيادة الإسلامية "وانطلاقاً من ذلك يمكننا القول بأنّ هذا التقسيم للمعمورة ظهر كوسيلة ضرورية لمعالجة العلاقات الدولية القائمة بين الدولة الإسلامية والدول المحيطة بها أي أنه كان بمثابة لازمة فقهية واجه بها الفقهاء ضرورات الواقع .."(٥٤)

انطلاقا من هذا التمييز والمحددات الاصطلاحية استطاع الفقهاء أن يدرسوا العالم الغربي المسيحي ويفردوا له أحكاما خاصة، والذي يهمنا في هذه الدراسة ليس جدوى المصطلح اليوم من عدمه، فقد صيغ في مرحلة كانت لغتها تختلف عن هذه المرحلة، و إنما البحث في حجم ورؤية الفقهاء وتأملهم وحتى كتاباتهم عن هذا الجزء من المعمورة انطلاقا من رؤيتهم لدراسته وفهمه. فهل وجد حقا تأليف فقهي يعنى بدراسة الغرب؟ ، وإن لم يكن هناك تآليف مفردة بدار الحرب مباشرة، هل يمكن أن نستل من كتب الفقهاء ما يدل على أنهم درسوا الغرب (البيزنطي والإفرنجي) وخبروا طبيعته في حدود المعطيات والضرورات التي كانت تعنيهم انطلاقا من تخصصهم؟ .

---

(٥٤) انظر: ياسر لطفي العلي ، الجغرافية الفقهية للعالم من جغرافية التاريخ إلى جغرافية الواقع ، مجلة إسلامية المعرفة العدد ٤٥ ،ص ١٠٠

المتفحص في مادة الفقه، وفي أبوابها المتنوعة التي لها علاقة مباشرة بموضوع الآخر خارج نطاق الجغرافيا الإسلامية، بحكم أن العقل الفقهي كان على دراية بمعطيات المسألة الغربية المسيحية بعمق يتجاوز حدود التسطيح والتبسيط ، إدراكاً وصل إلى حد التنظير الفقهي في مسائل فلكية تقع في نطاق الجغرافيا الأوروبية، جاء في كتاب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي للإمام فخر الدين الزيعلي الحنفي (ت: ٧٤٣ هـ) :"ويذكر أن بعض أهل بلغار (بلغاريا)لا يجدون في كل سنة وقت العشاء أربعين ليلة فإن الشمس كما تغرب من ناحية المغرب يظهر الفجر من المشرق "[٥٥] ، وفي كتاب رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين " "**مطلب في فاقد وقت العشاء كأهل بلغار**" .. وهي مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال شديدة البرد .. (قوله: فإن فيها يطلع الفجر قبل غروب الشفق) [٥٦]

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الغالبية العظمى من الرحالة والمؤرخين الذين كتبوا عن الإفرنج والروم في مختلف مراحل تاريخنا الإسلامي كانوا فقهاء وقضاة وعلماء، فإننا لا نتفاجأ حين نعثر في كتاباتهم عن مادة فقهية وافرة ساهمت في فهم طبيعة الجغرافيا الفقهية لتلك المجتمعات، وبغض النظر عن الخلاف الحاصل من التقسيم الفقهي القديم للعالم؛ فإن المادة التي تناولها الفقهاء فيما يخص أحكام دار الحرب التي يدخل في نطاقها الجغرافي العالم الأوروبي في ذلك الوقت كانت على قدر كبير من الفائدة فهي مادة تجمع مع معلوماتها الفقهية التحليلية مادة أخرى لا تقل أهمية عنها تمثلت في تنوع المادة الاثنولوجية عن تلك المجتمعات مابين السياسة والاقتصاد والاجتماع

---

(٥٥) انظر : فخر الدين الزيعلي الحنفي ،كتاب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، المطبعة الكبرى الأميرية القاهرة الطبعة الأولى ١٣١٣هـ ،ج١،ص٨١.

(٥٦) انظر، ابن عابدين ، رد المحتار على الدر المختار ،دار الفكر بيروت ،الطبعة الثانية ١٩٩٢، ج١،ص٣٦٢

البشري، بل وتعدى الامر ذلك ليصل إلى امتزاجها بمادة فقهية فلكية عن تلك البقاع تناولها الفقهاء تحت مسميات عدة.

تحتفظ لنا سجلات الفقهاء بالكثير من التمثيلات الفقهية عن تلك المناطق من العالم،جاء في شرح البناية شرح الهداية - باب: إذا تم للمفقود من عمره مائة وعشرون منذ ولدته أمه.. ذكر مجموعة من الأقوال والترجيحات ومما ذكره قوله: - وقال بعضهم: يعتبر أقرانه في السن من أهل بلده؛ لأن الأعمار تتفاوت وتختلف باختلاف الأقاليم والبلدان، حتى قالوا: **الصقالبة أطول أعماراً من أهل الروم**، فإذا كان كذلك يعتبر أقرانه في السن من أهل بلده لا من جميع البلدان، ثم قال خواهر زاده: وهذا القول أصح وأرفق بالناس".[٥٧]

ولم يقتصر الأمر على هذا النوع من التمثيل، وإنما تعداه إلى تمثيلات فقهية لها علاقة مباشرة بحفظ بنية المجتمع الإسلامي من أي اختراق ثقافي آخر، ويدل ذلك على أن الفقهاء كانوا على وعي بأنماط السلوك الاجتماعي الغربي وخطورته على المجتمع الإسلامي، فمثلا يورد ابن الحاج (ت: ٧٣٧هـ) في كتابه المدخل في فصل خروج المرأة وتعاطيها البيع والشراء، وضرورة أن يقوم الرجل بذلك مكانها، إلا للضرورة القصوى ويحيل إلى أن فيه تشبه الرجال بالنساء في مجتمعات الإفرنج يقول ابن الحاج :" وقد ورد في الحديث «الغيرة من الإيمان» أو كما قال ومن اتصف بهذه الصفة وقع بينه وبين نساء الإفرنج شبه؛ فإن نساءهن يبعن ويشترين ويجلسن في الدكاكين والرجال في البيوت، والشرع قد منع من التشبه بهم."[٥٨]

وهكذا؛ فإن الكتابات العربية والإسلامية المتنوعة عن العالم الغربي في

---

(٥٧) أنظر: بدر الدين العينى ، البناية شرح الهداية، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ،ج٧،ص ٣٦٦.

(٥٨) أنظر: المدخل لابن الحاج ،دار الفكر ، دط، ١٩٨١م، ج١، ص٢٤٦

الدول الإسلامية الأولى كانت على قدر كبير من الأهمية والخطورة، تكشف عن مدى اهتمامهم ووعيهم المعرفي بالآخر. صحيح أن العرب لم يكتبوا عن الغرب كما يجب بالمنطق الذي نتصوره اليوم، فهو أمر غير ممكن متعذر في ذلك الزمان، ولكن الأكيد أنهم كانوا آية في الإبداع عجزت أوروبا عن الإتيان بمثله بعدهم بقرون، ويبقى الرهان اليوم في مدى الأجيال المعاصرة على محاكاتهم والسير في طريقهم، و امتلاك الروح الاستخلافية والمبدئية العالية، والظمأ المعرفي التعارفي بالآخر. على قواعد العدل والإحسان، عدل يستهدف كبح جماع آلة الطغيان في الأرض، وإرجاعها إلى قواعد التعارف على المعروف، وإحسان أساسه الرحمة بالآخر.

الفصل الثالث:

التحقيب المعرفي الكرونولوجي للعلاقات الإسلامية الغربية:

البدايات، العلاقات، المكاسب



تمهيد:

إن المتابعة التاريخية للعلاقات الإسلامية الغربية كما يحتاج إلى تحقيب تاريخي يدلنا على الاطوار التي قطعتها هذه العلاقة في مختلف فصولها، يحتاج كذلك إلى تحقيب معرفي يبرز ويكشف عن الشحنات الدلالية الإيجابية والسلبية الناتجة عن تلك المراحل والأزمنة، أي أنه سيعطينا الصورة الحقيقية الكامنة وراء التحقيبات التاريخية للأحداث والعلاقات... فحاجتنا إذا إلى التحقيب المعرفي للأفكار والأحداث أهم من حاجتنا إلى التمسك الحرفي بالتحقيب التاريخي في الكثير من الأحيان، خاصة تلك التي نجهل لها بدايات تأسيسية تاريخية واضحة كشأن الكثير من الأفكار.

إن التحقيب المعرفي يلتزم دائما بقواعد وقاعدة المعلومات المنبثقة من النظام المعرفي الإسلامي .. تقييما وتقوميا فإذا أردنا أن نعرف تاريخ فكرة الآخر في الإسلام ،فإننا نقول إن الاهتمام بفكرة الآخر في التحقيب المعرفي الإسلامي بدأ في السماء قبل الأرض؛ أي بدأ مع بداية وعي آدم عليه السلام للآخر كل الآخر في منظومته الحياتية ..ولم يكن بمجرد نزول القرآن ومجيئ الرسالة...

ولأن فكرة التحقيب المعرفي لا تلغي التحقيب التاريخي؛ لأنها تبني عليه. فإننا؛ إن أردنا أن نؤصل ونؤرخ للمنطلق الحقيقي والبداية التدشينية لرؤية الآخر رؤية علمية، فإننا نقول إن حجر الزاوية الأساس الذي وضع كبداية للانطلاق نحو معرفة الآخر ودراسته وفهمه، وتحريك آلات الوعي العربي تجاهه كانت مع بداية الإسلام كرسالة وحدث عالمي ، ففكرة العالمية في الإسلام كانت بمثابة المفتاح الذي كسر الجدران النفسية العازلة للإنسان العربي، الذي ألف أن يعيش داخل تخومها محتميا بأسوارها، ولا يتطلع إلى غيره من الحضارات والأمم إلا من خلال سم الخياط، كما مثلت العالمية الآلية التي خرق بها القرآن النسق الفكري العربي الصلب ، وقلب بها موازين

الفكر المعهودة في الديانات السابقة حيث كانت مقاصدها محلية أو اقليمية الاتجاه والوجهة والتوجه والوجاهة.

إذا سنحاول على طول هذا الفصل أن نركز على المراميز المعرفية التي تنبثق من كل مرحلة حتى نعرف من المستفيد الأكبر في هذه العلاقات في كل هذه المراحل، ولكننا حتما سنرى حجم "**الاستشراق**" أي: التوجه الغربي نحو الشرق، كما نرى حجم وطبيعة "**الاستغراب**" أي حجم التوجه العربي والإسلامي إلى الغرب من خلال طبيعة العلاقات التي ربطت بين الطرفين والعالمين. وإذا كان التحقيب التاريخي يعطي لكل مرحلة عنوانها وتاريخها أي يحقبها زمانيا، فإن التحقيب المعرفي يمنح للمرحلة ذاتها عنوانا آخر يعبر عن حقيقة وطبيعة هذه المرحلة في المشهد الكلي لحركة التاريخ.

المبحث الأول:
التحقيب المعرفي لدراسة الغرب

أولا: مسارات التحقيب المعرفي القرآني لدراسة الآخر الغربي.

إذا أردنا أن نقوم بالتحقيب المعرفي لدراسة الغرب والآخر في المتن المعرفي الإسلامي متى بدأ ؟ وكيف بدأ؟ ، فإننا نجده يرجع إلى أصول متعددة ، ولكن أصل الأصول هو المعرفة القرآنية الكثيفة في دلالاتها وإشاراتها ومعانيها ومغزاها ومراميزها حول الآخر، وهذا التحقيب القرآني المعرفي عن الآخر (داخل الجغرافيا الإسلامية وخارجها) كاف لأن نعتبره تحقيب تأسيسي ، ولأهميته وخطورته لم يؤجله القرآن إلى المرحلة المدنية بل دشنه مع البدايات الأولى للوحي، وهذا ما يعطينا مؤشرا دلاليا قويا أن التحقيب المعرفي القرآني هو التحقيب المؤسس للمعرفة بالآخر في الفكر الإسلامي ، ولا نحتاج هنا إلى عناء كبير للبرهنة على صحة ذلك. إذ يمكن أن نلاحظ في القرآن كما السنة أن هناك مسارين أساسيين اتخذتهما آيات التنزيل ،وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم لتأسيس هذا الاتجاه والاهتمام به عن الآخر وهما:

ـ **المسار التحقيبي الأول:** يمكن أن نلاحظه في سرد القرآن لتاريخ الكدح الإنساني الطويل إلى الله تعالى، وكيف تموج هذا التاريخ بالأمم السابقة المختلفة.. وهذه المادة لوحدها كافية لأن تساهم في تفتيح الوعي العربي على الآخر التاريخي المتنوع، خاصة وأن المعرفة العربية بالآخر القريب والبعيد بل والحاضر غير مؤسسة على أصول، وهي إن وجدت فهي سرد تمتزج فيه الحقيقة والواقع بالأسطورة، ولذا فإن البيان القرآني للآخر ممثلا في دراسته للأمم السابقة أحدث صدمة معرفية ليس على مستوى المعرفية القرشية المحلية، بل على مستوى المعرفة الإنسانية كلها، وإلى يوم الناس هذا، حيث يعد القرآن في الكثير من مسائل التاريخ المصدر الوحيد للمعرفة والمعلومة..

ونذكر هنا مثالا للترميز والدلالة، فقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول سورة الكهف، فقال كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم ، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول ".[٥٩]

نلاحظ هنا كيف أن المعرفة بالآخر شكلت مادة للتحدي والمنافسة، بل ولكسب الشرعية والمشروعية أحيانا، مع الإشارة هنا أن الكشف القرآني عن الآخر من خلال آياته وسوره له مقاصد استخلافية، فالقرآن وهو يكشف لنا من خلال قناة " أنباء الغيب" يكشفها للدراسة والعبرة والاعتبار، تماما مثلما يخبرنا عن واقع الآخر وحقيقته الآن بل ومستقبله، فإن التفهيمات القرآنية لهذا النوع من الخبر والمعرفة مقاصدها تتجاوز الوظيفة الإخبارية فقط، بل تتعداها إلى للدراسة والتأمل.

بما معناه ان السياق العام لهذه المعرفة الجديدة فضلا عن سياقاتها

---

(٥٩) الفخر الرازي، التفسير الكبير ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت لبنان .الطبعة الثالثة :١٤٢٠هـ ، ج ١٠، ص ١٦١

الأخرى، تندرج ضمن إطار تحريك الوعي والعقل لتأسيس معرفة جديدة ووعي أذكى عن الآخر، واستثمار هذه المعرفة ايجابيا، فمعرفة انتربولوجية الآخرين ستمدنا بمعطيات مهمة عن واقعهم وحالهم الآن، كما الإخبار عن المجتمع والطبيعة والثقافة والفكر اليهودي أو المسيحي حتما سيزودنا بآليات فهم دقيقة عن سيكولوجية الظاهرة الغربية اليوم، فالغرب كما يقول مالك بن نبي: مدين إلى الفكرة المسيحية التي " أخرجَت أوربة إلى مسرح التاريخ. ولقد بنت عالمها الفكري انطلاقاً من ذلك"[٦٠]، والأمر ينطبق على الكيان اليهودي حيث يرتبط العقل اليهودي بالعقل الصهيوني المعاصر.

المسار التحقيبي الثاني: وهذا المسار يمكن ملاحظته بدقة واستشفافه من خلال تركيزه على دراسة الآخر الحاضر القريب جدا للجغرافيا العربية والإسلامية، الفرس والروم وملاحقهما، وقد سمى سورة كاملة عن الروم تختزن إشارات دقيقة عن الآخر الغربي ،هذا بالإضافة إلى تقريرها لجملة من مشاهد من الجغرافيا السياسية، تحدثت بشكل صريح عن الإعجاز الإلهي في التنوع البشري وهو تقرير لكيلة من كليات الجغرافيا البشرية في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ الروم:٢٢ .وهذا نوع تذكير بضرورة الاهتمام بألسنة الآخرين وهو ما يعني رأسا تحريك مدارك العربي والمسلم للاهتمام بالآخر.

وهذا منهج قرآني في تقرير الحقائق والتأكيد عليها، فالحقيقة في القرآن "إذا كثر ورودها وكثرت مواردها دلّت بذلك على كونها حقيقة ينبغي النظر إليها بعينها.. وليس من شرط كونها حقيقة علمية عرضها بأساليب علمية...، بل من طرق القرآن وسنّته تعالى" التي لا تبديل لها إجراء الكلام على سبيل

---

(٦٠) مالك بن نبي ،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دار الفكر المعاصرة بيروت / سوريا ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م، ص: ٤١

الخطابة، وإن كان برهانيا، فهي أكثر تأثيرا في النفوس، وأنفع لعوام الناس"[٦١]

وهكذا؛ فالقرآن وهو يؤسس لهذا الموضوع تأسيساً علمياً، ويحقب له تحقيبا معرفيا، يشد انتباهنا بقوة إلى ضرورة دراسة هذا الآخر دراسة موسوعية واعية هادئة هادفة هادية، ويقدم لنا نماذج وعينات منهجية ، ولذا لا نستغرب وهو يخبرنا عن الآخر يلم بكل جوانب الموضوع وحيثياته إلماما شاملا في آية واحدة بحيث تجدها مثقلة بالرسائل المتنوعة ،فيتناول الجانب الجيوبوليتيكي للآخرين ومآلاته المستقبلية مثلا كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ الروم: ١ - ٤ . ولا شك أن هذه المعلومة الجيبوليتيكية بالإضافة إلى دلالاتها السابقة، لها معانيها الخاصة بالعمق الاستراتيجي المستقبلي للرسالة في المنطقة، وعلاقتها الخطيرة بمناطق التماس الحضاري الإسلامي بالعالم الغربي، والروم كانت أكبر تلك القوى التي ستواجه هذا الكيان الجديد.

قد يكون من المبكر جداً في ذلك الوقت فهم المعاني الدلالية الجيو استراتيجية للآية بهذا المعنى السالف (والآية نزلت في منتصف العهد المكي)، ولكن اليقين الذي لا شك فيه أن الصحابة استقبلوا الرسالة استقبالا مشحونا بالوعي الاستراتيجي، بالرغم من أنهم في وضع لا يسمح لهم بالتفكير خارج إطار الجغرافيا المحلية، لاهتمامهم بملفات عديدة وعلى رأسها ملف التعذيب والاختطاف، ومصير الكيان المسلم الجديد، ومع ذلك اعتبروا الآية إضافة غيبية استراتيجية داعمة تساهم في شحن رصيدهم الإيماني، وذلك بغلبة الروم (النصارى) على الفرس (الوثنيون) فكل طرف ـ كما يقول الشيخ

---

(٦١) مهدي كلشني ، القرآن ومعرفة الطبيعة ، مطبعة سبهر ،طهران ، الطبعة الأولى: ١٩٨٥ م،ص:١٥٤

القرضاوي في كتابه فقه الأولويات ـ" من الفريقين عرف من هو أقرب إليه، ومن هو أبعد منه".[٦٢]

أمام هذه المقاربات القرآنية التحقيبية عن دراسة الآخر يلفت انتباهنا بين الفينة والأخرى إلى مسائل حيوية تتعلق بالجانب الجيو فكري، والجيو اقتصادي، والجيو تاريخي. كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ القصص: ٤٦، فجغرافية المكان ترتبط بالتحقيب المعرفي للحدث والفكرة، ولا ننسى في خاتمة هذه الجزئية من الدراسة الانتباه إلى عامل مهم جداً في الموضوع يرتبط بتداخل العنصر الجيو سياسي بالعنصر الجيو ثقافي، أو تداخل الجغرافيا السياسية بالجغرافيا الثقافية للعالم الإسلامي، أو الأمة الإسلامية بالغرب على وجه الخصوص، تماما مثلما لجأت تلك الثلة القليلة من أمة الاستجابة إلى جغرافية أمة الدعوة (الحبشة)، وكما هو حادث اليوم بنشأة جديدة تجديدية للمسلمين في جغرافية الغرب، وهو ما يستدعي دراسة أوثق وأعمق، ويصبح الخطر حينها أشد، لأن الخطأ في تقدير الأوضاع ودراسته الآخر هذه المرة لا يعود على الغرب فقط بل ينسحب على المسلمين هناك، إذ قد تتسبب الدراسات والقراءات الخداج للظاهرة الغربية وموقع المسلمين فيها بنسف مكتسباتهم من الجذور.

يقول محمد مصطفى حميداتو في إشارة إلى هذا الوضع "ويتأكد دور المسلم وفاعليته أكثر فأكثر في مرحلة تحول العالم من الجغرافيا السياسية إلى الجغرافيا الثقافية -كما أسلفنا- والتوجه نحو العولمة وصراع الثقافات أو حوار الثقافات، وما يمكن أن يكون من دور للأقليات المسلمة كمواقع متقدمة في الثقافات والحضارات الأخرى، تحمل لها الخير، وتلحق بها الرحمة، وتقنع

(٦٢) انظر: القرضاوي فقه الأولويات ،ص: ٩٩.

أهلها أن الإسلام أصلاً ليس دينًا عرقيًا أو طائفيًا، وإنما هو دين الإنسانية جمعاء."[٦٣]، واعتقد - كما يعتقد غيري - أن هذه المهمة ستنجح إذا ما عززنا هذه الأقليات بفقه دراسة الغرب، حتى تتوسل به فهم جذوره وأصوله ومعتقداته ومنهجه في الحياة، وتتكيف وفقا للظروف الملائمة واللازمة للاستمرار في صناعة التميز واداء رسالة الاستخلاف في الغرب، فهم رسل الإسلام وأهله فيه.

- وفي الأخير نقر أنه، ومن دون ملاحظة التحقيب القرآني المعرفي عن الآخر، لا نستطيع أن نستكمل حلقات درس الاستغراب، خاصة وأن موضوعنا يرتبط رأسا بالنظام المعرفي الإسلامي، ويتخذ منه قاعدة للتأصيل والتواصل والتوصيل، وحينها يصبح التدقيق في التحقيبات القرآنية المعرفية الخاصة بدراسة الآخر ضرورة لها مابعدها فيما يخص مشروع المعرفة الاستغرابية.

ويا حبذا لو تفرد دراسة خاصة بهذا المجال تستوفي الدرس كله،بداية من الإشارات والتنبيهات القرآنية الأولى في موضوع التحقيب، والتي بدأت في السماء قبل الأرض، في مشهد تعرف آدم عليه السلام إلى أول عينة من عينات الآخر الذي تمثل في أول خصم له (الشيطان)، حيث تسبب جهله بحقيقته وطبيعته، النزول السريع إلى الأرض على تلك الكيفية، وصولا إلى التحكم في الآلية النموذجية التي يحيلنا القرآن عليها في درسنا الاستغرابي بضرورة التشبع بمفاهيم وتفاصيل الجغرافيا السننية وخرائطها المتنوعة ممثلة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ النمل: ٦٩.

حيث السير المثمر في ديار القوم يقتضي فهم خصائص الجغرافيا السننية

---

(٦٣) مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ،سلسلة كتب الأمة وزارة الأوقاف قطر ،العدد ٥٧، السنة ١٤١٨هـ.ص: ٣٠

النفسية التي تتيح لنا استيعاب السنن النفسية التي تشكلت منها النفس البشرية في العالم الغربي. كما الجغرافيا السننية الاجتماعية تزودنا بعناصر فهم تموجات الحركة الاجتماعية الغربية والسنن الحاكمة عليها، وغير بعيد عن مثيلاتها نفهم جيدا من خلال الجغرافيا السننية التاريخية تطور المشهد التاريخي الغربي ماديا ومعرفيا تطورا أخرجه إلى عالم السيادة والهيمنة على الأرض...، وهذا ما يمكن أن نسميه ـ تجوُزا وتوسعاـ في دراستنا هذه بالعامل **"الجيو سّنني"** في درسنا الاستغرابي حيث تعمل السنن الإلهية عملها داخل الخارطة السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والدينية للعالم كله وترسم معالمها رسماً دقيقاً.

ومن هنا أعتقد أن أي فكرة عن دراسة الغرب في الصدر الأول للإسلام مهما كان حجمها وموقعها، كانت تستمد حركتها من التحقيب المعرفي القرآني والنبوي عن الآخر، والأكيد في زحمة كل ذلك ان ابن بطوطة والمسعودي وغيرهم من الرحالة كانوا يرددون في حلهم وترحالهم، وفي وصفهم للأمم التي زاروها، وما يمور فيها من كآبة المنظر وسوء المنقلب في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كانوا يرددون قول الحق تعالى : **(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ)**، إن لم يكن هذا الترديد استرشادا بما يفعلون وجعلهم الآية الكريمة مؤشرا وبوصلة لحركتهم، فهو تسلية للنفس حتى تعتاد الغربة والسفر والارتياض في مناكب الأرض علما ومعرفة.

على كل حال سنتعرف ـ إن شاء الله ـ في الصفحات التالية على تطبيقات التحقيب المعرفي لدراسة الآخر من خلال متابعة كرونولوجيا هذه التطبيقات بداية من عصر النبوة إلى يوم الناس هذا.. في محاولة لمسح سريع وجولة خاطفة عن تاريخ هذه العلاقة وتوصيفاتها الدقيقة مع الإشارة إلى السمات البارزة لهذه العلاقة في كل عصر وزمن دون أن نغفل ان المقصد من هذا المسح هو معرفة المنحنيات البيانية لهذه العلاقات ونقاط الذروة التي كسبنا فيها أو تلك التي خسرنا فيها من ، حتى نتعرف على السر المكنون من وراء

هذا الكسب أو الخسارة فنتخذه بابا للمراجعة والتقييم والتقويم.

مع ملاحظة أننا عنونا لكل مرحلة بسمة من السمات السننية حتى نتعرف على نوع منحناها البياني المعرفي ويسهل ملاحظته.

المبحث الثاني:
التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية في مرحلة النبوة وعصر الخلافة الراشدة

قبل الإسلام ؛ وبالرغم من أن العرب كانت أمة جوالة في الأرض، إلا أنهم لم يتفطنوا إلى الانتباه للآخر كثيرا إلا في حدود ما يتعلق بمصالحهم الضيقة، أو بعبارة أدق لم يكن لهم اهتمام بالآخر الحضاري، بالرغم من أنهم شرقوا وغربوا كثيرا، وفحصوا المشرق والمغرب حجرا حجرا حتى قال ابن خلدون أن هذه طبيعتهم وطبع أسلافهم قبل الإسلام :" مثل التبابعة وحمير، كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى. ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم.."[٦٤] ومع ذلك لا نجد في تراثهم دليل وسند يدعم الزعم القائل بأن لهم اهتماما بدراسة الآخر، اللهم إلا من قبيل الصدفة ، فهذا الشعر العربي الجاهلي يكاد يخلو من ذكر الغرب، وإذا وجد فهو قليل جدا، كأن يأتي في شعرهم ذكر السيوف الرومية أو ما يدل على استهزائهم بلغته وأعرافه.

فهذا علقمة من قصيدته يقول:

يُوحي إليها بإنقاضٍ ونَقْنَقَةٍ   كما تَراطَنُ في أفْدانِها الرُّومُ

حيث شبه نقنقة الظليم للنعامة بتراطن الروم، أو بلغة الروم التي لا تفهمها العرب. والعرب تسمي كل لغة لا تفهمها تراطن، "رطن العجمي يرطن رطناً: تكلم بلغته.

والرطانة و الرطانة و المراطنة: التكلُّم بالعجمية، وقد تراطنا." كما يقول ابن منظور في اللسان[٦٥]، ،والخلاصة أن الاهتمام العربي بالأخر عموما

---

(٦٤) عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ،ص: ٧٢...

(٦٥) ابن منظور في اللسان (١٣/ ١٨١)

وبالغربي على وجه الخصوص كان على أكثر التقدير يراوح الصفر وإن سجلنا هنا في سياق الاهتمام أنه كان لقريش سفارة إلى بلاد الروم كغيرها من السفارات.

أولا: المرحلة الأولى (تعارف الترافع)

إذا انتقلنا من الجانب التحقيبي لفكرة دراسة الآخر الغربي في الفكر الإسلامي على مستوى مصدره المرجعي الأساسي القرآن، فإننا سننتقل بالضرورة إلى الرؤية التطبيقية والتنزيلية لهذا الفكرة على مستوى مرجعه الثاني السنة في جانبها القولية والفعلية في زمن النبوة أو عصر الرسالة، وسنتناول مظاهر هذه العلاقة تناولا سريعا مركزين لا على كم الأحداث ولا تفاصيل الروايات، ولكن على طبيعة العلاقة وسماتها في هذه المرحلة .. حتى نتبين الأمر ،إلى أي مدى كانت علاقة الدولة والأمة بالغرب المتمثل آنذاك في الروم، وعلى أي أساس تم تجسير هذه العلاقة وإرسائها ، وإلى أي مدى كانت استجابة الطرفين وتفاعلهما مع الطرف الآخر.

في بداية الأمر لا بد من ملاحظة أمر في غاية الأهمية ونحن نخط هذه السطور عن علاقة دولة النبوة بالغرب المتمثل في ذلك الزمان بالإمبراطورية الرومانية، حيث هناك اعتبارات في غاية الأهمية، هذه الاعتبارات هي التي رسمت ملامح اتجاه الدولة الإسلامية في معرفة بالغرب والقوى المحيطة به وهي:

الاعتبار الأول: اعتبار الدعوة الإسلامية الجديدة وضرورة التبليغ.

الاعتبار الثاني: اعتبار أعراف الدبلوماسية الدولية إتمام لمكارم الأخلاق الدولية في العلاقات السياسية .

من خلال الملاحظتين يمكن أن نعتبر السمة الغالبة والدثار المهمين على هذه العلاقة في هذه المرحلة هي مرحلة تعارف الترافع، حيث هناك

محاولات للتعارف والتعرف على الطرف الثاني، ولكن بلغة المرافعة عن المبادئ المشكلة للهوية الحضارية لكل طرف، أي أن لغة الخطاب كانت بالإضافة إلى محاولات مد الجسور والطمأنة خاصة من جانب الإسلام، كانت مرحلة إعلان للمبادئ وفرضها كقاعدة وأرضية لأي حوار والتقاء حضاري مستقبلي ممكن.

- مع بداية عهد النبوة والصدع بدين الحق بدأت العلاقات الدبلوماسية الإسلامية تتحرك صوب الأقطار كلها، وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يرسم تقاليد العمل فيما يخص المعرفة بالغرب، فلم يكن بدعا من الأمم والدول ولا استثناءً من أصول العمل السياسي ، وقد ساعده على ذلك اطلاعه على كل عناصر ومكونات الجغرافيا السياسية والعقدية والثقافية داخليا وخارجيا، فقد ذكر ابن الأثير في النهاية: سعة معرفته صلى الله عليه وسلم ،بالوضع الداخلي العربي من كل أطرافه ،وقال "وقد عرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانا حتى قال له علي رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وفد بني نمر: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود الغرب (بما لا نفهم أكثره فقال: أدبني ربي فأحسن تأديبي، فكان عليه الصلاة والسلام يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمونه."(٦٦)

وكذلك الأمر بالنسبة للغرب الحقيقي في زمانه فقد كان فقيها في السياسة الدولية ونظمها وأسساها، ولذلك راسل الملوك وزعماء المنطقة بما يفهمونه وبلغة دبلوماسية غاية في الدقة، فقد كانت رسائله مختومة، وسفراؤه مهرة في ثقافة الدبلوماسية، كما رسائله مختصرة تحتوى عبارات الطمأنة والود والاحترام والتبجيل والفخامة لمن يخاطبهم. وفضلا عن كل ذلك فقد جاء الظرف السياسي لهذه المراسلات مع ملامح دخول القبائل العربية في حلف الإسلام.

---

(٦٦)القنوجي ، أبجد العلوم، أبجد العلوم ، دار ابن حزم ،الطبعة الأولى :٢٠٠٢م، ص: ٤٥٠

ومع أن الرسائل الأولى التي أرسلها من المدينة إلى ملوك الأمم المجاورة وعلى رأسها هرقل عظيم الروم كانت مقاصدها دعوية تبليغية في المقام الأول، إلا أنها من الناحية السياسية كانت بمثابة تجسير للعلاقات وتحسس وجس نبظ للطرف الآخر ،ينبني على مجموعها قياس ردود الأفعال الدولية والعالمية إزاء الوضع والتشكيل الجديد في المنطقة .. وهذا لوحده كان مورد في غاية الأهمية لبناء استراتيجيات الدعوة والدولة مستقبلا .

ويحسن أن نشير هنا أنه لم يكن من مقاصد الإسلام بالمرة في هذه المرحلة ولا في غيرها الاشتباك والمواجهة مع أي طرف، إذا قبل بمنطق المسالمة والصلح، ولذلك لم تكن المبادئة في حروب المسلمين مع الروم مبادئة إسلامية بل كانت من طرفهم، فقد اشتبك المسلمون مع الروم في السنة الثامنة للهجرة في مؤتة، وفي السنة التاسعة في تبوك، وفي معركة اليرموك بعد سنتين تقريبا، وبعدها في فتوح الشام.. وفي كل هذه الحالات كانت الحرب دفاعية وحماية لبيضة الإسلام من التهديد الخارجي.

إذ من المعلوم أنه " عندما جاء الإسلام وتم إنشاء الدولة كإطار سياسي موحد، تعززت وتطورت العلاقات، وذلك انطلاقا من فكرة الشمولية والكونية التي أتت بها الشريعة الإسلامية حيث ارتكزت على قاعدة السلم كحالة أصلية وعلى حالة الحرب كحالة استثنائية ،أي الحرب الدفاعية ضد العدوان ، والحرب الهجومية لحسر نفوذ القوى المعتدية ،وهذا ما عرف بسياسة الفتح "[٦٧]،ولاشك أن العنوان المرحلي لهذه المرحلة ولكثير من المراحل في تاريخنا الإسلامي كله ـ فيما يخص العلاقة مع الغرب ـ كانت منطلقاتها دعوية تبليغية تؤطرها القواعد القرآنية الكلية، والآيات البينات بياناتها ومؤشراتها

---

(٦٧) علي حسين الشامي ، الدبلوماسية : نشأتها وتطورها وقواعدها . دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٤ م، ص: ٨٣

واضحة في رسم هذا المنحنى البياني للعلاقة مع الآخرين / الغرب وغيرهم، في مثل قوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ الممتحنة: ٠٨

وهذه تزكية سياسية واضحة المضامين، وإيذان بفتح خط العلاقات الدبلوماسية تاركاً الابداع في تنميته وتطويره على قواعد القسط والبر والإحسان، وقد جاء هذا الإذن مساوقا للاعتبارات السننية الكونية والتي تتلائم معها الشريعة "فمن الأمور المألوفة في الشرع أن ما يعرض للمسلمين من سنن الكون ينعكس أثره بالنسبة لما يؤمرون به من الفعل والترك ، ومن هنا انفتحت دائرة التعامل مع غير المسلمين المسالمين في مختلف مجالات الحياة، وكان ذلك سببا لانتشار الإسلام في الكثير من البلدان."[٦٨].. ولذلك تواصلت العلاقة التجارية والاقتصادية بل والسياسية، ولم تنقطع حتى في أشد مراحل الحروب ضراوة. وقد سجلت كتب التاريخ كما القرآن تواصل رحلة الشتاء والصيف، ورحلة الشتاء كانت إلى اليمن أما رحلة الصيف فكانت على الشام، وكانت حينها تحت حكم الروم أو هي الروم بعينها فمقر هرقل وعاصمته فيها.

وإن لاحظنا بهذه المناسبة أن جمع الإسلام في عهد النبوة في علاقته مع الأمم الأخرى وبخاصة الغرب الممثل في الروم ـ باعتباره أقرب إلى الجغرافيا الإسلامية من الفرس ـ ، كان توفيقا وملائمة بين واقعين، الواقع الأول فرضته الشريعة الإسلامية الجديدة، والثاني فرضته الأعراف الدولية التي لا تخالف الشريعة، والتي جاء الإسلام ليتممها كما تمم وصادق على غيرها من الأعراف المحلية التي لا تخالفه، وبهذا فقد جمعت هذه الشريعة الإسلامية وتميزت،" على حد تعبير الدكتور حسن الجلبي ، بمبدأ أساسي: هو اجتماع

---

(٦٨) أحمد عبد الونيس شتا ،أعمال ندوة العلاقات الدولية بين الأصول الإسلامية وبين خبرة التاريخ الإسلامي ، مركز البحوث والدراسات السياسية جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م ،ج١، ص:١٥٣

القانون الدولي والقانون الداخلي فيها كفرعين لنظام قانوني واحد دون أن يكون لأحدهما السيادة على الآخر. ذلك لأنهما ليس قانونا داخليا أدمجت فيه القواعد الدولية ، بل هي شريعة عالمية تنتظم العلاقات الداخلية والدولية على السواء . من هنا يسري القانون الداخلي من الشريعة الإسلامية على ما يخضع لولاية الدولة الإسلامية من أقاليم ، وبينما تسري قواعدها القانونية الدولية على علاقاتها مع الدول الاخرى وفيما بين شعوبها. "(٦٩)

ثانياً: المرحلة الثانية : (تعارف التدافع)

لم يكن عهد الخلافة الراشدة بدعا مما سبقه في العلاقات مع الأمم المجاورة ممثلة في دولها، وإمبراطورياتها، فلم يتوقف الخلفاء عن سياسة مراسلة الملوك والدول ،وفي الوقت ذاته لم يتوقفوا عن منابذة الأعداء ومقارعتهم، فقد استمرت سياسة الفتوحات التي بدأت منذ زمن النبوة، وإن سجلنا هنا ملاحظة قمينة بالدراسة وهي أن الخلافة الإسلامية في زمن الفاروق رضي الله عنه قد زاوجت بين مسألتين :

أولهما: قد واصلت سياسة الفتوحات الإسلامية والامتداد في جغرافية العالم الغربي

والثانية: استفادت من التجربة الغربية البيزنطية الرومانية في تنظيم الدولة.

ولذا ترجح بعض الروايات التاريخية أن سبب اتخاذ سيدنا عمر رضي الله عنه الدواوين كما ذكر صاحب الدلالات السمعية :

- إنه بعث بعثا وعنده الهرمزان، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلّف منهم رجل أخلّ بمكانه، من أين يعلم به؟ فأثبت لهم ديوانا، فسأله عمر عن الديوان حتى فسّره له.

- وفي رواية أخرى، وقال عثمان رضي الله تعالى عنه: أرى مالاً كثيراً

---

(٦٩) أنظر : علي حسين الشامي ، الدبلوماسية : نشأتها وتطورها وقواعدها . دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٤ م، ص: ٨٣

يسع الناس وإن لم يحصوا حتى يعلم من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر. فقال خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه: قد كنت بالشام فرأيت ملوكا دونوا دواوين وجنّدوا أجنادا، فدوّن ديوانا وجنّد جنودا، فأخذ بقوله، ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش فقال: اكتبوا الناس على منازلهم."(٧٠)

وهذا الموقف الاستراتيجي المتوازن في الاستفادة من التجربة الإدارية الغربية / الآخر، في زمانه موقف ينبع من توازن الإسلام ذاته في التفريق بين القضايا، وقد تكرر في تاريخنا الإسلامي مرات ومرات، ففي الوقت الذي أكمل الإسلام حركة الانتشار والتعرف على نقاط قوة الآخر الحضارية، كان يسعى جاهدا للكسب على أرض الواقع ولا خلاف في الأمر ..حتى قال غرونيباوم :" من العجب أن يلحظ المرء كيف تسامت هيبة العرب في القسطنطينية ، في الوقت الذي بلغت فيه علوم اليونان أقصى نفوذها في بغداد " (٧١).. تماما مثلما حدث حين وازن المسلمون في بداية الإسلام بين الدعوة ومعرفة الآخر ومواجهته ،ولا ضير .

وقد استمر تطلع المسلمين إلى معرفة كل الكيانات الموجودة في العالم قريبها وبعيدها، وإن كانت عين الخلافة على أطراف الجغرافيا الإسلامية وأكثرهم تهديدا وهم الروم، ولذلك كان جمع المعلومات ومحاولة التعرف عن هذا الكيان في زمن الخلافة الراشدة قد بلغ مداه، ولهذا يرجح الكثير من كتاب السير أن جهاز الاستخبارات الإسلامي في زمن الخلافة الراشدة كان أقوى

---

(٧٠) أبو الحسن ابن ذي الوزارتين الخزاعي ، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، ،تحقيق احسان عباس ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ١٤١٩ هـ ، ص ٢٤٤

(٧١) جوستاف أ. فون غرونيباوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، د ت ، ص: ٥١

من غيره خاصة في زمن سيدنا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

حتى قال الجاحظ عن استخبارات سيدنا عمر رضي الله عنه، " كان علمه بمن نأى عنه من عماله، ورعيته، كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد، وعلى وساد واحد، فلم يكن له قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده. فكان ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح،"(٧٢). وهذا كان أهم عامل مساعد على قوة وسلامة الدولة الإسلامية في زمانه وهيبة أعدائه منه "حتى قال الشاعر فيه:

بصيراً بأعقاب الأمور برأيه   كأن له في اليوم عيناً على غدِ

وما ميز مرحلة الخلافة الراشدة كلها فيما يخص علاقتها مع الروم على وجه الخصوص، مع ما كان من استمرار للحركة التجارية على الأرض، هو المسارعة إلى كسب المعلومات الاقتصادية والسياسية والعسكرية بل وحتى الثقافية عن الطرف الآخر، " فقد اشترطوا على سكان بعض المناطق المفتوحة ضمن شروط الصلح أن يقدموا للمسلمين معلومات استخبارية عن الأعداء المجاورين لهم، ومن ذلك ما كان طلب المسلمين من أهل قبرص أن يزودوهم بأخبار أعدائهم الروم، وفي الرها صالح عياض بن غنم أهلها على نصيحة المسلمين، وعلى أهل دلوك بالبحث عن اخبار الروم ومكاتبة المسلمين بها "(٧٣)

وقد كان هذه سياسة استخباراتية عامة ينتهجها كل الخلفاء "فقد كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر يخبره أن عيونه على الروم في الشام هم من أنباط الشام،

---

(٧٢) الجاحظ ، التارج في أخلاق الملوك ، تحقيق :أحمد زكي باشا ، المطبعة الأميرية ١٩١٤م،ص: ١٦٨

(٧٣) أنظر : الواقدي ،فتوح الشام ،١/١٦٣، الأزدي ، فتوح الشام ،ص٨٧، البلاذري ، فتوح البلدان، ص ١٧٨ - ٢٠٦ نقلا عن صاحب الخبر في الدولة الإسلامية ،حسن محمد النابوذة .

وتمثل ذلك عندما أرسل روماس صاحب بصرى ليحرز له عدد الروم، وكذا كان يفعل خالد بن الوليد رضي الله عنه في تتبع الروم، فقد كانت عيونه من أنباط النصارى.. فكانوا فيوجا للمسلمين وجواسيس لهم، وكانت الروم لا يتهمونهم في شيئ من ذلك ".[٧٤]

(٧٤) أنظر : الواقدي ،فتوح الشام ،ج ١، ص١٦٣، الأزدي ، فتوح الشام ،ص٨٧، البلاذري ، فتوح البلدان ،ص ١٧٨ ـ ٢٠٦

المبحث الثالث:
التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية في العهد الأموي والعباسي

(تعارف الاعتراف)

مثلت العلاقات الإسلامية الغربية في زمن الخلافة الأموية والعباسية تطوراً كبيرا في مشهد العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين، وهو تطور طبيعي في تلك المرحلة لوجود نوع من التكافؤ والتوازن في ميزان القوى الدولي، إلا أنه شهد تطوراً خطيراً في زمن الحروب الصليبية حيث مثلت سمة هذه المرحلة بالإضافة إلى عنوان التدافع العسكري مثلت كذلك سمة التعارف والاعتراف بما لدى كل طرف. تدافع عسكري حركت جذوته الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية، وتعارف ثنائي بين الطرفين شهد ذروته بعد تعرف العالم الغربي على العالم الإسلامي أثناء الحروب الصليبية. كما شهدت هذه المرحلة تنافس إسلامي إسلامي على العلاقات مع الغرب بين دولة الأندلس والدولة العباسية شهدت هدوءاً.. وسنتعرف فيما يلي على أهمية هذه العلاقات الإسلامية الغربية ممثلة في نشاطها الدبلوماسي، ولكن سنركز على الأبعاد الخفية لهذه العلاقات ومن المستفيد الأكبر جراء التقارب الحاصل في الجانب العلمي والمعرفي... وكيف حول الغرب الحروب الصليبية إلى نصر معرفي بعد هزيمته العسكرية فيه.

أولاً: التنافس الإسلامي الإسلامي على معرفة الغرب.

كان النشاط الدبلوماسي في مرحلة الامويين والعباسيين والأندلسيين أهم القنوات التي تعرف بها العرب على الغرب في زمانهم، بل كان استغلال العرب لهذا النوع من العلاقات أهم مصدر للمعلومة عن طبيعة مايدور في مركز صنع القرار في تلك الدول، ولذلك كثفوا فيها " حتى شملت عدة دول

خاصة بعد قيام الدولة الأموية، حيث ازداد تبادل السفراء والرسل بين الروم ودمشق. فبرزت ايضا المعاهدات التي عقدها معاوية مع البيزنطيين عام ٦٧٧ م، وكذلك معاهدة عبد الملك بن مروان معهم ٦٧٩ م ".[٧٥]

وبقي الامر كذلك إذ لم تنقطع الخطوط والصلات الدبلوماسية بين الطرفين.. فحافظ الملوك والامراء من كلا الجانبين على السفارات والوفود، "فقد أوفد المنصور مثلاً وفداً وسفارة إلى الروم الفرنجة في زمانه، وتعززت العلاقات اكثر في زمن هارون الرشيد وشارلمان العاشر... وقد تسابقت الدول الإسلامية في معرفة الغرب أكثر مثلما كان السباق بين الدولة العباسية، ودولة عبد الرحمن في الاندلس، وما نتج عن ذلك من توثيق للصلات والمعاهدات..[٧٦]

وإن كان هذا السباق يكسوه طابع المنافسة السياسية إلا أن من مقاصده زيادة الحصيلة المعلوماتية والمعرفية عن الطرف الآخر / الغربي على وجه الخصوص، ولذلك نجد مثلا أن "أول سفارة مغربية إلى دولة مسيحية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الثاني الهجري حيث وجه المولى إدريس الثاني إلى الإمبراطور شرلمان عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م سفيراً فصادف عنده مبعوث الخليفة العباسي هارون الرشيد ".[٧٧]

ومن خلال ملاحظة ارتفاع وتيرة التبادل الدبلوماسي نلاحظ مدى حرص كل طرف على الاستزادة أكثر من ذي قبل "فقد وجه ملوك المغرب - مثلا -

---

(٧٥) أنظر : علي حسين الشامي ، الدبلوماسية : نشأتها وتطورها وقواعدها . دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٤ م، ص: ٩١

(٧٦) أنظر: علي حسين الشامي ، الدبلوماسية : نشأتها وتطورها وقواعدها . دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٤ م، ص:١٠١

(٧٧) أنظر :عبد العزيز بن عبد الله، العلاقات الدولية الدولية في الإسلام، أعمال ندوة أسس العلاقات الدولية في الإسلام، ٢٨ رجب ١٤٠٨هـ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، ص٢٣

إلى الخارج زهاء مئة سفارة منها نحو سبع وعشرين إلى فرنسا وحدها أولاها عام ،١٥٧٦م ــ ٩٨٤ هـ ، أي بعد معركة واد المخازن ، والأخيرة سفارة محمد المقري عام ١٩٠٩م ـ ١٣٢٧ هـ ،وتلقى المغرب عبر هذه العصور ما يقارب نفس العدد أي مئة سفير من أقطار أوروبية أهمها فرنسا وانجلترا وهولندا والولايات المتحدة واسبانيا ، وألمانيا والسويد والنمسا والفاتيكان وهنغاريا ونفاريا ".(٧٨)

والملاحظ مثلاً أن الكيان الإسلامي بمختلف تشكيلاته السياسية المتنوعة كان سباقا ومبادرا إلى الاطلاع على الجديد والمستجد في الغرب بجناحيه البيزنطي والإفرنجي، يذكر الدكتور ابراهيم العدوي في كتابه " السفارات الإسلامية في العصور الوسطة " أنه ونتيجة لظهور دولتين إسلاميتين واحدة في المشرق والأخرى في المغرب ، فقد احتدت المنافسة بينهما لتوطيد العلاقة مع امبراطورية الروم، ودولة الفرنجة،... هذا الوضع السياسي الجديد قد أدَّى إلى ازدياد في النشاط الدبلوماسي؛ ذلك أن الخلافة العباسية في بغدادَ لم تعُدْ ترسل سفاراتِها إلى القسطنطينية فحسب، وإنما بدأتْ تبعث إلى بلاط الفرنجة؛ لتجعل من تلك القوّة الجديدة سنداً لها في منافستِها للأمويِّين في الأندلس، وفي نفس الوقت لم يعُدِ الروم يرسلون سفاراتهم إلى بغداد فحسب، وإنما أخذوا يرسلونَها إلى قرطبة عاصمة الدولة الأموية، ليجعلوا منها عضدًا لهم."(٧٩)

لاشك أن العرب في العهد العباسي بأقدامهم على مشروع ترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية قد غيروا مسار العلاقة مع لغرب من خلا تراثهم القديم ،كما أنهم تمكنوا أكثر من التعرف على البنية العميقة التي بني عليها العقل الغربي .

---

(٧٨) المرجع ذاته ، ص٢٣

(٧٩) موقع الألوكة، رابط الموضوع: :
http://www.alukah.net/sharia/٠/٤٦٣٠٦/#ixzz٣٤PyKLVcz

ثانياً: أهمية الدبلوماسية في التعرف على الآخر في هذه المرحلة.

غني عن البيان أن لهذه المعاهدات والبعثات الدبلوماسية مقاصد تتجاوز جانبها البروتوكولي ،" فقد كان يتم إرسال البعثات الدبلوماسية بهدف الإخبار والاستعلام عن حال العدو ومراقبة ميزان قوى الدول المجاورة ، وإجراء تحالفات سياسية وعسكرية ".[80]

ونورد هنا على سبيل الاستدلال مدى حرص الدبلوماسي في مهامه على مسح الاماكن التي يزورها مسحا سياسيا وعسكريا وثقافيا فقد كانت العرب منذ القديم توصي السفير أن ينام عند رأس القوم لا ذنبه ، وأن لا يكون بعيدا عن القصر مصدر المعلومة وهذه الخبرة تراكمت حتى صارت دربة سياسية في القيادة الإسلامية، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه "حين وجه يزيد بن أبي سفيان لفتح الشام وصاه قائلا: " وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثواهم فإنه أول خيرك إليهم ، وأقلل حبسهم ، حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ،وامنع من قبلك من محادثتهم وكن انت الذي تلي كلامهم ، وإذا بلغك عن عدوك عورة فاكتمها حتى توافيها، واستر في عسكرك الأخبار " [81]،وإن كان هذا النص له دلالة متعلقة بالأدب العسكري إلا أن معاني لها علاقة بمدى حرص كل طرف على معرفة الطرف الآخر ...

ويبدوا أن الأمر ينطبق على الطرفين في الذكاء وقوة البصيرة والقدرة على تصوير ومسح بصري للواقع... فقد أورد الفراء في رسائل الملوك قصة عن أحد السفراء البيزنطيين الموفد في عهد الدولة العباسية على أبي جعفر المنصور.... "وتذكر الرواية أن الزيارة كانت بعد بناء المنصور بغداد

---

(٨٠) أنظر : علي حسين الشامي ، الدبلوماسية : نشأتها وتطورها وقواعدها . دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٤ م، ص:١٠٣

(٨١) أبو بكر القادري، أسس العلاقات الدولية في الإسلام ،أعمال ندوة أسس العلاقات الدولية في الإسلام ،٢٨،رجب،١٤٠٨هـ مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، ص٤٥

عاصمة الخلافة ،سنة ١٤٥هـ .. وتذكر الرواية أن المنصور أمر أحد رجاله بمرافقة المبعوث حتى يرى معالم مدينته وعمارتها ويوقفه على أسواقها وسككها، وقد أعجب المبعوث البيزنطي بما رآه ، لكنه ابدى ملاحظة للخليفة فميا يروي عندما سأل المبعوث عن رأيه في عاصمة الدولة الجديدة فقال : "رأيت بناء حسنا، إلا أني رأيت أعداءك معك في مدينتك، قال: ومن هم؟، قال السوقة، وفي رواية قال له: النفس خضراء، ولاخضرة لك، والماء حياة ولاحياة لك، وعدوك معك .." فأجابه المنصور جوابا دبلوماسيا إلا أن الروايات تقول "أنه وبعد عودة المبعوث أمر المنصور بإجراء المياه إلى داخل بغداد، وإخراج الأسواق إلى خارج باب الكرخ "[٨٢]

ومما يروى في هذا الشأن من محاولة انتزاع المعلومات عن الطرف الآخر بطرق لطيفة ذكية، ومن ثم دراستها وفهمها أكثر للتشبع بالوضع الحقيقي عن الآخر، فقد روى أن وزير المعتصم محمد بن حسن الزيات سأل مبعوثا بيزنطيا كان في حضرته :" كم خراج بلدكم قال أقل من مائة ألف دينار، فقال محمد هذا غلة بعض ضياع أمير المؤمنين، فقال الرسول نحن أحزم وأحكم في باب الخراج منكم، أنتم تستخرجون من الناس مالا فتكسبون عداوتهم، وتوغرون صدورهم، ويسرق المال عمالكم ويعطون عليه الأرزاق، ثم يحمل من بلد الى آخر فيذهب ويتخرم في الطريق، وتحتاجون أن يسلم إلى خزنة وحراس ثم تخرجه إلى رجالكم، ونحن جعلنا خراجنا رجالا فكفينا هذه المؤنة، وصيرنا هذا المقدار الذي ذكرته لك رسما للخراج لئلا يبطل اسمه فأمنا عداوة الناس وحفظنا المال وكفينا ما أنتم فيه، قال المؤلف فسكت محمد بن عبد

---

(٨٢) سليمان الرحيلي ،السفارات الإسلامية إلى الدول البيزنطية ،مكتبة التوبة الرياض ،الطبعة الأولى ١٤١٤هـ،ص٥٢،٥٣.

الملك الزيات ولم يحر جوابا.."[83]

ولكن العجب هنا ليس في جواب البيزنطي الذي درس الوضع والحالة في كلا الجانبين، وإنما في جواب ابن الفراء الذي اقتنص علما جديدا بأحوال الروم من خلال هذا الجواب وذلك من وجهين:

الأول: قوله: "وقد كان الجواب ممكنا والحجة متوجهة عليه والخطأ في القول لازما له وذلك أن رجال الحرب بمثابة الجوارح التي لا يجوز أن تمرن بعمل من الأعمال ولا مهنة من المهن غير اختطاف الأرواح وصيد الرجال وإعمال الحيلة في التسليم من اللقاء والكر والفر وفي الإقامة والتحيز فلما صارت الروم أهل تناية وأصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة نشأ الأبناء على ما عليه الآباء فركنوا إلى الدعة وهابوا الحروب ونكصوا عن لقاء الأعداء وصيد الرجال وصاروا جمع العصا وخشوا الفلس فحينئذ صار الرجل الواحد من المسلمين لا يهاب لقاء الجمع الكثير من الروم وله تسلط عليهم واقتدار على تفريق جماعتهم" .[84]

والثاني : قوله "وقد كنت أعرف عن الروم أن أخس الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب وأن الشاكري أجل رتبة منه حتى علمت الآن قلة احتياجهم إلى من يحفظ الارتفاع ويحمل أعباء الملك وتساوى كافتهم في البلادة وقلة المعلوم ولعمري إن نوازع الروم وأغراضهم ودواعيهم وأوطارهم أقل من نفقات المسلمين ودواعيهم "[85] فجواب ابن الفراء أقرب إلى كونه تقريراً سياسياً استراتيجياً تحليلياً عن وضع سياسة الروم الاقتصادية ومآلاتها على الجانب العسكري ومدى جهوزيتهم على المجابهة والحرب، وهذه معرفة لم يكن

---

(83) ابن الفراء ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ،تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩م ، ص: ٧١

(84) المرجع السابق رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، ص: ٧١

(85) المرجع السابق، ص: ٧١

ليكسبها لولا جواب البيزنطي.

ثالثاً: ذروة التعارف والتدافع بين الشرق الغرب (الحروب الصليبية)

كانت الحروب الصليبية (١٠٩٦م/ ١٢٧٠م) ولا تزال أهم علامة تميز تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب، إذ لا يزال صداها يتردد بين الشرق والغرب، كما غدا المصطلح يستهوي الكثير من الساسة والمفكرين في العالم الغربي، ويحاولون إعادة إنتاجه، من خلال محاولة استدعاء تمثلاته التاريخية إلى الواقع اليوم في مختلف المناسبات ..

- الذي يهمنا في هذا المقام وفي هذه الجزئية بالذات، ليس السرد التاريخي لهذه العلاقة في هذه المرحلة الحرجة، ونحن نعلم أنها متموجة في زمن كانت الحروب هي بصمة العلاقات الدولية وسماتها ،كما نعلم أنه من غير الممكن إحصاؤها وعدها في هذه الصفحات عدا، فهذا مما لا يتسع له صدر البحث، ولا الكتاب كله ، ولكن الذي يهمنا أكثر هو رصد لمدى قدرة المسلمين على فهم الآخر / الغربي في هذه المرحلة ..والحصيلة التي خرجوا بها من جراء تفعيل القنوات الدبلوماسية ، هل زادت معرفتهم بالغرب أكثر؟ ، هل استطاعوا أن يفهموا طبيعة القوة المتنامية أمامهم ؟، هل فهموا فلسفة الغرب في صناعة التحالفات الدولية ؟، هل استفادوا من خبرة الغرب / البيزنطي والافرنجي ؟ ، خاصة وأن تعاملهم مع الجانبين كان على أشده وكان على سابق معرفة بطبيعة الطرفين بل وبالخلاف المحتدم بينهما .؟ من الذي خرج مستفيدا من الحروب الصليبية ؟ من الذي استطاع ان يدرس الآخر ويستفيد منه أكثر .

لا نزعم اننا سنوفي القارئ الكريم بجواب كامل، ولكن سنحاول من خلال هذه السطور الاقتراب من ذلك قدر الإمكان .

- لا أحد من المؤرخين أو المتابعين للشأن الإسلامي والغربي ينكر عمق الأثر الذي تركته الحروب الصليبية على العالم الإسلامي حيث يعترف الغرب من خلال مفكريه أنه لم يسبق أن خاض أحد حربا تحت اسم القداسة في

قضية مقدسة كما فعلت الكنسية.. يقول روم لاندو:" والذي لا ريب فيه أن العقل الأوروبي الوسيطي Medieval قد اعتبر الحروب الصليبية حروبًا مقدسة من أجل قضية مقدسة. ففي الإسلام لم يعلن أي (جهاد) عام ضد الصليبيين، ولم يوجّه الخليفة، دفّة هذه الحروب. أما في الغرب فقد فني الباب في تلك القضية واعتبرها قضيته الذاتية. والواقع أن الحروب الصليبية، كحركة دينية كشفت - من طريق التعصب والتطرف الدينيين - عن أسوأ مظاهر النصرانية الوسيطية كلها. لقد نجحت الحروب المقدسة في خلق شقة واسعة تفصل ما بين الشرق والغرب بدلاً من أن يعيد تدعيم الجسر الرابط ما بين ثقافتين تجمع ما بينهما في نهاية المطاف مفاهيم إيمانية مشتركة، ومصالح ثقافية تمتنع على الإحصاء.."[٨٦].

مع هذه الضراوة والقسوة في المعاملة التي أبداها الصليبيون على كل القلاع والمدن التي استولوا عليها طيلة قرنين من الزمن، أي على امتداد تاريخ الحروب الصليبية، فإن الإسلام وإن خسر جولات عسكرية وحصونا منيعة، وانتقص من بعض أطراف جغرافيته ، إلا انه لم يخسر أخلاقه ومبادئه ولم يتراجع قيد أنملة عن مبدأ واحد أقره من قبل، فلم يسجل التاريخ أن انتقم المسلمون من أهل الذمة المشاركون لهم في الوطنية الإسلامية جراء الحروب الصليبية مع أنها كانت حربا دينية تفاعل معها الكثير من الذميين لصالح إخوانهم في العقيدة على حساب إخوانهم في الوطنية، يقول الأستاذ عماد الدين خليل في تعليق رائع على هذا المشهد المثالي:

" وإن الإسلام نفسه، قبل غيره من الأديان، كان سيخسر الكثير، لو حاول أن يسعى إلى تحصين نفسه بالحقد والطائفية.. وإن الإنسان نفسه كان سيغدو الضحية، لو أن المجتمع الإسلامي خرج على التقاليد النبيلة المتألقة التي

---

(٨٦) عماد الدين خليل ،قالوا عن الإسلام ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، ص ٣١٢

علمه إياها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، لأنه –فيما عدا التاريخ الإسلامي– ليس ثمة في تاريخ البشرية، قديماً وحديثاً، مرحلة احتُرِم فيها فكر المخالفين وصينت عقائدهم، وحميت حقوقهم، بل كانوا في غير هذا التاريخ – على العكس تماماً– هدفاً للاستعباد والهوان والضياع، بل التصفية والإفناء"[٨٧]

رابعاً: الحروب الصليبية والصدمة المعرفية للغرب المسيحي:

ـ إذا كانت الحروب الصليبية هي المرحلة التي استغلها الغرب لاكتشاف الشرق بجوانبه المادية والمعرفية، خاصة في مراحلها الأولى فعاد منها مصدوماً ـ ليس بخسارته أمام القوى الظلامية كما كان يتصورها في مخياله الجماعي والديني ـ بل كانت الصدمة معرفية نتيجة الرقي الحضاري والمبدئية العلمية العالية التي اكتشفها في العالم الإسلامي ومدى عظمة الحضارة التي نزل يقارعها.. فكانت الحروب الصليبية بإجماع المؤرخين والعارفين بشؤون الحضارات أول وخزة حضارية في الجسد الغربي الذي كان يعيش في دهاليز الظلام... وبغض النظر عن نتائج الحروب الصليبية التي تركت أثرا لا ينسى على مر الدهور ولا تزال تأثيراتها وحلقاتها مستمرة إلى يوم الناس ،فقد خرج المسلمون بصدمة عسكرية وخرج الغرب بصدمة معرفية فاختلفت الفائدة عند كلا الطرفين .

ـ تأثر العالم الغربي بالعالم المسيحي تأثرا شموليا لم يتوقف على قطاع معين شمل الامتداد الأفقي والعمودي للحضارة الإسلامية ،حتى قال رنولد توينبي:" لقد أسر الإسلام المغلوب (في الحروب الصليبية) غالبيه، وأدخل فنون الحضارة إلى حياة العالم المسيحي، وقد كانت حياة لاتينية صدئة، وفي بعض حقول النشاط الإنساني، كهندسة البناء مثلاً، تغلغل التأثير الإسلامي في العالم المسيحي كله طيلة قرونه الوسطى، أما في صقلية والأندلس فقد كان

---

(٨٧) عماد الدين خليل ، المسلم والآخر : رؤية تاريخية ، إسلامية المعرفة : العدد ٣٢/٣١ ، ص:٢٠

تأثر الدولة الغربية الجديدة فيهما بالإمبراطورية العربية القديمة أوسع شمولاً وأبعد غوراً "[٨٨] هذا النص الذي نعتبره شهادة من أحد قامات العلم في أوروبا، يختصر لنا حقيقة المشهد الثقافي والحضاري الذي كان يحكم العلاقات بين الطرفين .

ولا ننس أن تلك الفترة ، وإن كانت فترة حروب صليبية بأتم ما للكلمة من دلالة، إلا أن العلاقات الاقتصادية، بل والحضارية لم تطالها القطيعة الشاملة من كلا الطرفين، ففي الوقت الذي كان صليل السيوف يعلو في سماء العالَمين، كانت العلاقات التجارية تزداد قوة ومتانة دون الأخذ بعين الاعتبار لحساسية الموقف الديني والسياسي من كل طرف ، حتى كتب ابن جبير يقول "ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم،.. بل إن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين، شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً "[٨٩]

بقيت العلاقات الحضارية العابرة للأمتين ـ الشرقية والغربية ـ مستمرة في تدفقها، ولعلنا نستشهد هنا بمقولتين الأولى تبين أثر العلاقات الإسلامية المسيحية، وتأثر أوروبا بهذه العلاقة إيجاباً إشارة إلى سلطان الحضارة الإسلامية على الإنسانية في ذلك الزمان، والثانية تشير إلى أحد أهم المخرجات الأخلاقية الناجمة عن الاحتكاك الإسلامي بالغرب زمن الحروب الصليبية وأثرها على تهذيب العقيدة العسكرية للغرب الصليبي.

يقول ابن جبير ".. لعلنا نعجب لهذه الدرجة من الاحترام المتبادل التي

---

(٨٨) عماد الدين خليل ، قالوا عن الإسلام ، مرجع سابق،ص ٣٥٠

(٨٩) انظر : ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، ١٩٦٤ م،دط،دت ص: ٢٣٤ ، ٢٤٥

أصبح كل من المتحاربين من الفريقين (الإسلامي والمسيحي) يكنها للآخر.
كما نعجب لهذا القدر من الزاد الثقافي الذي نشر به مسيحيو الغرب الوسيط عن هذا الطريق السوري.. (حيث أصبحت فتوحات الصليبيين الموقتة في سوريا، وفتوحاتهم الدائمة في صقلية والأندلس - على حساب دار الإسلام - محطات (إرسال) متعددة، أمكن عن طريقها نقل الكنوز الروحية إلى العالم المسيحي الغربي في العصور الوسطى. إن الجو النظيف القائم على التسامح الديني والتطلع الفكري الذي أسر - بعض الوقت - ألباب فاتحي بالرمو وطليطلة من مسيحيي الغرب، بمقارنته بروح التعصب التقليدية فيهم، هذا الجو النظيف، كان أصيلاً في الإسلام في عهده الأول.. لقد تلقى مسيحيو القرون الوسطى في الغرب من معاصريهم علماء المسلمين، نتائج البحث الإسلامي.."(٩٠)

وهذا إدوارد بروي يعترف أن الحملات الصليبية قد كانت مناسبة لتهذيب السلوك الغربي خاصة أخلاق الفرسان:" فقد أفضت الحملات الصليبية بسرعة أخيرًا، بإقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافياً، إلى تهذيب أخلاق الفرسان، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغريبة وإدخال التقنيات الجديدة.. وإطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والآداب في العالمين العربي واليوناني: فجاءت هذه الأشكال والمفاهيم والطرائق والعادات، التي حصل عليها أحيانًا في إمارات فلسطين وإيطاليا الجنوبية، وشبه الجزيرة الإيبيرية، وانتشرت بفضل العائدين من الحج، تنمي التراث الثقافي في أوروبا المسيحية.."(٩١).

أ : تحويل الصدمة المعرفية إلى انطلاقة حضارية:

في أتون المشاهد السابقة التي عرضناها عن طبيعة العلاقات التي كانت

---

(٩٠) عماد الدين خليل ، قالوا عن الإسلام ، مرجع سابق ،ص: ٣٥٥

(٩١) المرجع ذاته ، ص: ٣٤٣

تحكم العالمين يبق من اللازم علينا أن ندرس الحصيلة التي خرج بها المسلمون من الحروب الصليبية، في مقابلة الاستفادة الكبرى التي أخذها الغرب، وطور نفسه من خلالها.. لنتعرف هنا عن مكامن الداء والخلل.

وإن سجلنا هنا ـ كما يسجل أي ملاحظ ـ أن الكيان الغربي في عموم أحواله إذا ما تعرض للقواصم الحضارية أو فقد جزءاً من عالمه، فإنه سرعان ما يتداعى لدراسة أسباب ذلك، عكس المسلمين الذين عجزوا عن تقييم الأمور وتقويمها ومراجعتها معرفياً.. وهذا يذكرنا بحديث عمر بن العاص رضي الله عنه حيث قال وصف لنا أنتربولوجية الأمم الغربية ونظمها الثقافية والمعرفية والسياسية في جملة واحدة فقال: "إن فيهم لخصالاً أربعاً، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك" [٩٢]

وهذا ما لم نراه أو نلمسه في فاجعة سقوط الأندلس(٢يناير ٤٩٢ م)، حيث بكاها المسلمون في المشرق والمغرب، ولكن بالقصائد والمراثي ولا تزال المطابع العربية والإسلامية تقذف كل مرة بقصائد عن ضياع الأندلس وزفرة العربي الأخيرة فيها، دون أن يقدموا دراسات أعمق لأسباب السقوط ولا تحليلاً سننياً مقنعاً إلى يوم الناس هذا، وكان واجب الالتزام الأدبي والديني بل والعلمي يفرض أن يتداعى الكيان الإسلامي ثقافياً على مستوى النخب الفكرية والعلمية لدراسة أسباب فقدنا لأمة عمرت تلك البقاع لثمانية قرون من الزمن، وقدمت للإنسانية من خلالها آيات الإبداع الفكري الذي لم ير مثله قط في الدنيا كلها لا من قبل ولا من بعد، على نحو ما فعله أقرانهم من الأوروبيين في سقوط القسطنطينية (الثلاثاء ٢٩ مايو ١٤٥٣م).

وصدق الشاعر الجزائري مفدي زكريا وهو يصف حالة الأمة في تقييم

---

(٩٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، رقم: ٢٨٩٨، ج:٤، ص:٢٢٢٢

نكباتها الحضارية فيقول :

ألفنا بكاءً مذ قال قيسنا   قفا نبكي فبكينا وما قمنا

وهذه الحالة العجيبة لا نجدها في الجنس الأوروبي كما في هي الجنس العربي خاصة،" فمباشرة بعد سقوط القسطنطينية في يد السلطان محمد الفاتح، وشيوع شهرة الأتراك المسلمين الذين جاهدوا في الفتح وعزموا على الغزو حتى وصلوا إلى التخوم الأوروبية ودقوا أبواب منطقة البلقان، شاع الخوف من الإسلام وطبائع المسلمين في تلك المجتمعات الأوروبية، وكانت محصلة الحالة الأوروبية يوم ذاك كرد فعل تكتيكي على هذا الخواف المستشري هو ترتيب مناهج وأساليب الاستكشاف لمزيد من العلم والمعرفة لتشكيل الوعي التام بهذا الزلزال الإسلامي المخيف.

وهنا تتواكب اجتهادات المفكرين المسيحيين الأعلام مثل القديس توما الإكويني، ومارتن لوثر وغيرهم، من الذين اشتغلوا بهمة ونشاط في تشكيل خلايا البحث المعرفي من التي اهتمت بدراسة الإنسان والحضارة والمجتمعات الإسلامية في شتى مظاهرها ومقاصدها بشكل مبرمج وموسوعي عرفت به التقاليد الكنسية في تحصيل المعرفة وتقديسها "(٩٣)

وكان من نتائج إطلاع أوروبا على الحضارة الجديدة في الأندلس أن فتح العالم الغربي كوة ليطل بها على العالم الإسلامي" الهمجي" في تصوره ومخياله، ليعود ويجلس بين يديه مرة أخرى في مشهد التلميذ أمام أستاذه، كما يقول المؤرخون حيث بدأت الوفود والبعثات العلمية تتقاطر من كل صوب وحدب إلى بلاد الأندلس، لتنهل وتقتبس من منجزات الحضارة الإسلامية. وكان الاهتمام وحب الاطلاع سياسة رسمية قبل أن تكون فيما بعد تياراً شعبياً عارماً.

---

(٩٣) عبد الله صالح أبو بكر ،حوار الحضارات : تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا ،إصدار هيئة الأعمال الفكرية السودان الخرطوم ، الطبعة الثانية: ٢٠٠٢م،ص٩٣

تجمع الروايات أن "أسبق الأوروبيين إلى ذلك الملك فيليب البافاري؛ حيث بعث إلى الأندلس يرجو الأمير الأموي هشام الأول يرجوه أن يسمح له بإيفاد بعثة إلى قُرْطُبَة Cordova لدراسة أنظمة الأندلس وثقافتها، ومشاهدة أوجه النشاط بها، فقبل الأمير رجاءه وأرسل الملك الجرماني وفداً إلى الأندلس برئاسة وزيره الأول "ويلميبن" الذي أطلق عليه الأندلسيون اسم "وليم الأمين "لأنه تحرى الأمانة في نقل ما رأوه من مظاهر نهضة بلادهم إلى الملك. وقد أشار الوزير على الملك بالاستمرار في إرسال البعثات العلمية لاقتباس ما يفيد البلاد من فنون الحضارة العربية[٩٤]

وبين فترة فتح الأندلس إلى غاية القرن الخامس الهجري لم تتوقف حركة البعثات لاستكشاف الحضارة الإسلامية معرفياً، ولكن مع كل ذلك كان المشهور في كتب التاريخ التي تؤرخ لهذا المشهد العلمي الحضاري "البعثة التي أرسلها ملك انجلترا جورج الثاني، بقيادة امرأة وهي الأميرة دوبانت Dopant، "على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة، من بنات الأمراء والأعيان، إلى إشبِيلِيَة بمرافقة النبيل "سفليك" رئيس موظفي القصر الملكي، وأرسل معه كتابا إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس جاء فيه بعد الديباجة: " وقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم، والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل؛ لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد أرسلنا ابنة شقيقتنا الأميرة "دوبانت "على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز؛ لتتشرف بلثم أهداب العرش؛ والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم؛ وحماية الحاشية

(٩٤) أنظر: أنور محمود الزناتي، معابر التواصل اللغوي والحضاري بين الشعوب الأندلس. شبكة الألوكة

رابط الموضوع: http://www.alukah.net/culture/٠/٤٤٥٦٦/#ixzz٣٤vT٠٤kA٨ :

الكريمة، وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع: جورج"(٩٥)

وهكذا بدأ الغرب في نقل الحضارة الإسلامية وإعادة إنتاجها من جديد في بيئة أخرى ،غير البيئة التي ولدت فيها وهذا بفضل حذاق وأذكياء العالم الغربي .. الذين أتقنوا اكتشاف الآخر ودراسته، وقبل ذلك فهمه فهماً صحيحاً.

ب: استشكال معرفي: هل أوتي العالم الإسلامي من قلة المعلومة بالغرب؟

حين كان الغرب أيام الحروب الصليبية وبعدها يكسب في علاقته مع الحضارة الإسلامية، كان العالم العربي والإسلامي يفقد أكثر فأكثر، بالرغم من أن مشكلته الأساسية لم تكن في نقص وشح موارد ومصادر المعلومات عن الطرف الأخر، فقد كان يكتب عن الآخر بروح العالمية والاستخلاف إذ" كُتب في عصر الحضارة العربية الإسلامية تصانيف كثيرة عن العالم غير الإسلامي، بما فيه أوروبا، كما لو أن الشعور بالوحدة الداخلية التي تجمع الأمة الإسلامية ، بما تحمله من ثقة بالذات ومعرفتها، قد نقل حب الاطلاع إلى الحدود، فأمضت دار الإسلام ثلاثة قرون، من منتصف القرن السابع الميلادي حتى منتصف القرن العاشر، تعمل على اكتشاف تنوع البشرية تحت شعار وحدة رسالتها"(٩٦)

وهذا ما جعل الفجوة المعلوماتية عن الآخر بين العالم الإسلامي والعالم الغربي تميل لصالح المسلمين، وهذه مسألة علمية مسلم بها، عند جمهور المستشرقين وهذا شيخ المستعربين الروس المستشرق "أغناطيوس كراتشكو فيسكي" يقر ذلك في كتابه المشهور " تاريخ الأدب الجغرافي العربي " :

---

(٩٥) أنظر : أنور محمود الزناتي ، معابر التواصل اللغوي والحضاري بين الشعوب ..الأندلس ، شبكة الألوكة: http://www.alukah.net/culture/٠/٤٤٥٦٦/#ixzz٣٤vUu٨v٢R

(٩٦) ميكيل ، جغرافية دار الإسلام مرجع سابق ، ج١ ، ص:٢١٠.

الاتساع الهائل في مدى المعلومات عن العالم لدى المسلمين ، بالمقارنة بما عرفه العالم القديم، فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شماليها، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا كما عرفوا إفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمالاً وساحل افريقيا الشرقي إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدي، وترك لنا العرب وصفاً مفصلاً لجميع البلدان من اسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقا مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة، وللمناطق المزروعة، والصحاري وتبينوا انتشار النباتات المزروعة واماكن المعادن.

ويضيف قائلاً ـ ولم يجذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب بل أيضا الحياة الاجتماعية والصناعية والزراعية واللغة والتعاليم الدينية، كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان ،كما عرفوا طريق اليابس الذي يرتفع إلى أعالي نهر ينسي، وعرفوا سواحل آسيا إلى كوريا شمالاً....هذا وقد أثبت البحث العلمي المعاصر أهمية المعلومات التي جمعوها حتى عن بلاد نائية مثل أرخبيل الملايو واسكنديناوه وجنوب شرقي أوروبا.. ". [٩٧]

لقد سعى العرب والمسلمون من خلال ما يحملون من موروث وثقافة إلى التعرف على الآخرين، وكان هذا السعي يدخل في إطار مضمون رسالة الاستخلاف في الأرض التي كلفوا بها، ولذلك أبدعوا وأجادوا بما لم تجد به قريحة أحد من قبل في وصف غيرهم ودراستهم والاطلاع على أحوالهم، ويمكن أن نغض الطرف عن البعد الديني والرسالي في الموضوع ،"ففي الحالة الاعتيادية كان محصول المعلومات التي تملكها الدولة عن الشعوب الاخرى ضرورة واقعة أكيدة، يقول المستشرق أغناطيوس كراتشكو فيسكي" ثم إن مصالح الدولة، التي أصبحت أكبر قوة عالمة لذلك العهد، حالت دون أن

---

(٩٧) أغناطيوس كراتشكو فيسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، مرجع سابق ،ج١ ،ص: ٢٢

تكتفي بمعرفة أراضيها وحدها، بل كان من الضروري أن تحصل على معلومات دقيقة من الأقطار الأخرى المتاخمة لها، وقد ساعد على هذا الحرب والسلم معاً "[98]

- أين الخلل إذا، لماذا لم توظف هذه الحصيلة الهائلة من المعلومات لصالح المسلمين، هل يكمن الجواب في العجز عن إنتاج مشروع كامل لدراسة الآخر في ذلك الزمان، مثلما أنتجت الكنيسة الاستشراق، واكتفت الأمة بظاهر ما أنتجه أدب الرحلة واعتبره البعض تسلية وترفا فكريا أو على أقل التقدير لم يلق التثمين اللازم؟، أم أن الأمر يتعلق بكون الرحلة والتنظير عن الغرب كحركة علمية لم تجد تأطيرا علميا مناسبا وتركت لجهود الأفراد فهم يحددون وجهتهم وفق ظروفهم وقدراتهم. عكس ما كان في زمن الكنيسة والاستعمار، حيث كانت توجه لأهداف وأغراض دقيقة .

فالرحالة العرب كما السفارات كانوا يجوسون خلال الديار شرقا وغربا، ولم يكونوا من السوقة وعوام الناس، بل كانوا من صفوف النخبة المثقفة الأول في الدولة والمجتمع مثل ابن بطوطة، والمسعودي، وابن جبير والهروي وابن منقذ، والغرناطي وابن سعيد المغربي، والإدريسي ،والبكري وابن فضلان..، بما معناه أن هؤلاء لم يكونوا هواة، كما كتبهم لم تكن هواية، بل كانت أقرب إلى طبيعة التقارير الإستراتيجية عن حال ووضع أوروبا والأمم الأخرى، كتلك التي تصدرها مراكز الدراسات الإستراتيجية العالمية اليوم.

وهذه شهادة مؤرخ الحروب الصليبية بروتز يقول:" ليس في وسع الأدب الأوروبي لذلك العهد - القرن التاسع عشر - أن يقدم مثالاً يفضل مؤلفاتهم، ويكفي في هذا الشأن تصفح ماخلفه المؤرخون العرب ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه فن التاريخ في أوروبا ليبدو لأول وهلة دون تردد أين يكمن الفهم

---

(٩٨) المرجع ذاته ،ج١، ص: ١٩

والإحساس التاريخي والوعي السياسي والذوق في الشكل والفن والعرض ".(٩٩)

بل لقد بلغ الأمر ببعض الرحالة أن يتجاوزا مألوف السنن الإلهية في حب الأوطان، ويعاكسوا تيارها تشجيعاً وتسليةً للنفس حتى تبلغ مآربها في معرفة الآخر ورصد حركاته، فهذا ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني صاحب مختصر كتاب البلدان يقول تشجيعاً على الرحلة في طلب المعرفة بالآخر. "وقالوا: الحنين إلى الأوطان من أخلاق الصبيان، وفي طول الاغتراب فوز الاكتساب،... ولولا اغتراب الناس عن محالهم ضاقت بهم البلدان، ولولا اغتراب المغتربين ماعرف مابين الأندلس والصين " .(١٠٠)

ويستشهد بعضهم بالشاعر العربي:

فلا كوفة أمي ولا بصرة أبي ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسل

بالرغم من كل ذلك نعود ونكرر في ظل هذه المراجعة ونحن نتحدث عن علاقة المسلمين بالغرب في تلك الأطوار، وبخاصة مرحلة الاحتكاك الإسلامي الأوروبي في فترة الحروب الصليبية، وضخامة الحصيلة المعلوماتية عن الغرب الأوروبي التي يمتلكها المسلون إلى أي مدى استفاد المسلمون منها، بالرغم من أن هناك محاولات عديدة استدراكية لدراسة الغرب أثناء وبعد الحروب الصليبية برؤية أكثر عمقاً، وانضج تحليلاً من سابقاتها التي كانت محاولات على جدتها وجودتها وصفية.

فقد ظهر مثلاً " في ظل دولة المماليك، وبعد هدوء المعارك، التآليف الموسوعية، كموسوعة القلقشندي والعمري والنويري، جمع فيها أصحابها المعارف العربية الإسلامية، وضمت مكتسبات الرحلات في التعرف على الآخر، بما فيها أوروبا. وكأنهم أرادوا بذلك أن يحفظوا ذاكرة الأمة، تقوية لجذورها بعد الاختراق الإفرنجي المفاجئ لبلادهم، وما ولّده من جرح لشعورهم

---

(٩٩) المرجع السابق ، ج١،ص٢٠

(١٠٠) ابن الفقيه ، البلدان ، تحقيق يوسف الهادي ، عالم الكتب بيروت ،١٩٩٦ م ، ٤٧

بالتفوق والأمان. كما شهدنا مصنفات جمعت وقائع الرحلات وبوبتها، كمؤلفات القزويني، ثم تأتي مؤلفات ابن خلدون على مشارف الانقلاب التاريخي الكبير، الذي سنشهد فيه صعود أوروبا في أقصى الغرب، مع نهاية فصول (حرب الاسترداد) والسيطرة النهائية على بلاد الأندلس مع سقوط غرناطة، واختراق العثمانيين لأوروبا من الشرق، فكانت مؤلفات ابن خلدون شهادة على بداية هذه التبدلات، بما تضمنته من خلاصة عربية لحال أوروبا في عصره، إذ ستبدأ بعده دورة جديدة من علاقات القوى بين أوروبا والعالم العربي الإسلامي، ستنتهي لصالح تأكيد السيطرة الغربية على العالم، عندها ستتبدل جذرياً زاوية الرؤية العربية لأوروبا وللعالم." (١٠١)

لا أريد ان أطيل أكثر، فالأمر نتركه للباحثين المتخصصين في هذا المجال للغوص فيه.. والحكم على ذلك سلباً أو إيجاباً، إلا أن الأكيد من كل ذلك أنه وعلى امتداد الدولة العباسية والأندلسية والفاطمية والدولة الزنكية والنورية والأيوبية ثم دولة المماليك أي على امتداد خط الحروب الصليبية إلى ما بعد نهايتها، كان المستفيد الأكبر والمتفاعل الأول مع معطيات الحضارة الإسلامية هو العالم الغربي، وسواء قلنا إن شمس العرب سطعت على الغرب، أو أن الحضارة الغربية مَدِينة للحضارة الإسلامية في تطورها، أو قلنا أن هذه الأخيرة هي من منحتها تأشيرة الدخول إلى عصر النهضة عن طريق ما أخذه الغرب من علوم ومعارف، فإن الجانب الأكبر الذي لا نريد أن نراه في جوف هذه الحقيقة و المشهد الحضاري أن الغرب هو من سعى للاستفادة، بمعنى آخر كان هو الرابح الأكبر في العلاقات الحضارية بينه وبين العالم الإسلامي.

---

(١٠١) فيصل خرتش، جريدة الشرق الأوسط

http://www.aawsat.com/details.asp?section=١٩&article=٣١٥٦٤٦&issueno=٩٧٤٥#.U٥mlQyjuE٣Y

صحيح أن الإسلام سعى إلى إحلال توازن في العلاقات الدولية واستثمار هذه العلاقات على قاعدة التدافع.. ومعرفة كل طرف لصاحبه معرفة تعارفية اعترافية ،تنطلق من الفهم إلى التفاهم ومن التوصيل إلى التواصل ومن الفائدة المتبادلة، وهذا كان المقصد الرئيسي الذي ينطلق منه الإسلام كما في كل مرة حين يؤصل لفكرة معرفة الغرب والاطلاع عليه من كل جانب.. وقد اعترف كتاب الغرب ومفكروه بهذه المقاصد السامية، فهذا فهذا "مارسيل بوزار" في كتابه إنسانية الإسلام "يشير إلى أن الحضارة التي احتضنت ثقافة البحر الأبيض المتوسط طوال سبعة قرون من العصور الوسطى ساهمت بكيفية محسومة في إقامة نظام يكفل احترام الشخصية الإنسانية ويضبط علاقات الشعوب ببعضها البعض" (١٠٢)

بيد أن المشكلة مع كل ذلك، تكمن دائما في عدم قدرتنا على تثبيت منجزاتنا الحضارية وتطوير رصيدنا الاستخلافي في الأرض لقيادة الإنسانية، وتأهيلها للمراحل الجديد القادمة من تاريخ الكدح الإنساني إلى رب العزة، على قاعدة الشهود الحضاري، ولذا كان من الطبيعي أن تتغير دائرة المداولة الحضارية ليستلمها من هو أهل لها وفق البيان القرآني ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ آل عمران: ١٤٠، وتلك سنة الله التي لن يبدلها لأحد كما وعد في مواثيقه التكوينية قبل التشريعية، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ الفتح: ٠٢٣

هذا ولم يمنع عن الأمة السقوط، وانفلات قياد المداولة منها، كونها أمة الإسلام، وما قدمته للإنسانية من خير، وقبل ذلك ما معها من الامتيازات

---

(١٠٢) أنظر " عبد العزيز بن عبد الله، العلاقات الدولية الدولية في الإسلام، أعمال ندوة أسس العلاقات الدولية في الإسلام، ٢٨ رجب ١٤٠٨هـ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، ص١٨ ..

الدينية والمعرفية، لأن الرفع لو حدث لكان خلاف سنن الله في الرفع، كما دفع السقوط عنها لو حدث لكان مخالفا لسنن الله في الدفع، كما في حالتي الفرد في بني إسرائيل، والجماعة الإسلامية في "أحد" وتوصيفهما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾الأعراف: ١٧٦، وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٥

هذا، وإن تعجب فعجب من معايشة ابن خلدون لمرحلة السقوط المدوي في العالم الإسلامي وكتابه عن ذلك في سفره "المقدمة" بلغته الخاصة التي تعتبر من هذا الوجه تقريرا استراتيجيا شافيا عن أسباب التراجع الحضاري في الأمة، وكأنه رسول السنن الإلهية الذي جاء ليكتب بلسان الزمان تقرير الأفول الذي أصاب الأمة. ولكن هذه الأخيرة أصابها من العمى والصمم ما لم يكن يسمح لها أن تفهم ابن خلدون ولغته التحليلية، ولا صيحاته التحذيرية، فكانت مقدمته بحق، صيحة في واد ونفخة في رماد ، تلك إذا قصة "المقدمة"، والتي كانت ستكون مدخلا معرفيا تمهيديا لدرس الغرب لو تفقهت فيها الأمة ورعتها حق رعايتها، لقد ولدت في العالم الإسلامي وأينعت في الغرب على يد علماء الاجتماع.

بل وتصدى له " بعض علماء الأمة وكبرائها بالتنقيص تارة ... واتهامه بالترف الفكري تارة أخرى، ولا عجب فقد وصف القنوجي صاحب "أبجد العلوم" تلك الفترة، وهو يتحدث عن سمة علمائها قائلا "قد عجزت هممهم عن معرفة هذه العلوم والفنون، ووجدت العلماء قد قنعوا بالطّل من الوابل الهتّون"،ولقد تعثر حظ المقدمة بذلك قروناً، و لولا معاودة اكتشاف الغرب لها،

في إطار بحثه عن كنوز الحضارة الإسلامية لكانت نسيا منسيا."[١٠٣]

ولا ننس في غمار التحليل، ورحلة البحث والتفتيش في هذه السجلات الحضارية من العلاقات الإسلامية الغربية، ومراحل تجسيرها المشحونة بالتطبيع الثقافي والاقتصادي والمعرفي حينا، والمجابهات العسكرية في أحيان كثيرة، أن نؤكد أن العالم الإسلامي والعالم الغربي بهذا التجسير المعرفي بنوا جسرا للإنسانية قصد العبور إلى المستقبل، وكانت الأمة سباقة وملهمة في تشييده ووضع أوتاده، ولكن حين انتهوا من انجازه، عبر منه الغرب قبل العرب، وعبرت منه المسيحية قبل الإسلام، ولكنه كان عبورا مُرًّا سيطر فيه الغرب على مقدرات الشرق كله الإسلامي وغير الإسلامي ما يزيد عن قرن من الزمن ويطمع أن يزيد، وبسط نفوذه عليه بسطة قهر وجبروت، ولا يزال يسعى جاهدا لإلحاقه به إلحاقا ثقافيا وفكريا وسلوكيا ، نشر خلالها فلسفات العبثية والحداثة وما بعد الحداثة المروعة، ذلك الحصاد الفلسفي المر لعصر النهضة وما بعده.

---

(١٠٣) انظر: عادل عيساوي ، فقه السنن الإلهية وأثرها في البناء الحضاري ،وزارة الأوقاف قطر ،الطبعة الأولى ٢٠١٢ ،ص: ٣

المبحث الرابع:
التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية في مرحلة الاستعمار

أولاً: سمة هذه المرحلة (تدافع الإزالة والإزاحة)

من أهم الملامح السننية التي تميز هذه المرحلة من تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي والغربي أنها كانت مرحلة تدافع بالإزالة والإزاحة من طرف واحد ،بما معناه أنها كانت مرحلة تصفية جسدية واغتيال معنوي ومادي للكيان الإسلامي وتدمير لأجهزته ومؤسساته وواجهاته الحضارية من خلال الإجهاز عليه استعماريا ونسف كل منجزاته التاريخية والحضارية، وتحقق بذلك الحلم الذي سعت له الكنيسة، وحركت لأجله الحروب الصليبية ، ونظّرت له المدرسة الاستشراقية التي أخرجت كل أثقالها لأجل هذه اللحظة التاريخية، وتسور الغرب حينها ـ ولأول مرة في تاريخ الإسلام ـ حرم ومحراب العالم الإسلامي بكل أريحية في الفترات التي كانت الأرضة تنخر عصا سليمان وهو على كرسيه (الدولة العثمانية)...

ومن السهولة ـ أن يلاحظ المرء ـ أن هذه المرحلة كانت مكسباً استشراقياً قبل أن تكون مكسباً للاستعمار، فقد لوحظ فيها بلوغ الطرفين ذروة منجزاتهما، فالتنظير الاستشراقي (الدليل العلمي للاستعمار)، والاحتلال العسكري للعالم الإسلامي كانا ظاهرتان لا تفارقان بعضهما لأن ارتباط الاستشراق بالاستعمار ارتباط عضوي " فحيث يكون الاستعمار يكون الاستشراق، وكذلك حين يتوسع الاستعمار يتوسع الاستشراق، فالقاعدة التي لا تتخلف هي: أن الاستعمار يصحبه دائما استشراق ، والتوسع الاستعماري يصحبه دائما التوسع

الاستشراقي ".[104]

ولا عجب فليس من الغريب أن ترتفع دالة التأليف والتنظير في الاستشراق مع أزهى عصور الاستعمار، أو لنقل أنه ليس من الغريب أن تتساوق حركة الاستعمار للعالم الإسلامي مع منسوب التنظير الاستشراقي في مختلف الميادين والعلوم... فقد أحصى الدكتور إدوارد سعيد مؤلفاتهم ضد الإسلام خلال مئة وخمسين سنة فوجدها بلغت ٦٢ ألف مجلد ؟ كلها ضد العروبة والإسلام أفرزتها المطابع ودور النشر في الغرب فيما بين عامي (١٨٠٠ ـ ١٩٥٠ م)."[105]

وأقدم هنا دليلاً واضحاً على هذا الارتباط والذي كان يلقي بظلاله على العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب، ونحن نعد هذه الدراسة عثرنا على كتاب لـ هنري لورنس بعنوان "الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا ،١٦٩٨ـ ١٧٩٨ م.. وهو كتاب قيم من حيث التقييم لدالة الاستشراق في حقل من حقوله المعرفية في فرنسا خاصة ذلك الاتجاه الذي أطلق عليه الكاتب صفة المتأسلم إشارة إلى اهتمامه بالمجال الإسلامي والدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي. ونعتبر مع الكاتب أن الأرقام والإحصاءات التي قدمها تشكل تفسيراً مقنعاً لمن يرد أن يلصق تهمة الاستعمار للاستشراق.

لسنا هنا في هذه الجزئية من البحث بصدد تقييم الخطاب الاستشراقي ولا إنتاجه الفكري، ولكن سقنا هذه الأمثلة للاستشهاد على تلك العلاقة التي كانت بين الاستعمار و الاستشراق حتى نتعرف على ظلال وطبيعة هذه العلاقة

---

(١٠٤) أحمد عبد الحميد غراب ، رؤية إسلامية للاستشراق ،المنتدى الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١١هـ لندن ،ص: ٨.

(١٠٥) أنظر : مازن المطبقاني ،أوروبا في مواجهة الإسلام : الوسائل والأهداف .الطبعة الأولى :١٩٩٣م،مكتبة وهبة القاهرة ،ص:١١٠..

التي كانت تربط العالم الإسلامي بالغرب في هذه المرحلة حيث كان الاستشراق هو المهندس الفكري والأيديولوجي الممهد لها.. وحيث كانت المعركة مع الغرب بالإضافة إلى محاولات التحرر معركة فكرية أيضاً. فالصراع الفكري بين الشرق والغرب بدأت معالمه التي لا تزال رسومها إلى اليوم في ظل هذه الظروف.

طبعا لم يبدأ مشروع احتلال العالم الإسلامي ببداية الاستشراق، وإن تعززت هذه الفكرة أكثر بعد الحروب الصليبية، حيث أصبح احتلال العالم الإسلامي القرار الاستراتيجي للغرب بكل ممالكه ،ولذلك عد كل منجز أوروبي مهما كان حجمه وفي أي مجال يوظف توظيفاً يخدم فكرة الاحتلال، فمنذ اكتشاف رأس الرجاء الصالح ٩٠٣هـ /١٤٩٧م على يد (فاسكوداجاما) الذي قال حينها: "الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت". [(١٠٦)] والغرب يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض، وكانت أغلب كتاباتهم وتقاريرهم الاستراتيجية والدراسية تشير إلى قرب ذلك، مثل كتاب ""مارسيلي" الذي ظهر في ١٧٣٢م، مكتوباً بكل من الإيطالية والفرنسية بعنوان" الحالة العسكرية للإمبراطورية العثمانية تقدمها وانحطاطها" ،يقدم الكتاب نفسه باعتباره تقريرا عن انحطاط الدولة العثمانية ويدعو الدول الأوروبية إلى الاتحاد من أجل اقتسام الإمبراطورية، ولكن في إطار استعادة فكرة الحروب الصليبية فالاقتسام ليس غير ثواب من الرب بينما البقاء ـ بقاء الإمبراطورية ـ عقاب "[(١٠٧)]

نتيجة لهذا الشحن الاستشراقي الممنهج في تلك المرحلة مع قوة الضربات العسكرية ، و ضعف الكيان الإسلامي احتلت اندونيسيا في القرن التاسع

(١٠٦) محمد قطب،واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة جدة، الطبعة الثانية: ١٩٩٨، ص ١٨٩.

(١٠٧) هنري لورنس ،الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا ١٦٩٨ـ ١٧٩٨ م ،ص١٦٧

عشر، والهند سنة ١٨٥٧ م، وبدأت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، وفي سنة ١٨٣٠ م بسطت فرنسا يديها على الجزائر العثمانية. وسقط بعدها معظم العالم الإسلامي فريسة للقوى الكبرى. وبقي الوضع على هذه الشاكلة يراوح مكانه إلى أن ألغيت أو قل ـ إن شئت ـ سقطت الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ حيث شكل سقوطها حدثاً مدوياً يعادل في حجمه الاستراتيجي سقوط القسطنطينية بالنسبة للغرب في تداعياته الحضارية، وهذا ما سرع من نهاية المسلسل التاريخي الطويل والذي كانت آخر حلقاته احتلال القدس.

أقول هذا وقد يعتبره البعض تضخيما ومستندي في ذلك أنه بسقوطها وإلغائها انقطع نسل وسند الخلافة سياسياً، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي حيث كانت تعتبر الإطار السياسي الذي يجمع الأمة حتى في أشد اللحظات خلافا، ولا عجب أن يطوف محمد عبد قبلها في العالم الإسلامي والعربي مذكراً العرب قبل غيرهم بندائه الشهير :" إن الحفاظ على الخلافة الإسلامية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وسلم" ..، ولكن من كان يهتم له، فكل الأقطار بين محتل ومنتدب، أو غارق في سبات عميق لم تكف كل تلك الطوارق والمدلهمات من إفاقته.

ثانياً: طبيعة العلاقة بين الطرفين في هذه المرحلة حضاريا (العلاقات العلمية):

كانت العلاقة بين العثمانيين والغرب في الأمور العسكرية الحروب كفرسي رهان، وعلى تواصل مستمر رغم ما شابت كل المراحل من حروب وغارات، ومع ذلك بقي نهم الغرب إلى معرفة هذا الجزء من العالم والتطلع إليه لا يحول بينه شيء ولا يعادله تطلع إلى عالم آخر، حتى قال أحدهم يصف هذا النهم: "على أن حظ الشرق يتفوق على حظ أمريكا ،جد المهمة بالنسبة للاقتصاد الأوروبي، ويرى ميشيل ديفيز أن هذه الظاهرة تبرز بشكل

ساحق في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وانه بوجه خاص فإن تركيا وفارس في منتصف القرن الثامن عشر كانا ما يزالان هما البلدان اللذان توجد رغبة أقوى في الاطلاع على أحوالهما، وبالرغم من الصلات التجارية والاقتصادية بين الطرفين إلا أن أوروبا عملت على احتكار كل ما يمكن أن يقوي الكيان العثماني ـ لأن الرغبة في إسقاطه لا تزال قائمة ـ فمنذ عهد سليم الثاني، ـ والخلافة العثمانية ـ تحاول الحصول على المعرفة الفنية والتقنية، ولكن الجواب الأوروبي كان دائما الرفض إلا في بعض أمور هامشية تعود على الغرب ومصالحه بالنفع، لا على الآخرين..، وقد حاول محمد علي أن يحصل على شيئ لتطوير مصر وتنميتها سرعان ما قضى على محاولته، إنها أسطورة الأجداد الإغريق "المعرفة المقدسة" لا ينبغي أن تقع بيد أحد إلا كبير الآلهة فله حق احتكارها، فإذا تجرأ إله صغير مثل "بروميثيوس" على سرقتها فيجب أن يناله العذاب ... ثم يعلق الدكتور في آخر كلامه بمثل غربي ويقول: إن مثلنا ومثل الغرب في قضية المعارف الاجتماعية والتقنية مثل ذلك الشريك القوي الذي قال لشريكه الصياد الضعيف " تريد أرنبا خذ أرنبا، تريد غزالا خذ أرنبا "[108]

وقد انقطعت هذه الوصلات والمحاولات للتجسير العلمي والمعرفي بين الطرفين مع سقوط الخلافة ودخول الدول الأوروبية لاقتسام تركة ما تسميه بالرجل المريض ،أما قصة علاقة العالم الإسلامي بالغرب في ظل الاستعمار فلا يمكن أن نصفها ،أكثر مما وصفها به مالك بن نبي المفكر الجزائري، حين نعته بأنه استدمار، لأن الاستعمار مصطلح قرآني يحمل دلالات العمارة والعمران والتعمير والاستدمار خلافه، وكما كان يقول حمدان بن عثمان خوجة مفتي الحنفية في الجزائر، وهو يقارن بين ظلم الترك وعدل فرنسا، ولم يمض

---

(١٠٨) طه جابرالعلواني ، تقديم كتاب مقدمات الاستتباع ،الشرق موجود بغيره لا بذاته، غريغوار منصور مرشد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا واشنطن ، الطبعة الأولى :١٩٩٦م، ص: ١٣

على استعمار فرنسا الجزائر حينها إلا ثلاث سنوات" اللهم ظلم الترك ولا عدل الفرنسيس "(١٠٩)

وطبعا كلنا يعلم ما هو الحصاد المر للاستعمار، أقله مع التجهيل والإلحاق السياسي والاقتصادي، سعيه الدؤوب إلى إحداث قطيعة معرفية شاملة مع موروثنا الثقافي، والاستعاضة عن الإسلام بالمسيحية بتكثيف حملات التنصير والتمسيح، وقصة التنصير طويلة ليس هذا مجال شرحها، ولكن الأكيد أنه كما لا يتصور وجود استعمار بدون استشراق كذلك لا يمكن وجود تبشير بدون استعمار..

إلا أن فشل المشروع الأخير جعله يشكل جيشاً موازياً على غرار جيشه الذي غزا به العالم الإسلامي، وهو جيش التغريبيين خاصة بعدما أدرك أن فعل ذلك يتطلب قوة من داخل الكيان، تلك إذا هي معالم وتفاصيل المعركة القادمة معركة العالم الإسلامي بالعالم الغربي التي بقيت آثارها العميقة إلى يوم الناس هذا، وهذا ما سنتناوله عرضنا القادم في مرحلة ما بعد التحرر والاستقلال وانهيار المعسكر الشرقي حيث تمظهرت العلاقة في أشكال وصور وقنوات بل وفضاءات جديدة لم تكن في الحسبان.

وقبل أن ننتقل إلى هذه المرحلة الأخيرة من هذا العرض، نجد أنفسنا قد استطردنا كثيرا ودققنا في مسائل كثيرة في سياق تحقيينا المعرفي لهذه العلاقات، نقول ليس من الأدب العلمي فضلا عن ما تستوجبه مقتضيات وضرورات البحث العلمي، أن نستعرض هذه الفترات التاريخية التي ارتبط فيها العالم الإسلامي بالعالم الغربي عرضا تاريخيا جافا، وكنا قادرين على أن نكتفي بسرد مجموعة من الصورة التاريخية مع بيان عام لنمط العلاقات، إلا أن هذا لا يتوافى مع مقاصدنا التي التزمنا بها من خلال عنوان الموضوع

---

(١٠٩) حميدة عميراوي: دور حمدان خوجة في تطوير النهضة الوطنية. دار البعث، قسنطينة الجزائر ،دط، دت ، ص ٢٣١.

الذي يرتبط فيه علم الاستغراب بالنظام المعرفي ربطا يستوجب هذا النوع من الشـرح حتـى نخـرج فـي نهايـة المطـاف بجملـة معرفيـة مفيـدة تامـة المعـالم والعناصر والأركان، ونقول في النهاية للكاتب ضروراته وللناقد خياراته.

المبحث الخامس:
التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية بعد الاستعمار

أولاً: سمة هذه المرحلة (تدافع التوازن)

من سمات هذه المرحلة التي تعتبر بداياتها مع مرحلة التحرر من ربقة الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، أنها مرحلة إعادة التوازن إلى لغة التدافع في نمط العلاقات الحضارية بين الطرفين من خلال إعادة كل طرف دراسة الآخر واكتشافه من جديد، كل بلغته وأسلوبه، وبأدوات وطرق جديدة بعيدا عن القراءات الخداج التي تكون سببا في ولادة مقاصد المشروع من كلا الطرفين ولادة قيصرية مما يؤدي إلى تشويه أفكاره، كما شوه الاستشراق نفسه من قبل بخروجه من ربقة الموضوعية.

نقول هنا؛ إن من سمات هذه المرحلة التي بدأت مع تحرر العالم الإسلامي عسكرياً أنها مرحلة إعادة التوازن إلى التدافع الذي يحكم العلاقة بين الطرفين، ويتأكد هذا الهدف أكثر ـ مع صعوبته ـ إذا أخذنا بالاعتبار أن العالم الإسلامي، لا يزال حديث عهد باستعمار كاد أن يفقد هويته وبوصلته الفكرية بعد أن أعمل فيه الغرب معاوله الفكرية الهدامة ولا يزال يحاول استعادة عافيته رغم مرور نصف قرن على استقلال غالبية أراضيه.

وهنا؛ قد تكون الحاجة ماسة إلى أن نذكر مرة أخرى أن التدافع والتوازن الذي يحاول العالم الإسلامي استعادته إلى نمط العلاقات منطلقه عقدي، لأن الإسلام " لا يتغيا صراع الآخر وإلغاؤه، وإنما تحويل موقفه من العداوة التي تجعله من أهل السيئات إلى موقع وموقف الولي الحميم ،الذي يجعله من أهل الحسنات ، فيتم الحراك بواسطة التدافع مع بقاء تعددية الفرقاء المتمايزين[١١٠]

---

(١١٠) محمد عمارة ، الحضارات العالمية تدافع أم صراع ،دار نهضة مصر القاهرة ،الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص:١٩

ولذا نعتبر الحضارة الإسلامية في سلوكها هذا كما المؤمن تتبع كل سيئة في الأرض فتمحوها وتخالق الحضارات والأمم الأخرى بخلقها الحسن أي برحمتها وسماحتها وعدلها وتوازنها وقبل كل ذلك بوسطيتها المعهودة، وهذا ما يجب تحقيقه، والسعي إليه، من خلال طرح فكرة فقه الاستغراب. وهذا ما قصدناه سابقا ـ حين قلنا ـ من أن وجود هذه المرحلة ضرورة حتى لا يبغي طرف على آخر، وانتهينا إلى أن تحقيق مقصد الحوار بين الحضارات وتعارفها لا يمكن أن يتم إلا من منطلق التدافع. أما لغة الصراع فهي لا تسمح بنمو مثل هذه الأفكار فضلا عن تطورها.

وحتى نكون على درجة من الإنصاف، لابد من الإشارة إلى وجود من تفهم هذه المعادلة من الطرف المقابل في العالم الغربي، وإن كانت أصواتهم لا تعلوا على أبواق سدنة معابد صراع الحضارات، ففي هذه المرحلة من تاريخ العلاقات سعى قطاع محترم من الشرائح المثقفة في أوروبا وأمريكا إلى الكثير من محاولات إعادة اكتشاف تقاسيم خارطة العالم الإسلامي الفكرية والإيديولوجية كما هي في الواقع ، وهذا أن بدأت هذه الشرائح تفيق من سكرة الصورة التي رسمها لها الاستشراق والإعلام عن العالم الإسلامي، بل أصبحنا نسمع من يطلب من مثقفي ونخب العالم العربي والإسلامي دراسة الغرب حتى يرى وجهه من مرآة الآخرين استشعاراً منهم بضرورة ذلك.

يقول المستشرق المعاصر رودي بارث "ولا بأس أن ننتهز الفرصة فنثير سؤالاً ، ولو من ناحية المبدأ، هو السؤال عن إمكانية أن ينشأ في الناحية الأخرى، أي في العالم العربي والإسلامي، اتجاه للبحث، شبيه بالدراسات الإسلامية عندنا، ولكن من الوجهة المقابلة يهدف إلى دراسة تاريخ الفكر في العالم المسيحي الغربي وتحليله بطريقة علمية. ويمكن أن يطلق على مثل هذا الاتجاه في البحث ـ إن أخذ مأخذ الجد وأرسيت له قواعده بوصفه نظاماً ـ

علم الغرب أو باختصار "الاستغراب" (١١١)

وإذا طوينا بجرة قلم كل المراحل السابقة والتي تراوحت العلاقة فيها بين الشرق (الإسلام) والغرب (المسيحية) بين الحرب حينا والاستفادة من الآخر علمياً وثقافياً حينا آخر، من كلا الطرفين ومن كلتا الجهتين، فإننا نقول إن مرحلة القرن العشرين والتي تلت مرحلة الاستعمار وظهور مفهوم الدولة القومية والقطرية في العالم الإسلامي قد صاحبها تغير في العلاقة بين الشرق والغرب لم تشهده الإنسانية من قبل، صاحبه تقارب نوعي متميز، هذا على افتراض بعضهم بقاء شيء اسمه الشرق و الغرب - وهو باق طبعا - ، فقد بدأت معالم الجغرافيا السياسية تتمحي وذلك بتداخلها مع معالم الجغرافيا الثقافية، في نازلة حضارية كونية لم يعهدها تاريخ الكون فضلاً عن تاريخ الإنسانية.

ومن المقادير أنه حين كان الشاعر الانجليزي كيبلينغ يغرد بمقولته المشهورة " الشرق شرق والغرب غرب ويجب أن لا يلتقيا East is East، and West is West، and never the twain shall meet "، لم يخطر على باله أنه سيأتي اليوم الذي يفرض الشرق على الغرب أن يلتقي به، وفي عقر داره، ويصبح فيها أمة من الأمم، بعد أن كانا قبل قرون يتصارعان، وإن تحاورا ردحا من الزمن فعلى أسكفة باب كل حضارة منهما أو من وراء حجاب، لقد زحفت العوامل الجيوثقافية على مفاهيم الجغرافيا السياسية واتت عليها من القواعد، وستشهد السنوات القادمة انمحاء فواعل كثيرة في البيئة الغربية، ودخول عوامل جديدة لم تكن في الحسبان بسبب التقارب الكبير بين العالمين بفعل جديد وسرعة التواصل المعلوماتي.

وقد يكون "جورج برناردشو" الكاتب الايرلندي أذكى حسا، وأفضل

---

(١١١) رودي بارث ، الدراسات العربية والإسلامي في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، المركز القومي للترجمة مصر القاهرة ،العدد ١٧٨٤، ٢٠١٢ م،ص:١٩

استشفافا للمستقبل من "كيبلينغ" الشاعر الانجليزي، بالرغم من أن حجب الشعراء شفافة للغيب كما يقولون. فقد أعلن برنارد شو في الثلث الأول من القرن العشرين قائلا: "سيأتي على البشر زمان يدينون فيه بدين واحد، ويتكلمون لغة واحدة، أما ذاك الدين فهو الإسلام المجدد، وأما اللغة فالإنجليزية " [١١٢] وقريب من هذا مقالة العلامة بديع الزمان النورسي: "إن الدولة العثمانية حاملة بالعلمانية وستلد يوما ما دولة علمانية، وأوروبا حاملة بالإسلام وستلد يوما ما دولة اسلامية" .[١١٣]

لا شك أن الإنسانية تتبع وفي خطوات متسارعة وجريئة مجرى التاريخ الذي خطته الآية التاسعة من سورة الصف في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الصف: ٩، والأرقام والإحصاءات والبيانات والأخبار القادمة من شمال الأرض هي من يشرح لنا دالة الظهور هذه، فقبل عقود من الزمن لم يكن القلم العربي والإسلامي يكتب شيئاً عن الإسلام في الغرب، اللهم إلا عن أخبار السموم النفاثة القادمة من الماكنة الإعلامية الضخمة، فإذا بالجرائد كما مواقع الانترنت اليوم تحدثنا عن الأقليات المسلمة في الغرب، ثم مسلمي أوروبا و أمريكا وكندا وفرنسا وتزايد معدلات النمو الإسلامي فيها.. مفردات جديدة لم تكن في حسبان العقل الغربي، وتطور نوعي سيثقل ميزان حركة التاريخ، ويغير بوصلتها، حتما سيجعل من علاقة الغرب بالشرق شيئا ذا قيمة استراتيجية، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، إلا في سياق الحرب أو مشاريع الإلحاق والتبعية والتغريب، وإذا

---

(١١٢) أنظر: مجلة الثقافة، السنة الاولى ١٩٩٣ ،تحرير جميل صلبيا ، وكامل عياد ص: ٣٣٢./ محمد أمين ناشر النعم ، المشكلات الثقافية للأقليات المسلمة حلول ومقترحات ،المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، الطبعة الاولى ٢٠٠٦م،طهران ايران .

(١١٣) أنظر النورسي ، كليات رسائل النور ، ملحق أمير داغ الثاني، دار سولز للنشر القاهرة، الطبعة الأولى:١٤١٥هـ ١٩٩٥م، ، ص:٦٤

كان الغرب سكن عقول الكثير من المسلمين وجدانيا وفكريا وإعلاميا، فإن الشرق انتقل ليسكن في الغرب، فأصبح في كل دولة غربية شرقها العربي والإسلامي الخاص بها بل، والمتميز أيضاً.

لقد تغير كل شيء، لم يعد الشرق شرق، كما لم يعد الغرب غرب، أصبح الكل في قرية واحدة، تأتيه أخبار نظرائه من العالم الآخر قبل أن يقوم من مقامه، أو قبل أن يرتد إليه طرفه. ولربما لم يعد أهل أوروبا وأمريكا أدرى بشعابهم لوحدهم، بل قد يكون غيرهم أدرى ببعض شعابهم وجغرافيتهم منهم، والعكس صحيح وأقوى، تلك إذا هي المتغيرات الاستراتيجية الجديدة التي دخلت في رسم معادلة الدرس الاستغرابي الذي سيتخذ من كل هذه المتغيرات مدخلا إلى تعميق الدراسة وتثمينها.

ثانياً: دخول الفاعل الإسلامي إلى الجغرافيا الغربية

في هذه المرحلة من العلاقات بين العالم الغربي والإسلامي يحاول كل طرف أن يميز وبطريقة أفضل من أي وقت مضى في علاقته مع الآخر، وبالنسبة للغرب لم يعد الاستعمار التقليدي يؤتي أكله كما كان في القرون السابقة، ولذا كان أمرا مقضيا عليه أن يراجع استراتيجيته في الكسب والاختراق.. وفيما يخص العالم الإسلامي نفرق هنا بين المستوى الرسمي والمستوى الشعبي، فعلى المستوى الرسمي أغلب الدول العربية والإسلامية لا تستطيع الخروج عن المساحات والهوامش المتاحة التي رسمتها لها الدول الكبرى، ولا تملك خارطة ولا برنامجا للدخول إلى مستوى التدافع المطلوب في العلاقة مع الغرب وشعارها في ذلك للدول ضروراتها وللشعوب خياراتها.

أما بالنسبة للمستوى الجماهيري بامتداداته المختلفة خاصة تيار النخبة والحركات الإسلامية، فهو الكيان الوحيد الذي يواجه الغرب مواجهة ثقافية وفكرية على مستوى المشاريع الحضارية، ولذلك فالمواجهة الحضارية اليوم في أغلب فصولها وفي حقيقتها هي مواجهة حضارية بين الغرب (الدول

والمؤسسات) ضد الشرق المجتمعات والجماعات والنخب المثقفة وليس مع الحكومات، مع أن هذه الأخيرة هي أداة من أدوات الغرب في تأخير المواجهة. ولا شك أن الغرب يدرك خطورة اعتلاء هذه النخب والجماعات مقاليد الحكم، لأن المواجهة حينها ستكون بروافع وآليات ومنطق ومشاريع الند للند.

على كل حال هناك تحول جذري لا بأس به في فهم الآخر، والإقبال على دراسته يكاد يكون من كلا الطرفين، أما بالنسبة للطرف الإسلامي فقد أصبح أكثر قدرة على :

- " التمييز بين الإنسان الغربي الذي هو ضحية الإعلام الغربي، و العلم الغربي الذي هو ضالتنا التي يجب أن نسعى إليها، وبين المشروع الغربي الذي يهدف إلى إلغاء المشروع الإسلامي، والآخر الحضاري للشعوب والأمم، والذي يسعى إلى فرضه من خلال العولمة ...وحتى في هذه الأخيرة لابد أن نميز في مكوناتها بين أمرين أولهما التقنيات والثاني: الإيديولوجيات."(١١٤)
- رؤية المشهد بوضوح أكبر " فالغرب اليوم في موقفه من الإسلام ليس غرباً واحداً، ثقافياً هناك ثلاثة غروب، الغرب الأدنى، والغرب الأوسط، والغرب الأقصى، والغرب الأقصى قبل الحادي عشر سبتمبر ٢٠٠١م، (٢٢/ ٦/ ١٤٢٢م) غير الغرب الأقصى بعد ذلك، فالموقف الغربي الأوسط أفضل بمراحل من المغرب الأقصى ، ففي الغرب الأقصى" ازدادت المواقف المتشددة تعنتا، وتعاظمت سطوة التعميمات المهيمنة و والإكليشيهات المزهوة

---

(١١٤) محمد علي أبو هندي، مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية . دراسة في فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابري ،دار السلام للطباعة والنشر ،القاهرة ، الطبعة الأولى : ٢٠١٠ م.ص٣٥٨، ٤٥٥.

بالانتصار كما يقول إدوارد سعيد " .[١١٥]

أما بالنسبة للغرب، فإن هناك معطيات جديدة فرضت نفسها عليه تركه يراجع موقفه ومنهجية تفكيره، ويمكن اختصار هذه العوامل فيما يلي:

ـ أن الشرق الذي يخاف منه ويحذر منه أصبح يعيش في عقر داره يراه ويتعامل معه ويلامس أفكاره ومعتقداته ونمط تفكيره ولذا كان لزاما عليه أن يغير من رؤيته للآخر الديني/ الإسلامي، ولو نسبيا ولرؤية مصلحية داخلية بحتة محتفظا في الوقت ذاته بتصوره عن الإسلام عموما،" ويعود السبب في تكوين هذه الصورة المشوهة عن الإسلام برأي المفكر العربي هشام جعيط في كتابه "أوروبا والإسلام"، إلى التحدي الذي كان يطرحه الإسلام هناك ـ الغرب ـ وعدم المرور بتجربة التعدد الديني في المجتمع المسيحي، بينما تكون الإسلام على أساس التعايش مع الديانات الأخرى منذ البداية " [١١٦]....، ومع ذلك لا يزال الغرب دون المستوى المطلوب في فهم مواطنيه الجدد الذي ينظر إليهم بعين الريبة ..

ـ أنه خسر معركته التغريبية وفشل في مشروع الغربنة بسبب ما يسميه بالأصولية الإسلامية ، وذلك أن الشرق الذي نظّر له في كتبه وأنفق أمواله لتغريبه، تغير تغيراً استراتيجياً، منذ مرحلة الثمانينات حيث شهد العالم الإسلامي صحوة ثقافية وفكرية جماعية انبثقت من بعدها فواعل جديدة، أهمها الجماعات الإسلامية المرشح البارز ليقود المعركة حضاريا ضد الغرب المسيحي ..ونشير هنا أنه مع كون هذا العنصر أساسي في تغيير الغرب رؤيته للعالم الإسلامي، إلا أنه ليس من الضروري أن يكون هذا التغيير

---

(١١٥) علي بن ابراهيم النملة ،الاستشراق والإسلام في المراجع العربية ،بيسان الرياض ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م،ص٣٨

(١١٦) جمال الشلبي ، صورة العرب والمسلمين في الإعلام الغربي : حالة فرنسا، أوراق المؤتمر الدولي الثاني ،أوربا والإسلام ١٩٩٦ م،جامعة آل البيت الأردن ،ص:٨٩

ايجابياً بالنسبة لنا، فقد أعد الغرب خططاً واستراتيجيات أكبر لمواجهتنا وإجهاض أي محاولة تصدر من طرف هذه الجماعات.

ـــ الامتداد الأفقي والعمودي للإسلام هو أحد هذه التطورات التي أجبرت الغرب أن يعيد حساباته وقراءاته للظاهرة الإسلامية والعالم الإسلامي من الجذور، ولاسيما بعد تهاوي أحد أجنحة الحضارة الغربية ممثلا في الاتحاد السوفيتي، وليس من الغريب أن نستحضر بعض أجزاء المشهد الدولي والإقليمي بين الفرس والروم حيث شكلت هزيمة الفرس إطاحة وخلخلة لميزان القوى مما جعل القوة الإسلامية الفتية تأخذ مكانها الطبيعي بشكل سلس.

تلك الأجواء والتوازنات يكررها التاريخ في مشهد سنني مماثل، فأجواء الصراع بين المعسكر الشرقي والغربي، حيث شكل سقوط الاتحاد السوفيتي ظهور منافس تقليدي قوي للغرب، تمثل في الإسلام والصحوة الإسلامية بالرغم من أن هذه الأخيرة لم تبلغ مرحلة الدولة حتى ترسل برسائل إلى ملوك الغرب المعاصر كرسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الغرب القديم حين شكل الدولة، إلا أن الغرب قرأ محتوى تلك الرسائل قبل أن تكتب، ولذلك سعى ولما يزال إلى الحيلولة دون وصول أي من هذه القوى إلى مراكز النفوذ السياسي حتى لا تتكرر نفس الأيلولة التاريخية والحضارية .

عوامل كثيرة قد لا تساعد على متانة هذه المقاربة بين المشهدين: الفرس والروم/ أمريكا / وروسيا، وطريقة استدعائنا للمشاهد التاريخية المختلفة، ولكن الذي يجمع بينهما في رأيي هو أن العنصر (الفكرة) الذي أسقط خارطة المشهد القديم وأعاد تشكيلها على سنن العدل والإحسان، هو ذاته الذي يتهيأ لأداء الدور نفسه، وإن اختلفت الأدوات والآليات التي يتوسل بها تحقيق هذا المشروع، هذا ما فهمه الغرب جيدا ولذا فهم يرددون مع **الكاتب الإنجليزي جلوب باشا** المقولة ذاتها حين يقولون :" **إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط**

إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد ".[١١٧] ولهذا لم تتريث الحضارة الغربية حين رشحت الإسلام ومعه الأصولية الإسلامية - حسب تعبيرها - للمواجهة القادمة .

تحت ظلال هذه العوامل وغيرها تشكلت العلاقات المعاصرة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، ونظرا لطبيعة الدراسة التي نحن بصدد انجازها، فإننا سنحاول أن نحصي المشاهد التي تحمل شحنات دلالية معرفية وسياسية أكثر دقة ووضوحا حتى نوظفها في استقراء وتحقيب الكرونولوجيا المعاصرة للعلاقات بين الطرفين وتموجاتها وفي أحيان أخرى مآلاتها تحقيباً معرفياً.

ولهذا حاولنا أن نصور طبيعة هذه العلاقات وتمركزها من خلال مشاهد ومحاور رئيسية، المشهد الأول يتمثل في مشهد الحوار ومحاولات الإقناع، وأحصينا فيه الحوار الديني والسياسي والحضاري.. أما المشهد الثاني فهو المشهد المتعلق على مستوى معطيات الجغرافيا في الأرض وتمثل في العلاقات بين الطرفين على مستوى الفواعل الجديدة سواء من حيث الفاعل الإسلامي الجديد في البيئة الغربية، أو الفاعل الغربي الجديد في البيئة الإسلامية ممثلا في نخبه التغريبية و الحداثية. وهؤلاء يعتبرون مراسلوا كلا الحضارتين أو الطرفين. أما المشهد الثالث فهو مشهد صراع المؤسسات حيث انتقلت العلاقة بين الطرفين إلى مستوى الهيمنة ولكن من خلال مؤسسات جديدة ، الهيمنة الاقتصادية من خلال الشركات العابرة للقارات التي تتحكم في القوت والقوة، أو من خلال شركات ومؤسسات الدراسات الإستراتيجية التي تتحكم هي الأخرى في صناعة القرار ودراسة الآخر.

انطلاقاً من هذه المقدامات؛ فإننا سنختصر فضاءات تحرك وتموضع العلاقات بين الطرفين وترجمتها في المشاهد التالية:

---

(١١٧) محمد عمارة ،صورة الإسلام في الخطاب الغربي ، مجلة المسلم المعاصر ،السنة السابعة والعشرون العدد ١٠٨ ص: ٢٩.

- العلاقات من خلال مشهد حوار الأديان والحضارات

تتمحور العلاقات في السنوات الأخيرة بين الطرفين على مستوى الأفكار في تبني كل طرف لغة الحوار، من خلال عدة قنوات منها قناة حوار الأديان، وقناة حوار الحضارات لتعزيز التفاهم بين الجانبين أكثر فأكثر في عالم أصبح التقارب والقرب فيه حتمية لازمة وملزمة،.. والحقيقة أن سعى كلا الطرفين وخاصة الغرب في القرن العشرين وبداية هذا القرن الحادي والعشرين إلى تفعيل قناة حوار الأديان ينبني على وعي بمدى أهمية هذه المسألة في التقارب بين الطرفين، وإن كان سعيا تحيطه الريبة من كل مكان لكون غير مؤسس على أرضية صادقة حسب ما يبدوا في السلوك العام لمنظري هذا الاتجاه، ولعل عالم اللاهوت الألماني هانز كونج كان يدرك هذه الحقيقة عندما أطلق مقولته الشهيرة: "لن يكون هناك سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان ما لم يكن هناك حوار بين الأديان"[(١١٨)]...

هذا وقد أصدر الفاتيكان كتاباً عام ١٩٦٩ تحت عنوان " دليل الحوار بين المسلمين والمسيحيين ": أكد فيه أنه لا تفاهم بغير فهم، وأن الفهم لكي يكون صحيحا لابد أن يتحلى بروح الموضوعية والإنصاف، بل أن يجهر به ويعلن للملأ ليصبح قادرا على مد الجسور "[(١١٩)]

إلا أن المشكلة لا تكمن في "المبدأ ذاته " مبدأ الحوار، فالأرضية عندنا جاهزة منذ التنزل الأول للقرآن، كما لا تكمن المشكلة في كون الحوار ذاته

(١١٨) أنظر: أليسكي جورافسكي- الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٦م، ص ٨

(١١٩) رضوان زيادة، صدام الحضارات هاجس الصراع وخطاب النفي، شؤون الشرق الأوسط مركز الدراسات والبحوث والتوثيق العدد:١٠٤ /السنة ١١ / ٢٠٠١ / ص: ٢٤٧، نقلا عن مجلة المسلم المعاصر: العدد ١١٣

سيساهم في دراسة الآخر ومعرفته أكثر من كلا الطرفين، فلا مشكلة "إسلاميا" أن يتعرف علينا الآخر أكثر من خلال هذه الحوارات الفكرية والدينية مادام أن قناعاتنا لم تبن على أرضية زلوق، هذا والمنطلق المبدئي أنه لا يمكن أن نفهم الغرب اليوم حق الفهم ولا يمكن أن نتعرف عليه حق المعرفة من دون أن ندخل إليه من مدخل دراسة الأديان، وبالضبط دراسة تاريخ المسيحية من مولدها إلى اليوم، لأن الغرب كما قال مالك بن نبي مدين إلى الفكرة المسيحية التي " أخرجَت أوروبة إلى مسْرح التاريخ. و بنت عالمها الفكري انطلاقاً من ذلك "[١٢٠] ولهذا يتعذر فهم العقل الغربي في كل حالات جنونه أو هدوئه أو توازنه حتى لحظات إلحاده وخروجه عن جادة الأديان إلا من خلال استيعاب صورته الدينية كاملة.

فلا مشكلة إذا من أن يقترب إلينا الغرب من خلال هذا الجسر المعرفي الديني ،وتاريخنا شاهد على ذلك، وإنما المشكلة أنه يوظف هذه اللغة ـ حوار الأديان ـ والثقافات، لأجل التسويق والاستهلاك الإعلامي، وربح الوقت وزيادة كسب الواقع والمواقع بل والأشخاص والمواقف ليس أكثر، لقد كانت مشكلة الغرب ولا تزال في دعاويه وعلاقاته هذه أنه يفتقد إلى الصدق المعرفي، فكثيرا ما كان هوس السيطرة من خلال أي نافذة متاحة يسبق ويطغى على نهمه العلمي والموضوعي ،إنها سكرة (الأنا الغربية المتمركزة) التي لا ترى أحدا إلا من خلال ذاتها ومرآتها.

لقد كذب الغرب في أغلب أحواله حين دعا إلى حوار الأديان ومن بعدها حوار الحضارات، خاصة حين اكتشف أن مخرجات هذا الحوار والعلاقات لا تخدمه البتة، فهذا صامويل هانتغتون يقول إن مشكلة الغرب "ليس مع الأصولية الإسلامية، بل مع الإسلام الذي هو حضارة مختلفة تعتقد شعوبه

---

(١٢٠) أنظر : مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، مرجع سابق ،ص: ٤١

بتفوق ثقافتهم ويملكهم هاجس انحطاط قوتهم " [١٢١].

وهكذا فالغرب حاول ويحاول أن يمد الجسور الثقافية والمعرفية من خلال هذه القناة ولكن بطريقته التي يراها مناسبة له فقط، وبعنجهيته التي ورثها عن منظري الاستشراق والتي تأبى أن ترى أو تقبل الشرقي المسلم إلا تابع أو خاضع له.

ـ العلاقات من خلال مؤسسات العولمة (مأسسة الصراع)

إن كان من مدخل مناسب لهذه المسألة في توصيف طبيعة العلاقة بين العالم الإسلامي والغربي في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، فإننا نقول إنها علاقة سيطرة هائلة وتحكم كبير من الغرب على العالم الإسلامي هذا التحكم رسمت أبعاده وفلسفته ضمن إطار فلسفي جديد تمثل فيما يسمى بالعولمة ،حيث أصبحت الهيمنة والسيطرة والغطرسة الغربية لا تحتاج تحريك آليات المدافع والصواريخ العابرة للقارات .فقد استبدلت هذه الصواريخ مع جهوزيتها في كل وقت بالمؤسسات والشركات الاقتصادية العابرة للقارات ومحاولة فرض الهيمنة الامبريالية الثقافية الغربية على العالم كله .

لا يعتبر العالم الإسلامي استثناءً من هذه المعادلة الجديدة ،لأنه وإن لم يكن هو المقصود الأول في الظاهر، باعتبار أنه باعتباره المتحدي الوحيد فوق الأرض القادر على كسر أجنحة هذه الفكرة التي تسيطر عليها المؤسسات الاقتصادية الدولية وتصدر لها مراكز الفكر " مؤسسات الدراسات الاستراتيجية " التي يشتغل فيها منظروا الاستشراق الجديد أمثال هتنغتون وفوكياما وغيرهم . وما أفكار نهاية التاريخ وشقيقاتها صراع الحضارات ..إلا

---

(١٢١) ينظر : ينظر : د. السيد ولد أباه : عالم ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ – الدار العربية للعلم – بيروت ، لبنان – ط ١ – ٢٠٠٥ – ص ١٤٨ . / s.Huntington :The Clash of Civilization and the Remaking of world Order Simon and Schuster ١٩٩٧

صورة تصديرية لفكرة هيمنة النموذج الإمبريالي الوحيد على الثقافات العالمية ومحاولة محوها من الوجود.

تحت ضوء هذه المعطيات تتحرك العلاقات العربية والإسلامية الغربية ،إلا أن الملاحظ تدخل عنصر التقنية والتكنولوجيا لفرض هذه الفكرة فرضا ،وهذه نازلة إنسانية تاريخية لم تشهدها الإنسانية من قل إذ" ما عرفت البشرية قبل الحضارة الأوروبية المعاصرة التي آلت إلى حضارة غربية ثم عالمية ،أية حضارة أسست وبنت ووضعت معارف أعطتها " العلموية "و" العالمية " لتوظيفها في الهيمنة على الآخرين، ثم لتحويلها بعد إحكام الهيمنة والسيطرة إلى جزء رئيسي من ثقافة ذلك الذي تم " استتباعه " أو " استبضاعه " من شعوب الأرض لئلا يكشف حجم الاستيلاب والجريمة التي تعرض لها ".(١٢٢)

---

(١٢٢) طه جابر العلواني ، تقديم كتاب مقدمات الاستتباع ، مرجع سابق،ص ٨

الفصل الرابع

مدارس الاستغراب في الفكر العربي والإسلامي المعاصر.

الفكرة ، المشاريع ، الاتجاهات.

تمهيد:

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واستحكام حلقات الاستعمار الغربي على العالم الإسلامي بدأت فكرة دراسة الغرب تنمو وتتطور في خطابات رواد النهضة والحركات الإصلاحية من المشرق إلى المغرب. في سياق هذه الجزئية المهمة سنشهد تطور الفكرة وميلادها من جديد، وانتقالها من عناوين مختلفة باختلاف الحركات والمشاريع التي احتضنتها والواقع الذي نمت فيه، بداية من الحركة الإصلاحية إلى التيارات الإسلامية والقومية بمشاريعها المختلفة الفردية والجماعية .. سنرى في العروض القادمة كيف أن فكرة دراسة الغرب قد انتقلت من رحم إلى رحم ومن عقل إلى عقل ومن كتاب إلى كتاب بل ومن حركة إلى حركة ومن فضاء معرفي إلى آخر، لتكسب مع كل تحول مكسبا جديدا ينضاف إلى الدرس الاستغرابي ويعلي من شأنه.

فقد انتقلت من فضاء الاصطراع والمراغمة الذي قادته الحركات التحررية المتنوعة حيث كان الواقع يملي بقوة ضرورة فحص ودراسة "العدو المستعمر" لمواجهته ثم تحولت إلى فضاء المدافعة في مشروع النهضة الذي قدمته الحركة الإصلاحية حيث مزجت بين المرحلتين. ثم تحولت الفكرة إلى فضاء المرافعة الحركية والعلمية، أما فضاء المرافعة الحركية أو ما يمكن أن نصطلح عليه هنا (الاستغراب الحركي) فقد تبناه تيار الصحوة الإسلامية بمختلف تشكيلاته في مواجهته ومحاولته دراسة الغرب وفهمه، حيث ألقت هذه المواجهة على ظلال فكرة الاستغراب ومفرداته في هذه المدرسة فكان منتوج الاستغراب الحركي مشحونا ومهموما بكشف خطط العدو ونقاط ضعفه ، إلا انه قد خرج من ضمن هذا التيار تيار آخر أسس من داخل هذه المدرسة لتيار جديد أطلقنا عليه مصطلح الاستغراب السنني والمعرفي الأول قاده مالك

بن نبي والثاني تقوده فكرة إسلامية المعرفة في شقها المتعلق بفهم الغرب ودراسته.

أما المرافعة العلمية والأكاديمية فقد قادها من يمكن أن نطلق عليهم نموذج الاستغراب الأكاديمي الذي انطلق أول الأمر من نقد الدراسات الاستشراقية، وقد اشتغل في هذا المجال نخب من داخل الفضاء الأكاديمي في الجامعات والمؤسسات الفكرية ومن ضمن هذا الفضاء يمكن أن نميز بين عدة مبادرات أو مشاريع أو رؤي كانت تصب في عمق موضوع الاستغراب.. ومنه انطلقت محاولات ادوارد سعيد، ومازن صلاح مطبقاني، وحسن حنفي..

هذا على مستوى سمات فكرة الاستغراب في كل تلك المراحل، أما فيما يخص واقع وثقل هذه الفكرة من حيث المضمون والمفعول والمادة والمنهجية داخل كل تيار أو مشروع فهذه مسألة تختلف من تيار إلى آخر فلكل نصيبه وسهمه في تعزيز وإثراء فكرة الاستغراب.. مع رصدنا هنا لملاحظة منهجية دقيقة، وهي أنه قلما أن نشاهد تحول (الاستغراب) بشكل تسلسلي سلس من الفكرة إلى الجهد ثم قولبة هذه الجهود في شكل مشاريع متكاملة العناوين والنظريات والآليات ثم محاولة الارتقاء بالمشروع، ـ والمشروع هو "أمر يُهَيَأ ليُدرَس ويُقرَر.. وجمعه مشروعات" [١٢٣] بعد نضجه ليكون اتجاها عاما، ويكون في نفس الوقت توجها يفرض نفسه في الواقع . لم نعثر إلى حد اللحظة على نموذج كامل استوعب كل الجوانب النظرية والتطبيقية الخاصة بعلم الاستغراب مثلما فعل الاستشراق حين ترجم جهوده النظرية والتنظيرية إلى مشاريع ومؤسسات وآليات عمل ميدانية في معظم مراحله.

---

(١٢٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط ، الطبعة الثالثة ،دت، ج١ ص ٤٩٨.

المبحث الأول:
لماذا الاستغراب جملة اعتراضية في مشاريع النهضة

لقد دُرس الاستغراب ضمن أفكار وتوجهات ونظريات ومدارس وحركات ومشاريع حضارية ونهضوية كثيرة في العالم الإسلامي، ولكنه كان في بعضها بمثابة جملة مهملة في نص المشروع، بل لعله كان في بعضها جملة اعتراضية، والجمل الاعتراضية لا محل لها من الإعراب. إذ يمكن حذفها دون أن تتأثر الجملة الحاضنة لها، أما بالنسبة لمن اهتم بها فجعلها في مركز المشروع فغياب المنهجية والتخصص أفقدها قيمتها، وبالتالي لم نجد أحدا أخرجها لتكون في حد ذاتها مشروعاً مستقلاً. اللهم إلا محاولات قليلة هجرها أصحابها فيما بعد إلى غيرها.

قد يقول قائلهم مبررا ، ربما لأنه لا أحد يملك النفس العلمي الطويل لتحقيق هذه الأمنية والعمر قصير، والعبد يطلب السهل الذلول على الصعب الممتنع، كما أن الأمر يتجاوز الفذ الواحد، بل ويتعدى أيضا الجماعة والمؤسسة الواحدة ..إنه مشروع يستغرق أجيالا بأكملها، فالاستشراق مثلا أصبح علما بعد قرون من الكد والعمل والتنظير والتدقيق والأخذ والرد وبعض المراجعات ..إنه حصيلة مرافعة حضارية كاملة. وقد يقول آخر ربما يعود السبب إلى افتقاد هذا المشروع الحضاري الكبير لشروط وآليات انجاز المشاريع في أذهان أصحابها مع صدق نياتهم وضمأهم إلى تحقيق الفكرة.

إذا ما أفقدها قيمتها وثقلها عدم تحولها في حد ذاتها إلى مشروع تفرغ له الطاقات وتخصص له الميزانيات والمؤسسات إذ يقتضي مع مرور الوقت وتناميه وتزاحم أفكاره:" الإضافة والتعديل باعتباره ليس شيئاً ناجزاً، بل مقترحات تحتاج إلى المراجعة والحوار حولها. ويتضمن المشروع عناصر بينها تكامل وانسجام، ويتطلب البدء في مشروع معين وعياً على عناصر

الواقع القائم وقدرة على تقويمها، ورغبة في تطوير هذا الواقع وتغييره، وأصالة في تصور المستقبل واستشرافه، كما يتطلب جرأة في اتخاذ القرار وربما شيئاً من المغامرة أو المخاطرة في توفير الموارد اللازمة للمشروع، فقد يكون المشروع بالنسبة للفرد "مشروع العمر" وكثيراً ما يقفز هذا المغامر الذي تجرأ واقترح المشروع ليكون من القلائل الذين يشار إليهم ويستمع لهم بسبب ما تمخّض عن المشروع من نجاح، وقد يكون فشل المشروع سبباً في معاناة صاحبه طوال ما تبقّى من عمره."[١٢٤]

لا أريد أن أستبق الأمر فأقيّم الاتجاهات والمشاريع قبل عرضها ..ولكن أقدم لكلامي فأقول. وّجدت محاولات ترتقي إلى مستوى التنظير الاستغرابي الدقيق والمحكم، ولكن عيبها أنها لم تكتمل، فمالك بن نبي قدم أنموذجا لاستغرابه السنني لم يسبق إليه في تحليل الظاهرة الغربية، ولكن عيب هذه المحاولة أنها كانت تحتاج إلى روافع مؤسساتية تترجمها إلى الواقع بعد وفاته و تحتضن من خلالها أفكاره وتحليلاته الاستغرابية حتى تكون إضافة قمينة بدفع درس الاستغراب إلى مقدمة الاهتمام وهذا ما لم يكن، لأن استغراب مالك رحمه الله كان استغرابا سننيا ومن شأن الاستغراب السنني أن لا يختلف حوله الناس مهما تعددت مشاربهم.

ويمكن أن نصف هنا محاولات أخرى مثل محاولة حسن حنفي إلا أنها الأخرى لم تكتمل ؛فكان أول من هجرها صاحبها، حيث طفق يبحث في مواضيع أخرى مجنحا بعيدا عن لب ما طرحه في مشروعه، ولو أكمله والقي فيه ما تبقى من جهده لكان له شان آخر، أفضل من محاولاته في تقديم نظريات جديدة للتفسير، ونذكر هنا محاولات أخرى نادى بها الدكتور مازن مطبقاني مبكرا في الوسط الأكاديمي السعودي والعربي، ولكن الرجل خذله

(١٢٤) الملكاوي ، إسلامية المعرفة ، السنة السابعة ، العدد الخامس والعشرون ، ٢٠٠١م ص٩ .

أهله قبل غيره.. فكانت أفكاره وإن لقيت الرواج في الأوساط الثقافية إلا أنها لم تلق القبول في الأوساط السياسية مما أفقدها الاستمرارية، لأن مركز الثقل في فكر الرجل ورؤيته هو نقل وترجمة المادة التنظيرية إلى المجال المؤسساتي، ولما عطل هذا الجانب تعطل المشروع.

لن نطيل أكثر مما قدمنا لهذه الجزئية، وسنشرع الآن في بيان نظري وتقسيم لأهم الاتجاهات التي تناولت فكرة الاستغراب محاولين الاصطلاح على كل اتجاه أو مشروع بما نراه أنه سمة من سماته ..وهنا أدعو القارئ الكريم أن يفتح من باب أنه لا مشاحة في الاصطلاح إلى تفهم الاصطلاحات والتقسيمات التي انتهجتها في هذا الكتاب إذ قد يرى غيري تقسيما آخر أفضل وأفيد، وله ذلك. و لكن الذي أراه أن هذا التقسيم كان متماشياً مع عنوان الموضوع ومقاصده والإشكالية المطروحة فيه والعلاقة بين فصوله.

ونشرع الآن في بيان أهم هذه التيارات والمدارس التي درست الغرب وحاولت أن تتأمله وتفهمه.

المبحث الثاني:
الاستغراب الإصلاحي

لقيت فكرة دراسة الغرب والاستفادة منه في فترة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين القبول والاستحسان لدى الكثير من التيارات، وزاد الإقبال عليها وإعطائها زخما فلسفيا وفكريا أكثر مع بداية تنشيط محور الرحلات العربية الحديثة إلى بلاد الغرب، حيث أبدى كتابها وبصراحة وقوعهم في صدمة معرفية إزاء ما يحدث في الغرب من تطور، كما كان لظهور تيار الحركة الإصلاحية في المشرق والمغرب العربي دافعا أكبر لظهور فكرة دراسة الغرب على ما هي عليه في تلك المرحلة..

" وقد أورد لنا محقِّقُ أقوم المسالك قائمةً برحلات المشارقة والمغاربة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، فكان ما ذكره من رحلات أهل المشرق: رحلة رفاعة الطهطاوي سنة ١٨٣٤ (تخليص الإبريز إلي تلخيص باريز) رحلة أحمد فارس الشدياق إلي باريس سنة ١٨٥٥(الساق علي الساق في ماهو الفارياق) رحلة أحمد فارس الشدياق سنة ١٨٦٣(كشف المخبَّا عن فنون أوروبا / الواسطة في أحوال مالطة) رحلة سليم بطرس سنة ١٨٥٦ (النزهة الشهيَّة في الرحلة السليميَّة) فرنسيس مراش ١٨٦٧(رحلة إلي أوروبا) لويس صابونجي ١٨٧٤ (الرحلة النحليَّة) نخلة صالح ١٨٧٦ (الكنز المخبَّا للسياحة في أوروبا) محمد شريف سالم ١٨٨٨ (رحلة إلي أوروبا) دمتري خيلاط ١٨٩١ (سفر السفر إلي معرض الحضر) حسن توفيق ١٨٩١(رسائل البشري في السياحة بألمانيا وسويسرا) أمين فكري ١٨٩٢(إرشاد الألبَّا إلي محاسن أوروبا) أحمد زكي)١٨٩٣السفر إلي المؤتمر) أحمد زكي ١٩٠٠ (الدنيا في باريس) علي أبو الفتوح) ١٩٠٠سياحة مصري في أوروبا.

أما الرحلات المغربيَّة، وفقاً لقائمة المصنِّف الشنوفي، هي: ابن أبي ضياف

١٨٤٦(اتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وملوك أهل الأمان) خير الدين التونسي ١٨٦٧(أقوم المسالك) سليمان الحرائري ١٨٦٧(عرض البضائع العام) محمد السنوسي ١٨٨٣(الرحلة الحجازيَّة) محمد السنوسي ١٨٩١ (الاستطلاعات الباريسيَّة) بيرم الخامس ١٨٨٤ (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) علي الورداني ١٨٨٨ (الرحلة الأندلسيَّة) محمد بلخوجة ١٩٠٠ (سلوك الإبريز في مسالك باريز)[١٢٥]

الأكيد في هذه الدراسات والرحلات على اختلاف طبيعتها أنها لم تكن على أمر جامع وأرضية فكرية واحدة ، وإن سجلنا هنا أنها متفقة في غالبها في محور الدعوة إلى ضرورة دراسة الغرب وملاحظة ما وصل إليه من القوة والمنعة والمدنية والاستفادة منه قدر الإمكان، كما أن هذه الدعوات ليست بدعا من الأمر في زمانها إذ لم تكن المصدر الوحيد للوعي بفكرة الاستغراب في صورها المبسطة، فقد كان هذا الوعي حاضرا لدى غالب علماء الأمة، خاصة أولائك الذين أتيحت لهم فرصة تقلد مناصب في الدولة أو أولائك الذين هاجروا إلى بلاد الغرب حيث توسعت رؤيتهم وتفتحت مداركهم أكثر، فهذا المحدث والمفتي الحنفي السفير الجزائري محمود ابن العنابي (١٧٧٥ - ١٨٥١ م) صاحب كتاب " السعي المحمود في نظام الجنود " يقول في كتابه تنبيها إلى ضرورة مواكبة التطور ودراسة الغرب :"إن الأوروبيين نظموا جنودهم ليضروا بالإسلام وأهله، وأمام هذا الخطر الداهم، أصبح من المحتم على المسلمين أن يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم، وهذا الكتاب مكون من أربعة عشر فصل، يتعلق بنظم الجيش والأخذ بأسباب

(١٢٥) انظر: جريدة الأهرام الرقمي ،العدد التاسع ، ٢٠١٠ .

الحضارة.[١٢٦]

وفيما عدا هؤلاء، فقد سعى آخرون إلى بلورة وتأسيس اتجاه كامل في الأمة يدفع إلى دراسة الغرب محاولين في ذلك التوفيق بين قيم الحضارة الإسلامية وقيم ومنجزات المدنية الغربية من خلال ترجمة هذه الفكرة إلى مشاريع نهضوية وإصلاحية ، وهم في ذلك مذاهب ومدارس فمنهم من وفق في التعبير عن فكرته وكان مقتصدا في كلامه مقتصرا على دعوات عامة ولم يتجاوزها إلى غيرها، ومنهم من حاول حلحلة أوضاع الأمة باجتهاد تنظيري يخرق به سقف الاجتهاد المعهود لدى النخب العلمية والسياسية، وقد أسعفهم وعيهم المقاصدي في منطلقات دراستهم للغرب ،ومنهم كان رواد المدرسة العقلية ومن لف لفهم وحام حول أفكارهم.

فخير الدين التونسي (١٨٢٢-١٨٨٩) كان أحد رواد النهضة في العصر الحديث وكان من هذه الزمرة التي اجتهدت في دراسة الغرب، وكان لاجتهاده نصيب من الصواب ونصيب من الخطأ، في زمان كان الاجتهاد في هذا الباب مرصوص على أرضية زلوق تميد بكل من ألقى بدلوه فيه، ففي مقدمة كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" يكشف عن مقاصده من تأليف هذا الكتاب، ويحث عليه جمهور الأمة، وقبل ذلك نخبتها السياسية والعلمية مبينا:"أن الباعث الأصلي على ذلك (تأليف الكتاب) أمران آيلان إلى مقصد واحد ،احدهما إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكن من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان.

---

(١٢٦) أنظر : الأعلام للزركلي ، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢ ، ج٧،ص ٨٩/موسوعة ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org/wiki

ثانيهما تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرطنا بمجرد ما انتقض في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم ينبغي أن يهجر..." [١٢٧] ومع سلامة فكرته ومقصده، فقد أوخذ على الكثير من أفكاره الأخرى إذ لم يوفق في بلورة وصياغة نظرية تتناسب في دراستها للغرب والاستفادة منه مع طبيعة الموروث الحضاري للأمة وقيمها، وخالف في ذلك الشرط الذي وضعه في مقدمة كتابه وألزم به نفسه. حيث كان أقصى غاياته اقتباس نماذج من الحياة المدنية والسياسية في أوروبا في مجال التنظيمات السياسية، ومحاولة إسقاطها على البيئة والواقع الإسلامي دون مراعاة شروط التنزيل، وضرورة إعادة تبيئتها وقراءتها لتتوافق مع واقع الأمة، ولذلك انتقدت توليفته بشدة. خاصة حين طالب بتوسيع أفق الحريات الفردية على نحو ما هو سائد في أوروبا، بل إن الكثير من العلمانيين في العالم العربي يعتبرون فكرتهم امتدادا لمطالب خير الدين التونسي بفصل الدين عن الدولة وفق النمط العلماني الأوروبي.

على كل فقد حاول الرجل الترويج لفكرة دراسة الغرب منطلقا من خبرته السياسية ووعيه المقاصدي الذي ورثه من شيوخه في الزيتونة خاصة الشيخ سالم بوحاجب (١٨٢٨م-١٩٢٤م) الذي أعانه على تأليف كتابه "أقوم المسالك" [١٢٨] ولذا حاول أن يوظف هذه الفكرة واللغة في إقناع ومخاطبة نظرائه بواجب "دراسة الغرب" وضرورة الاقتباس منه، وهذه لغة ملحوظة في كتابه حيث يقول وكلامه موجه إلى العلماء حتى يجتهدوا في اقتراح نماذج سياسية للدولة والوطن تتناسب مع الجديد والمستجد في الساحة الغربية ما

---

(١٢٧) خير الدين التونسي ،أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٨٣ هـ/١٨٦٧م،ص ٥

(١٢٨) انظر:" معتز الخطيب ، الوظيفة المقاصدية .أهميتها وغاياتها ..إسلامية المعرفة ، العدد :٤٨، ص ٢٨

نصـه :"العلمـاء الهداة جديرون بالتبصـر فـي سياسـة أوطـانهم واعتبـار الخلل الواقع في أحوالها الداخلية والخارجية، وإعانة أرباب السياسة بترتيب تنظيمات منسوجة على منوال الشريعة، معتبرين فيها من المصـالح أحقها، ومن المضـار اللازمة أخفها."(٣)" [١٢٩]

أيا كـان الأمـر فالرجـل حـاول أن يقدم قراءة لواقـع المسلمين وفـق منظـوره منطلقـا مـن دعواتـه إلـى دراسـة الغـرب التـي كـان صـداها يـتردد مـن الأسـتانة عاصمة الخلافة إلى المغرب العربـي، وفي وقت كان استنبات هذه الفكرة أو إخراجها إلى الناس كافيا للاتهام بالعمالة للغرب المستعمر.

أمـا رفاعـة الطهطـاوي (١٨٠٥-١٨٧٣) فقد كانـا اسـتثناءاً بين أقرانـه فـي ذلك الزمـان ، قبل أن يغير مـن مقاصده فـي دراسـة الغرب، حيث أصـيب بصـدمة وانبهـار مـن الغـرب لمجـرد أن شـم نسـائم بـاريس، وعـاين نمـوذج الحضـارة الغربيـة عن قرب فدخلها ـ علـى أحسن التـأويلات ـ مدخل صدق وخـرج منهـا مخـرج تيـه وتنكـب، ويكفـي أن تطلـق بصـرك مليـا فـي كتابـه " **تخليص الإبريز فـي تلخيص باريز**" و "**مناهج الألبـاب المصرية فـي مباهج الآداب العصرية** " لتجد ذلك الانبهار غير المبرر بالحضـارة الغربية، ودونما نظـر إلـى اجتهاده فـي آرائـه السياسية والاقتصـادية التـي حـاول أن يقنـع الأمـة مـن خلالهـا بـالفكر الليبرالـي والعلمـاني ، فقد كـان تـأثر الطهطـاوي بـالغرب الأوروبـي ثقافيا علـى نحـو لا يقبل التبرير من رجل أزهري يقول فـي مقارنتـه عن الرقص بين مصـر وفرنسا ، وهذا مما شد انتباهه لما كان فـي فرنسا، أنـه فـي مصـر "من خصوصيات النسـاء ؛لأنـه لتهييج الشـهوات، وأمـا فـي بـاريس

---

(١٢٩)

فإنه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً ".[١٣٠]

ويكفي أن نعرف مثلا كيف كان توصيفه لاحتلال فرنسا الجزائر لنعرف أنه كان يكتب عن الغرب تحت سكر الحضارة الغربية، يقول في الفصل السادس من الكتاب: مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالي الجزائر إنما هي مجرد أمور سياسية ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات، منشأها التكبر والتعاظم! ومن الأمثال الحكيمة لو كانت المشاجرة شجراً لم تثمر إلا ضجراً " [١٣١] والسؤال الملح هنا، أي رصيد اكتسبه الرجل في فهمه لطبيعة العدو الغربي الصليبي الذي كان يعتبر احتلال الجزائر مكسبا أوروبيا وامتدادا للحروب الصليبية الأولى في طبعتها الكاثوليكية، كيف لرجل شاهد على العصر يصف معركة صليبية مصيرية في ذلك الزمان بتلك العبارات والمفردات المختزلة، كيف نأتمنه على استخراج العسل من أقداح السم ونقل تجاربها التحديثية إلى العالم الإسلامي.

وصدق في حقه وحق المبتعثين من أمثاله ،مقولة مالك بن نبي حين كان يصف حال اندهاش الطلاب والمبتعثين العرب إلى الغرب في تلك الفترة من بهرج المدنية الغربية وبريقها حين قال، " وكان المبتعثون العرب إمّا في مزابل الغرب وإمّا في مقابره "[١٣٢]، إشارة منه إلى الأفكار الميتة التي هي

---

(١٣٠) رفاعة الطهطاوي ، تلخيص الإبريز في تلخيص باريس ،شركة كلمات عربية للترجمة و النشر القاهرة، ص:١٦٤

(١٣١) المرجع السابق ، ص،٢٥٨

(١٣٢) أنظر: مجلة جامعة أم القرى العدد : ٣٢ / مخطط الانحدار وإعادة البناء. الدكتور: خالص جلبي، الرياض: منشورات كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفيّة، ١٩٩٦ م ،ص ١٠٣./مالك بن نبي، ترجمة الدكتور، بسام بركة، والدكتور: أحمد شعبو وإشراف وتقديم عمر مسقاوي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق دار الفكر الطبعة الأولى، ١٩٩٢ م، ص ١٤٦.

نتاج ارث اجتماعي يولد القابلية للاستعمار والتي أخذوها معهم إلى باريس، و الأفكار المميتة التي استعيرت من الغرب، والتي تولد من تلقاء نفسها الاستعمار والإعجاب المفرط بالآخر. وليس غريبا على شاب مثل الطهطاوي عمره لا يتجاوز الخامسة والعشرين أن يقع في أنياب المجتمع الغربي كما يقول جمعة سيد يوسف " أرسل في بعثة محمد علي إلى فرنسا عام ١٨٢٦م وكان في الخامسة والعشرين من عمره . ذكياً نعم ، نابهاً بين أقرانه نعم ، محبا للعلم نعم، ولكنه مع ذلك في الخامسة والعشرين من العمر.. غريراً ، طري العود، جاء من أقصى الصعيد حيث البؤس والضنك إلى قلب باريس بحدائقها وميادينها ومباهجها ...وتم تسليمه إلى أخطر مستشرق وأدهاهم، إنه البارون الفرنسي سلفستر دي ساسي، فتنوه وجعلوه يشاهد أروع المحافل التي تتألق أنوارها، فتتألق معها مفاتن النساء ، انتزعوه من بؤس الصعيد وأزقتها المخربة وقضى في باريس" .(١٣٣)

كتبنا هذه الكلمات عن الطهطاوي وأدرجناه في هذا السياق، لأنه كان من الزمرة التي وجهت موضوع دراسة الغرب توجيها سلبيا بهذا النوع من القراءات الخداج ، حيث تأثر بفكره الكثير من العلمانيين والليبراليين والتغريبيين في العالم العربي بعده بقليل، أمثال أحمد أمين، ولطفي السيد، وطه حسين.. ، وكانت أفكاره بمثابة المداميك التي بنى عليها هذا التيار تنظيراته وفلسفته في دراسة الغرب والحلول فيه .

وإذا ما تجاوزنا اتجاه نموذج الطهطاوي كحالة استثنائية ، فإننا نلاحظ في تيار المدرسة العقلية الذي تأسس على يد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨م-١٨٩٧م) و محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥ م)، رشيد رضا (١٨٦٥م-

---

(١٣٣) أنظر: جمعة سيد يوسف ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي وما بعدها بتصرف . سلسلة عالم المعرفة ١٤٥/١/١٩٩٠م، ص٢٢

١٩٣٥م)، محمد مصطفى المراغي) (١٨٨١- ١٩٤٥) والكواكبي (١٨٥٥ -١٩٠٢م)... وهؤلاء ثلة لها رؤية وفلسفة إصلاحية تعتبر في ذلك الوقت الأنضج والأفضل من بين كل الرؤى الموجودة. هذا مع حذقهم وشدة انتباهتمهم إلى خطورة الغرب الاستعماري مع أهمية وضرورة دراسته للاعتبار بقوته وإيجابياته، والاستفادة منه فيما لا يقدح في تشريع أو معتقد أو خلق إسلامي مشرقي، وكانت مواقفهم في ذلك على اتزان كبير تنبئ عن وعي عميق يحرسه فقه سنني بضرورات السير في الأرض والاستفادة ايجابيا من كل تجربة إنسانية والحضارة الغربية واحدة منها.

يقول الأستاذ رشيد رضا تعبيرا عن هذا المعنى والاتجاه في هذه المدرسة:" وقد قلت للأستاذ الإمام مرة : ما بال باطل هؤلاء الإفرنج في شئونهم السياسية والدينية ثابتا ناميا لا يدمغه الحق ؟ - أو ما هذا معناه - فقال : إنه ثابت بالتّبع للنظام الذي هو أقوى الحق، أي فهو يزول إذا قذف عليه بحق مؤيد بنظام مثله أو خير منه، فهذا ما ينبغي أن يعمل له المستعبدون لهم في الشرق، مع مباراتهم في العلوم والفنون دون الترف والفسق. بيد أن هذا كله لا يمنع انتقام الله منهم، وإنما يجري على مقتضى سننه في تأخيره عنهم، فهو مثل من أمثال استئجار العذاب بأسباب تأخير الأجل، وليس من أسباب منعه. فإنما منعه بالرجوع إلى الحق والعدل والاعتدال، والصلاح والإصلاح" (١٣٤) .

يعتبر هذا النص بحق وثيقة ذهبية وعلامة مسجلة على منهج المدرسة وفلسفتها في دراسة الغرب والاستفادة منه مع التحذير من سيئاته، ومن هنا أمكن لنا أن نلاحظ أن هذه المدرسة كانت تسير على جبهتين وخُطتين:

---

(١٣٤) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٠م، ج٧،ص ٣٦

أولاً: محاربة الاستعمار الغربي والدعوة إلى التحرر والانعتاق من سلطان الغرب الاستعماري .

ثانياً: دراسة الغرب والاستفادة منه في مجالات القوة والتطور، ومباراتهم في وسائل المنعة والشوكة، وهذا الموقف عبر عنه رواد هذه المدرسة في كتبهم ومقالاتهم بشكل واضح لا لبس فيه. تطور فيما بعد أكثر فأكثر ليغدو فلسفة لهذه المدرسة، فهذا محمد عبده يدعو إلى ضرورة " أن نُجِدَّ السير في اكتساب المعرفة الصحيحة من أي أفق بزغت شمسها، ونطرح كل ما يعده العقلاء عديم الفائدة أو موجبا للضرر، ولا بد أن نرجع إلى شؤون معاصرينا من الأمم، ونطالب الوسائل المساعدة لنا في مظاهرتهم ومباراتهم في القوة والشوكة والعزة والسطوة".(١٣٥)

وفي الوقت ذاته كانوا على دراية عميقة بخطورة القيام بهذه المهمة في تلك المرحلة التي كانت عليها الأمة من التمزق والتخلف، مع غياب أرضية فكرية قوية تؤطر لهذه المسألة ، خشية الوقوع في مطبات التقليد الأعمى للمدنية الغربية، والانبهار بحضارة المستعمر، وليس صحيحا كما يروج أن المدرسة فتحت الباب أمام دعوات الانغماس في الحضارة الغربية وتقليد المدنية الغربية التقليد الأعمى، فكيف لمدرسة ترفض التقليد في العقائد أن تقبله في الحضارات دون روية وحذر ونظر، يقول الأفغاني تعليقا على هذه المسألة،" ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون

---

(١٣٥) محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ، المؤسسة العربية للدراسات العربية والنشر، بيروت، ١٩٧٢. ج ٢

أقدامهم" [١٣٦].

لقد سعى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من خلال مجلة العروة الوثقى وشقيقتها المنار التي أسسها الإمام رشيد رضا فيما بعد إلى شد أفكار العالم الإسلامي المشتتة إلى أهمية معرفة الغرب، وكانت مقالات المنار و العروة الوثقى تحمل أجوبة واضحة لأسئلة علم الاستغراب التقليدية والتي تمهد لدراسة الغرب، لماذا تقدم الغرب وتأخر الشرق ؟، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟، وهي أسئلة تستبطن البحث والتفتيش في دفاتر الحضارة الغربية ومجتمعاتها لا لنرى ذواتنا في مرآة الآخرين بل لنبحث عن أسباب المكنة و المنعة السننية التي جعلت البنيان الغربي يستغلظ ويستوي على سوقه ، وهو ما فتح المجال والشهية للبحث في شؤون الغرب ودراسته وانقسمت النخب المثقفة إزاء ذلك إلى قسم ارتمى في أحضان الغرب بالكلية ،وقسم حث واستحث القوم على دراسة الغرب والاستفادة من عناصر القوة فيه ، مع الحذر من سمومه..

لقد تشكل هذا الوعي وتعزز بقوة لدى الحركات الإسلامية التي جاءت من بعد خاصة لدى جماعة الإخوان المسلين، على الرغم من أن الكثير من النقاد من داخل التيارات الإسلامية ذاتها ـ والسلفية على وجه الخصوص ـ يبالغ في توجيه النقد لتيار المدرسة العقلية ممثلة في (محمد عبده وشيخه جمال الدين الأفغاني)، ويتهمونهم بمحاولة تطويع مبادئ الدين لقيم الحضارة الغربية، بل والجوسسة على الإسلام ذاته كما يقول الشيخ الغزالي في معرض دفاعه عنهم.[١٣٧]

مالنا ولهؤلاء النقاد، فسيئات المدرسة كما أخطاء شيوخها مغمورة في بحر

---

(١٣٦) محمد عبده الأعمال الكاملة ، دراسة وتحقيق :محمد عمارة ، ، طبعة القاهرة ،١٩٦٨ م، ص: ١٩٥

(١٣٧) انظر: محمد الغزالي ،الفساد السياسي ، دار نهضة مصر ،الطبعة الأولى ،دط،دت،ص: ١٠

حسناتهم ومنجزاتهم ، ومنهج السلف "أنه من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله".[١٣٨] ولو لم يكن لهذه المدرسة من حسنة إلا أنها حاولت تنبيه العالم الإسلامي الذي كان يفقد حواسه الحضارية التي تساقطت الواحدة تلوى الأخرى كما تسقط حبات العقد إذا انفرط ، محاولين إحياء هذه الحواس المخدرة و لفت انتباهه إلى ضرورة معرفة مكامن قوة العدو الذي بسط ذراعيه بوصيدنا وتحكم في أقواتنا وقواتنا ووقتنا معرفة دقيقة صحيحة بدراسته وفهمه، ومن ثم مواجهته ومباراته بأساليب العصر لكان ذلك كافياً.

لم تكن جهود رواد النهضة الأوائل في هذه المسألة خاصة أولائك المتشبعين بالروح والمنطلقات الإسلامية لتذهب هدرا، فقد انتشر هذا الوعي من بعدهم لدى الكثير من الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي، مثل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي حاولت صياغة معادلة حضارية جديدة بالجمع بين تثقيف الجماهير وتمتين وعيها بقضاياها الدينية والفكرية والعقدية وخطورة الاستدمار، وبين فتح خط المثاقفة من موقع الثقة في الذات مع الغرب دراسة، والاستفادة من جديد الحضارة الإنسانية الذي لا يتعارض مع فلسفة التجديد في الإسلام.

ويظهر هذا جليا من خلال وعي مؤسسيها، فمقولاتهم مشحونة بمثل هذه المعاني، يشير العلامة ابن باديس في معرض دفاعه عن اللغة العربية إلى أهمية اللغة الفرنسية كآلية مفتاحية لفهم الغرب والتعرف عليه ودراسته، يقول: "ولو أنا حرمنا من حرية تعلم اللغة الفرنسوية التي هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته، كما حرمنا من حرية تعلم لغتنا، لوقفنا

---

(١٣٨) أنظر : الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، تحقيق : أبو عبدالله السورقي ، إبراهيم حمدي المدني ، المكتبة العلمية المدينة المنورة ، دط ، دت ، ص٨٩.

إزاء ذلك الحرمان لو كان، كوقوفنا إزاء هذا الحرمان."(١٣٩)

لم يكن ابن باديس في هذا المنطق المتزن بدعا في دعوته إلى مقاومة التغريب مع فتح مجال "درس الاستغراب " كفكرة ومقصد خاصة وأن أصول الفكرة والمقصد يؤطرها الوعي القرآني بالآخر الذي كان يستظل بظلاله أولائك المصلحون، وإن كانت أحوال الأمة التي كانت تحت نير الاستعمار ونيرانه قد حالت دون بلوغ المرام وتحقيق هذا المطلب العزيز كما ينبغي، فقد جاءت من بعدهم ثلة أخرى تبنت خطابهم وطورته وعضدته بأدوات وآليات جديدة ، ذلك ما نراه ونستبينه حين نرى انتقال فكرة "الاستغراب" في شكلها التقليدي إلى تيار الحركة الإسلامية وصحوتها المعاصرة .

---

(١٣٩) عبد الحميد بن باديس ، آثار ابن باديس، تحقيق عمار طالبي ، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ،الطبعة الأولى ١٩٦٨ م ، ج٣ ،ص ٢٥٧

المبحث الثالث:
نموذج الاستغراب الحركي

لم تكن دعوات المدرسة الإصلاحية لدراسة الغرب صيحة في واد أو نفخة في رماد، بالرغم من أن الجسد الإسلامي على امتداد محور طنجة جاكرتا لم يكن مهيئا لأن تنبت فيه هذه الفكرة نباتا حسنا أو تخرج إخراجا حسنا، نظرا لتفكك معالم وحدته وقوته، ومع ذلك فقد انبرى مبكرا بعد الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا من يترجم هذه الدعوة وقد تمثل ذلك من خلال الحركات والجماعات الإسلامية التي جاءت من بعدهم، وكان على رأسها تيار الإحياء الإسلامي بقيادة جماعة الإخوان المسلمين، أم الجماعات الإسلامية المعاصرة.

فهل ترتقي جهود هذا التيار في التعرف على الغرب ودراسته إلى مستوى أن تكون توجها كاملا يؤسس لفكرة الاستغراب ؟ وإذا وجد ذلك، هل يمكن أن نصنفه ضمن إطار ونطاق نظرية حركية متكاملة عن دراسة الغرب وفهمه؟ وقبل ذلك هل تملك هذه الحركات بمجموعها رؤية واضحة المعالم عن هذا الجزء من العالم والمصنف في أدبيات الاجتهاد الفقهي القديم بأنه دار كفر؟ إلى أي مدى ساهم خطابها في تجذير الوعي بالذات كمنطلق وقاعدة لمواجهة الآخر ودراسته؟ وإذا كان خطابها التجديدي يتجه إلى اعتبار دار الغرب دار إقامة الشهادة على الناس فهل أعدت آليات وشروط إقامة هذه الشهادة التي تعتبر من ابسط لوازمها المعرفة العميقة بالطرف الآخر؟

تكاد تجمع مصادر الدراسات التي تعنى بهذا الشأن أن الحركة الإسلامية المعاصرة لم تغفل موضوع دراسة الغرب، فكانت من الطلائع الفكرية السباقة إلى إثارة موضوع الدراسات الإستغرابية، وإن لم يكن بالشكل المعهود الذي نراه اليوم، فإنه كان وفق المقاصد والمنطلقات ذاتها وهي في عمومها لا تخرج

عن إطار المطالب التالية:

- ضرورة تلبية مطلب الرسالة في الدعوة والتبليغ، وهو ما يعني أن فهم الغرب ودعوته واجب لا يتحقق إلا بمعرفة طبيعة القوم من لغة وأعراف ومنطق وعادات.
- اعتبار الغرب مصدر التحدي والتهديد التاريخي الدائم للعالم الإسلامي، مستحضرين بذلك تاريخ الغرب ورصيده في الغزو منذ الحروب الصليبية إلى موجة الاستعمار في بداية القرن العشرين ونهايته في فلسطين وأفغانستان والعراق.. ولهذا نجد الاهتمام بدراسة الغرب وفهمه كما الاستفادة من منجزاته المادية خطاب متجذر في أدبيات الحركات الإسلامية المعاصرة، وهي سباقة إلى ذلك وقد تبلورت هذه الفكرة جيدا بعد الحركة الإصلاحية ممثلة في كبريات الجماعات الإسلامية المعاصرة حركة الإخوان المسلمين ، والجماعة الإسلامية في باكستان، وعموم التيار الإسلامي بمختلف تشكيلاته وألوانه ومدارسه.

إلا أن المشكلة تكمن في بقاء هذا الفكر حبيس القاموس الدعوي دون أن يترجم إلى مشاريع علمية وعملية أكثر دقة وفاعلية، مع تسجيلنا هنا لبعض الكتابات التي أفردت خصيصا لدراسة الغرب والرد على الاستشراق مثلما فعل الشيخ مصطفى السباعي في الرد على الاستشراق وأنور الجندي في كشف زيوف المذاهب الفكرية الغربية ونحو ما ألف سيد قطب رحمه الله في كتابه "أمريكا من الداخل".. ، ولكنها لم تكن كافية لتشكيل تيار هادر يصب في هذا الاتجاه.

لقد تركت مواقف هذه المدرسة المتزنة والتي دعت إلى مقاومة الاستعمار الغربي ودراسته دراسة معمقة، الأثر البارز على غالب الجهود التي جاءت من بعد، حيث انفتح الوعي أكثر بأهمية دراسة الحضارة الغربية والمجتمعات

الغربية، وضرورة إخضاعها للمساءلة المعرفية والفكرية أكثر من ذي قبل، فقد شكلت كتابات الدعاة من بعد محمد عبده والشيخ رشيد رضا من داخل التيارات الإسلامية المتنوعة أمثال الشيخ محمد الغزالي، وسيد قطب، والقرضاوي، والبوطي، ومصطفى السباعي، والمودودي، والشيخ أبو الحسن الندوي، والغنوشي، والترابي، محمد مازن المطبقاني، وطارق رمضان في أوروبا، ثم مشروع مالك بن نبي لدراسة وتحليل الظاهرة الغربية، والتي أعقبها جهود مدرسة إسلامية المعرفة حيث بدأت تتشكل معالم تيار كامل للتوجه نحو تحقيق هذا المسعى، وإن اختلفت طرقه ووسائله وآليات بحثه إلا أن مقاصده واحدة تنوخ كلها عند فكرة فهم الآخر ودراسته.

وإن سجلنا هنا أن هناك تسارع ملحوظ في موضوع الدراسات الاستغرابية في السنوات الأخيرة ساهمت عوامل عدة في دفع عجلة هذا المجال المعرفي، ويمكن تلخيص هذه المستجدات فيما يلي:

أولاً: دخول التيار الإسلامي إلى البيئة الغربية:

ليس من العيب أن يعترف التيار الإسلامي - وهو مقر بذلك - أنه ولغاية السبعينات من القرن الماضي يعتبر الكثير من منظريه أن الغرب عبارة عن " كتلة موحدة مصمتة لا توجد فيها تيارات ولا فلسفات ومدارس معرفية ونظرية وأدبية متباينة وتوجهات سياسية متعددة ....وبقي التركيز على الغرب كقيم واحدة موحدة ".[١٤٠]

إلا أن هذه الصورة النمطية بدأت تتغير وتتلاشى مع دخول الفاعل الإسلامي إلى الساحة الغربية، حيث أصبحت الأقليات الإسلامية في البيئة

---

(١٤٠) أحمد ثابت ، الغرب في إدراك الجماعات الإسلامية ، مجلة الاجتهاد العدد ٥٢ ، ٥٣ ،السنة الثالثة عشر ، بيروت لبنان ،ص:٣٣٤

الغربية واقع لا يمكن تجاهله بالنسبة للطرفين الشرقي والغربي، وإذا كان الكثير من الكتاب والمحللين يركزون في حديثهم عن الامتداد الغربي "الأورو-أمريكي" في الفضاء العربي الإسلامي سياسيا واقتصاديا، فإن هناك معادلة جديدة تتمثل في امتداد عربي إسلامي غير مسبوق في الفضاء الغربي، ولكن الفارق هذه المرة أن الامتداد الإسلامي في الفضاء الأور- أمريكي يعتبر تقدم جيو - حضاري استراتيجي للشرق على الغرب، بانتقال تلك الكتل البشرية ومعها منظوماتها الثقافية والدينية والفكرية إلى الجغرافيا الغربية .

ومع هذا الانتقال بدأت تظهر الكثير من التحديات، وتظهر معها حزمة من الاحتياجات الفقهية في مجالات عدة، واعتبرت هذه الاحتياجات الفقهية نوازل غير معهودة في تاريخ الأدب الفقهي، وهو ما أدى تنشيط العقل الإسلامي و فتح بوابة الاجتهاد على البيئة الغربية وتحريك آلات النظر فيما سمي فيما بعد " بفقه الأقليات الإسلامية "، وهذا ما ألجأ طائفة من العلماء إلى الإحجام عن الفتوى دون التعرف على الواقع الغربي، و معايشته والتنظير لمسائل وقضايا الأقليات الإسلامية الناشئة من الداخل، فأسسوا ضمن إطار الفعاليات الإسلامية في الغرب"المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث"،وتبعتها مؤسسات علمية ومراكز دراسية ومنظمات أهلية، وأصبح هذا التوجه اليوم تيار قوي له مرجعياته ومنظروه وفي نفس الوقت دارسوه ومنتقدوه ، وهو ما زاد من درجات انفتاح الحركات الإسلامية على المجتمعات الغربية وزاد معها الإقبال على دراسة الغرب في الكليات والجامعات الإسلامية ..

ثانياً: استعداء الغرب للتيار الإسلامي:

من المنبهات التي زادت من الوعي والإقبال على دراسة الغرب لدى التيارات الإسلامية، والتعرف عليه أكثر من ذي قبل، بالإضافة إلى العوامل السابقة، استعداء الغرب لها واعتباره لها المعضلة الأولى أمام مشروع

التحديث في المنطقة، وترجم هذا العداء في مواجهات عسكرية ومعارك ثقافية وفكرية، زادت من أهمية فهم الآخر لدى كل طرف والاطلاع على أساليبه في التخطيط والتنظيم. وهو ما زاد وكثف من وتيرة الاهتمام بالدراسات الغربية في صفوف هذا التيار ويلاحظ ذلك في ارتفاع منسوب المادة الكتابية والشفاهية الصوتية عن الغرب، ويقابله في الطرف الآخر / الغربي زيادة الاتجاه نحو تأسيس مراكز الدراسات التي تعنى بشان هذه الحركات كأهم محرك في المنطقة العربية والإسلامية.

مع ملاحظة جوهرية في هذا السياق، وهو أن ملف دراسة الغرب في أدبيات الحركات الإسلامية المعاصرة، حتى وإن كان مصنفا ضمن قائمة الأولويات في المرحلة الأخيرة ، إلا أنه لم يتجاوز نطاق الفكرة الصلبة المصمتة التي تحتاج إلى تفعيل في شكل برامج ومراكز ومجلات متخصصة وكتابات أعمق وأوسع مما كتب، مع ضرورة تفريغ ثلة من المتخصصين وتوجيههم إلى هذا القطاع المعرفي الاستراتيجي.

وكان الأجدى لها وهي المعنية بخطاب العالمية أن تدرس الغرب بالفلسفة التي يدرسها بها، ويكفي أن نشير هنا إلى أن كبريات الحركات الإسلامية في العالم لا تملك مركزا واحدا لدراسة الغرب ـ فيما نعلم ـ كما لا تملك في مواقع صناعة قراراتها مستشارون أو لجان دراسات الغرب، أو حتى خلايا علمية وفكرية لفهم الخطاب الغربي ورصد مستجداته، هذا في مقابل ما يملكه الغرب من مراكز شغلها الشاغل رصد كل شاردة وواردة عن هذه الحركات من كل الأبعاد السوسيولوجية والإثنوجرافيا (Ethnography) والإثنولوجيا (*Ethnology*) والأنثروبولوجية. وهذا ما يدفع للقول إن الإسلاميين كما "انهزموا في مواقع كبيرة لا تحتاج إلى عصا السلطة "[١٤١]، كذلك انهزموا في

(١٤١) انظر: الشيخ محمد الغزالي ،الطريق من هنا ،دار نهضة مصر للطباعة والنشر ،دت،دط، ص ٣

مواقع أخرى لا وجود لعصا الغرب فيها، وهذه أحد تلك المجالات التي يجب أن يراجعوا فيه حساباتهم.

صحيح أن الحركات الإسلامية المعاصرة ساهمت ولا تزال تساهم في تعريف الجماهير بأهمية هذا الموضوع وخطورته من خلال القنوات والمساحات المتاحة لها ،وهي بذلك تساهم في تثقيف الناس بحساسية الموضوع، ولكنه جهد لا يتناسب مع حجم المخاطر والتطور والتدافع والاصطراع الذي يشهده العالم بين مختلف الحضارات والبدائل والمشاريع المطروحة لقيادة الإنسانية، كما لا يتناسب مع حجم الدراسات الغربية التي تستهدف العالم الإسلامي في مختلف المجالات لإخضاعه.

وإذا استثنينا جهود مالك بن نبي الفردية في تحليل ودراسة الحضارة عموماً والحضارة الغربية على وجه الخصوص، ومعه مشروع إسلامية المعرفة الذي جاءنا من أقصى الغرب يسعى محذرا تارة ومؤصلا تارة أخرى، ساعيا إلى سد هذه الفجوة في أبجديات الخطاب الإسلامي المعاصر رافعا التحدي إلى مستوياته المعرفية القصوى حيث بحث عن الآليات الدقيقة في العلوم الاجتماعية التي نكتشف بها حركة التغير والتغيير في المجتمعات، وسعى إلى تحويلها إلى نظريات وقواعد منهجية لعلها تسعف أكثر في دراسة الغرب وتفهمه.. أما غير هذه الجهود فلا تعدو أكثر من عموميات تفتقد إلى المنهجية وصفة المشروع.

لسنا في هذا السياق في مقام النقد حتى نوجه نقدا إلى هذا التيار أو ذاك، ولكن الضرورة الرسالية والعلمية تقتضي أن نؤشر على مواطن التقصير حتى نراجع خطواتنا في مسيرة العمل الإسلامي وطريقة الدفع بالبدائل الحضارية إلى مستوى المرافعة، وإذا استحضرنا أن المجابهة بين الغرب والشرق لحد الآن تقتصر في أغلبها على مواجهة في المشاريع الثقافية والحضارية بين

الغرب الموحد وبين هذه الحركات، فإن إيجاد خطط ومشاريع علمية من داخل الواجهات الثقافية والفكرية والسياسية لهذه الحركات حتى تقدم سهمها في تقوية اتجاه "علم الاستغراب" ضرورة ليس دونها حد فنعرب عنه أكثر مما عبرنا عنه في هذه الصفحات.

فلماذا لا يكون أبناء الحركات الإسلامية المنتشرون وفي شتى المؤسسات العلمية في كل من العالم العربي والغربي إثنوغرافيين وإثنولوجيين، كما كان معظم الدعاة والرحالة العرب في تاريخنا الإسلامي، حيث استطاعوا أن" يتعرفوا على الثقافات الأخرى.. من موقع الثقة بالذات،... فقد تعرفوا على ثقافة الفرس ، والهند ، والصين ، فضلا عن الثقافة اليونانية ،بينما لم تتعرف أوروبا الغربية على تلك الثقافة حتى عصر النهضة ،... كما تعرفوا على خبرة الحكم والإدارة ، وتراث بيزنطة الشرقية ، في وقت كانت أوروبا كما يقول لويس" معزولة بين المياه المتجمدة شمالاً ، ومياه المحيط غرباً ، والإسلام جنوباً ، والبراري شرقاً ".[١٤٢]

هل يمكن أن تضطلع الحركات الإسلامية بهذا النوع من الفروع العلمية والدعوية، خاصة وأنها تملك من الموارد البشرية مالا يملكه غيرها مثل الكوادر المتميزة والطاقات المتخصصة مع القدرة والسلاسة على الانتشار الأفقي والعمودي بين شعوب ودول العالم الغربي، فتعيد بذلك رسم صورة الحراك والفعالية العلمية التي رسمها الأوائل في سيرهم حركتهم في الأرض تعارفاً وتعريفاً.

وإذا كانت حركة الهدهد العشوائية في مملكة سيدنا سليمان قد أسفرت عن اكتشاف وإسلام مملكة بأكملها، فإن الهدهد مع اعترافه بعظمة الانجاز الحضاري المادي في مملكة سبأ ، قَالَ تَعَالَى:﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ

---

(١٤٢) أنظر : شمس الدين الكيلاني ، مجلة الاجتهاد ، ص: ٣٥٠ .

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ النمل: ٢٣، ومع ذلك، فإنه لم يتغرب، ولم ينبهر انبهارا يفقده وعيه بانتمائه الديني، وإنما استدرك مع توصيفه الاثنولوجي للواقع كما هو – إن صح التعبير – في المملكة استدراكة الناقد البصير بسلبيات المدنية السبئية ونظام ملكها من منظور ومنطلقات الوعي العقدي ،أي أنه لم يكتشف ذاته في مرآة الآخر، وإنما اكتشف موقع الآخر في ميزان الحق الكوني، فعبر عنه كما في القرآن الكريم ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ النمل: ٢٤ ، وهكذا، فإن القيام بمثل هذه الحركة الواعية الهادفة الهادية في العالم الغربي واجب، وهو من فن الممكن الذي يورث التمكين، وإن كان فيه شيء من الصعوبة والسهل الممتنع، فإن هذا الامتناع والتمنع سيزول بمجرد أن تكون هذه الحركة الواعية غاية في التنظيم والتخطيط.

كانت تلك أمنية الكثيرين من داخل هذا التيار، وها هو ابن تيمية الصغير كما يلقب في الشام الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله ، يعبر عن هذا الانشغال المعرفي الحركي حين قال:" سيأتي يوم ننقلب فيه نحن إلى دراسة تراث الغربيين ونقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة ، وسيأتي اليوم الذي يستعمل فيه أبناؤنا وأحفادنا مقاييس النقد التي وضعها هؤلاء الغربيون، في نقد ما عند هؤلاء الغربيين أنفسهم من عقيدة وعلوم، فإذا هي أشد تهافتاً، وأكثر ضعفاً مما يلصقونه اليوم بعقيدتنا وعلومنا. ترى لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمي التي يستعملها المستشرقون في نقد القرآن والسنة، في نقد كتبهم المقدسة وعلومهم الموروثة، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية عندهم من قوة؟ وماذا يكون فيها من ثبوت ؟). [١٤٣]

---

(١٤٣) مصطفى السباعي ،الاستشراق والمستشرقون ،مالهم وما عليهم ، دار الوراق للنشر والتوزيع المكتب الإسلامي الرياض ،دط،دت،ص٨٣

وفي الأخير نقول؛ ومع كل الملاحظات التي أبديناها على هذا التيار ومن باب الإنصاف، فإن الإنتاج الفكري الذي قدمته الحركة الإسلامية المعاصرة في كتابات أعلامها عن دراسة الغرب في قوالب متعددة منثورة بين المادة الشفاهية، والمادة المكتوبة في المجلات والكتب والموسوعات، لا يقابله ولا يضاهيه غيره مما قدمته الحركات والكتابات القومية والتيارات الأخرى باختلاف مشاربها، إلا أن عيبها أنه لم يصهر في اختصاص واحد، ولم يجمع ويثمن في إطار هذا الاتجاه ، ولو فعل ذلك، ـ وهذا نداء للاستدراك ـ لكان بحق مادة تسعف في تحريك البحوث الاستغرابية في دوائر ومستويات عدة من ناحية الكم والكيف ، كما أنه من شأنها أن تخرج "علم الاستغراب" من دائرة القوة إلى دائرة الفعل، إخراجا حركيا معرفيا يكون فيه كل امتداد أو خطوة دعوية في الغرب مؤطرة بفقه استغرابي، كما كان الاستشراق يوما ما العقل والمرشد والمؤطر لكل حركة غربية استعمارية في الشرق ولما يزال.

المبحث الرابع:
نموذج الاستغراب الأكاديمي

أولاً: جهود إدوار سعيد في دراسة الغرب الاستشراقي.

تحت ضربات النقد الموجع الذي تلقاه الاستشراق في القرن العشرين على أيدي ثلة من أبناء الأمة على اختلاف توجهاتهم وتياراتهم الفكرية والعقدية بدأت تبرز إلى العلن أهمية دراسة الغرب .. فقد كان الاستشراق ولا يزال مادة دسمة للاطلاع على الغرب الفكري والثقافي، بل والسياسي وذلك من موقع أنه لم يكن حركة علمية بريئة من موقع الفضول العلمي كما يقول إدوارد سعيد وغيره."[١٤٤]

وفضلا عن كون الاستشراق يندرج ضمن الاحتياجات المعرفية الغربية، فهو يعد أكبر مؤطر لسياساته الاقتصادية العسكرية تجاه العالم الإسلامي، وهذا ما يجعل منه مادة خامة لفهم الغرب. هذا فضلا عن كون الاستشراق كان أكبر حركة في تاريخ الإنسانية تعنى بدراسة الآخر على هذا الزخم الكمي والكيفي الهائل، "بمعنى أن يتخصص آلاف من أبناء الحضارة الغربية في دراسة الإسلام وحضارته من جميع جوانبها ،كلياتها وتفاصيلها،فكرها، وواقعها) يعد ظاهرة فريدة في تاريخ الحضارات والثقافات الإنسانية"[١٤٥].

من هذا الموقع فمن الطبيعي والمتوقع أن ينشأ توجه معاكس له في الاتجاه مساوي له في القوة، أو هكذا يفترض أن يكون على الأقل، وفي هذا السياق

---

(١٤٤) أنظر : سعيد، إدوارد. تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حريري، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنقد، ١٩٦٦، ص١١٨ - ١٤٢.

(١٤٥) انظر : عبد الله الشرقاوي ،قراءات ومراجعات في : *An Account Of The Rise And* Progress Of Mahometanism لمؤلفه البريطاني Henry Stubbe ، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الثاني والعشرون ،ص١٦٤ .

لمعت شخصيات وقامات عدة اشتغلت وشغّلت غيرها بنقد الاستشراق وانتبهت من خلاله إلى ضرورة "الاستغراب"، ويمكن أن ننتخب من بين هذه الشخصيات الكثيرة والتي يمثّل كل منها اتجاها دينيا وفكريا، تفرقوا مجتمعين واجتمعوا متفرقين يلتقون في كونهم يشتركون في حقل النقد الاستشراقي والتنظير الاستغرابي، أولهم إدوارد سعيد وهو كاتب ومفكر خلفيته العقدية "مسيحية" على غرار الكثير من المسيحيين العرب الذين كتبوا في نقد الاستشراق، باعه في ميدان النقد لنظريات الاستشراق يشهد لها الموافق له والمخالف. وكانت كتاباته بمثابة معاول هدم في جدران الاستشراق العاتية حتى قال عنه "ماكسيم رودنسون MAXiM RODiNSON الفرنسي، إن الاستشراق اليوم في قفص اتهام ، بسبب ذلك الشيطان ادوارد سعيد على الأخص."(١٤٦) ، والثاني مازن صلاح مطبقاني وهو إسلامي التوجه والنزعة متخصص في نقد المذاهب الاستشراقية له الفضل في تأسيس شعب دراسة الاستشراق في العديد من الجامعات السعودية.

يتوافقون كلهم على أرضية نقد الاستشراق ويلتقون في فكرة دراسة الغرب مع بعض الاختلاف في نقطة البداية ومادة المواجهة مع الغرب، فإدوارد سعيد مثلا بالرغم من أنه كان يردد أن "**الاستغراب ليس هو الجواب على الاستشراق**" أي أنه لا يرى في الاستغراب مادة مجدية لدراسة الغرب ولا دافعا له ، على عكس مخالفه ونقيضه حسن حنفي الذي يرى أن "**الاستغراب هو الجواب على الاستشراق**" ومع هذا فقد كان ادوارد سعيد يساهم بطريقة أو بأخرى في تأسيس هذا الفكر والتنظير له ، فالرجل لا يرفض من حيث المبدأ دراسة الغرب كتوجه، وإنما يرفض أن يكون نقد الاستشراق طريقا لتأسيس هذه الشعبة المعرفية، لأنها ستقع حينئذ في أخطاء الاستشراق ومطباته التي زل

---

(١٤٦) انظر : جمال الشلبي ، صورة العرب والمسلمين في الإعلام الغربي : حالة فرنسا، أوراق المؤتمر الدولي الثاني ،أوربا والإسلام ١٩٩٦ م،جامعة آل البيت الأردن ،ص: ١٠١

فيها، وإلا فإن دعواته قبل وفاته إلى "إدراج دراسة المجتمع والدولة الأميركيين في برامج التعليم العربية بديلاً من مجرد تعليم التلامذة والطلاب العرب في كتب مدرسية أميركية أو منقولة عن الكتب المدرسية الأميركية ".(١٤٧)

كما دعواته قبل ذلك بكثير إلى تأسيس مراكز الدراسات الاستراتيجية لدراسة الغرب يقول سعيد: "إنها لصدمة موقظة أن نجد، على سبيل المثال، أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربي والإسلامي في الولايات المتحدة، فليس ثمة مؤسسة واحدة في الشرق لدراسة الولايات المتحدة، وهي أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية إطلاقاً في المنطقة. وأسوأ من هذا، لا يكاد يكون ثمة معهد ذو مكانة، حتى متواضعة، في الشرق مكرس لدراسة الشرق نفسه".(١٤٨)

ويذكر مازن مطبقاني في "كتابه بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر" التفاتة ذكية لإدوارد سعيد " حيث التقى بعض الطلاب اللبنانيين الذين يعدون رسائلهم الجامعية حول لبنان، فقال لهم بأن يكتبوا عن لبنان حين يكونون في لبنان أما في أمريكا فإن عليهم الكتابة عن أمريكا:" لماذا لا تكتبون عن أمريكا؟ لستم هنا لكي تكتبوا عن أنفسكم .. هنا يتوجب عليكم أن تشاركوا في الجدالات الدائرة حول أمريكا في أمريكا. "(١٤٩)

وسواء استغرب ادوارد سعيد أي طلب صراحة التوجه لدراسة الغرب أو لم يستغرب، فإن كتاباته وبالأخص كتابه " الاستشراق" الذي صدر باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٨ في الولايات الأميركية المتحدة، وترجم إلى أكثر من ٣٥ لغة ، مشحون بتلك المعاني والدلائل والمراميز والإشارات التي لا يخطئها

---

(١٤٧) أنظر: http://www.al-akhbar.com/n

(١٤٨) ادوارد سعيد ،تعقيبات على الاستشراق ،ص١١٨

(١٤٩) محمد مازن المطبقاني ، بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر ، ص: ٨٥

فهم القارئ البسيط فضلا عن القارئ المتمرس في هذا المجال .

ـ ثانياً: نموذج مازن صلاح المطبقاني :

إذا أردت أن تعرف قيمة التخصص كفكرة مثمرة بين أبناء التيار الإسلامي المعاصر، فيكفي أن تنظر إلى الدكتور محمد مازن مطبقاني. يندرج اسم الرجل ضمن المتخصصين في دراسة الاستشراق المعاصر والمتابعين لمنحنياته وإنتاجه المعرفي في الغرب، وكتابات ناقديه في الشرق، وكان كاتبا للعديد من الدراسات عن الاستشراق والغرب كما كان في الوقت ذاته مترجما للكثير من الأبحاث في الغرب، وهو مع ذلك كله أحد الأصوات التي حفرت في الذاكرة العربية والإسلامية المعاصرة فكرة "دراسة الغرب" منتهيا في ذلك إلى نفس النهايات والقناعات التي توصل إليها العديد من الكتاب الذين تمرسوا في نقد الاستشراق والدراسات النقدية المعاصرة للمذاهب الغربية، من ضرورة الاتجاه إلى تأسيس شعبة الاستغراب لدراسة وتشريح الظاهرة الغربية.

ويعتبر مازن من خلال كتاباته ونقده للظاهرة الاستشراقية أن أي دراسة عن الاستشراق في الشرق إنما هي إضافة نوعية بصورة ما إلى رصيدنا في دراسة الغرب، ويحمل بالنقد على أولائك الذين يعتقدون أن لا طائل من تأسيس علم الاستغراب بحجة أننا لم نرق بعد إلى المستوى الذي وصل إليه الغرب في مذاهبه الفكرية المعاصرة ،ففي كتابه "**الغرب من الداخل : دراسات للظواهر الاجتماعية**" يرد على منتقدي فكرة الاستغراب، أمثال عبد الرحمن العرابي وهاشم صالح من تلامذة أركون، ويدافع بقوة عن مشروع حسن حنفي ويثمن منطلقاته وأفكاره. ويعتبره صوتا جديدا ينضاف إلى هذا المشروع الحضاري الكبير.

ومن ردوده على منقدي كتاب حسن حنفي وتعجب بعضهم من فكرة الاستغراب قوله: "وما يمكن قوله لهذا المتعجب من دراسة المسلمين للغرب

هو هل من الضروري أن يمر المسلمون بالأدوار الفكرية والفلسفية التي مرّ بها الغرب حتى نفهم الغرب؟ وهل من الضروري أن ننقد القرآن الكريم والسنة المطهرة وفقاً لنقد النص الذي قام به الغربيون لنصوصهم "المقدسة" حتى يمكننا أن ندرسهم؟.... فهذا هو المنطق المعكوس أن نتوقف عن التفكير في دراسة الغرب حتى نمر بجميع المراحل الفكرية التي مر بها الغرب". (١٥٠)

مع ملاحظة جديرة بالاهتمام في هذا السياق، وهو أنه كان أسبق من حسن حنفي بسنوات في دعوته إلى دراسة الغرب صراحة، ويشير إلى هذا في معرض دفاعه عن مشروعه في دراسة الغرب لما اعتبره البعض بأنه مجرد صدى لما نشر من بعض الأكاديميين المصريين، وننقل هنا في جوابه عن هذا السؤال بقوله إنها "أفكار سبق أن تناولتها منذ أكثر من خمس عشرة سنة، بل ربما ابعد من ذلك حين نشرت ثلاث مقالات بعنوان (مشاهدات عائد من أمريكا) في مجلة المجتمع الكويتي عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م) وفيها ملامح عن أهمية معرفة الغرب من الداخل، ثم عدت مرة أخرى للكتابة حول أهمية دراسة الغرب في عدد من كتبي وفي كثير من المقالات التي نشرتها في العديد من الصحف والمجلات ففي كتابي (الغرب في مواجهة الإسلام، المدينة المنورة:١٤٠٩هـ، والطبعة الثانية عام ١٤١٨هـ، ص١٣٤، كتبت قائلاً :انظر كيف يدرسوننا، وكم يبذلون من الجهد والأموال لمعرفة ما يدور في بلادنا، وهل نحن ندرسهم بالمقابل، بل قبل ذلك هل عرفنا أنفسنا كما يعرفون عنا؟.

كما جاءت عناوين مقالاتي في صحيفة المدينة المنورة تعبر عن هذا وعلى سبيل المثال مقالتي المعنونة (لماذا لا ندرسهم كما يدرسوننا؟) و(الا

---

(١٥٠) مازن صلاح مطبقاني ، الغرب من الداخل :دراسة للظواهر الاجتماعية ،الطبعة الثانية ٢٠٠٥ الرياض ، ص ٢٠

نتعلم من الغرب ويتعلم منا؟) و(نحاورهم إذا قبلوا الحوار) وغيرها كثير، ومن أهم مقالاتي الداعية لهذا الأمر، مقالتي التي نشرت في مجلة الفيصل(متى ينشأ علم الاستغراب؟)، وفوق ذلك كله نشرت كتاباً أنموذجاً في دراسة الغرب، وهو (الغرب من الداخل دراسة للظواهر الاجتماعية) ،والآن أعد الطبعة الثانية منه مع اضافات مهمة ومن هذه الإضافات قسم ثالث حول بعض الجوانب الإيجابية في الغرب"[١٥١].

لقد استطاع مازن صلاح المطبقاني غرس فكرة الدراسات النقدية للاستشراق ودراسة الغرب في المملكة العربية السعودية وجامعاتها وصناعة اتجاه قوي مع شلة من الباحثين ، وتجدر الملاحظة هنا أنه لم يتوقف على مستوى التنظير لهذه الفكرة كما فعل ويفعل غيره ممن كتب في الاستغراب، بل كان مع ذلك كله صاحب مشاريع ميدانية واقتراحات ساهم فيها وألح على تطبيقها، بل واستوى الكثير منها على سوقها على أرض الواقع، وفي الكثير من الفضاءات المعرفية.

ولعلنا نستهل هذه المناسبة لنؤكد أنه ليس شرطا أن تكون مؤسسا لاتجاه علمي أو ثقافي ما، أن يكون لك العشرات والمئات من الكتب التي تظهر مقالاتك فيها، فتنزيل الأفكار إلى مشاريع ميدانية كتلك التي أسسها أوساهم فيها المطبقاني. هي في أحيان كثيرة أكبر من التأليف ذاته، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الرجل جمع بين الحسنيين (تنظيرا ،وتأسيسا واشتغالا) فقد اجتمع لديه ما لم يجتمع لغيره، ونستطيع أن نقول هنا، إن الرجل فك عقدة التنظير التي صاحبت الكثير من الكتاب العرب والمسلمين التي تتعلق عادة

---

(١٥١) انظر:

http://www.alriyadh.com/Contents/٢٨-٠٨-٢٠٠٣/Mainpage/Thkafa_٧٥٦٥.php

ببقاء المنظرين في أبراجهم العاتية، دون الارتباط بالواقع وترجمة نظرياتهم في شكل أوعية مؤسساتية على عكس لفيف المستشرقين الذين زاوجوا بين التنظير الاستشراقي والعمل الميداني، وتلك أحد نقاط القوة في استمرارية الاستشراق.

وإذا كان الكثير ممن نظر للاستغراب ونقد الاستشراق بقيت أبحاثه نمطية تقليدية في التنظير ونقصد بالنمطية التنظيرية" مراوحة العالم ، أو المنظر ، صاحب الاختصاص أو المعلم على نفس المنهج الذي درسه، والذي يدرسه، بدون أن يظهر أي عنصر تطوري، أو إبداعي، أو تجديدي متمخض عن فهم للعلوم التي حفظها عن ظهر قلب والتي يسمى بأنه مختص بها أو صاحب اختصاص "[١٥٢]، فإن مازن مطبقاني استطاع الانفكاك إلى حد كبير منها، ولهذا غدا إبداعه وتميزه ثمرة لتخصصه ومزاوجته بين التنظير والتطبيق.

ويكفي أن نطلع على مسيرته العلمية التي تراوحت بين التأليف والتنظير وبين تقلد مناصب في مؤسسات لها علاقة بأفكاره، فهو مدير مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق ، انتدب للعمل في وحدة الاستشراق بعمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، كما ترأس وحدة دراسات العالم الغربي في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ،وقد دعا ولا يزال يدعو إلى تأسيس الجمعية السعودية لدراسة الاستشراق، وإنشاء وحدة الدراسات الأوروبية والأمريكية، وساهم في إقامة ندوات مكثفة تعريفية بموضوع الاستشراق والاستغراب في أرجاء المملكة، وشارك في مؤتمرات عالمية كانت تتمحور حول التعرف على الآخر ودراسته ..هذا مع مؤلفاته وأبحاثه الكثيرة حول الاستشراق والاستغراب.وقد لفت انتباهي أثناء إعداد هذا البحث ، خطاب باسم الدكتور مازن المطبقاني ،

---

(١٥٢) ليث عبد الحسن العتابي ،الأنثروبولوجيا الإسلامية " علم الإنسان الإسلامي " ، مجلة المسلم المعاصر ،السنة السابعة والثلاثون ، العدد ١٤٨ ، القاهرة .ص:٢١٩

موجه إلى عميد كلية الدعوة في المدينة المنورة سنة ١٤٢٣هـ يقدم فيه طلبا لتأسيس نموذج جمعية علمية لدراسة الاستشراق في السعودية.

" فضيلة عميد كلية الدعوة بالمدينة المنورة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : يسرني أن أهديكم والزملاء أطيب التحيات سائلا المولى عزوجل لكم التوفيق والسداد . أخي الكريم لقد اطلعت على نظام الجمعيات العلمية فرأيت أن أقترح عليكم النظر في أن يقوم قسم الاستشراق بتقديم اقتراح بإنشاء (الجمعية السعودية لدراسة الاستشراق) فحتى الآن لم يفكر أحد في التقدم بطلب الترخيص لقيام جمعية بهذا الخصوص. ونظرا لا القسم هو القسم الوحيد في العالم الإسلامي الذي يهتم بهذا المجال فلعلكم تقتنعون معي بضرورة هذا الأمر. وأرجو أن تتاح لي الفرصة بموافقة عميد البحث العلمي لأقدم إليكم لمناقشة هذا الأمر خلال الأسابيع القادمة.

وتقبلوا تحياتي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...٢ شعبان ١٤٢٣هـ

(نموذج رسالة لتأسيس جمعية علمية لدراسة الاستشراق)

لقد حاول الرجل جاهداً طوال هذه الفترات التي اشتغل فيها في السعودية، وفي كل مرة ينزل في العالم العربي والإسلامي الدعوة إلى مَأسَسَة فكرة الاستغراب والاستشراق، ولذا فمن الطبيعي أن يدعو إلى تحويل الاستغراب إلى تخصص متكامل الأركان له فلسفته ومراجعه ومرجعياته في الجامعات حتى يؤتي ثمرته مبكرا، ومنطلقه في ذلك كما يقول في أحد دراساته ،" أن دراسة الغرب تتطلب تخصصاً كالقانون أو الاجتماع أو السياسة أو علم الإنسان أو التاريخ...الخ.. وقبل أن يتساءل القارئ وما شأننا بكل هذا فنقول أليس الغرب أمة يجب أن نتوجه إليهم بالدعوة ونحن مطالبون بالشهادة على الأمم فكيف للشاهد أن يشهد دون أن يعرف معرفة دقيقة موضوع شهادته[١٥٣]

كان حجر الزاوية في استغراب مازن صالح مطبقاني الانطلاق من الاستشراق لدراسة الغرب ، ليس لمجرد أن نحول الآخر من ذات دارس إلى ذات مدروس، وإن كان هذا سيتحقق تباعا في سياق تشغيل هذه الفكرة ، وإنما من منطلق آخر أيضا لا يقل أهمية وهو كون الاستشراق " جزءاً من الغرب؛ مما يتطلب أيضاً فهم الحضارة الغربية وجذورها، وفهم المجتمعات الغربية من النواحي العقدية والسياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية. وإن ريادة جامعة الإمام في إنشاء هذا القسم قد لفتت انتباه كثير من الغربيين ممن لقيت في المؤتمرات والندوات أو في المحافل الثقافية والفكرية داخل المملكة وخارجها، ومن هؤلاء على سبيل المثال القنصل الأمريكي السابق في جدة ستيفن بك Steven Buck الذي قال لي: "هل حقاً لديكم قسم لدراسة الاستشراق؟"،

(١٥٣) مازن صلاح مطبقاني ، الغرب من الداخل :دراسة للظواهر الاجتماعية ،الطبعة الثانية ٢٠٠٥م، الرياض ، ص ١٧

وطلب منّي لقاءً خاصاً لأحدثه عن القسم." (١٥٤)

ومن الطبيعي أن يثير هذا النشاط الكبير منه ومن أقرانه في المملكة انتباه والتفاتة الكثير من الملاحظين والمتابعين لهذا الشأن في الغرب وما أكثرهم، ولم يتوقف الأمر على مجرد الاهتمام والإثارة ، بل إنهم ضاقوا به ذرعا وتوجسوا منه خيفة، خشية أن يتحول إلى تيار علمي في دولة تملك المقومات المادية واللوجستيكية للارتقاء به وترقيته إلى مستوى المساجلة الحضارية مع العالم الغربي، ولذلك حاولوا تظاهرا منهم الانتقاص والتهوين منه باعتباره مجرد موضة لا أكثر، وبتعبير "الباحث البريطاني فريد هاليداي Fred Haliday الذي كتب عن الاهتمام بالاستشراق في المملكة العربية السعودية أنه (موضة)، حيث قال: "وهناك موضة من الإقبال على كتب "الاستشراق" الذي يفهم على أنه دراسة العالم العربي في إطار مؤامرة إمبريالية. وفي المكتبات العامرة يجاور قسم الاستشراق قسم الجاسوسية والمؤامرات الغربية أو الصهيونية".(١٥٥)

يمثل مازن صلاح مطبقاني نموذج الاستغراب السعودي الذي شق طريقه منذ عقود من الزمن، وفي خطوات هادئة مثقلة بهموم الأمة، وزاد من تباطئه الفجوة الهائلة بين كثافة التنظير الاستغرابي ورمزية التشجيع الحكومي، في بيئة تملك من المقومات والروافع المادية الكثير للريادة بهذا المشروع عالميا، وهو إذ ذاك لا يزال يسعى لزيادة تضمينات جديدة إلى حيزه ومكاسبه .

---

(١٥٤) مازن بن صلاح المطبقاني ، أثر المملكة العربية السعودية الرائد في الاهتمام بالدراسات الاستشراقية خلال ربع قرن ،الطبعة الأولى :٢٠٠٥ ، السعودية ،ص ٢٧

(١٥٥) مازن بن صلاح المطبقاني ، أثر المملكة العربية السعودية الرائد في الاهتمام بالدراسات الاستشراقية خلال ربع قرن ،الطبعة الأولى :٢٠٠٥ ، السعودية ،ص ٣١.

المبحث الخامس:
نموذج الاستغراب الإسلامي اليساري

يعتبر المفكر المصري حسن حنفي في عداد اليسار الإسلامي وهو تيار يعتبر مشروعه ومفرداته ضمن الامتدادات الطبيعية لحركة الإصلاح التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، بل وحسن البنا وسيد قطب...، وتلك دعوة لن نناقش حسن حنفي فيها ولا في خلفياته الفكرية والعلمية والحركية، لعدة أسباب أقلها أن صدر البحث لا يتسع لها، إلا أننا نشير هنا أننا إزاء نموذج فكري يصفه هو نفسه بأنه من الصعب تصنيفه، ومن الطرائف والغرائب التي تعطيك ملمحاً – لعله يزيدك تشويشاً – عن فكر الرجل واتجاهه جوابه "لما سئل عن وجود اسم سيد قطب (في مشروعه)، أكد حنفي: أنا تلميذ لسيد قطب، ولكنني تلميذ سيد "العدالة الاجتماعية"، لا سيد "معالم في الطريق" الذي خرج تحت تأثير أجواء السجن والتعذيب والقمع. وتابع حنفي ... لو دخلتُ السجن لكتبت "معالم في الطريق"، ولو سافر سيد قطب إلى فرنسا، ولم يدخل السجن لكتب "من العقيدة إلى الثورة"[(١٥٦)]

أيا كان الأمر فإننا سنتجاوز هذه الحذلقة الفكرية، فإن "لو" كما تفتح عمل الشيطان، فإنها تفتح تصورات أكبر بكثير من تلك التي يفترضها حسن حنفي فيما لو حدثت. والحاصل أن الاتجاه الفكري للرجل واضح مرصوص البنيان في إطار فلسفته في إعادة قراءة التراث الإسلامي مصنف ضمن مربع تيار الحداثة الذي يتوسل بآليات من داخل التراث لنقده أو تجديده معلناً رفضه استيراد الآليات النقدية للمذاهب الفلسفية والفكرية الغربية باعتبارها لا تنتمي إلى التراث المعرفي الإسلامي ولا تستطيع تقييمه أو تقويمه أو تجديده . وهذا

---

(١٥٦) انظر: موقع مؤمنون بلا حدود. -http://www.mominoun.com/arabic/ar sa/articles/

علي حرب يثني على حنفي في فلسفته هذه ، قائلا: " بهذا يقوم حسن حنفي بإعادة النظر في كل شيء، ويسعى إلى قلب كل المفهومات، يثور وخاصة في كتابه (من العقيدة إلى الثورة)، من أجل إعادة البناء والتأسيس، وينسف! كل المقدمات والأصول ويزعزع أكثر البديهيات القارَّة في العقل العربي الإسلامي، والغريب أن يفعل كل هذا لا بوصفه ملحدًا أو مرتدًا أو محاربًا للدين بل يُقدم نفسه بوصفه فقيهًا من فقهاء المسلمين يُجدد لهم دينهم" .[157]

أولا: على أي أرضية يرتكز استغراب حسن حنفي ؟

يعلن حسن حنفي أن مشروع (موقفنا من الغرب) يأتي واسطة بين مشروعين الأول سماه (موقفنا من التراث) والثالث أطلق عليه (موقنا من الواقع) . ومن الطبيعي، والحالة هذه أن نطرح السؤال التالي فإذا كان الاستغراب يأتي في سياق مشروعه(موقفنا من الآخر) فإن السؤال الذي يعنينا هنا أين تندرج فلسفته الاستغرابية ،باعتبارها كما يصورها ممارسة عملية لجدل الأنا مع الآخر وتعبيرا قويا لرفض هيمنته، خاصة وأن القارئ يلاحظ المرافعة القوية في مقدمة المؤلف وبلغة شديدة في التوصيف والتعبير توحي بقطيعته راديكالية مع التراث الغربي.

وهنا يتدخل (موقفنا من التراث) و(موقفنا من الواقع) ليدلي بدلوه وليؤثر بشكل ما على (موقفنا من الغرب)... ونطرح في هذا السياق استشكالا بالصيغة التالية إذا كان موقف حنفي من التراث كما هو معروف في كتبه قلبا لكل الحقائق الثابتة المتعارف عليها في فهم النصوص وقراءتها ، فهل يمكن أن نستقي ونستنتج من هذا التراث (في صيغته التي انتهى عندها حسن حنفي) ما يسعفنا في نقد الآخر ودراسته... أليس الحصاد الطبيعي هو أن تكون

---

(١٥٧) علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م، ص١٧

الآليات التي ننتقد بها وعن طريقها الآخر وندرسه بها هي الأخرى ستكون ضبابية ومقلوبة ..بما معناه أننا في نهاية المطاف نقف على أرضية متحركة، ونحن ننتقد أو ندرس الغرب. لا أدري كيف يطلب حسن حنفي من الشرق أن يدرس الغرب وهو يطلب منه في الوقت ذاته أن يزيل تلك الجدران التي يحتمي ورائها مستشهدا بمقولته "احتمى أبوك بالنصوص فجاءنا اللصوص"

إذا كان موقفنا من التراث هو أن نغير من المصادر فنجعل الواقع مصدرا للتشريع قبل القرآن، و العقل قبل النقل ، فإننا سنقبل هذا الغربي بالكلية يوما ما حسب منطق الواقع المتغير، لأن الواقع يقر ذلك .؟ وليس مستغربا والحال هذه وأنت تقرأ كتاب مقدمة في علم الاستغراب أن تعثر بين الفينة والأخرى على تناقضات مثل هذه ..في فلسفته الاستغرابية ..

ثانياً: لماذا لا يرد حسن حنفي على الظاهرة الغربية بآلياتها.

مادام أن الخميرة الأساسية والفكرة الصلبة للكتاب تقوم على أساس هدم أوهام المركزية الغربية وتحويل الغرب إلى ذات مدروسة، ونفي الأغلوطة المعروفة من أن التراث الأوروبي هو التراث الإنساني وأن الحضارة الغربية هي المتن والباقي في الهامش، هل قدم الدكتور حسن حنفي ـ وهو الذي ينطلق في مشروعه (موقفنا من التراث) من الداخل تقييما وتقويما بآلياته الداخلية ــ محاولة في نقد الاستشراق والفكر الغربي ودراسته، ولكن بآليات من داخل الفكر الغربي حتى يتسنى لنا تحقيق ذلك المقصد الذي أعلن عنه وهو "إعادة الأطراف إلى وضعها الطبيعي"، أو على أقل التقدير اكتشاف وفضح تلك الهالة التي تحيط بالحضارة الغربية ؟.

أليست تلك الآلية في دراسة وتقويم التراث والواقع الغربي في أعراف الفلسفة الحداثية آلية منتجة ومثمرة في كل البيئات ، فهذا أدونيس يقول : " إذا كان التغيير يفترض هدمًا للبنية القديمة التقليدية، فإن هذا الهدم لا يجوز

أن يكون بآلة من خارج التراث العربي، وإنما يجب أن يكون بآلة من داخله. إن هدم الأصل يُمارس بالأصل ذاته" (١٥٨)

أم أنه يكتفي بضرورة نقد الآخر ودراسته انطلاقا مما لدينا من رؤية فلدينا أدواتنا التي نستطيع استيعاب الغرب وفهمه ونقده وهو ينطلق في ذلك معلنا أن مادة الاستغراب هي "من جهد الأنا وإبداعه وليستْ من إفراز الآخر وقيئه" (١٥٩). أي ليست من مادة نقد الحضارة الغربية لنفسها بل هو إنتاج محلي خالص ... مع أنه يشير إلى هذا المعنى حين قال "إن هناك مادة قريبة مشابهة للاستغراب ولكنها تأتي داخل الحضارة الأوروبية ذاتها ..خاصة في الآونة الأخيرة عندما بدأ الوعي الأوروبي يؤرخ لذاته ،يراجع نفسه وينتقد مساره ، ويكشف عن مصادره التي طالما ضرب حولها مؤمرة صمت ويعترف بقلقه وتوتره ويعبر عن حيرته المستمرة بين صورية فارغة ومادية غليظة حتى انتهى به الامر إلى النسبية والشك في كل شيئ ،وإلى تكافؤ الأدلة والعدمية.." (١٦٠)

إذا كان حسن حنفي يرفض تلك المادة التي تشكل استغرابا قريبا من استغرابنا والتي هي استغراب من داخل الغرب ومن طرف أبنائه، ويقترح ضرورة أن نؤسس لأنفسنا آليات استغرابية من داخل منظومتنا التراثية، ولكن وفي المقابل هل قدم حسن حنفي اقتراحا لهذه الآليات التي يمكن أن نوظفها في نقد النموذج الحضاري الغربي والتراث الغربي، والتي يقول أنها يجب أن

---

(١٥٨) أدونيس، الثابت والمتحول بحث في الإبداع والإتباع عند العرب علي ، دار الساقي، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٩٤م، ص٦٤

(١٥٩) حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر القاهرة، الطبعة الاولى ١٩٩٢م ،،ص٢

(١٦٠) المرجع ذاته ، ص٢٢

تكون آليات من إنتاجنا وليست من إنتاج الغرب، كخطوة أولى لإثبات أننا قادرون على رؤية الآخر من موقع الذات والثاني لإزالة الهالة التي تحيط به؟

وبالمناسبة؛ فإن تلك الآليات التي يقول إنها ليست من إنتاجنا ـ وهي كذلك ـ هي في الأصل من إنتاج الماكينة الاستشراقية، حيث طبقتها أول ما طبقتها على التراث الإسلامي بهدف تقويض البنيان الإسلامي من الداخل، ثم تطورت فيما بعد في أشكال مدارس حداثة معاصرة. وهنا نطرح السؤال التالي هل يمكن أن نمارس عملا عكسيا يستهدف تقويض النموذج الغربي بآلياته من الداخل. وهذه أحد وظائف الاستغراب متشبعين بوعي يقظ بذواتنا وموقعنا وموقع الآخر، ..وبعد انجاز هذه الخطوة يمكن أن نقوم بخطوات أخرى تتعلق حينها بالتعارف والتثاقف وأخذ ما يتناسب مع قيمنا وموروثنا الحضاري، إذ لا يمكن القطيعة والرفض الكلي لكل ما هو غربي، لأن" الحضارة كما يقول المفكر الرئيس علي عزت بغوفيتش " لا يمكن رفضها ،حتى لو رغبنا في ذلك ،إنما الشيء الوحيد والضروري والممكن، هو أن نحطم الأسطورة التي تحيط بها ،فإن تحطيم الأسطورة سيزيد من أنسنة هذا العالم ". (١٦١)

قد يبدو الأمر للبعض أن حسن حنفي قام في "استغرابه" بذر الرماد في العيون، بإعلانه ضرورة دراسة الغرب حتى يبدو أنه على غير هدى معه ، وإلا فإن تأثر الرجل بالفكر الغربي أكبر من أن يستدل عليه قبل الاستغراب وأثنائه وبعده، وصلته بالحداثة الغربية ومدارسها الفكرية أصيلة متأصلة فيه واستحضاره للمقولات والمقالات المؤسسة للفكر الغربي لا تفارقه، وهذا النقد والتشكيك ليس من الإسلاميين فقط، بل يأتي أيضا من أقرب الناس إليه فكرا وثقافة ،فقد انتقده جورج طرابيشي في كتابه المثقفون العرب والتراث، متهما

---

(١٦١) علي عزت بيجوفيتش ، الإسلام بين الشرق والغرب ، ترجمة محمد يوسف عدس ،دار النشر للجامعات ، الطبعة الثانية :١٩٩٧ ، ص:٢٢

إياه أنه" هو نفسه سعى إلى تأصيل مفاهيم الحركات الليبرالية والعلمانية داخل التراث الإسلامي، وبالتالي فقد بدت دعوته للقضاء على المركزية الأوربية، وإحياء المركزية الإسلامية بديلا عنها، عملية انتقامية والانتقام هو قرين كل جرح نرجسي ولازمته الدائمة " (١٦٢)

ذكرنا هذه الحيثيات، لأن البحث في فكر الرجل وتنظيراته الاستغرابية لا يمكن استيعابها بالكلية من دون معرفة المنصة الفكرية التي انطلقت منها أفكاره في نقد الاستشراق والغرب، ولذا طرحنا السؤال السابق في أي خانة يندرج كتابه ودعوته إلى دراسة الاستغراب؟ وما موقعها وعلاقتها بمشروعه القديم (موقفه من التراث)، ومشروعه الجديد (موقفنا من الواقع)، وهل هي مجرد تورية أو رشوة فكرية للآخرين حتى يلقى استقطابا ورضا أكبر، الذين يجيبون على السؤال الأخير بالإيجاب يستدلون على أنها كانت مجرد ردة فعل مرحلية مؤقتة انطفأت فيما بعد ولم نسمع لها حسا ولا سميا في مشاريعه اللاحقة.

ثالثاً: هل شكلت دعوة حسن حنفي تيارا معاصرا لدراسة الغرب

لن ننطلق هذه المرة من تلك الأفكار والافتراضات السابقة ، وسنتجاوز (موقفه من التراث) كما (موقفه من الواقع) الذي يقدم فيه دراسات جديدة لفهم الوحي، وسنقتصر هنا على الأثر الذي تركته دعوته إلى الاستغراب بين صفوف التيارات والنخب العلمية والدينية..

حين نقرأ في بدايات كتابه مقدمة الاستغراب تجزم أن الرجل قد أحدث قطيعة مع الغرب الذي تأثر به، فهاهو يقول مثلا في سياق تحديده لمسارات الصراع " وبالنسبة لنا ، في قلب العالم العربي والإسلامي ، فإن الآخر..

---

(١٦٢) أنظر: أحمد محمد سالم : إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر .دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 'الطبعة الأولى :٢٠١٠،ص٢١٣

على وجه التحديد هو الغرب، وهذا التقابل بين الشرق والغرب هو تقابل حضاري، فالغرب يعني المشروع الإنتاج الغربي الحديث ، والشرق يعني إمكانيات الحضارة التاريخية وهي تتحقق من جديد " (١٦٣)

ولذلك يصنف الكثير من المتابعين هذه المحاولة كما يريد هو في سياق سعيه إحداث انقلاب تاريخي وانتقال نوعي ـ كما يصور عادة في مختلف كتبه ـ في موضوع " دراسة الآخر.. فقد عبر عن أفكاره بلغة ثورية في كتابه الذي كانت أولى طبعاته سنة ١٩٩١ حيث العالم على جمر الصراع، وهنا يكمن السر في الصدى الكبير الذي تركه الكتاب وفكرته لدى التيارات الإسلامية والقومية في تلك المرحلة، حتى إنه ليوحي إليك وكأنه أول من طرح على سمع الأمة ويُطرق إلى وعيها فكرة الاستغراب .. وفي الطرف المقابل استقبلته التيارات الليبرالية والعلمانية بأسى واعتبرته انتكاسة في مشروعه وأفكاره بعد أن استبشروا خيرا بحجم المساحات والهوامش والتقاطع الذي بينه وبينهم.

لقد كان الكتاب في وقته بمثابة إعلان انطلاقة جديدة في دراسة الآخر، خاصة وأنه يتميز بكونه ينطلق من رحم نقد الاستشراق ويعتبر صدى عكسي له، وهو ما أعطاه زخما أكبر في التعريف به، فضلا على أن العنوان في حد ذاته يعبر عن مكنون ما في ضمائر نخب واسعة في الأمة، وهو يندرج في الوقت ذاته ضمن احتياجاتها المعرفية والثقافية الملحة من ضرورة فهم الآخر ودراسته في مرحلة كان العالم الإسلامي يشهد صراع القطب الشيوعي والرأسمالي مع ظهور تيار الصحوة الإسلامية وبلوغه مرحلة القابلية للاصطراع الفكري مع الغرب، كل هذه العوامل وغيرها التقت مع ظهور الكتاب وتوافقت مع فكرته بالرغم من أن مشروع حسن حنفي التجديدي وقراءته للتراث لم يكن على توافق مع مشروع تيار الصحوة الإسلامية وأفكارها.

---

(١٦٣) حسن حنفي ،مقدمة في علم الاستغراب ، ص٤٥٩

فما هي يا ترى أهم تلك المرتكزات التي يتوكأ عليها حسن حنفي في دعوته إلى تشكيل اتجاه قوى نحو قراءة الغرب ودراسته، وهي الدعوة التي دفعت أقلاما كثيرة إلى ولوج هذا الميدان والتنظير فيه، إذ يندر أن يتكلم متكلم في هذا الشأن دون أن يرجع إلى الكتاب اقتباساً أو إشارة.

يعلن حسن حنفي في البداية أن دعوته للاستغراب هي جزء من مشروع النهضة الذي ينظر له منذ سنوات ففكرة الاستغراب إنما تأتي لتصحيح الأوضاع الشاذة في العالم الإسلامي من النخب المثقفة والتيارات الفكرية تجاه الغرب ، فهو في الوقت الذي يرفض الغربنة والانحلال في الغرب ، يعلن رفضه القطيعة الشاملة مع كل ما هو غربي ، ولنتركه يعبر قلمه عن هذه الفكرة كما ساقها هو قائلاً:" موقف الرفض صحيح من حيث المبدأ ، فلا بداية إلا من الأنا، ولكنه خاطئ من حيث الواقع أي ترك الغرب كموضوع دراسة، وموقف القبول خاطئ من حيث المبدأ فعلاقة الأنا بالآخر علاقة تضاد وليست علاقة تماثل، ولكنه صحيح من حيث الواقع أي ضرورة التعلم والتعرف على حضارة الآخر، بصرف النظر عن مصدرها ثم تمثلها واحتوائها وكمالها... وقد آن الأوان لتصحيح هذين الخطأين، ونقل الموضوع من مستوى الانفعال إلى مستوى الفعل ، ومن ردود الأفعال إلى التحليل العلمي الرصين" (١٦٤)

وفي هذا السياق العلمي والمعرفي يطرح مشروعه في كتابه معرفا إياه بأنه " هو إبداع الأنا مقابل في مقابل تقليد الآخر، وإمكانية تحويل الآخر إلى موضوع للعلم بدل أن يكون مصدرا للعلم. وهذا هو موضوع علم الاستغراب، علم الاستغراب ليس مجرد نقيض الاستشراق أو الاستشراق معكوساً، هو رد

---

(١٦٤) المرجع السابق، ص: ١٤

فعل على التغريب ومحاولة انتشال الأنا الحضاري من الاغتراب في الآخر".[١٦٥]

لقد استطاع حنفي أن يحلحل فكرة الاستغراب لدى الكثير، والدليل أن دعوته لقيت القبول الحسن لدى قطاع عريض وواسع في الوطن العربي والإسلامي، فالكثير من الكتابات التي جاءت من بعده تبنت أفكاره وروجت له، كما ظهرت كتابات تداولت مصطلح الاستغراب رغم تحفظ البعض منه نظرا لحمولته الدلالية التي قد تخرجه عن مقاصده.. وقد تتابعت الكتابات بعد ذلك بتضمينه في عناوين الكتب أو فصوله على نحو ما فعل، محمد خليف الحياني في مؤلفه الاستشراق والاستغراب، والاستغراب موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب لمؤلفه يان بوروما، وكتاب الاستغراب: معرفة الآخر معرفة الذات لكاتب سوري اسمه عدنان عزام، مقاربات في الاستشراق والاستغراب لكاتبه الدكتور الجزائري مولود عويمر....

وفي المقال ينتقد الكثير من الباحثين الدكتور حسن حنفي في دعوته إلى تأسيس علم الاستغراب ويحملون عليه انه هو ذاته متأثر بالفكر الغربي ،فضلا عن كون دعوته هذه تأتي في صيغة صياغة انتقامية من الغرب، لا أكثر وهو ما يعنى أنه مشروع حكم عليه بالفشل قبل بدايته.

وفي الأخير نقول إذا كان حسن حنفي قد فتح النقاش من جديد بضرورة تحويل الأخر إلى ذات مدروس، وإسقاط هيبة المركزية الغربية وإذا كانت دعوته في التسعينات من القرن الماضي على ذلك القدر من الأهمية والاستقطاب، فإن من المآخذ على الكاتب أنه لم يحوله من فكرة إلى مشروع كامل متكامل ـ وكان يستطيع فعل ذلك ـ ، فكانت معظم جهوده فيما بعد دراسة ونقدا في التراث الإسلامي محاولا تجديده أو هدمه كما يقول بعضهم، ولعل آخر كتاب له كان تحت عنوان علوم القرآن من المحمول إلى الحامل ،

---

(١٦٥) المرجع السابق ، ص ٥، ٨٤

وهذا ما يعزز ما ذهبنا إليه من أن دراسة الغرب وفهمه ونقده والاستفادة منه مسألة تحتاج إلى نفس رسالي يقضي المرء العمر كله فيه ولا يتوقف على فضول الكتابات والأوقات حتى ولو كانت كتابا من هنا أو هناك .

المبحث السادس:
اتجاه الاستغراب السُّنَني المعرفي

من الاتجاهات البارزة والقوية التي درست الغرب ودعت إلى فهمه وتأمله بعمق منهجي يحمل طابع المؤسسية وصفة "المشروع" والدراسات المعمقة، والذي يمتد في شكل سلاسل تجيب عن الكثير من الإشكاليات المتعلقة بهذا الجانب، مشروع مالك بن نبي في دراسة الظاهرة الغربية والحضارة الغربية القديمة والمعاصرة، ومعه الدكتور عبد الوهاب المسيري في تشريح العقل الصهيوني والجماعات اليهودية باعتبار هذه الأخيرة قطاع من قطاعات الظاهرة الغربية، وجزء لا يتجزأ منها، ومشروع مدرسة إسلامية المعرفة، أو أسلمة المعرفة الذي تبناه المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

والأمر الذي جعلني أرشح مشروع مالك بن نبي ومعه مدرسة إسلامية المعرفة دون غيرهما للدراسة والتحليل في هذا النموذج والاتجاه الحضاري السنني يرجع لجملة من الاعتبارات المنهجية سنشرحها فيما يلي:

أولا: كون هذا الاتجاه يتعلق بدراسة الآخر / الغرب دراسة حضارية سننية شاملة ، فمالك بن نبي درس الغرب من خلال الرؤية السننية، وهو المتمكن فيما أسميناه سابقا بأدوات الأركيولوجية السننية، ونظر إليه كتجربة إنسانية في بعدها الكوني تخضع للاعتبارات التي خضعت له كل المجتمعات والتجارب السابقة، واتجاه " إسلامية المعرفة " تمكن - إلى حد ما - من الاطلاع على الغرب من خلال مصادره ويحاول قراءة العلوم الاجتماعية الغربية وإعادة صياغتها صياغة إسلامية تمنحنا الآليات الكاشفة التي نتمكن بها من قراء الغرب قراءة علمية دقيقة ، وهما بالتالي مشروعان واتجاهان أسسا على ذواق معرفي ومنهجي خبير بنظامين معرفيين كاملين الأول متمثل في النظام المعرفي الإسلامي الذي أنتج الحضارة الإسلامية، والثاني النظام المعرفي

الغربي الذي أنتج الحضارة لغربية بما لها وما عليها.

ثانياً: كونهما مشروعان فكريان امتدا على تواصل لسنوات طويلة ، بما معناه أنهما يستويان على أرضية معرفية ومنهجية ومفاهيمية قوية، وليسا مجرد تنظير موسمي عابر، كما أنه يتصف بالمؤسسية والقدرة على الاجتهاد الجماعي في مثل هذه القضية المفصلية خاصة الاتجاه الثاني (إسلامية المعرفة) حيث تبلور في شكل مؤسسات علمية شغلها الشاغل التنظير لهذه المسألة ودراستها. هذا فضلا عن الخيط الرفيع الذي يجمع بين مشروع الفرد (مالك بن نبي) ومشروع المؤسسة (إسلامية المعرفة) في موضوع دراسة الغرب.

ويكفي أنهما أصبحا اتجاهين بارزين في دراسة الغرب وتشريحه، ترجما كليهما إلى مؤسسات عالمية تتبنى الفكرة تخطيطا وتنظيما واستشرافا، ومن هذه المؤسسات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد، والجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، هذه الأخيرة أصبحت تدرس تخصصا كاملا "وقد بدأت منذ سنوات بخطوة في هذا الاتجاه؛ وذلك بإنشاء تخصص جزئي Minor Specialization في الدراسات الغربية؛ بهدف بناء قسم وتخصص رئيس في الدراسات الغربية لفهم الغرب وفكره ومنطلقاته وطرق التفاعل الإيجابي معه نحو شراكةٍ إنسانيةٍ عادلةٍ تقوم على أسس الحق والعدل ومن منطلقات شريعة النور لا شريعة الغاب"[١٦٦] .

ثالثاً: كون أصحاب هذه المشاريع من الذين عايشوا البيئة الغربية لسنوات طويلة، وخبروا مجتمعاتها وأنظمتها السياسية والثقافية والمعرفية بلغاتها الأصلية، وهو ما مكنهم من فهم جذورها وأصولها فهماً موسوعياً، هذا مع

---

(١٦٦) عبد الحميد أبو سليمان ، الإنسان بين شريعتين، إسلامية المعرفة ، العدد ٢٨ ،ص ٣٦

المكنة العلمية والخلفية الواضحة في علوم الشريعة وتاريخ الحضارات، ما يدفعنا للقول بأن تنظيراتهم وتحليلاتهم للظاهرة الغربية ليست مجرد تخمين أو تحليل عابر، وإنما هي دراسات دقيقة تفقه في الوضع الغربي أفضل من أي طرف آخر في العالم الإسلامي، بل والغربي أيضا، إذ يمكن الجزم بأنهم - وقياسا على مقولة الغزالي - فقد وقفوا على طبيعة العالم الغربي، وقوفا ينتهي عند آخر حد ورسم، وساووا أعلمهم بأصول الحضارة الغربية بل زادوا عليهم وجاوزهم درجة واطلعوا على ما لم يطلع عليه علماء الغرب من غوره وغائله، ولذلك صدقوا فيما وصلوا إليه، وما ادعوه من حق وحقائق وتحقيق [١٦٧].

وسنتناول فيما يلي أهم منجزات ومخرجات الاتجاه الأول والثاني في دراسة الظاهرة الغربية بشيء من التفصيل حتى نكون على بينة من أمرنا:

أولاً: نموذج الاستغراب السُّنني

حينما كتب مالك بن نبي في مشكلات الحضارة وعالج الظاهرة الغربية وشرحها، وسلط الضوء على قطاعاتها المتنوعة ..لم يكن الكثير يعلمون أنه بهذا الفعل إنما سبق أقرانه لتأصيل وتقديم ما يسمى " **بدراسة الغرب**" بسنوات إن لم يكن بقرون، بل إنني أعتبر أعمال مالك بن نبي وكتاباته محاولة استدراكية نموذجية عن الأمة التي فرطت في هذا الجانب المعرفي كما فرطت من قبل في جوانب مماثلة، ويكفي أن تقول عنه أنه ابن خلدون متسللا إلى القرن العشرين ومعه مقدمته ولكن بطبعة معاصرة منقحة ومزيدة .

---

(١٦٧) أنظر مقولة الغزالي :"لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقًا.." المنقذ من الضلال ، تحقيق محمد محمد جابر ، المكتبة الثقافية بيروت لبنان ، دط،دت، ص١٧

أن تغامر بالعيش في الغرب بين مخلفات الحضارة الغربية المادية وركامها وزخمها، وتقرأ تراثها قراءة متأنية وبلسانها الذي يتكلمون ويفكرون به، ثم تخرج سالما معافى في سمعك وسمعتك وبصرك وبصيرتك المعرفية هذا معناه أن القدر يرشحك لأمر جلل، هذا ما انطبق على الأستاذ مالك بن نبي وبعض أقرانه وقليل ماهم، حتى قال عنه الأستاذ أنور الجندي رحمة الله عليهما:"ومثل مالك بن نبي بين مفكري العالم الإسلامي قليل، فهو الرجل الذي ورد مورد الغرب، وجاءنا منه نقياً صافيا، وقد حفظ الله له أصالته وأفاد مما وجد" (١٦٨).

حينما تقرأ لفيلسوف الحضارة المعاصرة تنظيراته في درس الاستغراب وتحليله تتيقن أن تسعة أعشار الجهل بالغرب ناتج عن تلك الدراسات التي تزعم أنها تدرس الغرب، وهي دراسات وكتابات إن أغنت في قليل فلن تغن في كثير، بل ولربما زادت الطين بلة كما تقول العرب في أمثالها، ذلك أنها تفتقد إلى أبسط الشروط الموضوعية اللازمة للكتابة عن هذا الجزء من العالم ودراسته فضلا عن التنظير في دقيق "علم الاستغراب " والإجابة عن أسئلته ومشكلاته. فمالك رحمه الله أسس من خلال كتبه تحت عنوان "مشكلات الحضارة " لتيار جديد ومدرسة كاملة في دراسة الحضارة الغربية والمجتمعات الغربية، وقد ساعده على ذلك بالإضافة إلى العوامل السابقة التي ذكرناها سابقا، صلته بالغرب من زاويتين :

أولاً: بينه وبين الغرب مصاهرة عائلية فقد تزوج من باريسية أصيلة، تدعى "سيليستين بول فيليبون" ساعدته على التعمق أكثر في معرفة بنية المجتمع الفرنسي

ثانياً: بينه وبين فلاسفة الغرب ومحللي الحضارة فيها صلة فكرية وتقاطع

---

(١٦٨) أنور الجندي ،أعلام القرن الرابع الهجري ، مكتبة الأنجلو المصرية، دط،دت، ص١٣٩

واشتراك فقد استفاد من منهجية توينبي التحليلية في بناء وسقوط الحضارات .

وإذا أردنا أن نسأل عن التحقيب المعرفي والتأسيس المنهجي الحضاري لعلم الاستغراب من زاوية هذا الاتجاه فمالك رحمه الله كان أسبق بل وأصدق لهجة من غيره ممن عاصرهم على الأقل، أو ممن نادوا بدراسة الغرب وذلك حين دعا إلى "جعل العلاقة بيننا وبينه (الغرب) قائمة على العلم، أي بمعرفة أن الظاهرة الغربية في عمومها، والظواهر الغربية الجزئية مسألة نسبية قابلة للدراسة، عند ذلك يمكن فهم الغرب والتعامل معه بإيجابية. ومن هذه الجهة يدعو إلى ما يمكن أن يطلق عليه "علم الاستغراب"، لفهم الغرب ومعرفة تاريخ تطوره، وكيفية سير أنظمته الفكرية والحضارية. وهي دعوة نادى بها في ظرف كان التعامل مع الاستشراق تعاملاً تجزيئيًا وتناولاً في إطار الجزئيات دون وجود رؤية كلية تجعل الاستشراق في سياقه العلمي والتاريخي والحضاري، كأحد الأدوات المعرفية الغربية التي تربط بالحضارة الغربية في تعاملها مع الآخر الشرقي، أي الإسلامي بالأخص."[١٦٩]

ما يجعل هذا الأنموذج الإبداعي في دراسة الغرب توجه كامل المعالم متميز عن غيره من النماذج التي سنتناولها، أو التي تناولناها هو كونه يجعل من الظاهرة الغربية متنا لنقدها والاستفادة منها من خلال البحث عن الآلات السننية المحركة للصعود والهبوط هنا او هناك، فالمشترك الكوني بيننا وبين الغرب فضلا عن إنسانيتنا هي كون الكل شرعة واحدة في السنن الإلهية، ما يعني أن دراسة الغرب من خلال هذا المنظور هو الذي يهمنا أكثر من أشيائه المادية .

وهو بهذا تجاوز تلك الإشكالية المقاصدية في علم الاستغراب قبل أن

---

(١٦٩) حسن بدران مسعود ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري ـ أنموذج مالك بن سلسلة كتب الأمة، وزارة الأوقاف قطر ، العدد ٧٣، ص ٨

يطرحها حسن حنفي " حين دعا إلى دراسة الغرب بهدف فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر... وتحويله من ذات دارس إلى ذات موضوع مدروس... و القضاء على المركزية الأوروبية وأسطورة الثقافة العالمية التي يتوحد بها الغرب ويجعلها مرادفة لثقافته... مهمته القضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة..." (١٧٠)

فمالك لم يكن يقصد من الدرس الاستغرابي فك عقدة النقص التاريخية وهدم المركزية الغربية ، من خلال تحويل الغرب من ذات دارس إلى ذات مدروس حتى نحقق هذا المقصد ، بقدر ما كان يهمه البحث في التجارب الحضارية الغربية السننية " عن حل للأزمة الحضارية للعالم الإسلامي، وأن أهم الدوافع إلى ذلك هو أننا بدراستنا لهذه التجارب الحضارية نتمكن من اكتشاف السر الذي يحكم الظواهر، والتمكن من معرفة القانون أو السنة الإلهية التي تنتظمها، وبالتالي، نتمكن من تحديد نقطة البداية للتعامل مع الظاهرة باعتبارها قابلة للدراسة والتطويع والتحكم من خلال معرفة قوانينها.. وكذلك فإن دراسة التجارب الحضارية الأخرى تساهم في تحديد موقعنا في التاريخ"(١٧١) .

وهو بهذا التفسير يكون قد تمكن من التأسيس لنموذج استغرابي سنني تأسيسا يقوم لا على رؤية الأنا من خلال أشياء وأشخاص وأفكار الآخر، لأنه لا يستهدف من دراسة الآخر استيراد النموذج الحداثي الغربي ولا يستجديه أو يتوسل به لحل أزمات مجتمعاتنا العربية والإسلامية ـ كما تفعل النخب التغريبية التي لا تخفي عبوديتها للنموذج الغربي ـ ، لأنه لم يكن يرى في الغرب صورة المخلص، وإنما أقصى غاياته أن يقتنص العلل والقوانين

---

(١٧٠) حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، مرجع سابق ، ص٢٤ ،٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ...

(١٧١) حسن بدران مسعود ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري مرجع سابق ، ص٣

والنواميس التي حركت الحضارة الغربية وصنعت منحنياتها البيانية منذ بداياتها الصفرية الأولى إلى مراحل عظمتها وجبروتها من خلال العلاقة التي تربط بين تلك العوالم الثلاثة (الأفكار – الأشخاص – الأشياء)، فهو إذا لا يقصد من دراسة الآخر رؤية ذاتنا في مرآة الغرب التشييئية، وإنما أن نبحث عن ذاتنا من خلال مرآته السننية فقط ، وهي المرآة الوحيدة الصادقة التي يمكن أن ترينا حقيقتنا وحقيقته .

"وهذا لا يجعل العالم الإسلامي تابعًا في حلوله للغرب، وإنما يتطلب منه أن يعرف التجارب حتى يتحقق من مدى نسبيتها ومدى قابليتها للنقل والاستفادة، فإذا ما أدرك العالم الإسلامي أن صدق الظواهر الأوروبية مسألة نسبية، فسيكون من السهل عليه أن يعرف أوجه النقص فيها، كما سيعرف عظمتها الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات مع العالم الغربي أكثر خصوصية، ويسمح ذلك للنخبة المسلمة أن تمتلك نموذجها الخاص، تنسج عليه فكرها ونشاطها. فالأمر يتعلق بكيفية تنظيم العلاقة وعدم الوقوع في الاضطراب كلما تعلق الأمر بالغرب." [١٧٢]

وهو إن بدا في الظاهر أنه يسعى إلى تحويل الغرب إلى ذات مدروس من خلال تركيز الاهتمام على الحضارة الغربية دراسة ، فليس من مقاصده أن يحطم مركزيته، لأن مالك وهو فقيه من فقهاء السنن الحضارية يعلم جيدا أن مركزية الغرب لم تكن شيئا مذكورا إلا حين تحطمت مركزية حضارة الشهود الإسلامية، وحين تشظت إلى مركزيات قومية متناثرة، وأقطاب سالبة اجتمعت سلبياتها ظلمات بعضها فوق بعض لتشكل أعقد أزمات العصر. وطريق عودتها إن أردنا أن نسلكه ونفقهه يكون بتتبع درجات السلم الذي سقطت منه ليستخلص مع كل درجة سنة من سنن الله وقانونا من قوانين السقوط والنهوض.

---

(١٧٢) المرجع ذاته ، ص٦

تكمن إذا أهم مفردات ومميزات هذا الاتجاه في دراسة الغرب في كونه يرى المشهد كاملا رؤية كونية من دون الوقوع في جدلية الأنا والآخر، بعيدا عن التحيز أو التنميط أو التجاوز، لأنه يستخدم في بحثه أدوات سننية لا تقبل التحيز، وهو حين يقول الحضارة الغربية أحسنت في هذه المسألة، فهو يشكرها بلسان السنن الإلهية، وإذا قال أنها جانبت الصواب في قضية أخرى، فهو ينتقدها أيضا بلسان السنن الإلهية، ولذا كان هذا الاتجاه والتوجه الذي أسسه مالك في نمو وازدياد وانتشار في العالم الإسلامي أكثر من أي نموذج آخر.

ثانياً: نموذج الاستغراب المعرفي

استكمالاً لمشروع دراسة الغرب من منظور حضاري يحمل طابع المشروع الكامل والمتكامل نجد على غرار اتجاه مالك بن نبي توجه "إسلامية المعرفة"، وهو اتجاه إسلامي معاصر يقوم على مرتكزين:

المرتكز الأول : هو أسلمة المعارف الغربية، وذلك لا يتحقق إلا بفهم واستيعاب ما انتجته الحضارة الغربية، وإعادة قراءتها وتقييمها من منظور إسلامي .

المرتكز الثاني: معرفة الغرب ودراسته، إذ أن تحقيق المطلب السابق (الأسلمة) يتعذر دون الإحاطة بالغرب الفكري والحضاري كما ينبغي ، فهذه العلوم والمعارف لم تخرج إلى الواقع صدفة، فهي نتاج أمة عبر حلقات زمانية ممتدة من الماضي البعيد إلى الواقع المعاصر، وهذا ما يعني أن دراسة البيئة والواقع الذي نشأت منه حتمية لازمة.

وحتى لا ندخل في جدلية من يعارضون أسلمة العلوم ـ وليس هذا مجال حديثنا ـ يكفي أن نشير إلى هذه المعارضة في مقال للدكتور ساردار "بعنوان أسلمة المعرفة أم تغريب الإسلام، وخلاصتها أنه يخشى أن تكون أسلمة المعرفة أشبه بإعطاء روح من القيم الإسلامية في حقول معرفية تشكلت

بالرؤى الكلية والمفاهيم والذهنيات واللغة والنماذج المعرفية الغربية، وهي أقرب إلى تغريب الإسلام منها إلى أسلمة المعرفة الغربية."[١٧٣]

لاشك أن سردار وغيرهم كثر ممن يعارضون أو يخشون أن تكون مخرجات هذا المشروع عواقبها وخيمة ، ولكن الذي يهمنا هنا هو مدى الحصيلة العلمية التي اخرجها هذا المشروع إلى حد اليوم وهو يزاول هذه المهمة وعوائده المعرفية على مشروع الاستغراب ..

لاشك أن اعتماد الحصيلة الفكرية والمعرفية التي أخرجها المعهد العالمي للفكر الإسلامي من خلال مشروعه في جوانبه المتعلقة بدراسة الغرب، سيوصلنا إلى تعزيز موقع علم الاستغراب حتى يتوكأ على أرضية فكرية صلبة خبيرة بمسالك الفكر الغربي ومقولاته المعرفية، بل وبنظامه المعرفي، فالمشروع قد مضى عليه سنوات طويلة، وسلك فيه ذلك الباحثون فيه طرائق معتبرة لا بأس بها توصلوا من خلالها إلى تشريح بنية الفكر الغربي ومدارسه تشريحاً معرفياً فلسفياً، ومن هنا فإن الاستثمار في هذه المستخلصات وما قدمه من دراسات وصفية تحليلية خطوة لها ما بعدها، في تأسيس منهجية علمية موثوقة في دراسة الغرب الاجتماعي والثقافي والسياسي، بل أزعم غير متجرأ أنه لا يوجد في التيارات الإسلامية الفكرية المعاصرة حركة علمية مؤسساتية درست الغرب في إطار مشروع متكامل وعرفته حق المعرفة كما فعلت مدرسة إسلامية المعرفة.

لهذه الأسباب أدرجنا هذا المشروع، ومن خلاله المعهد العالمي للفكر الإسلامي كأحد الاتجاهات المعاصرة التي درست الغرب وخبرته عن قرب من

---

(١٧٣) أنظر: فتحي الملكاوي حوارات إسلامية المعرفة:عرض وتحليل لمواقف بعض المعارضين للمشروع، إسلامية المعرفة العدد : ٥٢، ص٤٣، / Ziauddin Sardar. Islamization of Knowledge or Westernization of Islam? Inquiry، ١٩٨٤، (٧) ، pp.٣٩-٤٥

خلال أفكاره. وهذا الدكتور طه جابر العلواني أحد منظري الفكرة يقول " وفي موضع اهتمامنا بهذا السياق، فقد عمد المعهد إلى تبني مشروع ضخم لدراسة الفكر الغربي، بدأه المرحوم إسماعيل الفاروقي ببعض المقالات منها:"نحن والغرب"،"وصياغة العلوم الاجتماعية "، وعملت فيه بعد وفاته الدكتورة منى أبو الفضل، فكتبت جملة من البحوث، نشرت في المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية AJISS ، وقد أصدر لها المعهد مؤخرا في هذا المجال: "WHERE EAST MEETS WEST ويجيئ هذا الكتاب ليمثل حلقة من حلقات بناء المنهجية من خلال تركيزه على رصد البواكير الأولى لإستراتيجية إلحاق العالم الشرقي بالغربي ودور المؤسسات العلمية في ذلك. وكيف اعتمدت على تغيير أجهزة الوعي عند الإنسان العربي المسلم لضمان تحقيق عملية " استتباع " منهجية دائمة تغذيها دوافع التابع ورغباته أكثر من محفزات المتبوع ومغرياته ". (١٧٤)

إننا نكرر ونؤكد أن معرفة الغرب ودراسته لا يقتصر على جمع الإحصائيات والأرقام، لأن هذه الأخيرة لها خلفياتها الفكرية التي نبتت منها، كما أنه ليس مجرد متابعة لمدى قدراته العسكرية والاقتصادية ووسائله التكنولوجية، لأن هذا النمو الاقتصادي كما المكنة العسكرية منابعها فكرية (صادرة من نظام معرفي خاص أو عالم للأفكار خاص بهذه البيئة)، ولهذا نقول إن اكتشاف الغرب الفكري هو البوابة الأولى التي نتطلع بها أولا إلى هذا الجزء من العالم، ومن دون هذه الآلية ستنغلق وتند علينا مفاهيم كثيرة تصادفنا في أثناء الشروع في الدراسة.

وقد فهم الغرب قبلنا هذه المعادلة جيداً، ولذلك انكب ليتعرف علينا من خلال أفكارنا قبل منجزاتنا المادية، وها هو يعرفنا اليوم كما من قبل كما يعرف أبنائه أو أشد، وذلك مصدر من مصادر قوتهم وتفوقهم علينا، يقول

---

(١٧٤) طه جابر العلواني تقديم كتاب، مقدمات الاستتباع ، ص٤

كيرزون في مجلس العموم البريطاني وهو من ساسة القوم:" إن معرفتنا الوثيقة ليس فقط بلغات الشعوب الشرقية، بل كذلك بمشاعرها وتقاليدها ودينها، ومقدرتنا على فهم ما يمكن أن يسمى عبقرية الشرق كل ذلك هو القاعدة التي يمكن أن نحافظ في المستقبل على وضعنا الذي اكتسبناه ".[١٧٥]

وهذا المستشرق الهولندي "سنوك هوجرونيه" عن أهمية فهمهم لأداوت التفكير لدينا من خلال الشريعة :" إن الشريعة الإسلامية موضوع مهم للدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأسباب تجريدية نظرية متعلقة بتاريخ القانون والحضارة والدين، ولكن كذلك لأهداف عملية : وذلك أنه كلما توثقت العلاقات بين أوروبا والشرق الإسلامي، وكلما زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية كلما زادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين لنتعرف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة، وعلى خلفية المفاهيم الإسلامية".[١٧٦]

فالجانب الفكري له الأولوية والأرجحية في معرفة الغرب ومواجهته ثقافيا، وإذا كان الغرب يعتقد أن مشكلته في العالم الإسلامي تكمن في التيارات الإسلامية ، أو ما يسميه "بالأصولية الإسلامية"، وذلك لكونها تحمل مشروعا ثقافيا من شأنه أن يواجه المشاريع الثقافية الوافدة، وهو بهذا يعتقد يقينا ـ وهو صادق ومحق في ذلك ـ أن لا أحد في مقدوره واستطاعته إفشال مشروعه التغريبي إلا هذه التيارات، و بعضهم يذهب إلى أن جماعة "إسلامية المعرفة" ـ ومؤسسوها كما منظروها وكتابها هم من أبناء التيار الإسلامي السياسي الواعي بهذا النوع من المواجهة ولذلك يعد لها العدة معرفيا.

من هذه المنطلقات يرى بسام الطيبي " أن الأصولية الإسلامية التي انتشت

---

(١٧٥) أحمد عبد الحميد غراب ، رؤية إسلامية للاستشراق ،المنتدى الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١١هـ لندن، ص: ٤٨

(١٧٦) المرجع ذاته، ص: ٤٢

منذ السبعينيّات هي أكثر من حركة سياسية تهدف إلى مواجهة الهيمنة السياسية والاقتصادية للغرب، وذلك لأن لها استراتيجية ثقافية، وأن أسلمة المعرفة هي المعادلة الأساسية لهذه الاستراتيجية. ويرفض الطيبي القول بأن هذا المشروع يعد مشروعاً إسلامياً لما بعد الحداثة. ويؤكّد وعي الأصوليين الإسلاميين على أن هدف محاولات الغرب في إضعاف الإسلام يتوجه نحو المعرفة الإسلامية، ولذلك فإنهم يواجهون هذا الغزو الفكري الغربي بإعادة إنشاء المعرفة الإسلامية الصحيحة لتحقيق الحل الإسلامي وأن استمرار الإسلام السياسي يعود إلى الاستراتيجيته الثقافية المتمثلة في نزع الصفة الغربية عن المعرفة (De-Westernization of Knowledge)."[١٧٧]

(١٧٧) فتحي الملكاوي حوارات إسلامية المعرفة: عرض وتحليل لمواقف بعض المعارضين للمشروع ، إسلامية المعرفة العدد : ٥٢،ص ١٠٧

المبحث السابع:
نموذج الاستغراب التغريبي

يعتبر نموذج التغريب في العالم العربي والإسلامي من أقدم المقاربات التي يمكن أن نصنفها ضمن سياق الاستغراب التغريبي ، فهم حاولوا ودعوا إلى دراسة الغرب والتعرف عليه وتجسير العلاقة معه ،ولكن لمقاصد وأهداف وغايات غير تلك التي تنطلق منها المدارس الأخرى التي حاولت دراسته وفهمه .. تنطلق هذه الفئة في دراسة الغرب من مفهوم **الكوجيتو التغريبي** الذي أسسته أهدافهم وثقافتهم (أنا غربي إذا أنا موجود) فكل ما يقع تحت الحيز الجغرافي الغربي ففيه الحياة وما دونه الموت والموات الثقافي والفكري. والسياسي .. من هنا سخروا كل طاقاتهم لدراسة الغرب قصد السير في طريقهم ونمط عيشهم وحضارتهم.

يعتبر تيار التغريب الفاعل الأخطر على الأمن الفكري والثقافي للأمة، فالغرب الذي خسر المعركة عسكرياً، سعى ويسعى إلى كسبها ثقافياً من خلال دعم وتعزيز مواقع هذا التيار سياسيا وثقافيا، حتى يكون القناة التي يحافظ من خلالها على تبعية الشرق للغرب، فهو يعلم جيدا كما يقول حسن حنفي في كتابه مقدمة في علم الاستغراب أن " التغريب مقترن بالتبعية "(١٧٨)

يعتبر هذا التيار"الوكيل والنائب" عن العالم الغربي في الديار العربية والإسلامية ،وإذا جاز لنا أن نستعير عبارة (الأقدام السوداء - الحركى - بالفرنسي: **Pieds-Noirs**) التي يستعملها الجزائريون في نعت كل من كان مع فرنسا في وقت الثورة، فإن هؤلاء يصدق فيهم مصطلح **"الأقلام السوداء"** باعتبارهم سدنة الأفكار الغربية في العالم الإسلامي. أو على حد تعبير محمد

---

(١٧٨) حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب، ص ٥٤١

عمارة أنها كانت "عمالة فكرية وحضارية" (١٧٩)

ينطلق هذا التيار أحينا متحججا بلغة "المثاقفة" Acculturation تارة ، وبلغة التحديث المشروط بالغربنة تارة أخرى، وبالعلمانية **Secularism** والليبرالية، والديمقراطية ... لقد تشكل وتقولب عبر قرن من الزمن أو يزيد، في خطابات معرفية وثقافية متلونة خلاصتها أن "**الحضارة من الغرب وإلى الغرب**"، بما معناه أن هذه الأخيرة منتوج غربي والحصول عليه طريقه الغرب وفقط، ينطلقون من هذه المقولة باعتبارها مسلمة كونية و قاعدة من قواعد النهضة المستقبلية، ولذلك نراهم يفتحون كل القنوات المعرفية والثقافية الممكنة لنقل الفكر الغربي ـ دون تحفظ ـ إلى البيئة والمجتمعات العربية والإسلامية ..

عن طريق هذه القناة أصبح الغرب يرسل مخلفاته الفكرية إلى العالم العربي والإسلامي، حتى تلك التي تركها واستغنى عنها منذ عقود من الزمن، والحق يقال أنه لولا هذا التيار لما كان للغرب أن يكون له موطأ قدم فكري في الشرق. بل ويمكن أن نذهب بعيدا بالقول، أنه لولا هذه النخب التغريبية ـ التي رضيت القيام بهذا الدور ـ لما كان للاستشراق كل هذا الرنين في العالم العربي والإسلامي، إذ " لم يكن ليأخذ هذه الأهمية من الاتساع والانتشار لولا توطن وتأصل وتكريس منظوراته، على اختلاف مذاهبها ،من قبل النخب المحدثة في المجتمعات الشرقية باسم التثاقف أو المثاقفة التي تطلق لتعبر عن عمليات التفاعل الثقافي" (١٨٠)

ولا ننس هنا أن أساطين التغريب في العالم العربي هم من أنجب تلامذة الاستشراق المعاصر.. فهذا طه حسين يدعونا أن " نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها

---

(١٧٩) محمد عمارة ، الإسلام بين التنوير والتزوير، ص ٩٧

(١٨٠) غريغوار منصور مرشد، مقدمات الاستتباع ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا واشنطن ، الطبعة الأولى :١٩٩٦م ، ص ١٦ .

وشرها ، حلوها ومرها، ما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع".[١٨١] وهو الذي يصرح بعد أن رجع من فرنسا ـ خاسئا وهو حسير ـ ينبغي أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي، ونشعر كما يشعر الأوروبي، لنحكم كما يحكم الأوروبي، ثم نعمل كما يعمل الأوروبي، ونصرف الحياة كما يصرفها" [١٨٢]. حقاً لقد ذهب إلى فرنسا وهو طه حسين ورجع هذه المرة ولكن تغير اسمه إلى " تاه حسين " حيث تاه حقيقة في أتون الوهم الثقافي الغربي، وهو من جعل من نفسه مبشراً مخلصاً للحضارة الغربية.

وتكمن خطورة هذا التيار الذي ينسج الغرب علاقاته من خلالها مع العالم الإسلامي في كونه:

ـ يستهدف هدم النموذج الحضاري الإسلامي ومعه نظامه المعرفي، وإحلال النموذج المعرفي الغربي مكانه .، فهذا سلامة موسى يقول: هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي، سراً وجهراً. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب. وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوربا في العصر الحديث، وأن أجعل قرائي يوّلون وجوههم نحو الغرب وينفصلون عن الشرق. لأني أعتقد أن لا رجاء لنا بالنجاح في العالم إلا بذلك .. إذا كانت الشمس تشرق من الشرق، فإن النور يأتينا من الغرب ".[١٨٣]،وهذا الكلام ليس بغريب على من يقول :" ان الرابطة الدينية وقاحة

---

(١٨١) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م، ج١ ،ص ٤١.

(١٨٢) عبد الله ابراهيم ، الثقافة العربية ومرجعيتها المستعارة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى :١٩٩٩ ، ص١٧ .

(١٨٣) أنظر: موسى، سلامة: اليوم والغد، ، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٢٧"، ط١، ص ٢٥٦./ موسى، سلامة: الأدب للشعب،" مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٥٦"، ط١، ص١٢

فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا".[١٨٤]

لقد صنع التغريبيون لأنفسهم **كوجيتو تغريبي** على نسق الكوجيتو الديكارتي(أنا أفكر إذا أنا غربي، أنا غربي إذا أنا موجود) وصدقوه ، وفوق ذلك عززوه بفيتو الهيمنة الغربية لفرضه على العقل والواقع العربي والإسلامي، مع الجهوزية الكاملة لتحطيم أي نهضة أساسها ومنطلقاتها إسلامية المنبت من خلال استعداء الداخل عليها، أو استدعاء الغرب عسكريا إليها، ولذا هناك إجماع معلن تارة ،ومستبطن تارة أخرى لدى كل النخب المثقفة أن الغرب لن يتردد " في ضرب أي خلية حضارية في العالم العربي، إذا اشتم في خميرتها رائحة النهوض الحقيقي، وسيستخدم جميع الوسائل لذلك حتى ولو كانت عسكرية ".[١٨٥]

طبعا لن يقبل الغرب إنتاج أي علاقات فكرية أو مشاريع نهضوية جدية في العالم العربي والإسلامي، من شأنها أن تغير خارطة المعادلة التي صنعها قبل خروجه من الشرق عسكريا، من دون مشاركته وحضوره فيها، سواء كان حضورا مباشرا، أو كان حضورا عن طريق عملائه ووكلائه التغريبيين ..ولذا نرى في كل مرة تتحرك الأمة نحو أي مشروع نهضوي أو تنموي بمعزل عن إرادة الغرب وتوصياته تتحرك آلاته لإفشاله وإسقاطه ..

لن أطيل كثيرا في شرح فلسفة هذه العلاقة للمواطن العربي اليوم فهو يقرأ هذه الصفحات مستحضراً حقيقة هذه المعاني في مشهد **الربيع العربي** Arab Spring وما نراه من محاولات إفشاله أو تدجينه أو تعديله غربياً بكل الوسائل حتى ولو تطلب الانقلاب على كل المبادئ الديمقراطية التي حاول ردحا من

---

(١٨٤)المرجع ذاته ،ص ٢٣٩ .

(١٨٥) أنظر: محمد جابر الأنصاري ، تجديد النهضة ص ٦٣- ٦٤، نقلا عن إبراهيم محمود عبد الباقي ،الخطاب العربي المعاصر :عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية ،المعهد العلمي للفكر الإسلامي ،أمريكا ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ،ص:٣٣٧

الزمن أن يقنع العالم الإسلامي بها .

وفي الأخير نقول؛ إن كان للتغريب والتغريبيين فضل يذكر في دراسة الغرب والتعرف عليه ، فهو فقط ذلك الذي قدموه للغرب وليس للشرق، حيث حوّلوا العالم الإسلامي إلى "زبائن لكل ما أنتجته الحضارة الغربية من سلع استهلاكية"[١٨٦] في المادة والأفكار والمعتقدات والفلسفات.

(١٨٦) إبراهيم محمود عبد الباقي ،الخطاب العربي المعاصر :عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية ، ،ص:٣٣٧

الفصل الخامس:

البناء المعرفي للاستشراق ودوره في فهم العمق الاستراتيجي للشرق

المبحث الأول:
موقع الاستشراق في النظام المعرفي الغربي

ليس من اليسير دراسة الاستشراق أو تقديم عرض مختصر عنه يوفي حقه ومستحقه من الدراسة والبحث، يمكننا من الخروج بجملة معرفية مفيدة عنه، ذلك أن الاستشراق ليس مذهبا نشأ في مرحلة ما في تاريخ الصراع الفكري والتدافع الحضاري بين الشرق والغرب أو بين الإسلام والمسيحية ، حتى نستطيع رصد منحنياته البيانية صعودا وهبوطا، كما أنه ليس مرحلة زمنية محددة من تاريخ الغرب وعلاقته الفكرية بالشرق، فقبل أن يتأسس الاستشراق في الغرب بالفعل كان مؤسسا بالقوة في العقل الغربي ونظامه المعرفي ينتظر اللحظة التاريخية المناسبة للميلاد الفعلي.

إن ظاهرة الاستشراق كما يقول الدكتور غريغوار صاحب كتاب مقدمات الاستتباع "ظاهرة ليست موازية للنسق المعرفي المؤسسي المهيمن الغربي، ولا منقطعة عنه أو عرضية فيه، إنما على العكس استمدت جذورها من هذا النسق بكل مكوناته المعرفية والمذهبية وتظافرت خيوطها في كنفه ، بل إنها كانت ولا تزال تشكل جزءا أساسيا في إنشاء نموذج الدولة . الأمة في الغرب - مما يقتضي من أي باحث لهذه الظاهرة أن يضعها ضمن هذا النسق العام"[١٨٧]

وإذا كان التحقيب التاريخي لنشأة الاستشراق وتطوره مهم لرصد لحظة الانطلاقة وحيثياتها التاريخية المثقلة بالصراع بين الغرب المسيحي والإسلام كقوة ظاهرة في الأرض، فإن التحقيب المعرفي للاستشراق سيمدنا بصورة أشد وضوحا عن طبيعة هذا الميدان الذي يعتبر سابقة في تاريخ الإنسانية كلها،

(١٨٧) غريغوار منصور مرشد، مقدمات الاستتباع ، مرجع سابق ، ص ١٦

كما يقول الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي "إذ لم يسبق أن تخصص آلاف من أبناء الحضارة الغربية في دراسة الإسلام وحضارته من جميع جوانبها، كلياتها وتفاصيلها، فكرها وواقعها، وهذا يعد ظاهرة فريدة في تاريخ الحضارات والثقافات الإنسانية، فنحن لا نعرف أن ذلك قد حدث بين حضارتين بنفس الكثافة والتركيز وامتداد الفترة التي استغرقها"(١٨٨) من هذا المنطلقات والحيثيات فمن الطبيعي أن يكون الاستشراق أحد أهم الاحتياجات المعرفية للغرب، والتي ستزوده فيما بعد بمعلومات اثنولوجية وأخرى كارتوغرافية إستراتيجية عن العالم الإسلامي، واضطلع بدور المرشد والمؤطر العلمي والمعرفي لحركته الاستعمارية، وقد كان. وإذا نظرنا إلى هذا الانجاز من زاوية محايدة؛ فإنه يعتبر إحدى أهم وأكبر نجاحات الغرب في تاريخه ، والذي يزال يقتات ويعتاش عليه إلى اليوم في أشكال وصور وخطابات فكرية متنوعة تعتبر ملاحق للمدرسة الاستشراقية تصاحب الغرب في كل محاولاته المستمرة للهيمنة على مقدرات الشعوب وثقافاتها وإرثها الحضاري .

لاشك أن تناولنا للاستشراق في سياق الدرس الاستغرابي سيكون بالتركيز على كونه العلم الذي درس الشرق بمنهجيته الخاصة وكشف عن كنوزه المعرفية وقوته المادية والروحية....، وكونه مثّل الوسيط المعرفي والعبّارة التي نقلت كنوز الشرق إلى الغرب وأعادت إنتاجها وفق نظامه المعرفي، هذا كله لا يمنعنا من تركيزنا على تلك الصور الايجابية في المدرسة الاستشراقية، والتي تعتبر بحق أحد أهم الروافع التي مكنت للاستشراق من أن يحرك العالم الغربي كله إلى دراسة الشرق والاستفادة منه. والصور الايجابية التي نقصدها هنا لا تتعلق بالمتن الاستشراقي ومدى صدقه من عدمه. فتلك قضية لها

---

(١٨٨) انظر: عبد الله الشرقاوي ،قراءات ومراجعات في: An Account Of The Rise And Progress Of Mahometanism لمؤلفه البريطاني Henry Stubbe ، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الثاني والعشرون ،ص١٦٤

مجالها، وإنما نقصد بالصور الايجابية الآليات والتقاليد العلمية التي وظفها الاستشراق والمستشرقون في مشروعهم والتي مكنت له في بقائه واستمراره قرونا في دراسة الشرق، ومن هذه الآليات مأسسة الاجتهاد والرؤية الاستشراقية، والحركة ضمن دائرة التخصص، والنفس العلمي الطويل، وتقاليد الكراسي العلمية مع الرعاية السامية للأنظمة الغربية لمختلف مراحل الاستشراق رعاية مادية، وقدرة الاستشراق كخطاب على التشكل في صيغ خطابات ونظريات جديدة ..

هذا ما سنركز عليه في هذا الشق من الدراسة، محاولين التركيز على تلك العناصر المهمة في دالة الاستشراق وكرونولوجيته التاريخية والمعرفية، لعلنا نفلح في توظيفها في درسنا الاستغرابي، مع الإشارة هنا إلى خطورة هذا المسعى إذا لم نستطع تجاوز سلبيات الخطاب الاستشراقي والمطبات التي وقع فيها...فالاقتباس من الآليات الاستشراقية العلمية أو محاولة محاكاته أو تقليده في كل منهجيته التي درس بها الشرق حضارة وتراثا، إن أغنت في قليل فلن تغني في كثير، ما لم نفهم أن الاستشراق اليوم قد تموضع في ساحات جديدة من الصراع لم تكن معهودة في تاريخ العلم والمعرفة من قبل، إنها فضاءات الحداثة وما بعد الحداثة ومواقع الفلسفات العدمية وخطاباتها الجنونية.. موظفا في الوقت ذاته أعتى أساليب الهدم التي أنتجتها المدارس الفلسفة الغربية والتي تسعى بدورها إلى هدم كل شيء له معنى ثابت في التراث الإسلامي، مع تجديده وتطويره لآليات العمل والدراسة .

وإذا كان الدكتور المسيري رحمه الله قد أطلق على الجماعات اليهودية مفهوم الجماعات الوظيفية، إشارة منه إلى أنها تشكلت لتؤدي وظيفة ما أسندها إليها المجتمع لتعذر قيامه بهذه الوظائف لكونها مشبوهة أو فيها حرج.. ثم أطلق تسمية الدولة الوظيفية على إسرائيل التي أسسها الغرب لتؤدي هي الأخرى وظيفة يتعذر على الغرب القيام بها، فإننا سنطلق على الاستشراق المصطلح ذاته "**الاستشراق الوظيفي**" باعتباره العلم الذي أسسه

الغرب ليضطلع بدور لا تستطيع الكثير من النخب في الغرب القيام به، فوظيفة المستشرق لصيقة في الدوائر العلمية الغربية كما العقل الجمعي العربي والإسلامي بمفهوم الجاسوس أو على أقل التقدير المشبوه فيه، وفي أفكاره ، وإن بدا غير ذلك، ولا أدل على صدق هذا من تلك الخدمات الاستعمارية الاستخباراتية التي لا يزال الاستشراق في صوره الحديثة يغذي بها دوائر القرار السياسي واللجان الاستخباراتية والمراكز العلمية الاستراتيجية في الغرب، وباقتباس مصطلحات المسيري نقول أنه أصبح علم وظيفي تعاقدي مع من لهم مصلحة في دراسة الشرق أو الحصول على معلومات مهمة عنه.

من هنا وحتى لا يكون الاستغراب كلاً على (ايجابيات الاستشراق)، وحتى لا يكون فتنة بوقوعه في مزالق المدارس الاستشراقية، بمعاودة إنتاج الأخطاء ذاتها، وكي لا يكون هو الآخر علما وظيفيا بالمفهوم الذي سبق بيانه يتغيا دراسة الغرب لإخضاعه أو غزوه أو تشويهه، فإنه من الضروري استحضار وظيفته المعرفية المؤسسة على قواعد الاستخلاف والرسالية أثناء دراسة هذا القطاع المعرفي الغربي حتى لا يتجه ويسلك مسالك الاستشراق وينتهي عند منتهاه.

سنحاول أن نقدم خلاصة جامعة عن الاستشراق من هذه الزاوية والمقصد، أما التفاصيل فسنتركها للكتب التي تناولته منذ عقود من الزمن بداية من المفكر العربي إدوارد سعيد ، وصولا إلى طائفة المنصفين من المستشرقين القدماء والمعاصرين الذين تخلصوا من عقدة "**اللازمة الاستشراقية**" التي تعنى التحيز وتجوز الحقائق التاريخية، واليقينيات المتعارف عليها في تاريخ العلم وفلسفته، والتعالي عن مكتسبات الإسلام والحضارة الإسلامية.

أولاً: الحمولة الدلالية والمفاهيمية للاستشراق

يقبع تحت مصطلح الاستشراق حمولة دلالية مفاهيمية مركبة مشحونة بمعان تدل على طبيعة المفهوم وجغرافيته الدلالية التي تتعدى تخوم المصطلح اللغوية إلى معانيه الحضارية. الاستشراق والشرق والمشرق

بتقسيماته الغربية القديمة والمعاصرة الأدني، والأوسط ، والشرق الأقصى ...، هي مصطلحات يعادلها موضوعيا مفاهيم النور والضياء والهداية، مشرق الحضارة، مشرق الديانات السماوية، مشرق العلم واللغات والآداب، وروح المبدئية العالية،... فمن الطبيعي، والحالة هذه أن يطلق على كل دارس للشرق مستشرق، والمستشرق في الوعي الجمعي الغربي قديما وحديثا يعني " خبير مطلق الصلاحية في شؤون الشرق الإسلامي... يجب الاستماع إلى ملاحظاته ومقترحاته وأخذها بعين الاعتبار " (١٨٩) ،وفيما بعد يقتبس الاستشراق لنفسه هذا المصطلح ليغدو علامة مسجلة على "حقل معرفي غربي أنشأه الغرب لفهم الشرق عمومًا والعالم الإسلامي بشكل خاص ".(١٩٠)

وسنرى في الصفحات التالية الحمولة الدلالية لمفهوم ومصطلح الاستشراق، معرجين على طائفة من التعريفات المستخلصة من كتابات عربية وإسلامية، والأخرى غربية من الوسط الاستشراقي ذاته، وغيره من الأوساط والحقول العلمية حتى نخرج بجملة مفيدة واضحة المعالم عن هذا العلم والمقاصد والغايات والأرضية التي تأسس عليها.

أ: الحمولة الدلالة اللغوية:

ـ **الاستشراق لغة:** من (شَ رَ قَ)، الألف والسين والتاء إذا دخلت على الفعل الثلاثي، فإنها تفيد الطلب نحو قولك استغفر، استسقى، وعليه فإن معنى استشرق أي طلب الشرق"(١٩١). وأصل المادة شرق وهو اسم للمكان

---

(١٨٩) أنظر: محمد راتب الحلاق نحن والآخر : دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٧ ص: ١٨

(١٩٠) أنظر : بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري مرجع سابق ،ص٨

(١٩١) انظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، محمد فتح الله الزيادي ، دار قتيبة دمشق، الطبعة الثانية:٢٠٠٢م، ص١٧.

أو الجهة .

فأما الجهة فتشير إلى الجهة الشرقية من الكرة الأرضية والتي تشرق منها الشمس، جاء في لسان العرب :" شرق : شرقت الشمس تشرق شروقاً وشرقاً: طلعت ، واسم الموضع المشرق، يقال : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، فإن أراد الطلوع فقد جاء في الحديث .. حتى تطلع الشمس ، وإن أراد الإضاءة فقد ورد في حديث آخر : حتى ترتفع الشمس ، والإضاءة مع الارتفاع . وقوله تعالى: "ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين" إنما أراد بعد المشرق والمغرب ، فلما جعلا اثنين غلب لفظ المشرق ؛ لأنه دال على الوجود والمغرب دال على العدم ، والوجود لا محالة أشرف " (١٩٢).

والتشريق :" هو الأخذ في ناحية المشرق . يقال : شتان بين مشرق ومغرب . وشرقوا : ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق . وكل ما طلع من المشرق فقد شرق ، ومن دلالة الكلمة أيضا معنى الإصباح، جاء في التنزيل:" فأخذتهم الصيحة مشرقين" أي مصبحين: وأشرق القوم : دخلوا في وقت الشروق كما تقول : أفجروا وأصبحوا وأظهروا .." (١٩٣) ، ومن معاني ودلالات الكلمة أيضا الإضاءة نقول وجهه مشرق وأقبل بوجه مشرق أي مضيء مستبشر ..

ب: الحمولة الدلالة الحضارية :

تختزن كلمة الشرق في العقل والمخيال الغربي معاني ذات دلالات وإيحاءات مشحونة بمفاهيم الحضارة النور والرقي والتطور، فطلب الشرق يعني فيما يعنيه الاتجاه إلى آداب وعلوم وحضارة القوم، فالغرب كان يرى في

---

(١٩٢) ابن منظور، لسان العرب لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير،محمد أحمد حسب ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف القاهرة ، دط ، دت، ج ٤ ، ص٢٢٤٤

(١٩٣) المرجع السابق، ج ٤ ، ص٢٢٤٤

الشرق الجغرافيا الحضارية التي حوت كنوز الحضارات والأمم السابقة، فضلا عن كون الشرق يمثل مجمع وملتقى الحضارات والأديان السماوية بما فيها المسيحية التي تعتبر شرقية المنبت.

والدليل على ذلك أن كلمة الشرق ORIENT في "المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانية والفرنسية والإنجليزية) تشير إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة تتميز بطابع معنوي وهو Morgenland وتعني بلاد الصباح ، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abendland وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة." (١٩٤)

وحين تجذر في الدراسات الغربية مفهوم الشرق الحضاري، عمدوا إلى تقسيمه حسب قربه وبعده الجغرافي عن أوروبا إلى شرق أدنى وشرق أقصى وشرق أوسط .. وتحت ضغط الصراع الفكري ونتائجه أصبح لزاما على الغرب أن يجد للشرق مفردة معاكسة لها في الدلالة ، فأنتج وأسس مفهوم الغرب لتصبح مفردات (الشرق / الغرب) أحد الثنائيات الباعثة على التقسيم والتحيز المعرفي، فإذا كان الشرق هو مجمع الحضارات وقاعدة الإسلام؛ فإن الغرب هو أيضا غرب النهضة والمعرفة والهيمنة وقاعدة المسيحية.

يقول الأستاذ محمد راتب الحلاق نقلا عن برنارد لويس "أما الغرب، فهو الاسم الطبيعي لمواجهة الشرق، لقد اعتدنا نحن الأوربيين منذ مدة، أن نطلق

---

(١٩٤) أنظر: السيد محمد الشاهد. "الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين" في الاجتهاد. عدد ٢٢، السنة السادسة ، شتاء عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. ص١٩١-٢١١.نقلا عن مازن صلاح المطبقاني :الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، الرياض، دراسته وتصنيفه بغية مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥.

على مجموعة البلاد التي ننتمي إليها، اسم الغرب، ولم يعد هذا التعبير يعني وضعاً جغرافياً خالصاً، بقدر ما يعني كياناً ثقافياً واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً"..فالشرق والغرب، بالمعنى المتداول لهما، مصطلحان لا يعنيان شيئاً من الناحية الجغرافية إذاً، فلا الوطن العربي يقع شرق أوربا، ولا أوربا- كتحصيل حاصل- تقع غرب الوطن العربي. وهذا ما يمكن أن يكتشفه بسهولة، كل من يستطيع تهجئة الخرائط الجغرافية ".[١٩٥]

ثانياً : ـ الاستشراق من العلوم الوظيفية:

على غرار مصطلح المسيري في توصيف الجماعات اليهودية بأنها من نوع الجماعات الوظيفية التي يؤسسها المجتمع والدولة عادة لأداء مهمة لا تستطيعها الدولة ولا يجرؤ عليها المجتمع لكونها تتسم بطابع بعيد عن مفهوم القداسة مثل غسيل الأموال وتبييضها .. من هذا المنطلق أو قريبا منه نستطيع أن نصنف الاستشراق، باعتباره أحد الآليات الوظيفية التي أسسها الغرب لمهام وأهداف غير أخلاقية بالمرة، وإن أعلن أنه لا يقصد من دراسة الشرق إلا المقاصد العلمية والمعرفية وحب الفضول، وهنا نستثني تلك الجهود التي حاولت الإنصاف بصدق يظهر من خلال كتاباتهم وآرائهم .

مهما اختلف الذين كتبوا عن الاستشراق من غير الغربيين في توصيف لمفهوم الاستشراق وتعريفه ، فهم يختلفون في حيثيات وتفاصيل محددة ،أي أنهم يختلفون في هوامش النص الاستشراقي أما متنه المعرفي الصلب فهم فيه على كلمة سواء، وأغلب من كتب عنه ينتهي إلى كونه لم يقم بادئ الأمر على أصول ومقاصد علمية ولم يذكر عليه اسم الله ، إذ كان الهدف المرجعي

---

(١٩٥) أنظر : محمد راتب الحلاق ، نحن والآخر :دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي، اتحاد الكتاب العرب سوريا ،١٩٩٧،ص: ٨

الذي تغرد وتدندن حوله الكتابات الاستشراقية باختلاف حقولها، هو فهم الشرق الإسلامي ودراسته بهدف إلحاقه أو إخضاعه أو إضعافه، فالحلقات الاستشراقية لا تخرج عن هذا المثلث المقاصدي الاستراتيجي لأرضية الاستشراق (الإخضاع أو الإلحاق أو الإضعاف)، ولذلك جاءت مختلف الدراسات الاستشراقية على تنوعها محققة لهذه المقاصد والاستراتيجيات ، هذا فضلا عن كونه علم ولد ونشأ بعد فشل الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها ما يعني أنه كان الاستراتيجية البديل لاختراق العالم الإسلامي .

ولهذا يرى إدوارد سعيد وغيره من الكتاب أن الاستشراق فضلا عن كونه هو ميدان لدراسة لغات الشرق وآدابه وثقافته، هو" عبارة أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق ((وفي معظم الأحيان)) و((الغرب)) وبإيجاز، الاستشراق، كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه"[١٩٦].

وبالتالي ننتهي إلى تعريف الاستشراق؛ بأنه علم وظيفي أسسه الغرب ليؤدي وظيفة محددة لا تستطيعها العلوم الأخرى ، تنتهي مقاصده إلى إخضاع أو إلحاق أو إضعاف الشرق الإسلامي والسيطرة عليه . والأمر ذاته ينطبق على حركة الاستشراق، إذ يمكن تعريفها بأنها حركة فكرية وظيفية قامت في الغرب منذ قرون استهدفت دراسة الشرق الإسلامي على وجه الخصوص دراسة علمية، انطلاقا من دراسة لغاته وآدابه ومعتقداته وأوضاعه، بقصد إخضاعه فكريا بعد عجزه عن تحقيق هذا المبتغى عسكريا. .

---

(١٩٦) إدوارد سعيد ،الاستشراق ، ترجمه : كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م ص ٣٨

المبحث الثاني:
كرونولوجيا المعرفة الاستشراقية وإعادة التشكل

أولا: كرونولوجيا المعرفة الاستشراقية

المتتبع للكرونولوجيا المعرفية للاستشراق وخطاباته المتنوعة إزاء الشرق، أو باعتباره آلية معرفية غربية لفهم الإسلام، يجب عليه أن يصنف هذا الميدان في إطاره الحقيقي ويلم بنشأته ونموه وتطوره، وتقلبه من خطاب إلى آخر، وبغض النظر عن من ينظر إلى "الاستشراق بوصفه ظاهرة مؤهلة للانقراض مثلما يراه أنور عبد المالك، أو كما يراه إدوارد سعيد بأنه لا تاريخ له أي أنه مجرد تطور للأسطورة التي تؤسسه وتغذيه، بينما يعتبره آخرون عبارة عن نمط من أنماط الإدراك والتصور وليس سجلا من سجلات المعرفة.." .[١٩٧]

بغض النظر عن كل هذا التفسير للظاهرة الاستشراقية وكرونولوجيتها المعرفية، فإن هذا الميدان والحقل المعرفي الذي نقّب في البلاد المشرقية طويلا، ولم يترك حجرا على حجر إلا واستخرج منه قصة وتاريخا. لاشك أن هذا الجهد المعرفي الغربي قد تقلب من طور إلى طور ومن صلب إلى صلب ومن أمة إلى أخرى سنح له في الأخير باقتناص كل هذه المعارف والكم الهائل عن العالم الإسلامي بذكاء منقطع النظير، وعلى حين غفلة من أهله طال أمدها كثيرا.. ولا يزال يمارس الدور ذاته المنوط به في مراحل جديدة من خلال خطابات متنوعة أخرى أخطر من المعرفة الاستشراقية الكلاسيكية. إذ أصبحنا نرى في كثير من الأحيان الاستشراق ولا نرى المستشرقين .. فالمطابع الغربية لا تزال تقذف في كل يوم بكتب ودراسات جديدة عن الشرق

---

(١٩٧) أنظر: محمد أركون ، الاستشراق ،مجلة الاجتهاد ، السنة الثانية عشر ، العدد ٤٩ ، ص: ٢١٤.

بلغة جديدة ما يوحي بأن الاستشراق لا يزال في أعلى قدراته الإنتاجية وجهوزيته للعطاء الفكري ..فما هي المراحل التي خطاها الاستشراق حتى استطاع أن يصل إلى معرفة وضع الأمة وقدراتها ومواطن القوة والضعف فيها أفضل مما يعرف عن حالها أهلها؟

إذا كانت الكثير من الدراسات العلمية ترجع وترجح ميلاد الاستشراق إلى قرار المجمع الكنسي في فيينا سنة (١٣١٢م) والقاضي بإنشاء كراسي للغات الشرقية ومن بينها اللغة العربية، فإن دراسات أخرى تؤكد أن المعرفة الاستشراقية قد بدأت قبل ذلك بكثير، أي مع بدايات الاحتكاك المسيحي بالمسلمين في الأندلس وتوافد البعثات العلمية تباعا لاستطلاع واكتشاف الجانب المشرق من الحضارة الإسلامية بعد الحروب الصليبية.

ويمكن أن نميز هنا بين الاستشراق الذي كان في مرحلة الأندلس وما قبلها والمتسم بطابع الاستكشاف والتطلع إلى هذا الجزء من العالم يحدوه قلق وحذر، وبين الاستشراق الذي نشأ في عهد الحروب الصليبية وأخذ طابع الاستشراق اللاهوتي المؤدلج، والذي بدأت بداياته مع القرارات الرسمية الكنسية الموجهة.

يترجم هذه المعاني الدقيقة لنشأة الاستشراق قلم من أقلامهم ممثلا في برنارد لويس حيث "يتناول حالة الدراسات الاستشراقية المتعلقة بدراسة الشرق الأوسط، ويرجع جذورها الأولى إلى العصور الوسطى، أي إلى المحاولات الأولى التي قامت بها المسيحية الأوروبية من أجل تعلم اللغة العربية وفهم الإسلام يحدوها في ذلك دافعان : الأول، كان الرغبة في الفهم وحب الفضول، فالعلماء والطلاب الغربيون كانوا يأتون إلى اسبانيا وصقلية كمبتدئين، ثم بشكل أقل إلى البلاد الإسلامية، وكان قصدهم التعلم والدراسة على يد حضارة العالم الإسلامي المتفوقة في ذلك الزمن ،أما الدافع الثاني فكان جدليا هجوميا، ومنطقه التنافس بين عالم الإسلام والمسيحية الغربية. ومع نهاية

القرون الوسطى بدا للأوربيين أن من المستحيل تحويل المسلمين عن دينهم لكي يعتنقوا المسيحية، وظهر الإسلام كتحد للعالم المسيحي كقوة أرضية وليس ضد المسيحية كدين، وبالتالي كان الرد عليه عسكريا وليس فكرياً.."[198]

ثم انتقل الأمر فيما بعد إلى مراحل أخرى بدأت فيها الدراسات الاستشراقية الممنهجة عن للعالم الإسلامي في أوروبا وغيرها مع تبلور وتعزيز مفهوم الاستشراق في نهاية القرن الثامن عشر، إذ بدأت بعدها الدراسات المعمقة والتي استهدفت تحليل البنية العميقة للعالم الإسلامي في كل المجالات، وهنا عرف الاستشراق أزهى عهود وعصور عطائه وإنتاجه الفكري، وبدأ معه دراسة مجالات الشريعة الإسلامية وتخصصاتها المتنوعة كالحديث والفقه والعقيدة والتصوف والتاريخ الإسلامي، وهنا تمكن الكثير من المستشرقين من ترجمة العديد من المخطوطات والأعمال الموسوعية ،وبرزت أسماء وقامات علمية في هذا الميدان ،مع الإشارة هنا إلى أن من نتائج هذه المرحلة ظهور مدارس الاستشراق مثل الاستشراق الفرنسي الاستشراق الألماني والإسباني والإيطالي والروسي والأمريكي.. ما يدل على تنافس كبير في مختلف أقطار العالم الغربي على دراسة الشرق الإسلامي .

لم يلبث الاستشراق طويلا في ميدان التحقيق العلمي والأكاديمي لينتقل بسرعة خاطفة إلى الأكاديميات والثكنات العسكرية ليصبح بعد مرحلة من العطاء العلمي والفكري، المرافق والمرشد المعرفي والعلمي الأول للحركة الاستعمارية في العالم الغربي، وهذه حقيقة ومسلمة تاريخية لا تقبل الجدل خاصة بعد انخراط الكثير منهم في صفوف الجيوش المستعمرة مباشرة، وبقدر ما كان ذلك أحد العوامل المساعدة على بسط السيطرة الغربية على العالم الإسلامي بقدر ما كان المسمار الذي دق في نعش الاستشراق بعد تباهيه

---

(198) محمد أركون ، الاستشراق ،مجلة الاجتهاد ، السنة الثانية عشر ، العدد 49 ، ص: 214

بإنجازاته العلمية وموضوعيته وحياده .. فلم يعد المستشرق لقبا براقا في المحافل والمجامع العلمية لأنه يكاد يكون رتبة عسكرية داخل مخابر التخطيط الاستراتيجي العسكري.. وبدا من المسلمات لدى الكثيرين تلك العلاقة العضوية بين الاستشراق و الاستعمار أو بتعبير إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق "أن يقول المرء ببساطة أن الاستشراق كان جانباً من جوانب الإمبريالية والاستعمار ليس قولاً مثيراً لكثير من الجدل. غير أن قول ذلك لا يكفي؛ بل أن ذلك ليحتاج إلى أن يُكتنه تحليلياً وتاريخياً." (١٩٩)

بعد هذه المرحلة وانتهاء البريق الأسطوري للاستشراق في الأوساط الغربية، فضلا عن الأوساط العربية والإسلامية نتيجة ما أصابه من تشوه خُلقي وخِلقي بدأ الاستشراق يدخل مرحلة الضمور، فأعلن تنازله عن مصطلح "مستشرق " و"استشراق " في السبعينات من القرن الماضي ليحاول إعادة إنتاج خطابه وتشكيله في مفردات جديدة وتحت مسميات أكثر بريقا، كمحاولة للاستدراك واختار مسميات دراسات الشرق الأوسط، ومحللي مراكز الدراسات الإستراتيجية، إلا أنهم لم يتجاوزوا المفردات القديمة التي ألفوا أن تربوا عليها، فطفقوا يكررون الملاحظات الاستشراقية المعروفة بلغة جديدة ..

فالإصرار على تجاوز الحقائق التاريخية بقي كما كان من قبل " فبعض المستشرقين قد توالفت فيهم العوامل المعرفية، مع العوامل السياسية والنفسانية، فلم يكونوا- والحالة هذه - أكثر من مصابين بالعصاب التوهمي " البارانويا"، فجاءت معرفتهم للشرق وللشرقيين مخالفة للمعرفة التاريخية العادية- على حد قول إدوارد سعيد- مما جعل الاستشراق يغدو مشكلة ذهنية، ومشكلة فلسفية ونفسانية، إذ كيف يسمح عارف لنفسه بأن لا يكون عقلانياً مع أنه قادر على ذلك؟!! فيلجأ إلى انتاج توهمات عن الآخر" الشرقي"، بقصد إنكاره لا بقصد معرفته كما هو. فتكون معرفته إنشاء مبنياً على أفكار شائعة، وأحكام مترسبة

---

(١٩٩) إدوارد سعيد ، الاستشراق ، مرجع سابق ،ص٤٠

في وجدان قارئيه" الغربيين"، بدل أن ينتج وعياً مطابقاً، لمجتمعات تاريخية وواقعية"[200]

هذا فضلاً عن وجود عوامل كثيرة تسببت في نكسة الاستشراق وضموره زيادة على كل ما ذكر في أواخر القرن الماضي يعزوها بعضهم إلى " حملة إدوارد سعيد الشرسة والدامغة عليه، والواقع أن أكثر من زعزع من طمانينة المستشرقين الثورة في الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، وحدة النقد الموجه إلى التاريخانية التي ظلت تسود الاستشراق إلى مطلع الثمانينات ، وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير فيما عرف بالاستشراق الجديد ، والذي تمثل بقراءات ودراسات ناقصة للقرآن والنبي والسيرة النبوية ، بعد دراسات مماثلة عن السنة والتاريخ المبكر للدين الإسلامي " [201]

ثانياً: لماذا تخلي الاستشراق عن مكتسباته واستراتيجيته الاصطلاحية

إذا كان علم الاستشراق في فلسفة العلوم الغربية قد حضي بقدر كبير من الاهتمام، وكانت مفردة " مستشرق " مصدر فخار وعز بين الأوساط العلمية باعتباره ينتمي إلى أفضل العلوم والمعارف الغربية التي عملت على كشفت كنوز الشرق، وتزويد الحضارة الغربية بها، فضلا عن الخدمات الأخرى التي قدمها طوال القرون السابقة وتبوأ حامل هذا اللقب مكانة رفيعة في الفضاءات العلمية والإعلامية..فكان الحرى والأحرى أن يحتفظ أهل هذا الميدان بمنجزاتهم العلمية وعلى رأسها "مصطلح الاستشراق" والذي يعد مكتسبا اصطلاحيا استراتيجيا في العقل الغربي، وهو ما لم يحدث فقد خرج " المؤتمر الدولي للاستشراق الذي انعقد في باريس عام ١٩٧٣م، بقرار رسمي يتخلي

(٢٠٠) محمد راتب الحلاق نحن والآخر ، دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصرمن منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٧ ،ص: ٢٤

(٢٠١) رضوان السيد ، نقد الاستشراق ، مجلة الاجتهاد العدد: ٥٠ ،السنة الثالثة عشر ، ص: ٦

بموجبه عن كلمة مستشرق ".[٢٠٢]

فما هو السبب الذي جعل القوم يتنازلون عن أحد مكاسبهم الاصطلاحية التي يفتخرون بها ؟. وهل كان ذالك نوعا من المراجعة لمسيرة الاستشراق التي أصيبت من بعد القوة زهاء قرنين من الزمن بوهن شديد، فتنكست رايته بعد علوها في الأرض علوا كبيرا وشاخت أقلامه بعد تعميرها طويلا في ساحات العلوم والمعارف ؟. هل يعتبر هذا اللون من المراجعات من قبل التوبة العلمية والتقييم لمسيرة هذا الحقل المعرفي ؟. أم أنه مجرد تغيير في آليات الخطاب ومحاولة تشتيت الانتباه ؟.

كما هو معلوم أن الاستشراق في القرن الأخير قد تعرض إلى هزات عنيفة من النقد الداخلي والخارجي، كان أهمها تلك التي وجهها إليها في عقد السبعينات المفكر العربي إدوارد سعيد، وغيره من الكتاب، فكان من الطبيعي أن يفكروا في تغيير استراتيجيتهم على مستوى المصطلح، ولهذا يشير الكثير من الكتاب إلى بعض أسباب هذه المراجعات الاصطلاحية ويعزونها إلى تشوه الاسم بسبب حملات النقد التي بلغت ذروتها في النصف الثاني من القرن العشرين، خاصة تلك التي أحدثها كتاب ادوارد سعيد في الأوساط العربية والغربية، فهذا" ماكسيم رودنسون MAXiM RODiNSON الفرنسي، يشير إلى صاحب كتاب الاستشراق وكاتبه قائلا:" إن الاستشراق اليوم في قفص اتهام ، بسبب ذلك الشيطان ادوارد سعيد على الأخص ..وقال الكاتب البريطاني البرت حوراني عن دور إدوارد سعيد في خلخلة الاستشراق " لقد بات من المستحيل تقريبا استخدام تعبير الاستشراق كمفهوم محايد ، بحيث بات تعبيرا قدحيا في المقام الأول ،على الرغم من وجود بعض المستشرقين

---

(٢٠٢) عبد الله صالح أبو بكر، حوار الحضارات : تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا ،إصدار هيئة الأعمال الفكرية السودان الخرطوم ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م،ص:١٠٤

الذين خدموا العلم والإنسانية ".[٢٠٣]

ولا غرابة أن يحمل على المصطلح بعد هذا لفيف من المستشرقين في الغرب ويعلنوا تبرؤهم منه بعد تعريته وانكشاف مقاصده، وفقد بريقه، على أمل أن يعاودوا الكرة تحت عناوين ومسميات أخرى طلبا لمصداقية و شرعية إنتاجهم الفكري، والذي يأتي فيما بعد بزخم أكبر يحمل حدة أشد في تهجمه على الإسلام . فهذا" المستشرق برنارد لويس كما يقول علي بن إبراهيم النملة "مثال حي، واضح على هذا التخلي، فقد أكثر أخيرا من الكتابات الإعلامية غير العميقة، المتركزة على تشويه الإسلام والمسلمين، وحمل بقوة على المصطلح / الاستشراق، ودعا إلى رميه في زبالة التاريخ، وغيره كثير من المستشرقين المعاصرين ".[٢٠٤]

هذا ويقدم البعض تفسيرات لأسباب تخلي الاستشراق عن بعض مكاسبه ويرجعها لكون كلمة مستشرق ربما قد "فقدت قيمتها، أو ربما لأنه تم استبدالها بالخبير الإقليمي أو المستشار في المؤسسات الإسلامية الغربية، وكذا مصطلح الاستشراق ، ربما لأنه لم يعد هناك إسلام موحد يلهم الاستشراق، مادام أن الغرب أضحى نسيجا مركبا، أو ربما بسبب تلاشي إشكاليته المثيرة: إسلام / غرب".[٢٠٥]

والحقيقة أعمق من ذلك بكثير؛ فالإسلام مع ما طرأ على أتباعه من تفرق، ومع ظهور ما يسمه البعض بالإسلام السياسي والإسلام الصوفي،

---

(٢٠٣) انظر : جمال الشلبي ، صورة العرب والمسلمين في الإعلام الغربي : حالة فرنسا، أوراق المؤتمر الدولي الثاني ،أوربا والإسلام ١٩٩٦ م، جامعة آل البيت الأردن ،ص: ١٠١

(٢٠٤) أنظر : علي بن إبراهيم النملة في كتابه: الاستشراق والإسلام في المراجع العربية ،بيسان الرياض، الطبعة الأولى ٢٠١٠م،ص ٤٣

(٢٠٥) عبد الله صالح أبو بكر ،حوار الحضارات : تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا ،إصدار هيئة الأعمال الفكرية السودان الخرطوم ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م،ص:١٠٤

والإسلام الحركي، والإسلام الجهادي بل والإسلام الرسمي وغير الرسمي، لا تزال بنيته الصلبة أكثر قوة مع هذا التفرق والتشتت، والاستشراق يعلم أن تلك البنية الصلبة التي واجهته أيام عظمة الأمة وقوتها في الأرض لا تزال هي ذاتها التي تؤهل الإسلام للعودة من جديد، وبالرغم من أن الغرب أصبح نسيجا موحدا إلا أن إشكالية الإسلام والغرب أصبحت أكثر بروزا وتطورا من ذي قبل خاصة مع تداخل العامل الجيوثقافي الإسلامي على الجغرافيا السياسية للغرب، وهو ما يعني أن السبب لا يكمن في هذا التبرير فقط بل هو مناورة لإيهام نقاد الاستشراق في العالم الإسلامي أنه انتهى .

والدليل على ذلك أن استراتيجية الاستشراق بعد هذا القرار انتقلت إلى فضاءات علمية جديدة لم يألفها العقل الإسلامي، مثل فضاءات الحداثة وما بعد الحداثة وفلسفات الانثربولوجية، وتلفع تحت مسميات دراسات الشرق الأوسط والتنمية السياسية ومؤسسات الدراسات الاستراتيجية، وانتقل رواد الاستشراق بعد ذلك من لجان الاستشارة ودعم القرار الاستراتيجي في الغرب إلى مواقع السلطة مباشرة، فأصبح الاستشراق بمسمياته المختلفة فكر يملك دولا وأنظمة كثيرة في العالم الغربي بعد أن كان فكرا ارتزاقيا يقدم خدمات لها، ومع هذا، لا يزال الكثير من المتابعين للشأن الاستشراقي يصدقون مقولة انتهاء الاستشراق وزواله .." بمجرد زوال العنوان "اليافطة" على الرغم من عدم انتهاء المجال البحثي والحقل المعرفي ".(٢٠٦)

---

(٢٠٦) طه جابر العلواني مقدمة كتاب، مقدمات الاستتباع : الشرق موجود بغيره لا بذاته، مرجع سابق، ص١٠ .

المبحث الثالث:

المنابع الفكرية والأصول المرجعية المؤطرة للاستشراق

إذا استطعنا أن نحيط خبرا بالمنابع الفكرية والأصول المعرفية المؤطرة للفكر الاستشراقي، نستطيع أن نفهم أي إنتاج استشراقي مهما كان نوعه ومجاله، سواء ذلك الذي ينخرط في إطار الجهود العلمية الأكاديمية والذي يتسم بطابع التحقيق على نحو ما قام به لفيف من المستشرقين في تحقيق الكثير من التراث العربي، أو ذلك الذي يدخل في إطار الملفات الموجهة والمتعلقة بالشرق الإسلامي كالدراسات السياسية والثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية المتنوعة ،والتي تصب في إطار التعرف على طبيعة الشرق ومتابعة أحواله ومستجداته ..والتي تعتبر هي الأخرى دراسات أشبه ما تكون بالتقارير الاستراتيجية التي يزود بها الاستشراق مختلف القطاعات في الغرب.

وفي كل الأحوال يتحرك الاستشراق على قاعدة وأرضية المركزية الفكرية الغربية والتي تعود أصولها إلى بنية النظام المعرفي الغربي المؤسس بدوره على فلسفة الهيمنة والصراع والاستعمار (الغرب هو المركز والباقي هم الأطراف)، كما يتحرك على قاعدة الأصول التوراتية والإنجيلية ، الأولى تمده بالروح الفلسفية والفكرية والأنطولوجية، والثانية تغذيه بالمقولات الدينية العقدية المشحونة بمنطق الهوس من خطر الآخر المنبوذ والمطرود، وهو ما يفسر كون الاستشراق الحاضنة الطبيعية والمرشد العلمي لحركة للتنصير والاستعمار في الغرب .

ليس من الغريب أن تقرأ بعد كل هذا للمستشرق الفرنسي "جاك بيرك" (١٩١٠ ١٩٩٥م) عن موقف الغرب من الإسلام وهو يقول بكل صراحة:" إن الإسلام الذي هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذي يدين به أزيد من مليار نسمة في العالم، والذي هو قريب من الغرب جغرافياً، وتاريخياً، وحتى

من ناحية القيم والمفاهيم.. قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة، بالنسبة للغرب: ابن العم المجهول، والأخ المرفوض.. والمنكر الأبدي.. والمبعد الأبدي.. والمتهم الأبدي.. والمشتبه فيه الأبدي".[٢٠٧]

أولاً: منبع المركزية الأوروبية والغربية Eurocentricity،Eurocentris

يتحرك الفكر الاستشراقي في كل تنظيراته عن الشرق من منطلقات المركزية الغربية التي صنعها العقل الغربي ..حيث تحولت إلى عقدة وعقيدة لدى أغلب كتاب الاستشراق، منتهى هذه الفكرة تتلخص في كوجيتو المركزية الغربية (أنا غربي إذا إنا : إنسان ، متحضر ، ذكي ، عاقل ..) ، يصف هذه النزعة خير الله سعيد بقوله " إن جوهر الاستشراق هو التمييز الذي يستحيل اجتثاثه بين الفوقية الغربية و الدونية الشرقية ، ثم إن هذا الاستشراق في تناميه، وفي تاريخه اللاحق ،قد عمق هذا التمييز بل أعطاه صلابة ومتانة " [٢٠٨]

هذه الرؤية الغربية المركزية يستطيع أي فرد أن يلاحظها من خلال صورة الإسلام والشرق في العقل الغربي، وهي صورة تتسم بكونها استشراقية الروح بامتياز، تشكلت عبر قرون من الزمن بفعل الضخ الاستشراقي الممنهج والمستمر للمعلومات المزيفة والنمطية عن الإسلام والمسلمين، والتي انطلقت كما في كل مرة من منطلق (المركز) مقابل (الأطراف). وقد جذر وعمق من هذه الصورة والتصور تحولها وتشكلها في أوعية ثقافية وإعلامية جديدة في المجتمعات الغربية، أو ما يطلق عليه بالإعلام الاستشراقي، حيث انتقل

---

(٢٠٧) نقلا عن محمد عمارة ،صورة الإسلام في الخطاب الغربي ، مجلة المسلم المعاصر ،السنة السابعة والعشرون ،العدد ١٠٨ ص: ٢٨ .

(٢٠٨) مازن المطبقاني ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، ١٩٩٥ م، ص: ٤٦

الاستشراق من المستويات الأكاديمية الرسمية التنظيرية إلى الشارع والإعلام والمواطن ، وبعبارة أخرى انتقل من جمهور النخبة المثقفة إلى الجمهور البسيط.

فمن الطبيعي، والحالة هذه أن تلاحظ أن أغلبية المستشرقين " ومعهم كل الجمهور الغربي المثقف- والعصري- ينظرون إلى الشرقي الضائع بينهم، نظرتهم إلى ظاهرة تستثير الفضول: عم يبحث في أوربا؟ أو عند الأوربيين؟ وأقواله تعتبر بمثابة أخطاء يجب تحليلها، وحركاته بمثابة أعمال فاشلة يجهد المستشرق لتفسيرها. إلا أن المستشرق يرفض لذاته مثل هذه المعاملة، التي يعتبرها وقحة. إنه يمثل الإنسان السوي، الذي يلاحظ ويحلل، ويقيس نموذجاً مرضياً . المستشرق يرفض أن يحلَّل هو بدوره، وأن يرى تقييماً لنواياه ودوافعه- الواعية منها وغير الواعية- إنه ينصّب نفسه قاضياً.."[٢٠٩]

الذي يطالع في كتب الاستشراق يلاحظ منطق التعالي والعلو والاستعلاء الذي تؤطره عقيدة المركزية الغربية في كتب ومصنفات الاستشراق بشكل لا تخطئه عين الملاحظ البسيط، فضلا عن المطلع الملم بخبايا الشأن الاستشراقي وعبوديته الفكرية لصنم المركز، وإذا استثنينا بعض تلك الكتابات التي حاولت أن تقترب من الحقيقة مضحية بسمعتها ورصيدها في الوسط الاستشراقي، فإن أغلب المؤلفات الاستشراقية التي كتبت عن تاريخ الإسلام ومكانته كانت تهذي بهوس الآخر ..ولذا جاءت شهاداتهم في مسائل تاريخية وعلمية مسلمة بها معرفيا تخالف أبسط الحقائق شهرة في تاريخ فلسفة العلوم كلها .

يرى الكثير من المستشرقين- مثلا- " أن ما في التاريخ العربي الإسلامي

(٢٠٩) محمد راتب الحلاق ، نحن والآخر ، مرجع سابق ،ص: ٢٧.

من أمجاد، ونقاط مضيئة لا يعود للإسلام أي فضل فيه:" فإذا كانت إمبراطورية الخلفاء عرفت عهوداً سنية، فإنما الفضل لرفد اليونان والفرس... كان كل شيء يفسر بتأثير خارجي، وكان الوضع الحالي، برهاناً مبيناً، على أن الإسلام متروكاً لنفسه لا يمكن أن ينجم عنه إلا مجتمعات متخلفة منغلقة. وليس إلا أن نذكر كمثال بالآراء العجيبة، وبالافتراءات الصادرة بحق الإسلام عن مثل " آرنست رينان"، الذي أسهم مع ذلك في تعريف مكانة الإسلام في تاريخ الأفكار"

وهذا ما يعني استحالة انفكاك أو تراجع الفكر الاستشراقي المعاصر أو أي قطاع من قطاعات الفكر في الغرب عن منطلق المركزية الغربية وأمراضها، ليس لأنه لا يستطيع فحسب، بل لأنه يكسب مشروعيته وشرعيته في محيطه منها، فإذا ما تجاوزها فقد مكانته الأنطولوجية في النسق المعرفي الغربي بالكلية، ولذا صدق ادوارد سعيد وأصاب كبد الحقيقة حين اعتبر" أن الاستشراق عبارة عن معطى دائم للعقل الأوروبي، وأنها تتكرر بنفس الشكل عبر القرون والعصور من هوميسروس إلى المستشرق المعاصر غوستاف فون غرونباوم مرورا بدانتي ،وفلوبير ، وكارل ماركس ،" (٢١٠)

ستبقى فكرة المركزية الأوروبية والغربية المصدر الأساسي والمحرك الفاعل للفكر الاستشراقي في صوره وتشكلاته المعاصرة، حتى وهو يحاول أن ينسج مع الشرقي علاقات متميزة، فإنه لن يستطيع أن يتخلى عن أفكاره القبلية، أو كما يقول ادوارد سعيد أن الاستشراق " يعتمد بطريقة مطردة على سياسة وضعية التفوق المرنة، والتي تضع الغربي في سلسلة علاقات ممكنة مع الشرقي دون التنازل عن فوقية الغربي ". (٢١١)

---

(٢١٠) محمد أركون ، الاستشراق ،مجلة الاجتهاد ، السنة الثانية عشر ، العدد ٤٩ ،ص: ٢١٤.

(٢١١) مازن المطبقاني ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، ١٩٩٥ م، ص: ٤٦.

وهذا كان أحد أمراض المركزية الغربية التي ساهمت في ذبول فكر الاستشراق وكثرة سهام النقد إليه ..بل والتشكيك في مصداقيته، حتى تلك الأبحاث والدراسات التي حاولت أن تنصف الحضارة الإسلامية وتعترف بفضلها على الإنسانية بقيت محل شك وريبة بسبب الصورة النمطية التي أسسها الاستشراق لنفسه ورفضه الانفكاك عن دائرة ومنطلقات صنم المركز والأطراف..

الاستشراق هو الذي صنع صورة العربي والمسلم في الوعي الأوروبي والغربي القديم والحديث انطلاقا من كوجيتو المركزية الأوروبية ، أنا غربي إذا أنا متحضر.. ،بهذا المنطق يفكرون فهم على يقين أنه "إذا كان العرب والمسلمون مثلا كسالى وقساة وأوغادا، فإن الغربيين تلقائيا يصبحون العكس. لا يمكن أن يحتل الأوروبي مكاناً عالياً إلا إذا هبط الشرقي إلى الحضيض".(٢١٢)

في حين أن الإسلام لم يصنع هذا الكوجيتو لما كانت له القوة والدولة على الأرض، فالاستشراق إذا يتحمل مسؤوليته الأدبية والعلمية والتاريخية كاملة عن نتائج هذا التزوير والتضليل الفكري للحقائق، **ولعلنا لا نخطئ إن قلنا إن الغرب كُذب عليه مرتين، مرة حين حرف بولس الرسول عقيدة التوحيد إلى التثليث فأتى عليها من القواعد، ومرة أخرى حين زوَّر الاستشراق حقائق حضارة التوحيد عنه فسد عليه رؤية النور.**

ثانياً: المنبع الأصولي التوراتي والإنجيلي

يعتبر المنبع التوراتي والإنجيلي أهم منابع الفكر الاستشراقي ومحركاته الأساسية ،إذ يستحيل لأحد فصله عن أي إنتاج استشراقي مهما كانت قيمته،

(٢١٢) أحمد بن راشد بن سعيد، ٣٥ عاما على الاستشراق ..موقع الجزيرة :
http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/٢٠١٣/٩/١٤/٣٥

ولاشك أن التحقيب المعرفي لدالة الاستشراق يرشدنا ويدلنا بوضوح إلى هذه الأصول والأطر المرجعية التي أطرت حركة الاستشراق القديمة والمعاصرة.. ولا أريد هنا أن أركز على محاولات الاستشراق تحريف مفاهيم الإسلام أو التشكيك في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، مع عدم اعترافهم بالإسلام كديانة سماوية، أو اعتبار القرآن توليفة محمدية مستقاة من التوراة والإنجيل، فتلك عادة متأصلة في الكثير منهم أمثال المستشرق جويتن، وأبراهام جيجر Geiger، وتوري Torrey، وجولدتسيهر وغيرهم مما لا يتسع له مقام البحث لذكرهم ..

وإنما القصد هنا أن نركز على المنابع الفكرية التوراتية والإنجيلية للحركة الاستشراقية وكيف ساهمت هذه الأصول في تنميط واختزال رؤية الشرق في الوعي الأوروبي والغربي ، وكيف وجهت الأبحاث الاستشراقية الشرق الإسلامي على طريقة تخدم المشروع الغربي .

فمن المسلمات أن الاهتمام الأوروبي الاستشراقي بالإسلام كما يقول إدوارد سعيد وغيره : " لم يكن مستمدا من الفضول (العلمي المجرد) بل من الفزع إزاء منافس للمسيحية، توحيدي ومتقدم ثقافياً وعسكرياً." [٢١٣]. ما يعني أن البداية الأولى للاستشراق كانت مسيحية بامتياز، ولم تكن بدافع الفضول العلمي، فقد خرجت أولى تلك الدعوات من أديرة الرهبان وكنائسهم وتجسدت رسميا "مع وصايا المجمع الكنسي في فيينا سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م حيث أوصى بإنشاء كراسي لتعلم اللغة العربية"[٢١٤] ،كان هدفها النهائي السعي إلى تقليص مساحات الإسلام الثقافية والفكرية والسياسية ،وتشويه صورته الحقيقية في أذهان أتباعه و أعدائه على السواء، ولهذا نشط برنامج التنصير المسيحي بالمحاذاة مع برنامج التزوير التاريخي للحقائق، وتماشى كل ذلك بدقة عالية

---

(٢١٣) سعيد، إدوارد. تعقيبات على الاستشراق، ص١١٨ - ١٤٢

(٢١٤) ادوارد سعيد ، الاستشراق ، ص: ٣٢٨..

مع دالة الاستشراق ومنحنياته البيانية صعوداً وهبوطاً.

ويتجلى بوضوح علاقة الفكر الاستشراقي بالإنجيل صراحة في الكثير من المواقف الاستشراقية المعلنة والمشحونة بمفردات الكنسية التي ورثتها في معركتها مع الشرق الإسلامي فهذا صمويل زويمر "إن من جملة المطالب في الجزيرة العربية بل وأولها: الحق التاريخي، لأننا نعرف أن أصقاعاً واسعة في الشرق الأدنى كانت نصرانية،... يجب أن نعيد كسب الجزيرة العربية لدين المسيح من أجل كرامة الكنيسة، من أجل كرامة اسم المسيح ومن أجل شهداء نجران الذين ذكرهم القرآن.. إن الجزيرة العربية هي مهد الإسلام.. وإن المحمديين في حاجة إلى بشارة الإنجيل بنفس الحاجة التي يحتاجها الآخرون (من غير النصارى). إن الإسلام ليس هرطقة نصرانية، بل إنه كذلك ليس ديناً غير نصراني – إن الإسلام عدو للنصرانية في أصولها وأخلاقها وتاريخها وحياته " [٢١٥]

ومع هذا كله فقد كان الاستشراق على وعي تام أن معركته مع الإسلام وتزوير حقائقه كما معركته مع تنصير أهله ليس بالأمر الهين، ومن ثم سعى إلى تحريف العقائد الإسلامية بعد عجزه عن التشويش عليه ،باعتبارها الحصن والأرضية الصلبة الجامعة للوحدة الثقافية بين المسلمين، فهذا واحد منهم يعلنها صراحة : "إننا وفي كل بلد إسلامي دخلناه ،نبشنا الأرض لاستخراج حضارات ما قبل الإسلام ، ولسنا نطمع بحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه، بين الإسلام ، وبين تلك الحضارات .)"[٢١٦] فقد أحيا الاستشراق الثقافة الفرعونية من مواتها بعد أن

---

(٢١٥) شكيب أرسلان. حاضر العالم الإسلامي: دار الفكر، بيروت لبنان الطبعة الرابعة ١٩٧٣م ج١،ص٢٧٨ .

(٢١٦) انظر : حامد محمد الخليفة ، الموقف الإسلامي وتأصيل الهوية ،دار القلم دمشق ،الطبعة الأولى :٢٠٠٥م ، ص: ٢٧٧، ٢٧٨

قبرت، وفعلوا الأمر ذاته مع الثقافات الإثنية والعرقية في البلدان العربية والإسلامية .

أما تأثر الاستشراق القديم والمعاصر بالفكر التوراتي فيرجع رأسا إلى اختراق اليهود للكنسية المشرفة على متابعة برنامج الاستشراق، فالكثير من اليهود المستشرقين تنصروا واستطاعوا إحداث اختراق تاريخي في الفكر المسيحي تحول فيما بعد إلى انقلاب وصهينة للكنسية والوسط الاستشراقي تجسد بشكل أكثر فيما بعد في مشاريع التوأمة الفكرية بين المشروع الصهيوني والغربي المسيحي والتي ترجمت فيما بعد بشكل واضح في ميادين أخرى .. وكان الاستشراق أحد هذه الميادين التي تحالف فيها الطرفان وسلوا فيه سيوفهم وألقوا أقلامهم.

فالكثير من المقولات الاستشراقية عن (الشرق الإسلامي، القرآن، النبوة..) أصولها توراتية إنجيلية مهدت بشكل أو آخر للمشروع الصهيوني في المنطقة، وسبقه تبييض صورة اليهودي في العقل الغربي حيث تم تعزيز النظرة الإنجيلية إلى اليهود كما يقول المسيري "باعتبارهم شعباً مختاراً وجزءاً من الدراما الكونية التي يتحرك في إطارها تاريخ العالم والعالمين. .. يشكل هذا التاريخ الركيزة الأساسية لتاريخ العالم. وهذا الخطاب الإنجيلي متغلغل تماماً في الوجدان الغربي." (٢١٧)

ولهذا لا نستغرب قدرة ونفوذ هذا التيار الاستشراقي في الأوساط الإنجيلية الصهيونية وتوجيهه للسياسة الأمريكية إزاء موضوع الشرق الأوسط وقضاياه،..وهكذا يبقى المصدر الإنجيلي والتوراتي المصدر الأساسي والرافد الرئيسي للفكر الاستشراقي .

---

(٢١٧) المسيري موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، دار الشروق للنشر والتوزيع،القاهرة ، ٢٠٠٤، ج١٦ ،ص ٣٧



المبحث الرابع:
مدارس الاستشراق ومناهجهم

أولاً: مدارس الاستشراق هل هم سواء في رؤيتهم للشرق.

على ضوء الحقيقة القرآنية عن أهل الكتاب يقرر القرآن الكريم قاعدة حضارية في الجرح والتعديل بقوله " ليسوا سواء"، فهل ينطبق هذا الحكم القرآني على إنتاج المستشرقين ودراستهم للشرق الإسلامي، وعلى ضوء ذلك ما الذي يجمع مدارس الاستشراق المتنوعة فيما بينهما، وأيهما أقرب إلى فهم الشرق وإنصافه، نحاول أن ندرس هذا التميز بين هذه المدارس، حتى إذا نشأ بعد مدة من الزمن استغراب مصري ،أو جزائري أو استغراب قطري أو تونسي نستفيد من ايجابيات وأخطاء هذه المدارس والتي كانت ولاشك قد اختلفت في رؤيتها وحكمها وإنتاجها وعطائها الفكري، رغم أنها تنتمي إلى نظام معرفي واحد يجمعها في الكليات والمقاصد والأهداف والتصورات والتنظيرات .

فما الفرق بين مدارس الاستشراق المختلفة الاسباني والأمريكي، والاستشراق الألماني والروسي، والايطالي والهولندي، وحتى الاستشراق الصهيوني، هل نجد فرقا في تناولهم مواضيع الشرق الإسلامي .؟ وإذا كان ثمة فرق واضح بين هذه المدارس فما درجة قربها وبعدها عن الموضوعية في دراستهم للإسلام والمسلمين؟. إلى أي مدى تقترب أو تبتعد كل مدرسة عن أختها فيما نسميه **باللازمة الاستشراقية تجاه الشرق**، والتي نقصد بها في دراستنا هذه **صفة التنصل من الموضوعية**، حيث أضحت علامة فكرية مسجلة للكثير من كتاب الاستشراق دون غيرهم من علماء الفكر في التاريخ الإنساني كله، لتتحول فيما بعد إلى لازمة خاصة بهذا القطاع المعرفي الغربي كله، فحينما يذكر الاستشراق يذكر معه تزوير الحقائق .

في هذا الصدد يرشح الكثير من الباحثين الاستشراق الإسباني في الدرجة الأولى باعتباره " أقرب الاستشراقات إلى تجسير الفجوة أو ردم الهوة بين الغرب والشرق الإسلامي، نظرا لخصوصية هذا الاستشراق في علاقته التاريخية والثقافية بالإسلام ، أثناء الوجود الإسلامي بالأندلس وبعده ،.ذلك أن الاستشراق الاسباني قد اختلف عن البقية بتركيزه البحث عن الثقافة العرية والإسلامية بالأندلس أي أن اهتمام المستشرقين الإسبان جاء ضمن اهتمامهم بالأندلس ، ولذلك فضل هؤلاء أن يدعوا بالمستعربين او المتأندلسيين... ليعلنوا بذلك عن بعض علامات هويتهم العلمية المميزة لهم عن بقية زملائهم من الغربيين " (٢١٨)

ويعتبر علي بن ابراهيم النملة ـ الباحث في الاستشراق " أن الاستشراق الألماني يأتي في الدرجة الثانية، لأنهم لم يكونوا عملاء للاستعمار بالصورة التي كان عليها الاستشراق الفرنسي والبريطاني والهولندي والإيطالي .." (٢١٩)

إن الدارس لمواقف شلة الاستشراق الألماني ليجدها تفترق عن غيرها في مسارات كثيرة، أن المستشرقين الألمان أكثر إنصافا من غيرهم ـ إن تكلمنا عن الإنصاف . قد يرجع التفسير إلى عدة اعتبارات، لكن أظهرها أن الألمان لم يكونوا غزاة للعالم الإسلامي، كما مستشرقوهم لم يكونوا من منظري الحركة الاستعمارية، وهم أقرب إلى المسلمين إنصافا، ولذا تجد الكثيرين من الكتاب العقلاء خرجوا من بين ظهرانيهم من أمثال . زيغريد زنكه، مراد هوفمان ... لاشك أن الكثير من المستشرقين في كل هذه المدارس لما درسوا الإسلام أسلموا، ولكنهم طائفتان طائفة أعلنت إسلامها علانية أمام الناس ولم تخش إلا الله، وطائفة أخفت إسلامها، ومنهم اللورد هدلي ،توماس كاريل ،ليوبولد فايس ، رجاء جارودي ، والفونس ايتين دينيه... وغيرهم كثر لا يعلمهم إلا

---

(٢١٨) انظر: علي بن إبراهيم النملة ،الاستشراق والإسلام في المراجع العربية ،ب،ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢١٩) المرجع ذاته ،ص ٣٦

الله .

أما المدارس الأخرى والمتمثلة في المدرسة الاستشراقية الفرنسية والبريطانية والأمريكية فقد كانت رؤيتهم للشرق أشد قتامة ومكرا بالمقارنة مع غيرها من المدارس، وقد يعزى هذا الأمر إلى تشبع هذه المدارس بالروح المسيحية وولعها بالتنصير أكثر من غيرها، بالإضافة إلى تحالفها مع الاستعمار بشكل مباشر ، فأغلب منظري هذه المدارس كانوا على علاقة مباشرة بالمؤسسة العسكرية،" ففي فرنسا كان هناك كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا ، وعلى سبيل المثال كان المستشرق الفرنسي دي ساسي ،اعتبارا من عام ١٨٨٥ يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية ، كما كان ماسينيون مستشارا للإدارة الاستعمارية في الشؤون الإسلامية ".(٢٢٠)

والخلاصة أن الفرق بين مدارس الاستشراق هو فرق له ارتباط بطبيعة الدولة وفلسفتها وسياستها الخارجية ، فالاستشراق الفرنسي والأمريكي والانجليزي عرف عنه تأطيره أكثر من غيره للسياسة الخارجية في موضوع الشرق الأوسط ، كما عرف عنه مرافقته الدائمة لمشاريع التنصير .

ثانيا: مناهج الاستشراق في دراسة الشرق وأثرها في تكون العقل الاستشراقي:

إذا كان الاستشراق مدارس ومذاهب ـ وهو كذلك ـ ، وقد درس الشرق من زوايا مختلفة، ولأغراض ومقاصد متنوعة، ولم يترك مجالا من المجالات إلا وألف فيه، وإذا كان قد تحقق له كل ذلك فما هي المناهج التي وظفها الاستشراق لدراسة الشرق الإسلامي بثقافته وأديانه وعاداته وتقاليده، وكيف استطاع الاستشراق مع ضخامة حجم التراث الإسلامي أن يحيط خبرا ودراسة

---

(٢٢٠) إدوارد سعيد ،الاستشراق ،ص:١٤٦

بكل هذه المجالات ؟،حتى إنهم ألفوا في أدق الجوانب علاقة بالحضارة الإسلامية متمثلة في جوانب دقيقة في العلوم الإسلامية كالحديث وعلوم القرآن!.

لقد تنوعت مناهج المستشرقين في دراسة الشرق والتراث العربي والإسلامي بين: المنهج التحليلي ،والمنهج الإسقاطي، والمقارن، والمنهج التاريخي الفيلولوجي، ومنهج المقابلة، وغيرها من المناهج المستخدمة في العلوم الإنسانية وكان لها الأثر في تحقيق وإخراج الكثير من الدراسات والموسوعات، إلا أن المشكلة تكمن دائما في وجود ذلك الكم الهائل من الفرضيات بل واليقينيات المسلمة بها في العقل الاستشراقي حول الإسلام والعالم الإسلامي، هذه اليقينيات الاستشراقية الغربية والتي تعتبر عند الطرف الآخر من الأكاذيب التي لا تقبل الجدل هي التي ساهمت في توجيه الأبحاث الاستشراقية خاصة تلك التي تملص أصحابها من الضمير العلمي بالمطلق.

فمن أهم المناهج التي وظفها الاستشراق على سبيل المثال في دراسة القرآن الكريم منهج الإسقاط والتأثير والتأثر، حيث يرجع الكثير من المستشرقين في دراساتهم للقرآن إلى إسقاط الظروف التاريخية التي مرت بها المسيحية وكتابة الإنجيل إلى العوامل والظروف والحيثيات التاريخية ذاتها التي كتب فيها القرآن، هذا فضلا عن اعتباره تأليف محمدي مستقى من التوراة والإنجيل، فيقول جولد تسيهر: "لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء؛ ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السابقة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا في طريقهم ". [(٢٢١)]

---

(٢٢١) جولدزيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ص١٥.

وفي توظيفهم للمنهج التاريخي في دراسة التاريخ الإسلامي مثلا " كان الكثير من المستشرقين هم أنفسهم وسيلة لجمع المعلومات، ونظرا لخضوع غالبيتهم لأغراض محددة، تتعلق بالدوافع الاستشراقية التي تحدثنا عنها ،فإن تطبيق مثل هذا المنهج لا يحقق الموضوعية المرجوة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قد يصلح مثل هذا المنهج في دراسة المسيحية في أوروبا ،حيث نشأت في بيئة دينية حفلت بالعوامل المؤثرة من الخارج كالأشورية والبابلية على النص الديني المسيحي ذاته ، ومن ثم بإمكان الباحث أن يرد المسيحية إلى عناصرها الأولى ،ولكن هذا المنهج لا يحقق الموضوعية في دراسة الظواهر الفكرية الإسلامية ".(٢٢٢)

ولك أن تقيس على كل ذلك فلسفتهم في توظيف المناهج الأخرى، فهي مليئة بالكثير من المغالطات التاريخية التي عكرت صفو البحث الاستشراقي وأردته فاقدا للموضوعية، ففي مناهج المقارنة مثلا يكتبون جيدا حين تكون مقارناتهم للأديان الأخرى والحضارات والأمم السابقة بالأمم الغربية وتاريخها، ولكن حين يصلون إلى الفترات الإسلامية يقفزون على الحقائق التاريخية كما لو أن أحدا لم يكتب عنها من قبل.. وهذا محمد أسد يعبر عن هذه الحقيقة بقوله: "وإذا نظرنا إلى المستشرقين الأوربيين أثناء دراستهم للأديان والحضارات الأخرى - غير الإسلامية- نرى أن دراساتهم تتصف بالرصانة والاتزان، وفي بعض الأحيان بالتقدير والإجلال، بينما نرى الموازين تنقلب عند دراستهم للإسلام، فهم يتنكرون عند بحثهم لهذا المنهج فتسيطر عليهم المحاباة العاطفية، فتضطرب وتختل موازينهم، وتجانب الحق، وتبعد عن

(٢٢٢) محمد جلاء إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، دار العربي للنشرو التوزيع القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٥ ، ص ٣٩

الصواب".(٢٢٣)

فمن الطبيعي أن يأتي الإنتاج الاستشراقي ثمرة للمناهج المتبعة باعتباره مخرج من مخرجاتها، ومادام أن المقدمات مليئة بالأغاليط التي تتجاوز أبسط الحقائق التاريخية والمعرفية المتفق عليها في البحث العلمي، فلا غرابة أن نجد هذا الكم من الأخطاء، وهذا ما أنتج ظواهر جديدة في الصف الاستشراقي تمثلت في سهولة تناول مواضيع خاصة بالعالم الإسلامي دون الحاجة إلى مكنة في التخصص المطلوب.

فمن الملاحظ مثلا أن الكثير من المستشرقين" يتهربون من التعمق، ومن البحث الرصين بإحدى طريقتين: فإما أن يلجؤوا – في محاولة للتمويه- إلى الإحصاءات والتعدادات في مجال الظواهر التي يدرسونها، ثم يقومون بالقفز إلى النتائج ذات الطابع السياسي والمفترضة سلفاً، وإما أن يلجؤوا للتاريخ، ليستعرضوا قراءاتهم للمراجع الثانوية، التي أنتجها" كلاسيكيو " المستشرقين، متوصلين دائماً إلى النتائج ذاتها. الفريق الأول يقدم صورة شمولية ساذجة، والفريق الثاني لا يتعدى ما يقدمه أن يكون تقرير مخابرات متسرع . وفي كل الحالات لا يتم النظر إلى ظواهر الشرق، بصورة مشابهة للنظر في ظواهر الغرب. فالباحث في ظواهر الغرب متخصص، وحجة في ميدان بحثه، بينما لا يطلب من المستشرق أن يكون متخصصاً، لا في موضوع محدد، ولا في مرحلة تاريخية محددة. فمستشرق مثل " برنارد لويس" يستطيع أن يكتب- دون حرج- عن كل شيء في الشرق ، خلال خمسة عشر قرناً؟!!!."(٢٢٤)

---

(٢٢٣) محمد أسد ،الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٥٦م، ص ٢٠.

(٢٢٤) حمد راتب الحلاق نحن والآخر ، مرجع سابق ، ص: ١٨

المبحث الخامس:
الاحتياجات الغربية الاستراتيجية من الاستشراق

من البديهيات المسلم بها في هذا الحقل المعرفي، أن الاستشراق كان أحد العلوم الوظيفية التي خرجت إلى الواقع نتيجة الاحتياجات المعرفية الغربية الملحة ،وإذا كان الاستشراق يضم إلى اهتماماته الصين والهند واليابان فهي إضافات عابرة وليست هي المقصودة في الأصل. فقد كان ظهور الاستشراق من نقطة البداية تلبية لسلم الاحتياجات المعرفية التي أحس بها الغرب مبكرا، فكانت الخطورة الطبيعية لتلبية هذا المطلب هو " إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق كما يقول مكسيم رودنسون "،[٢٢٥] ولكن السؤال الملح هنا، أن هذا الاحتياج المعرفي لم يكن مقصورا على المعرفة لوحدها، في بيئة نظامها المعرفي يوظف المعرفة للطغوى وتجاوز الحق والسيطرة على مساحات الآخرين، ولذا ألحق بالإضافة إلى الاحتياج المعرفي، الاحتياج العسكري، والاحتياج الثقافي والفكري، وسنتناول على عجالة هذه الاحتياجات الغربية الثلاثة والتي كانت أحد أهم الأسباب التي أدت إلى تأسيس هذه الشعبة في فلسفة العلوم الغربية .

أولاً: الاحتياج المعرفي الغربي للاستشراق

المتابع للمنحنيات البيانية المعرفية للاستشراق ينتهي إلى أن الاستشراق بدأ فكرا وانتهى عنفا، أي أنه نشأ في بادئ الأمر كما يقول بعضهم بدواعي

---

(٢٢٥) مكسيم رودنسون الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام القسم الأول تصنيف شاخت وبوزورث. ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت؛ عالم المعرفة، أغسطس ١٩٧٨م.ص٢٧.

المعرفة كنتيجة طبيعية لتطلع الغرب نحو الجديد والمستجد في العالم الإسلامي، وانتهى عنفا في أقبية وثكنات العسكر.. وإذا سلمنا بهذه الفرضية (النشأة العلمية)على افتراض صحتها تماشيا مع ما هو مقرر في بعض الأوساط العلمية، ..فإنها مع كل ذلك كانت موجهة لمتابعة ورصد دالة الحضارة والقوة الإسلامية الجديدة في الأرض ،" فقد شكل الإسلام تحدياً هائلاً للغرب منذ أيامه الأولى... وقد شمل هذا التحدي الجوانب الدينية والسياسية والحضارية ،فصمم الغرب على الاستجابة لهذا التحدي ،وفي هذا السياق المحموم نشأ الاستشراق ؛أي نشأ في إطار استجابة الغرب لما تصوره تحدياً إسلامياً شاملاً، تلك الاستجابة الغربية التي اعتمدت (حتمية الصراع) مع الإسلام استراتيجية عامة ومطلقة." [٢٢٦]

وكانت النتيجة الطبيعة لهذه المتابعة والرصد الاستشراقي للحضارة الإسلامية أن ينتقل الاستشراق فيما بعد من الدوائر الفكرية إلى الدوائر العسكرية ليتحول بشكل مباشر إلى آلية عسكرية تقدم للغرب الإحداثيات السياسية والثقافية والفكرية للمجتمعات المراد استعمارها لتسهيل الاستحواذ عليها، وقد كانت هذه الإحداثيات الاستشراقية المنفذ الذي ولج الغرب من خلاله إلى أحشاء العالم الإسلامي في ظرف قياسي ما كان له أن يتحقق لولاها .

لا أحد ينكر أن الاستشراق قد تمكن من قيادة حركة البحث العلمي في العالم الغربي قرونا من الزمن، وقدم للغرب مؤلفات ساهمت في تنوير العقل الغربي عن الحضارة الإسلامية، ولا تزال سجلات المكتبات تحتفظ بالكثير من تلك الكتابات التي حاولت تصوير الوجه المشرق للشرق أمثال سيجريد هونكه..، إلا أن الجمهور الغربي عادة ما يتجه إلى غيرها، لقد تحول

---

(٢٢٦) محمد عبد الله الشرقاوي ، الاستشراق والنقد الذاتي ، إسلامية المعرفة العدد ٢٢، ص١٦٢..

الاستشراق إلى مرجع يصعب تجاوزه في الغرب فيما يخص مصادر المعلومات عن الشرق الإسلامي كما تحولت الكثير من أسماء المستشرقين إلى مراجع مقدسة إذا تكلمت قطعت قول كل خطيب.

لقد كان من بين الاحتياجات المعرفية الأساسية في الغرب والتي تأسس الاستشراق لأجلها إيجاد البديل العلمي المقتدر والمتمكن لمواجهة الحراك العلمي الإسلامي وتسقيف حركته في الأرض بكل الأساليب العلمية الممكنة، ولما عجز عن تحقيق ذلك فكريا تحول إلى القوة، ولا تزال هذه سياسته وسيرته في نسخه الفكرية المعاصرة كما القديمة .. فقد أوصى فوكوياما (أحد منظري الاستشراق الجيد في الغرب) بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر "بضرورة تصدي الغرب للإسلام بحزم خوفا من انتشاره في الغرب ، لما له من جاذبية، ولما تظهره شريعته من عدل سياسي واجتماعي، وهي قيم قد تكون خطرا على انتشار القيم الديمقراطية، وكذلك تكون خطرا على رأسمالية السوق ، وكل القيم الحضارية الغربية" [(٢٢٧)]

وهكذا، فالاستشراق في الغرب نشأ فكراً وانتهى عنفاً، وهذه الأيلولة طبيعية بالنظر إلى مرجعيته الفكرية المستقاة من الأصول والمقولات المنبثقة بدورها من النظام المعرفي الغربي، فهذه نتيجة طبيعية، فالغرب الذي أسس نظامه المعرفي على الصراع يصعب عليه أن يحافظ على معادلة التدافع الفكري للاستشراق دون توظيفها لصالح القوة، أو كما يقول الدكتور محمد حمدي زقزوق "فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً. فالمعرفة تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من

---

(٢٢٧) أنظر : السيد أحمد فرج ، حوار الحضارات في ظل الهيمنة الأمريكية هل هو ممكن ؟، دار الوفاء ،جمهورية مصر العربية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ ، ص ٨٧،٨٨ .

المعرفة"[٢٢٨] وهكذا، وعوض أن يضطلع هذا الاستشراق والمستشرقون بدورهم في كبح جماح الغرب الاستعماري باعتبار موقعهم الفكري وأهليتهم أكثر من غيرهم لفهم الشرق تحولوا إلى أداة طيعة في يد الأنظمة والحكومات الاستعمارية لغزوه.

ثانياً: الاحتياج العسكري للدليل الإرشادي الاستشراقي

على غرار الاحتياجات المعرفية الغربية من تأسيس الغرب للاستشراق، ثمة احتياجات مماثلة و محايثة لها لا تقل عنها تمثلت في حاجة الغرب إلى دليل ومرشد فكري يؤطر حركته على الأرض، فكان الاستشراق هو المطلب والمفتاح الوحيد القادر على حلحلة علاقة الشرق بالغرب لصالح الغرب المسيحي.

لا يحتاج المرء إلى كثير عناء حتى يثبت المقولة التي تؤكد أن الاستشراق هو الدليل الاستعماري للغرب في العالم، فارتباط الاستشراق بالاستعمار ارتباط عضوي " فحيث يكون الاستعمار يكون الاستشراق ،وكذلك حين يتوسع الاستعمار يتوسع الاستشراق ،فالقاعدة التي لا تتخلف هي : أن الاستعمار يصحبه دائما استشراق ، والتوسع الاستعماري يصحبه دائما التوسع الاستشراقي"[٢٢٩]

في مراحل كثيرة تبدو العلاقة بين الاستعمار والاستشراق جدلية، فحين يكسب الاستعمار على الأرض تنمو دالة الاستشراق وتتعزز أكثر، والعكس صحيح، فحين ينجح الاستشراق في اختراق الشرق فكريا يتقدم الاستعمار

---

(٢٢٨) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري سلسلة كتاب الأمة، الدوحة – ١٤٠٤هـ،ص٢٤.

(٢٢٩) أحمد عبد الحميد غراب ، رؤية إسلامية للاستشراق ،المنتدى الإسلامي بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١١هـ لندن ،ص: ٨

بوتيرة أسرع، ولعلنا نكتفي في هذا المقام بعرض شهادة المستشرق الهولندي "سنوك هوجرونيه" عن علاقة الاستشراق بالاستعمار، وعن هذه العلاقة الطردية بين تمدد الاستعمار وتمدد الاستشراق فيقول: " إن الشريعة الإسلامية موضوع مهم للدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأسباب تجريدية نظرية متعلقة بتاريخ القانون والحضارة والدين، ولكن كذلك لأهداف عملية: وذلك أنه كلما توثقت العلاقات بين أوروبا والشرق الإسلامي، وكلما زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية كلما زادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين لنتعرف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة ، وعلى خلفية المفاهيم الإسلامية " (٢٣٠)

لا أريد هنا أن أدخل في تفاصيل دقيقة توردها كتب الاستشراق عن علاقة الاستشراق بالاستعمار، فتلك بدهية كما سبق بيانها، ولكن أريد أن أركز عن علاقة دالة الإنتاج الاستشراقي الفكري عن الشرق وعلاقتها بالاستعمار، حيث يظهر بوضوح تأثر الاستعمار بحركة الاستشراق وقوة تنظيراته الفكرية في الميدان والعكس صحيح.

ونحن نعد هذا البحث عثرت في مكتبة "إيسام İSAM " مركز الدراسات الإسلامية باسطنبول على كتاب لـ هنري لورنس بعنوان "الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا، ١٦٩٨ـ ١٧٩٨م"، وهو كتاب قيم من ناحية التقييم لدالة الاستشراق في حقل من حقوله المعرفية في فرنسا، خاصة ذلك الاتجاه الذي أطلق عليه الكاتب صفة المتأسلم إشارة إلى اهتمامه بالمجال الإسلامي والدراسات الإسلامية .ونعتبر مع الكاتب أن الأرقام والإحصاءات التي قدمها تشكل تفسيرا حقيقيا لما هو مؤكد من أن الاستشراق هو الأخ التوأم للاستعمار ولدا من بطن واحد في وقت واحد.

---

(٢٣٠) المرجع السابق ،ص: ٤٢

يقول هنري لورنس في كتابه "الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا، ١٦٩٨ـ ١٧٩٨ م يشهد بذلك " لدى النظرة الأولى، يبدو من الصعب جدا توضيح الاتجاه العام . وفي مواجهة نمو قوي في الثلث الثالث من القرن، اعتباراً من١٧٦٨ تحديداً، يبدى الثلثان الأولان مستوىً متوسطاً يتأرجح بين خمسة عشر وعشرين مجلدا خلال كل فترة قوامها خمس سنوات، مع قفزات بشكل خاص في ١٧٢٨م ، ـ ١٧٣٢ـ ١٧٤٢ أما الركود فهو دائم من عام ١٧٨٣ إلى عام ١٧٦٨، وهي فترة تشكل فترة جزر للاستشراق ،أما المد فهو مفاجئ وحاسم اعتبارا من ١٧٦٨ ـ ١٧٨٢ م، في حين أن العقد الذي يلي تلك الفترة يتميز بانخفاض طفيف في النمو، أما في عام ١٧٨٢ م، فتحدث طفرة تبلغ ذروتها في ١٧٨٨ ـ ١٧٩٢ م". (٢٣١)

ويعلق صاحب الكتاب على الأرقام التي قدمها ويقول:" ويجب البحث عن أسباب التفاوتات في النتاج الاستشراقي في تطور الشرق نفسه: فالذروة الأولى لأعوام ١٧٢٨ـ١٧٣٢ م، تتجاوب مع الموقف في فارس ، والاضطرابات في القسطنطينية، والحرب بين فارس والترك، مثلما أن فترة ١٧٣٧ ـ ١٧٤٢ م هي فترة الحرب العثمانية وروسيا والنمسا، أما الركود الذي عرفته السنوات الخمس والعشرون التالية في النتاج الاستشراقي فهو معاصر لعهد سلم طويل في الشرق الأدنى. وحرب ١٧٦٨ ـ ١٧٧٤ ضد روسيا والنمسا هي لحظة حاسمة أيضا بالنسبة للاستشراق كما بالنسبة للعلاقات الدولية . ويشهد الاستشراق صعوده مع بدء إثارة المسألة الشرقية "(٢٣٢)

وبهذا التحليل العددي أو الرقمي لدالة الاستشراق الإنتاجية عن الشرق

---

(٢٣١) هنري لورنس ،الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا:١٦٩٨ـ ١٧٩٨ م، ص١٧ .

(٢٣٢) المرجع السابق ، ص١٨

يبدوا أن" تطور الاستشراق تابع بشكل مباشر لمجرى الأحداث في الشرق الأدنى والأوسط. ومن جهة أخرى، يبدو هذا قانونا عاما لتاريخ الاستشراق المتأسلم: فهذا الأخير لا يعرف فترات توسع إلا من زاوية الوضع السياسي في الشرق". (٢٣٣)

ثم تحول الاستشراق فيما بعد من كونه يقدم خدمات إرشادية للحملات العسكرية الغربية إلى كونه أصبح أحد مؤسسات الاستخبارات العلمية في الغرب، له ميزانيته المالية بشكل منتظم .

وقد لوحظت هذه الآلية الاستشراقية بكثافة عالية في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص حيث تطور" الاستشراق الجديد في الولايات المتحدة، ليحتل مواقع الاستشراق التقليدي ،ولتكون النتيجة التي تؤكدها سمات الاستشراق الأمريكي، هي انخفاض الاستشراق إلى استخبارات، وفي هذه الوضعية تتغذي الولايات المتحدة الأمريكية بالمعلومات عن المنطقة العربية والعالم الإسلامي عبر قنوات متعددة أهمها التقارير والدراسات التي تعدها مراكز الأبحاث العاملة في الميادين الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية وغيرها "..."(٢٣٤)

أما الاستشراق الإسرائيلي فهو أشهر من أن يكتب عنه في هذا الأمر، إلا أنني أذكر هنا أن المسئولين العسكريين والساسة الإسرائيليين ألقوا باللائمة على فشلهم في حرب ١٩٦٧ م، على جمهور المستشرقين المهتمين بدراسة الوضع العربي في جوانبه الاستراتيجية، فهذا "البروفيسور "هركابي" الذي ينظر إليه على أنه الخبير الأكاديمي الأول في إسرائيل بمسائل الصراع العربي الإسرائيلي يقول :" إنني لا أعتبر فشل ١٩٧٣م فشلا للسياسيين الإسرائيليين

---

(٢٣٣) المرجع السابق ،ص١٨

(٢٣٤) إبراهيم عبد الكريم ،الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل ،دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ،عمان ،الطبعة الأولى ،١٩٩٣م،ص٤١

فقط، بل هو فشل أكبر، وإذا شئت تقصير لرجال الفكر في الدولة فهم لم يتيحوا لهذا الشعب فهم أوضاعه .لقد قال وزير الدفاع إنه لا يتوقع حدوث حرب خلال عشر سنوات ،وجاء "ماتي بيلد" وكتب أن وزير الدفاع يبالغ ، فلن تكون هناك حرب لفترة أطول بكثير ،وكتب عشرة مقالات أخرى ،وقال لماذا يبالغون في هذه المسألة الأمينة ..ودعا هاركابي إلى التدقيق في دور "بيلد وشمعون شمير " (الأستاذ في جامعة تل أبيب ورئيس معهد شليواح سابقاً)، في تقصير حرب ١٩٧٣ "[٢٣٥]، وفي مقال "ميلشتاين ذاته ورد أن الجمهور الإسرائيلي يأخذ على المستشرقين والخبراء بالشؤون العربية أنهم لم يتنبئوا بحرب ١٩٧٣ " [٢٣٦]"

ولعل إطلالة سريعة على قائمة بأسماء المستشرقين الإسرائيليين الناشطين في الحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة (٢٠١٤) وتحليلاتهم الاستخباراتية تعطينا تصوراً أشد وضوحاً من أمثال: عوديد جرانوت، ويارون فريدمان، ومردخاي كيدار، إيلي فيدارمئير، جلبو عيورام، ميتالرون فيردمان، رؤفين بيركو.

---

(٢٣٥) المرجع السابق،ص٤١

(٢٣٦) المرجع السابق ،٤١

المبحث السادس:

الروافع المساعدة على نجاح الاستشراق: رؤية استغرابية

كتبنا في كل الصفحات السابقة عن الاستشراق من زاوية التحقيب التاريخي والمعرفي: النشأة والتطور، الأهداف والوسائل، الآليات والاستراتيجيات الخطابية والتنظيمية التي انتهجها الاستشراق لإعادة التشكل والتطوير والتموقع، المنابع الفكرية التي أطرت رؤيته للشرق ...،وقد جاء الدور الآن لنسلط الضوء بشكل أكبر عن أهم تلك الروافع التي مكنت للاستشراق من تحقيق كل هذا النجاح في الغرب.

لم يكن الاستشراق خاصة في الأوساط الأكاديمية الغربية طلقة فارغة أحدثت دويا ولم تصب هدفا كما هو شأن الكثير من محاولات دراسة الغرب في العالم الإسلامي،.. لقد تمكن الاستشراق من فهم الشرق فهما يعجز عنه أبناء الشرق وخبراؤه، ودراسته دراسة خدم بها مشروعه الثقافي والعسكري خدمة لم يسبق أن قدمتها حركة علمية للمؤسسات العسكرية عبر امتداد التاريخ الإنساني كله، وهذا النجاح يرجع ـ دون شك ـ إلى وجود عوامل وسنن تنظيمية كثيرة مكنته من تحقيق مقاصده .وسنتناول هذه العوامل باعتبارها روافع وفواعل أسست للخطاب الاستشراقي ومكنته من الوصول إلى أهدافه، وهذا حتى يتسنى لمن يريد الخوض في مجال **"الدراسات الاستغرابية"** التأسي بهذه التقاليد العلمية التي تعتبر آليات سننية كونية ضرورية لنجاح أي خطاب مهما كانت قيمته ومنطلقاته.

وهنا نفرق بين التقاليد العلمية التي أسست وساهمت في نفاذ التحليل الاستشراقي إلى العلل البنيوية المكونة للظواهر الاجتماعية والسياسية في العالم العربي والإسلامي، وبين الأخطاء التي وقع فيها الاستشراق في دراسة الشرق والحكم عليه ،وهذه مسألة لها ما بعدها في درسنا الاستغرابي ..

أولاً . مَأسَسَة الرؤية الاستشراقية وهيكلتها معرفياً:

لم يكن الاستشراق ليفلح في دراسة الشرق، وينجح في فهم طبيعته لو لم يتمكن من تفريغ جهوده ونظرياته في أوعية مؤسساتية، وذلك عبر مأسَسَة التفكير والاجتهاد الاستشراقي في مؤسسات علمية متنوعة ساهمت في تأطير الكادر الاستشراقي تأطيرا علميا وماديا، ولعل انتقال الخطاب الاستشراقي في البداية من كونه تيار نخبوي في المجتمع الغربي، وتحوله إلى حركة علمية، ثم تحول الحركة إلى قنوات مؤسساتية رسخت بدورها فيما بعد تقاليد العمل الاستشراقي في الفضاءات الغربية المتنوعة، استوعبت الاحتياجات الاستشراقية كلها في مختلف العلوم ،وتجاوزت الفضاء الأكاديمي مرورا بأعماق المجتمع المدني الغربي وصولا إلى مؤسسات صناعة الفكر في العالم، وهذا ما ساهم في بقاء الاستشراق طوال هذه القرون وتجذره في الوعي الغربي بشكل يصعب اجتثاثه أو تجاوزه .

يمكن أن نحصي خطوات العمل المؤسساتي الاستشراقي في تحولاته الاستراتيجية في الخطوات التالية:

ثانياً: انتقال الاستشراق من الفردية إلى الجماعية:

منذ أن صدرت قرارات وتوصيات المجلس الكنسي في فيينا سنة ١٣١٢ م والقاضي بتأسيس كراسي للغات الشرقية، وهي البداية التي يعزوها بعضهم للاستشراق رسمياً، ومحاولات الاستشراق لتأسيس تقاليد علمية جماعية مؤسساتية لم تتوقف، حتى إن بعضهم يرجع الأمر إلى أن الاستشراق كان حركة ذات طابع فردي من منطلق التطلع إلى معرفة الآخر " واستمر هذا الوضع حتى بداية القرن السابع عشر الميلادي الذي يعده بعض الباحثين البداية الحقيقية للدراسات الاستشراقية في انجلترا، وذلك بإنشاء كراسي للغة

العربية في جامعة كمبرج سنة ١٦٢٣م،وفي أكسفورد سنة ١٦٣٦م". (٢٣٧)

فالبدايات الأولى لإقبال الغرب على دراسة الشرق كانت قبل مراسيم الكنائس والمجمعات الدينية محاولات فردية ثم تلاها عمل جماعي تدريجي في هذا الاتجاه ليتحول فيما بعد برعاية كنسية رسمية وتمويل بابوي رسمي، إذ تشير الدراسات أن هناك مجموعات بحثية لدراسة الإسلام أشهر هذه المجموعات ما يعرف ب "**مجموعة كلونيك** " وهي مجموعة مكونة من ثلة من الباحثين المترجمين في دراسة الشرق مقرها في "دَيْر كلوني الذي يرأسه بطرس الملقب بالمحترم إذ يعتبر من أهم الأديرة في التاريخ الأوروبي في العصر الوسيط والذي ساهم في التحريض على الحروب الصليبية " (٢٣٨).

وهذه عينة نموذجية لبداية الاستشراق من المرحلة الفردية إلى المرحلة الجماعية، وكلنا يعرف أن الموسوعات الضخمة التي ألفت عن العالم الإسلامي والدراسات الإسلامية في الغرب كلها مجهود جماعي، لم يكن ليرى النور لولا السمة الجماعية في تأليفه، فدائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam أشهر موسوعة استشراقية عن الحضارة الإسلامية ،شارك في تأليفها " أكثر من ٥٠٠ مستشرق متخصص، وقد صدر الإصدار الأول من الموسوعة (EI ١) تباعًا في الفترة من ١٩١٣ إلى ١٩٣٨ م بالإنجليزية والفرنسية والألمانية. "(٢٣٩)

---

(٢٣٧) مازن صلاح المطبقاني ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي مرجع سابق.ص٨٢..

(٢٣٨) انظر: عبد الله علي، دير كلوني ودوره في الحروب الصليبية، دورية كان التاريخية (علمية، عالمية، مُحكّمة).- العدد العشرون؛ يونيو ٢٠١٢. ص ١٤٥- ١٤٢.. / تراث الإسلام ،مجموعة من المؤلفين، سلسلة عالم المعرفة العدد ٨ الجزء الأول ، ١٩٨٥م، ص:٣٧

(٢٣٩) أنظر : محمد عمارة موقع مختارات من التراث الإسلامي

http://www.bibalex.org/reissuingtheclassics/Home/StaticPage_Ar.aspx?page=١٥

على غرار دائرة المعارف البريطانية نجد مثلا كتاب "وصف مصر إذ "ساهم في تأليفه ثلاثمائة (٣٠٠) باحث ومستشرق ، وهو كتاب ضخم يحتوي على تسعة أجزاء صدرت بين عامي (١٨٠٩. ١٩٢٨) ". [٢٤٠]

وننوه هنا أن العمل الجماعي المؤسساتي في الغرب في مجال دراسة الشرق لم يتوقف عند حلقات البحث واللجان الخاصة داخل المركز الواحد ،وإنما امتدد ليشمل كل المؤسسات والجمعيات التي تلتقي في خط واحد مثل رابطة دراسات الشرق الأوسط "ميسا-MESA" ، يتركز نشاطها السنوي في تجميع الباحثين والأكاديميين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط لتقديم أوراق البحث وتبادل الآراء والنقاش في السياسة والاقتصاد واللغات والتاريخ والأديان ومختلف العلوم الاجتماعية الأخرى. تأسست رابطة ميسا عام ١٩٦٦ بعضوية ٥٠ أكاديمي ليصل عدد أعضائها الآن ٢٦٠٠ عضوا ينتمون إلى ما يقرب من ١٠٠ مؤسسة وجامعة معظمها في الولايات المتحدة. وتخذ الرابطة من جامعة أريزونا في جنوب غرب الولايات المتحدة" [٢٤١]

وقياسا عليه لابد من تحويل الجهود الفردية والمؤسساتية التي تحاول دراسة الغرب إلى عمل جماعي منظم تنصهر فيه الطاقات والجهود لتتحاور وتتشاور في تطوير برنامج الدراسات الاستغرابية ..حتى تألف البحث العلمي الجماعي الذي يساعد على صيرورة البحوث العلمية الخاصة بالاستغراب ، وهو ما يعين على جودة الأبحاث العلمية وجديتها في هذا الميدان البكر، والذي تكثر فيه المزالق نظرا لوجود عقبات كثيرة فيه أقلها تلك التي تتعلق

---

(٢٤٠) أنظر : موقع مركز تشبيك للتنمية والدراسات ، الاستغراب بين الضرورة والترف والتحريف ... محاولة لفهم الغرب، http://www.alshirazi.com/world/article/٤٢٦.htm

(٢٤١) أنظر : معهد الإمام الشيرازي الدولي للدراسات واشنطن .

http://www.siironline.org/alabwab/nadawat٪٢٠&٪٢٠motamarat٪٢٠٪٢٨٠٨٪٢٩/٠٣٩.htm

بغياب نموذج سابق وخرائط معرفية عن هذا التخصص والأولويات التي يجب البداية منها والاحتياجات الواقعية المتنوعة من دراسة الغرب وفهمه.

وتفسير كل هذا، أننا في زمن كل شيء فيه يتجه إلى الجماعية ويأخذ طابعها، من التأليف الجماعي إلى الاجتهاد الجماعي، إلى التنظير الجماعي، بل وإلى القيادة الجماعية ... لم تعد البصمات الإبداعية الفردية على أهميتها وجودتها تستقطب الأنظار كما تستقطبه الجهود الجماعية ، لأنها ببساطة سنة من سنن الله الكون ، وسمة من سمات هذا العصر.

ثالثاً: انتقال الاستشراق من الجامعات إلى الجمعيات العلمية

لم يبق الخطاب الاستشراقي حبيس تقاليد العمل الأكاديمي المعروفة، بل حاول أن يجدد ويطور من خطابه من خلال العمل على تأسيس جمعيات استشراقية علمية على غرار المعاهد والجامعات التي انتشرت واشتهرت في أوروبا والتي حوت بدورها على كراسي وتخصصات في دراسة الشرق. الهدف من هذه الخطوة هو زيادة استيعاب أكبر قدر ممكن من الباحثين في هذا الميدان وتفريغهم لزيادة وتيرة ومعدل الإنتاج العلمي الاستشراقي، حيث حرية العمل والاجتهاد ومناقشة النظريات الاستشراقية أكثر من الفضاء الجامعي الرسمي، وقد " أخذ هذا المنحى ينتشر بصورة جدية بعد فترة صلاح الدين الأيوبي في أوروبا خلال القرن السادس عشر، فقد سجلت الموجة الأولى من الانتشار الجدي للاستشراق .تشكيل جمعيات استشراقية (بتافيا ١٧٨١م ـ الجمعية الملكية الأسيوية بلندن ١٨٤٣ـ الجمعية الآسيوية بباريس ١٨٢٢ ـ الجمعية الأمريكية الشرقية ١٨٤٢ ". (٢٤٢)

وتأسست بعدها على غرار الجمعيات السابقة الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط، رابطة دراسات الشرق الأوسط الأمريكية ،١٩٦٦م، مؤسسة

---

(٢٤٢) أنظر: إبراهيم عبد الكريم ، الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل مرجع سابق،ص٤١

الأبحاث الشرقية: مؤسسة إسرائيلية ١٩٢٦ تابعة للجامعة العبرية، تغير اسمه فيما بعد إلى معهد الدراسات الإفريقية الآسيوية سنة ١٩٦٢ ، الجمعية الشرقية في إسرائيل ١٩٤٩ . وبإنشاء هذه الجمعيات العلمية انفتح الاستشراق على فضاء المجتمع المدني الغربي استقطب معه حركة المال والأعمال ومختلف النخب العلمية السياسية. على هذا المنوال يجب تأسيس تقاليد الاجتهاد الاستغرابي في الجامعات العربية والإسلامية، فالأمر لا يحتاج إلى أكثر من قرار سياسي يسمح بذلك.

رابعاً: انتقال الاستشراق من الندوات التقليدية إلى المؤتمرات التقويمية

لم يكتف الاستشراق بالندوات التي تعقد في الجمعيات الاستشراقية، فمفعولها كما قيمتها العلمية محدودة وغير عابرة للأوساط الإقليمية والمحلية للمدارس الاستشراقية ،ولذل غيَّر من استراتيجيته وعمد إلى عقد مؤتمرات دولية عالمية شبيهة بكونها محطات لمراجعة مسيرة الاستشراق في العالم كله، تعتبر هذه المؤتمرات الاستشراقية الدولية أحد أهم الفضاءات التي يقيِّم فيها الاستشراق ذاته وفلسفته في دراسة العرب والمسلمين، ويعيد إنتاج خطابه وتشكله من جديد إذا استدعت الضرورة الواقعية ذلك، ويعتبر ظهور فلسفة المؤتمرات الاستشراقية بداية من سنة ١٨٧٣ م، من طرف الاتحاد الدولي للمستشرقين.

وتكمن أهمية هذه المؤتمرات في القرارات والتوصيات الاستراتيجية التي تصدر بعد المؤتمر والتي تعتبر شبه إلزامية في الوسط الاستشراقي ،والتي تعد هي الأخرى بمثابة لوائح تنظيمية تنظم فلسفة العلم والتنظير الاستشراقي، على نحو ما " خرج به المؤتمر الدولي للاستشراق الذي انعقد في باريس عام ١٩٧٣م، والقاضي بتخليه عن كلمة مستشرق"[٢٤٣]،محاولا تجديد فلسفته في

---

(٢٤٣) عبد الله صالح أبو بكر ،حوار الحضارات : تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا ، ص ١٠٤

دراسة الشرق تحت مسميات أخرى، وتذكرنا مؤتمرات الاستشراق في السبعينات والثمانينيات بتلك المؤتمرات التي كانت تعقدها الكنسية على شكل مجمعات والتي تخرج من خلالها بمثابة توصيات عقدية مثل مجمع نيقية وغيرها .

ومن هذه المؤتمرات مثلاً، مؤتمرات الاتحاد الأوروبي للمستعربين والمتخصصين في الدراسات الإسلامية والتي بدأت منذ ١٩٨٢ م، والمؤتمر العالمي للدراسات الأسيوية وشمال إفريقيا ، "والذي غير اسمه فيما بعد إلى المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا(ICHSANA، وتم تغييره للمرة الثالثة إلى المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيوية والشمال أفريقي ICANAS ". (٢٤٤)

خامساً: انتقال الاستشراق من اللجان إلى مراكز الدراسات الاستراتيجية

من طبيعة الاستشراق أنه يتطور ويتجدد، ولعل الآلية التي منحته هذه القدرة هي احترامه لتقاليد العمل داخل المحيط الاستشراقي وانفتاح قنوات التجديد والمراجعة فيه ،فلسنوات عدة بل ولقرون خلت ينتقل من خطوة إلى أخرى، ومن موقع إلى آخر، بل ومن خطاب لآخر عبر تشكلات وصيغ معرفية جديدة تمثلت في قدرته على تقمص واستدعاء أي خطاب يريده يخدم مقاصده ومآربه المرحلية في أي وقت يشاء.

ومن هذه الروافع التي أسست للاستشراق الجديد انتقاله من مجال عمل اللجان والخلايا الفكرية المتنوعة في المراكز السياسية والاقتصادية والثقافية التقليدية إلى مجال مراكز الدراسات الإستراتيجية العالمية أو ما يعرف بـ THINK TANKS، " الثنك تانكس" أو BRAIN BOXES بمعنى

---

(٢٤٤) انظر: آربري، المستشرقون البريطانيون ، تعريب محمد الدسوقي النويهي، لندن: وليم كولينز ، ١٩٤٦، ص٨/ مازن بن صلاح مطبقاني ، المؤتمرات الاستشراقية الحديثة حول الإسلام والمسلمين .

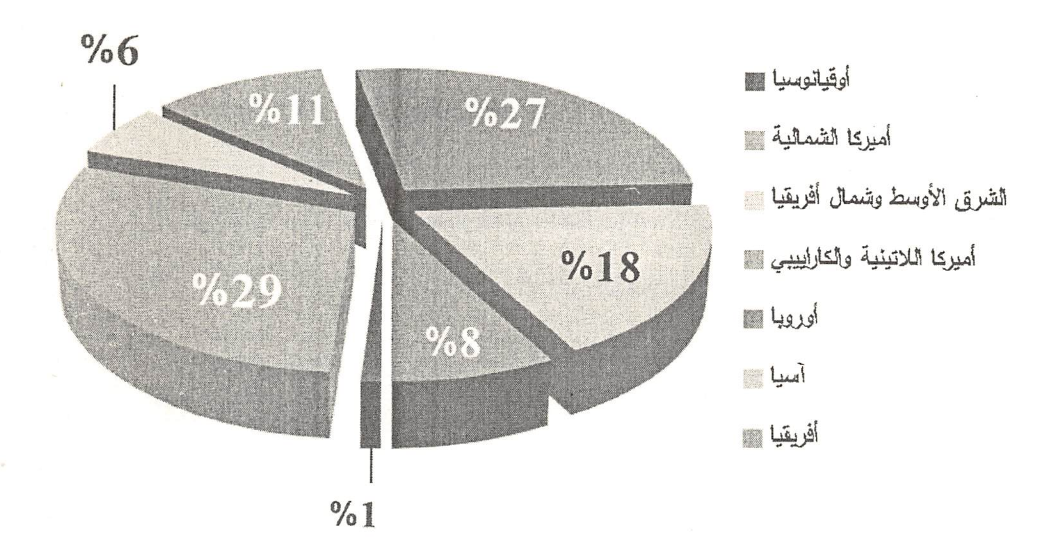
مستودعات الفكر أو صناديق الدماغ ، حيث اكتسبت الرؤية الاستشراقية والتفكير الاستشراقي من خلالها منظورا استراتيجيا استشرافيا جديدا، وبعدا تحليليا أعمق ساعده على تغيير الخطاب الكلاسيكي التقليدي الذي عرف عن الاستشراق في السنوات والعقود الماضية وزيادة مكتسباته ورصيده.

وهنا نلاحظ انتشار تلك المراكز الاستشراقية الاستراتيجية العالمية ممثلة في العديد من الأسماء " مثل: معهد بروكنغز، معهد سفن سبرنغز، أمريكان أنتربرايز انستتيوت، مركز الدراسات الاستراتيجية والعلاقات الدولية التابع لجامعة ستانفورد، كلية الدراسات الدولية العليا بجامعة جورج تاون، معهد هوفر لأبحاث الحرب والسلام لجامعة ستانفورد، كلية الدراسات الدولية العليا بجامعة جون هوبكنز، مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا، المركز العالمي للسلام في الشرق الأوسط، مؤسسة دراسات الشرق الأوسط ..."[٢٤٥]

وقد استفاد الاستشراق من هذه المراكز الفكرية المتنوعة في تقييم مسيرته واستشراف مستقبله ورسم سياساته واستراتيجياته القريبة والبعيدة، وزادت مع كل ذلك قدراته في فهم العالم الإسلامي مع سيولة المعلومات التي تقع بين يديه. كان الاستشراق فيما مضى هو المصدر الوحيد للغرب فيما يخص المعلومات الثمينة عن العالم الإسلامي، أي أنه كان منصة المعلومات الاستخباراتية الوحيدة للغرب، ولكنه أصبح اليوم المحلل الاستراتيجي المعرفي للمعلومات التي تحصل عليها مختلف الأجهزة الأمنية عن العالم الإسلامي ..إذ يعيد هيكلتها معرفيا عبر مراحل (الفرز والتثمين والترتيب والتقييم المعرفي لها) لتخدم في الأخير خارطة السياسات الغربية في العالم الإسلامي.

(٢٤٥) إبراهيم عبد الكريم ، الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل ،مرجع سابق،ص٤١

رسم توضيحي لتوزيع مراكز الأبحاث في العالم لسنة ٢٠١١



المصدر:

. خالد وليد محمود ، دور مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن وشروط الانتقال إلى فاعلية أكبر ، مركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات قطر ، يناير ٢٠١٣،ص١٠

سادساً: الاهتمام بالتخصص باعتباره ثمرة للفكر

إذا كان التخصص ثمرة للفكر كما أن الفكر ثمرة للتخصص كما يقول أستاذنا الجزائري الدكتور زهير بن عمر، فإن الإنتاج الاستشراقي ثمرة للتخصص العلمي الذي ساد وهيمن على تقاليد العمل الاستشراقية في الجامعات الأوروبية، وهذا من العوامل والروافع الايجابية التي جعلته يتطور بشكل منهجي، حيث أصبح له فلسفته ونظامه في الحركة والعطاء، حتى أصبح تخصصا جامعيا كاملا تحركه الدراسات العلمية الجادة ، ..أي أنه يتحرك وفق خارطة معرفية واضحة المعالم ترتبط بالاحتياجات الميدانية للدول وطموحاتها الخارجية.

فإذا تتبعنا الإنتاج الاستشراقي البروتستانتي مثلا، وجدناه متفوقا على الاستشراق الكاثوليكي لهذه الاعتبارات التي ذكرناها. يقول هنري لورنس: "العنصر المميز الأول هو العدد الكبير لمراكز الإنتاج، فمن إجمالي ٢٠٧ أعمال نجد أكثر من أربعين محلا للنشر .وفيما عدد الكتب الدينية الصادرة من أبرشية روما للدعاية،لا نجد عمليا تمثيلا لأوروبا البحر المتوسط والكاثوليكية، ولا تقم فرنسا غير عمل واحد باللاتينية في غضون قرن، والساحة الأساسية للنشر هي أوروبا الشمال والوسط أوروبا

ويرجع السبب في تفوق هذا النوع من الاستشراق إلى كون " النتاج نتاج جامعي.لاعتبارات تاريخية معقدة ، خاصة منافسة التعليم الذي تقدمه الكليات اليسوعية، فعن النموذج الثقافي الجامعي كان مهملا في العالم الكاثوليكي، والثقافة الفرنسية في القرن الثامن عشر تتحقق بالكامل خارج الجامعات. ولا ترجع النهضة الجامعية في فرنسا إلا إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ".[(٢٤٧)]

وهكذا، نرى أهم عامل من عوامل نجاح الاستشراق عموما والبروتستانتي على وجه الخصوص في تلك المراحل هو كونه مهيكل بشكل علمي، أي أنه يتحرك وفق خارطة علمية وبحثية مؤسساتية دقيقة، وبغض النظر عن التحيزات المعرفية التي تصدر من طرف الكثير من المشتغلين في ميدان الاستشراق.. إذ نجد الاستشراق يكتب عن الشرق بطريقة غير حذرة وبطريقة مغايرة عن تلك المنهجية التي يكتب بها عن الغرب "فكيف يكون المستشرق مؤرخاً وسياسياً واقتصادياً، عندما يتعلق الأمر بالشرق؟؟ في حين يبقى في

---

(٢٤٦) هنري لورنس ،الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا ١٦٩٨ـ: ١٧٩٨ م ص١٩

(٢٤٧) المصدر ذاته ،ص١٩

أضيق حدود الاختصاص عندما تكون موضوعات الأبحاث غربية؟!!.".[٢٤٨]

بالرغم من ذلك كله ، فإننا لا ننكر أن التخصص في الدوائر الاستشراقية خاصة الاستشراق القديم كان واضحا وأخذ مداه بشكل عميق يفوق في الجودة والمكنة العلمية ما هو موجود في العالم العربي، هناك مختصون في اللغة العربية واللسانيات ومستشرقون في مجال الأدب العربي، وآخرون في مجال الدراسات الإسلامية، فمنهم في التحقيق ومنهم في الحديث ومنهم في التصوف، ومنهم في التاريخ الإسلامي، حتى إن الكثير من الكتب التراثية المهمة في تاريخنا قد حققت على يد المستشرقين ولا تزال إلى اليوم جماهير النخبة العلمية عالة على تحقيقاتهم، ولولاهم لضاعت واندثرت، وكأني بالاستشراق يرد خير الأمة وصنيعها حين حققت للغرب تراثه الفكري اليوناني القديم في عصور الترجمة الإسلامية الأولى.

سابعاً: توظيف الانثربولوجيا والعلوم الاجتماعية في فهم العمق الاستراتيجي للشرق.

من الأمور التي تحسب للاستشراق في دراسته العالم الإسلامي اعتماده على العلوم الاجتماعية والانثربولوجيا لدراسة طبائع الشعوب الشرقية وفهم بنيتها النفسية والاجتماعية والثقافية والفكرية ..، لقد تمكن الاستشراق من الولوج إلى جوانية الظواهر المركبة في العالم العربي وفهمها فهما عميقا استطاع من خلاله أن يتعرف من موقع المعاينة المباشرة عن مركبات القوة والضعف في الإنسان العربي ونسيجه الاجتماعي ، ونمطه في التفكير والتخطيط ..

ودونما نظر إلى تاريخ الانثربولوجيا، فقد ولدت في أحضان الاستشراق ووظفت أبحاثها لصالح الاستعمار وساهمت في تجذير مفهوم كوجيتو المركز

---

(٢٤٨) محمد راتب الحلاق نحن والآخر ، مرجع سابق ص: ١٨

الأوروبية والغربية، وقد كان لها ذلك،.. ومع ذلك فالغرب لم يكتف بتشويه تاريخ الإسلام وتراثه ومنجزات الشرق الإسلامي الحضارية وطمس فضله على الغرب عن طريق مؤسسات الاستشراق، بل حاول بالإضافة إلى ذلك تعزيز هذه الرؤية أكثر في الوعي الغربي من خلال أبحاث الانثربولوجية المعمقة ساعيا إلى المصادقة على مزاعمه الاستشراقية من خلال لغة الانثربولوجية.

ما يعنينا هنا، في هذا السياق الاستغرابي من الدراسة كيف وظف الاستشراق خلاصات وقواعد هذا العلم لفهم الشرق ؟، أين تمكن الخدمات التي قدمها هذا الميدان لزيادة الحصيلة المعرفية والمعلوماتية عن العالم الإسلامي؟ ..، وفي الطرف المقابل هل يمكن أن يتحرك أرباب التنظير في الدراسات الاستغرابية لدراسة المجتمعات الغربية من زاوية الانثربولوجية الإسلامية التي تنظر إلى الإنسان من زاوية النظام المعرفي الإسلامي ؟ متى يستطيع أهل هذا الفن أن يقرؤوا الغرب قراءة سننية تمكنهم من معرفة الحق من خلال منجزاتهم الحضارية؟

لقد استطاع الاستشراق أن يوظف العلوم الاجتماعية لفهم البنية الاجتماعية والثقافية والنفسية للشعوب، واستفاد من خلال حصيلة هذه العلوم من فهم وتوظيف السنن والنواميس التي تضبط حركة الحياة في صعودها ونزولها، قوتها وضعفها.. وبعبارة أخرى كان يفهم المجتمع العربي والإسلامي فهما سننيا، أفضل من غيره..، فالعلوم الاجتماعية والنفسية تمثل في بعد من أبعادها المعادل الموضوعي للسنن الاجتماعية والنفسية الحاكمة لحركة الدول والشعوب والأفراد، وعليه لم يجد الاستشراق صعوبة في فهم طبيعة وسيكولوجية الإنسان والمجتمع الشرقي بتوظيفه لهذه الآليات السننية الكاشفة ،وهذا ما سهل عليه التحكم فيه، بل وتسخير قدراته وطاقاته لصالحه .

وهذه حقيقة من الحقائق التي يجب على من نهضت به همته لدراسة الغرب أن يفهمها ويستوعبها ؛ فالحقائق السننية الكونية تقول من " كان بالوجود والنظام أعلم كان أعلم بالحق وأقرب إلى الحق، وكانت له الغلبة بالحق، وهذا ظاهر في نفسه، وسيادةُ العَالِمِينَ بحقائق الوجود وسنن الله في الكائنات على الجاهلين بها مشاهَدةٌ لا ينكرها المسودون المغلوبون بجهلهم وباطلهم".[٢٤٩]

(٢٤٩) محمد رشيد رضا ،مجلة المنار ، ١٩٠٦م، المجلد التاسع، ص:٥٢..

الفصل السادس:

التنظير الاستغرابي: مفهومه، أدواته، نظرياته، مستقبله

تمهيد:

لا يخلو علم من العلوم من أسئلة واستشكالات تصاحبه، خاصة إذا كان ذلك في مرحلة التأسيس، حيث تتداعى الأسئلة ذات العلاقة بالمقاصد والبنية والتركيب والمنهج والسياق والمرتبة التي يحتلها هذا العلم في سلم فلسفة العلوم، وعلم الاستغراب ليس استثناءً من كل ذلك ، فهو على غرار غيره من العلوم والمعارف له أسئلته الخاصة واستشكالاته التي تظهر بين الفينة والأخرى ..

لا يزال العقل العربي والإسلامي مع شدة ضغط اللحظة الحضارية الراهنة وتشظياتها المقلقة، يعجز عن طرح أسئلته المصيرية التي تتعلق بالآخر العقدي أو الفكري على نحو صحيح، ولا تثريب عليه بعد ذلك إن تنكب عن طريق الجادة في تعامله ومعاملته للغرب، لأنه لم يؤسس لهذه المعاملة ابتداءً، ولم تكن في حسبانه..

وفي الجهة المقابلة استوى جميعا في ميزان المعاتبة، الناقدون للنموذج الغربي، أو المادحون له، اللاهثون ورائه من التغريبين وغيرهم، وفي النهاية، لا الناقدون له أدركوا سر القوة فيه وهم يدعون إلى القطيعة الشاملة معه، وفي غمرة هذه الدعوة لم يكلفوا أنفسهم عناء طرح أسئلة جوهرية عن طبيعة الغرب، لأنهم لم يدرسوه أصلاً، وليست لهم نية في ذلك، ولا اللاهثون يعرفون عنه أكثر من صورته الظاهرة لهم في سراب مدنيته، لأنهم لا يعرفون قوانين تشكلها ابتداءً وهم على شاكلة غيرهم في مبدأ السؤال ، لقد " كان الغرب يغرين العالم كله . ويستولي علينا عبر انبهارنا بما هو فيه مختلف عنا، في أشيائه وآلاعيبه ، وتقنياته . كل ذلك ودون أن نعرف فيه سر قوته

الحقيقية.. كما يقول مطاع صفدي "[٢٥٠]

لقد كان الغرب بالنسبة لنا، ولا يزال في حرز آمن من أن تطاله عين البصيرة والعقل العربي، بعد أن جالت فيه الأبصار وزاغت ، وستبقى الفواعل الاستراتيجية المهمة في الظاهرة الغربية في حكم الضمير المستتر عصية على الإدراك، وسيبقى الحال على ما هو عليه ما لم يتداعى كل حسب سهمه المعرفي والمادي إلى تأسيس هذا العلم الذي يمكّننا أولا من التحكم في آليات وأدوات فهم الآخر، كما يزودنا بأدوات الحفر الأركيولوجي السنني في بُنى الحضارة الغربية وعللها المنتجة لها ،ويكشف عن طبقاتها المتراكمة عبر القرون الماضية، ومن تلك الأدوات التساؤل المنهجي السليم المفضي إلى إعادة قراءة واعية للتراث والواقع الغربي ومنظوماته المختلفة ...هناك مشكلة في حسابات البحث العلمي أعمق من غيرها، يمكن رصدها عن العقل العربي المعاصر في زمن التعقيد لا يزال ينحو نحو التبسيط والتسطيح، وهذه لازمة تكاد تكون لازمة له، كيف لا وقد ألف تبرير الأمور وتمريرها دون عرضها على توقيفا للمسائلة العلمية.

ومن هنا تحل علينا أسئلة الاستغراب لتطرح نفسها بقوة... عن البداية التي ندشن بها هذا المشروع ، من أين نبدأ ؟ من أي قطاع ندرسه ؟ الدين، الاقتصاد، التاريخ، السياسة، العلم والمعرفة، التقنية ، وتحت أي عنوان ومحور؟ كيف نستفيد من النموذج الغربي دون أن نفقد ذاتيتنا الحضارية ؟ ..وبأي منهج نستطيع أن نؤسس دراساتنا الإستغرابية ؟

وإذا كان البعض يقولون " بأن النظام المعرفي من مهمته الأصلية أنه يغلق دارة السؤال ، ويختمه ، مفترضا في ذاته كونه المرجع لذاته، وما يفرزه من معارف ترتكز إليه " مطاع صفدي ، نقد العقل الغربي ، ص ١٠ ، فإن

---

(٢٥٠) مطاع صفدي ، نقد العقل الغربي ، الحداثة مابعد الحداثة ، مركز الانماء القومي بيروت لبنان ، دط، ١٩٩٠ ،ص ١٠،

دارة السؤال في النظام المعرفي الإسلامي الذي ننطلق منه في دراستنا للغرب، عادة ما تكون مفتوحة، لأن السؤال والتساؤل في الأصل هو الرحم الأداتي المولد للمعرفة، فمتى انقطع الإنسان عن السؤال والتساؤل فقد انقطع عن الوجود، انطلاقا من هذه المسلمة يزود النظام المعرفي الإسلامي كل تساؤل باستشكال يقوي مضمونه الدلالي ثم يجيب عنه معرفيا حتى يلتقي السؤال بالجواب على أمر قد قدر، والتقدير هنا حتما سيكون تقديرا سننيا ،بما معناه أنه سيكون جوابا سننيا، لأن السياق العام لطرح مثل هذه الأسئلة واستشكالاتها المصاحبة لها هو دراسة الغرب والبحث في الكيفية التي تفضي إلى تأسيس هذه الشعبة المعرفية وإضافتها إلى المعرفة الإنسانية عموما، والمعرفة الإسلامية على وجه الخصوص، ومن شأن هذه الإضافة النوعية أن تخرج بجملة مفيدة عن الغرب تمكننا من الإمساك بتلابيب الموضوع، واستيعاب مفرداته في قالب علمي يتمثل في " علم الاستغراب " ، ولعلنا سنبدأ بتلك الأسئلة الاستغرابية المتعقلة بالجانب المقاصدي من هذا العلم .

المبحث الأول:
علم الاستغراب وسؤال المقاصد

حينما نصل إلى أسئلة المقاصد في أي علم من العلوم نكون قد وصلنا إلى الأرضية التي يتوكأ عليها، والمبادئ التي يستهدفها، والخارطة المفاهيمية التي يتغياها، والسياق الذي ينخرط فيه، وعلم الاستغراب أو فقه الاستغراب له أسئلته المقاصدية التي تتأسس عليها مفرداته ووحداته العلمية، من هذه المقاصد التي يتوكأ عليها المقصد التعاوني والتعارفي، والمقصد الاستخلافي من منظور الرسالة الاستخلافية وتحقيق المقصد الشهودي باعتبارنا أمة الشهادة وأثناء كل ذلك الارتقاء إلى مستوى المقصد التدافعي حتى نكون في مستوى التدافع الذي يحدث فوق الأرض ...

أولاً: المقصد التدافعي :

من طبيعة الحياة الدنيا انها ساحة تدافع وابتلاء لكل المخلوقات مهما كانت مستوياتها وطبيعتها ووظائفها، فمن كان في مستوى التدافع وشروطه كانت له الدولة والمداولة في الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية ..

والتدافع هي السمة الغالبة على الإنتاج الحضاري المتوازن والذي يأتي عادة من منطق رؤية متوازنة للأنا والآخر بعكس الصراع الذي غالبا ما يقوم بتضخيم الأنا وتقزيم الآخر ..أما إذا فقدنا هذه الرؤية التصويبية السننية في حركة الحياة، فإن الحالة السائدة عادة ما تكون سيادة لغة : "**الإلغاء والإلغاء المضاد** "وهذا يعنى صيرورة الصراع ... في هذا السياق لابد أن يتأسس علم الاستغراب ، وتحت ظلال هذه المفاهيم يجب تطعيم مادته وأهدافه ، حتى ينفك عن شوائب لغة المنابذة التي تأسست عليها الثقافة الاستشراقية . بما معناه أن التدافع كآلية من الآليات السننية الكونية التي يتقصدها هذا العلم

تقوم بالأساس بإعادة الأوضاع إلى طبيعتها فكرا وممارسة.

وفي هذا السياق أصاب الدكتور حسن حنفي القول حين أدرج دراسة الغرب في سياق : "فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس..."(٢٥١)

وإن كان الملاحظ على الدكتور حسن حنفي في صياغته لمقدمة علم الاستغراب الإحساس بكون هذا العلم ناشئ تحت ضغط اللحظة التاريخية الراهنة كرد فعل يستهدف الآخر استهدافا واضحا من خلال "القضاء على المركزية الأوروبية ".. وأسطورة الثقافة العالمية التي يتوحد بها الغرب ويجعلها مرادفة لثقافته... مهمته القضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة..." (٢٥٢)، ولا يخفى على أحد أن طرح الاستغراب من موقع البديل للاستشراق بهذه الصورة قد يضر بمصداقية هذا العلم لدى الكثير من الأطراف في الغرب والعالم الإسلامي أقلها تلك التي تنتظر من المسلمين أن يقدموا دراسات علمية استرشادية عن الغرب ، وبالتالي فإن تحقق ذلك في أجواء طرح البدائل بلغة الصراع ممتنع عادة ولا يؤتي ثمرته وستكون ردة الفعل تجاهه في الغرب بمثل ردة الفعل التي واجهنا بها الاستشراق .

نحن لدينا منطلقاتنا المعرفية المؤطرة للكتابة في علم الاستغراب ، وليس من الشرط وإن كان الحق مع الدكتور حسن حنفي في كثير مما كتب أن نزيل مركب النقص الذي لدينا ونزيل هذه العقدة التاريخية في علاقة الأنا

---

(٢٥١) حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، مرجع سابق ،ص٢٤.

(٢٥٢) المرجع ذاته ،ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠

بالآخر بتأسيس هذا العلم أو بعبارة الدكتور" بتحويل الآخر من ذات دارس إلى موضوع مدروس والقضاء على مركب النقص الذي لدينا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس " (٢٥٣) أقول ليس من شرط تحقق ذلك أن نؤسس هذا العلم على هذا المنطلق حتى نحقق هذه المقاصد فمقاصدنا التي تحرك العقل الإسلامي ضمن نطاق النظام المعرفي الإسلامي يفرض علينا تأسيس مثل هذه الشعبة لا بمنطق رد الفعل الذي يفتقد عادة إلى الموضوعية إذ غالبا ما يتوكأ على أرضية زلوق تميد به قبل غيره ،لأنه يفتقد ابتداءاً إلى الكثير من شروط التأسيس المعرفية للعلوم، وأقلها تلك الصادرة من درجة الاحتياج المعرفي اللازم والذي يحدده عادة سياق هذا العلم وموقعه في بنية النظام المعرفي الذي ينتمي إليه....

نحن لا نستهدف من خلال الدعوة إلى دراسة الغرب إبطال مفعول الحضارة الغربية أو إبطاء مسيرتها، فليس من مصلحتنا إبطال مفعولها، ولا انطفاء مسيرتها، بل من مصلحتنا ومصلحتهم تصحيح مساراتها والأوضاع الشاذة فيها، حتى نتوحد صعدا في مسيرة الكدح الإنساني إلى رب العزة ، وهذا يتم بسنن التدافع وليس بالصراع (وعلم الاستغراب أحد آليات تحقيق هذا المقصد التدافعي)، ولذلك أشرنا منذ البداية إلى الوظيفة المقاصدية التي تؤطر دراستنا للغرب وأدرجناها ضمن المقصد التدافعي .

إن علم الاستغراب في صورته التدافعية يستهدف إعادة التوازن للساحة العالمية بالحفاظ على كل مكوناتها حتى تتدافع فيما بينها تدافعا تنافسيا لا يلغي الآخر، بل يحفظ له حرية الحركة في سياق حرية الفكر، إذ لولا هذا التدافع لهدمت الصوامع والبيع والصلوات والمساجد وقياسا عليها لهدمت معها الأفكار الدائرة في فلكها .

---

(٢٥٣) المرجع السابق ، ص٢٤

بناءً عليه، فإن من أهداف هذه الشعبة الحضارية التي تحقق مقاصد التدافع فيها:" إعادة التوازن للثقافة الإنسانية بدل هذه الكفة الراجحة للوعي الأوروبي ..وتصحيح المفاهيم المستقرة والتي تكشف عن المركزية الأوروبية من اجل إعادة كتابة تاريخ العالم من منظور أكثر موضوعية وحيادا وأكثر عدلا بالنسبة لمدى مساهمة كل الحضارات البشرية في تاريخ العالم ،كما يهدف إلى إنهاء أسطورة كون الغرب ممثلا للإنسانية جمعاء ،وأروبا مركز الثقل فيه ، وتاريخ الإنسانية هو تاريخ الغرب، وتاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلسفة الغربية، وفي الغرب يصب كل شيئ ..رد الغرب إلى حدوده الطبيعية وإنهاء أسطورة الغزو الثقافي ..إفساح المجال للإبداع الذاتي للشعوب غير الأوروبية .. وقد ينتج عن علم الاستغراب أخيرا أن تشهد الإنسانية عصرا جديدا يختفي منه داء العنصرية الدفين الذي نشأ أبان تكون الوعي الأوروربي حتى أصبح جزءا من بنيته ". [٢٥٤]

ونحن إذا نعلن مع الدكتور حسن حنفي موافقتنا للكثير مما ذهب ونظّر له فيما يخص علم الاستغراب، فإننا نؤكد الكرة تلوى الأخرى أن هناك أجوبة سننية خفية من وراء هذا المشهد هي التي جعلت الغرب قويا وغيره من الشعوب تبع له،كما ان استعادة الثقة في "الأنا الحضارية للأمة" والتقليل من الصدمة المعرفية لدى الغرب لايتم فقط بتحويل الغرب من ذات دارسة إلى موضوع مدروس ،صحيح أن هذا جزء من المعادلة الحضارية ولكن إن عزلنا فقه الاستغراب من سياقه في النظام المعرفي حتما سيؤول إلى الفشل وينطفى المشروع كما انطفأ غيره، قد يقول قائل من حق الغرب أن يصدّر للمركزية الأوروبية ويهندس لها،و من حقه أن يغزو غيره ثقافيا ؟، . وله أن يقول ذلك ـ ولكن حتما هذا لن يتم في ظل تدافع النماذج الحضارية وكون كل نموذج يملك قوة الدفع والدفاع ذاتيا .. وكون كل نموذج يعرف الآخر حق المعرفة .

---

(٢٥٤) المرجع السابق ،ص: ٣١ ،٤٣

ولهذا فإننا حين نقول ونقرر في هذه الدراسة ،أن دراسة الغرب ضرورة سننية، فإننا ننطلق من قطعية سننية محكمة من داخل النظام المعرفي الإسلامي، والقطعيات السننية قطعيات عقدية عندنا؛ لأنها من سنن الله كما تنص الآية الكريمة ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٢ وبالتالي نحن ننطلق من منظور محكم ونموذج ارشادي سليم ...حيث سنصل من خلال دراسة النموذج الغربي إلى الاستثمار في إيجابياته استمثارا سننيا من خلال الكشف عن تلك القوانين التي تحكمت في هذا النموذج وأوصلته إلى مدارج القوة والعظمة التي فيه وليس من الأمر أن نلتقط المعلومات عن الغرب من دون البحث عن شفراتها السننية.

ومن جهة أخرى؛ حينما ننطلق في دراستنا للغرب من داخل مسلمات النظام المعرفي الإسلامي، فإننا نجد أن العلاقة بيننا وبين الغرب بكل مكوناته بل ومخرجاته ليست علاقة صراع بل تدافع . كما أسلفنا . وكما يدل على ذلك المنطلق والمصطلح القرآني:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ البقرة: ٢٥١.

وهذا يحل مشكلة واستشكالا معرفيا ـ كبيرا يطرحه كل من يكتب أو ينظّر في دراسة الغرب ـ يتعلق بطبيعة العلاقة التي تربطنا بالغرب وهو تساؤل واستشكال مشروع في ظل التباين العقدي والفكري الذي بيننا وبينهم، ومع ذلك واعتقد جازما أن الآية السابقة ومعها طائفة من النصوص القرآنية والنبوية قد حررت تلك العلاقة إذ الأصل هو التعايش والتفاهم في إطار تحكمه المصالح المتبادلة، فالتدافع حالة مغايرة بالكلية عن مفهوم الصراع الذي نظّر له آباء الحركة الاستشراقية تحت الرعاية السامية للكنيسة.

وإذ نقرر هذا إنما نستنده بالإضافة إلى كل ما سبق من مسلمات معرفية هي الأخرى قطعية لا تقبل التجاوز داخل هذا النظام. وهي أن إمكانية تعايش الأضداد والثنائيات ممكن، وأن حالة الصراع الوهمية ليست من النواميس الربانية في شيء، والذين لا يفهمون في هذه اليقينيات السننية لا يمكن أن يفهموا تطبيقات الشريعة الإسلامية في حيثياتها وتفاصيلها وتأصيلها لجوانب العلاقة مع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي أو خارج الديار الإسلامية لمّا يتعلق الأمر بهندسة الاجتماع البشري والعلاقات مع الأمم الأخرى، و أولائك أيضا "لا يمكن أن ينتبهوا إلى المجال الذي يتلاشى عنده الصراع؛ لأن ذلك لا يتم إلا بسنّة، لهذا لم يكن غريبا أن يطغى الصراع كمنهج للحركة لديهم.. وبعد أن أثبت العلم أن في الذرة مسافة يبطل عندها التجاذب بين السالب والموجب هي ما يعادل ١٨ قطر الذرة مما يؤدي إلى الاستقرار والتوازن بداخلها، كذلك يوجد هذا المدى في داخل الإنسان والمجتمعات يكون فيه السلوك الإنساني والاجتماعي محققا للتوازن والاستقرار بين مفردات المجتمع المتباينة في أجزاء بنيته الداخلية". [٢٥٥]

وعمدة القول أن تحرير هذه المسائل والاجابة عن استشكالاتها ضرورة لعلم الاستغراب حتى لا يخطو على درب الاستشراق ولا يستن به في تأسيس فلسفة الصراع التي أنتجها منظروا الغرب أمثال فرانسيس فوكوياما أو هنتنغتوت . وإذا كان الاستشراق كأكبر حركة لدراسة الآخر في التاريخ قد نشأت بدافع عنصري تغذيها أطماع الاستعمار، فإن الاستغراب لا يجب أن يحذو حذوه أو يستن بسننه.

بل يجب أن يدرج ضمن الاحتياجات المعرفية الضرورية للعالم الإسلامي باعتباره النافذة التي نتعرف من خلالها ونتعارف بها على العالم الغربي،

(٢٥٥) يوسف كمال ،منهج المعرفة من القرآن، دار الوفا ، مصر القاهرة ،١٤٠٦هـ ،ص: ٩٤- ٩٥

والمرجع المؤسس في ذلك أن الآخر عندنا في رؤيتنا الاجتماعية الإسلامية (العقدي أو الفكري ...) لا يشكل مصدر تهديد أو خطر كما تصوره الفلسفات الغربية، بل هو ساحة دعوة وتعارف وتعاون وتدافع التنافس في ساحات المعروف أو كما يقول الدكتور علي جمعة:" فنحن ليست لدينا مشكلة مع الآخر بصفة ضرورية . عند سارتر . العذاب هو الآخر . إن مجرد وجود الآخر عنده يمثل عبئا وهما وألما ، بينما الآخر . في المنظور الإسلامي هو محل الدعوة وليس مصدر العذاب . فالناس عند المسلم أمة دعوة وأمة إجابة".(٢٥٦)

ثانياً: المقصد الشهودي :

من المقاصد التي يتخذها فقه الاستغراب هدفا في انجازه ودراسته للغرب تحقيق مسألة الشهادة على الناس، من منطلق أن هذه احدى وظائف هذه الأمة مصداقا لقول الحق تعالى في التنزيل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣ ، والشهادة تعني فيما تعنيه الحضور والعلم، قال الإمام المناوي في التعاريف :"الشهادة رؤية خبرة باطن الشيء ودخلته ممن له غنى في أمره فلا شهادة إلا بخبرة وغنى ممن له اعتدال في نفسه بأن لا يحيف على غيره فيكون ميزان عدل .. وقال بعضهم الشهادة كالشهود الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة " (٢٥٧)

ومما سبق نفهم أنه لا شهادة لغائب على حاضر، كما أنه لاشهادة إلا

---

(٢٥٦) محمد علي جمعة ،الطريق إلى التراث الإسلامي (مقدمات معرفية ومداخل منهجية) دار : نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،ط٢ ،٢٠٠٥

(٢٥٧) محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف ، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ـ ، دمشق الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ، ص: ٤٣٩

بخبرة ، وكما تكون الشهادة بالبصر تكون بالبصيرة، فأين نحن كأمة من هذه المعاني الدلالية الواضحة في مفهوم الشهادة على الناس ؟.أين نحن في ميدان الحضارة العالمية ؟، وأين خبراتنا بالآخرين سواء كانت خبرة علمية ناتجة عن بصر ومشاهدة أو كانت خبرة مشاهدة بالبصيرة عن واقع الحال بالجغرافيا الغربية بكل مثاقيلها السياسية والاقتصادية والدينية والعلمية ؟ .أين نحن في ميدان الاصطراع الحضاري العالمي الذي تلقي فيها الأمم بأقلامها ومشاريعها ؟أين أمتنا التي ألفت أن تلقى عصاها في ساحة المراغمة العالمية لتلقف ما يصنعه سدنة وأفاكوا الأمم، بل أين نحن من خبرة الغرب الذي أصبح أفقه بحالنا ، وأدرى لحاجاتنا واحتياجاتنا منا ؟ .

وفي هذا السياق قد يغتر بعضهم بقوله تعالى في الآية السابقة عن وسطية وخيرية هذه الأمة زاعمين أن الوسطية والخيرية ثابتة لكل أجيال هذه الأمة من دون التفات إلى شروطها، والجواب أن الآية لها شروطها التنجيزية ـ فالجعل الوارد فيها جعل سنني أي أنه لا يتحقق إلا بشروطه السننية التنجيزية يرتفع بارتفاعها ويتحقق بتحققه. بمامعناه أنه داخل في إطار السنن الشرعية التي تختمر مع غيرها من السنن الاجتماعية والتاريخية والنفسية والطبيعية لتخرج هذا المقصد كاملا متكاملا من القوة إلى الفعل، ولذلك انتبه إلى هذه المسألة الدكتور النجار فقال في مقدمة كتابه فقه التحضر الإسلامي " إن الأمة جعلت مكلفة بالوسطية والشهادة، فإن هي وفت بذلك التكليف تحقق لها الشهود الحضاري ، فاستحقت المدح والتمجيد ، وإن هي أخلّت به تخلف ذلك الشهود فلا تستحق منهما إلا بقدر ماهي أمة مسلمة بإطلاق ، ويلحقها من المؤاخذة بقدر ما تخلّ به من الشهود الحضاري "،[٢٥٨]ويضيف تعليقا على فترات الشهود الحضاري السابقة في الأمة : " ولكن تلك الدورة من الشهود

---

(٢٥٨) عبد المجيد النجار ،فقه التحضر ، دار الغرب الإسلامي الطبعة الاولى ١٩٩٩م ، ج١، : ص:١١

الحضاري آلت إلى الخفوت ، ثم إلى الانتهاء فإذا بالأمة الإسلامية تتنحى من موقع الشهادة على الناس ، بل أصبحت مشهودا عليها حضاريا ،وآلت إلى الطرفية التي فقدت فيها الصيانة والعزة . " [٢٥٩]

وهذا معناه أنه لا يمكن أن يحقق علم الاستغراب وظيفته المقاصدية هذه، من دون الالتزام بشروط تحقيق الشهادة على الغرب، ومنها التمكن في آليات الشهادة العلمية . كيف سنشهد على الغرب ونحن لا نملك أدوات العلم والمعرفة التي تمكننا من الوصول إلى الفئة التي يجب أن نشهد عليها؟، يقول الدكتور عبد المجيد النجار :" إن العلم عنصر أساسي من عناصر الشهادة (إذا العلم عنصر أساسي حاصل بمشاهدة او بصر) والشاهد هو العالم الذي يبين ماعلمه ، وحينما تكون الشهادة على الناس هي في حقيقتها إظهار الحق بالمعنى الذي نريده في هذا المقام فإن العلم يبقى عنصرا اساسيا فيها أيضا ".[٢٦٠]

ومن الأدب لمن يخوض في هذه التجربة أن يكون على دراية وتشبع بما لدى الآخر من الجوانب اللغوية والثقافية والعلمية. وإلا أجابته الموفقية جواب إسكات .وهذا نبينا صلى الله عليه وسلم محيط بطبيعة البيئة التي بعث إليها مدرك لخصائصها وبنيتها ولغاتها، فقد ذكر ابن الأثير في النهاية قصة وقال: وقد عرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانا حتى قال له علي رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وفد بني نمر: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود الغرب بما لا نفهم أكثره فقال: أدبني ربي فأحسن تأديبي." [٢٦١].. وفي هذه القصة مرامز دلالية واضحة المضامين لمن

---

(٢٥٩) المرجع السابق ، ص٢٠

(٢٦٠) المرجع السابق ، ص: ٨٦ .

(٢٦١) القنوجي ، أبجد العلوم ،ص: ٤٥٠

أراد أن يتفقه في فقه الاستغراب.

لقد أحالنا القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى ضرورة دراسة الأفكار المقابلة للفكرة الإسلامية، والمجتمعات القريبة أو البعيدة عن المجتمعات الإسلامية، بل أرشدنا إلى ضرورة فهم طبائع الناس ومناهجم الحياتية بإطلاق، هذه الإحالة القرآنية غالبا ما كانت تأتي في سياق بيان أسباب النجاح في الدعوة .. وكأنه يقول إن هذا شرط لذاك، أي أن العلم اليقيني بالبصر أو البصيرة بأحوالهم هو مدخل من المدخلات الأساسية والقوية في عملية البلاغ والتبليغ .

يقول الدكتور النجار تعزيزاً لهذا المعنى:" ليس أمرا عرضيا ما جاء في القرآن الكريم من تخصيص جزء كبير منه لشرح حقيقة الناس سواء من حيث طبائع الإنسان النوع أو من حيث القوانين والسنن الإجتماعية ... إن ما جاء في ذلك معمما وموسعا في القرآن الكريم إنما هو تعلمي للأمة كي تقوم على العلم بالناس في عناصره المختلفة ليتم بذلك الشهادة عليهم ...إن العلم بالناس على النحو وصفنا هو العنصر الأساسي للشهادة على الناس وإذا ما تخلف هذا العلم أو تخلف منه تعطلت تلك الشهادة "[٢٦٢]

لقد تعطلت شهادتنا كأمة على الناس ومنهم أمم الغرب حين عجزنا عن فهمهم ودراستهم، وليس غريبا أن تأتي يوم القيامة أفواج من الناس لا يعلمها بالعد والحصر تشكوا إلى الله أن هذه الأمة التي أخرجت للناس لم تبلّغها شيئا من هذا الدين، من هذا القبيل تغدو دراسة الغرب وفهم طبائعه وعقليته في التفكير والتخطيط جزء لا يتجزأ من شروط تبليغ الأمانة إليهم ..وعلم الاستغراب جزء ومكون رئيسي وأصيل في إطار هذه المعادلة المقاصدية النبيلة .

---

(٢٦٢) عبد المجيد النجار ، فقه التحضر، ص ١٠٠، ١٠١ .

كتب الأستاذ مازن المطبقاني وهو الخبير في ميدان الاستشراق والاستغراب يقول : وكتبت أدعو إلى إخضاع الغرب إلى الدراسة في شتى المجالات بالقول "لا شك أن دراسة الغرب تتطلب تخصصاً كالقانون أو الاجتماع أو السياسة أو علم الإنسان أو التاريخ ... الخ .. وقبل أن يتساءل القارئ وما شأننا بكل هذا فنقول أليس الغرب أمة يجب أن نتوجه إليهم بالدعوة ونحن مطالبون بالشهادة على الأمم فكيف للشاهد أن يشهد دون أن يعرف معرفة دقيقة موضوع شهادته، وهو ما ورد في قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة: ١٤٣ ."(٢٦٣)

لابد من دراسة الوسط الغربي دراسة شهودية حضارية معمقة متوسلين بكل الوسائل المفضية إلى ذلك ، مع الانتقال السريع من مرحلة التأصيل والنقاش حول دار الغرب من كونه دار حرب إلى صناعة الخرائط الفكرية والدعوية اللازمة والقيادات العلمية المتخصصة للدخول إلى البنية العميقة وفقه انتربولوجية وسيكولوجية المجتمعات الغربية .

يقول الشيخ فيصل المولوي، مثلاً:" لسنا في الغرب في دار حرب، بل نحن إما في "دار العهد" أو في "دار الدعوة". وإذا ما أردنا الاحتفاظ بالتصنيف التقليدي للعالم كما ورد في فقهنا وهو "دار الإسلام" و"دار الحرب" نكون في الغرب في دار العهد. أما إذا رأينا التصنيف الفقهي القديم لم يعد قابلاً للتطبيق في وضعنا الحالي – وهذا ما نفضله– نكون بموجب ذلك في الغرب في دار الدعوة، كما كان النبي والمسلمون في مكة قبل الهجرة. إذ لم تكن

(٢٦٣) مازن صلاح مطبقاني ، الغرب من الداخل دراسات للظواهر الاجتماعية ، ص: ٢١

مكة دار الإسلام أو دار حرب بل كانت دار دعوة. وكانت شبه الجزيرة العربية كلها –في نظر المسلمين حين ذاك –دار دعوة"(٢٦٤).

ثالثاً: المقصد التعارفي والتعاوني

إذا نجحنا في تأسيس علم الاستغراب وفق المنطلقات المعرفية الإسلامية وفعّلنا أدواره المقاصدية كما ينبغي، فإننا سنقدم للمسلمين والغرب على وجه الخصوص خدمة لم يسبق إليها من قبل، أقلها تلك التي نقدمها له حين نريه صورته الحقيقية من منظورنا العلمي المتوازن .. ولاشك أن الغرب يرنو ويتحسس مثل هذه الدراسات عن كثب بل إن هناك أصواتا كثيرة دعت ولما تزال تدعوا العرب والمسلمين إلى دراسة الغرب دراسة علمية ..لعلمهم ويقينهم أن المنطلقات الإسلامية لا تسمح بالشطط والتجاوز .. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المائدة: ٨ .

والعدل في الرؤية الإسلامية الكونية لا رخصة فيه كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،حتى ولو كان في حق من هم خارج المذهبية الفكرية الإسلامية .. ولذلك فإن ما توصلت إليه الرؤية الاستغرابية اليوم في كل أحوالها، وعلى ما فيها من ملاحظات قد تعتورها أفضل من تلك التي انتجتها المنظومة الاستشراقية عن المسلمين طوال القرون الخالية. فإذا كان الغرب قد أنشأ مفهوم الشرق بعيداً عن معطيات الواقع والتاريخ، كما ذكر ذلك ادوار سعيد"، فإن الشرق في إنشائه لمفهوم الغرب كان أقل ابتعاداً عن

---

(٢٦٤) طارق رمضان، مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام، نقلا عن موقع http://site.matariaonline.com/dindetail.asp?id-٢٩:

إحداثيات الواقع، وأقل ابتعاداً عن وقائع التاريخ، وأكثر موضوعية من شطحات بعض الرحالة الأوربيين."(٢٦٥)

أو بتعبير الدكتور حسن حنفي :" أن الاستغراب يقوم على "أنا" محايد لا يبغي السيطرة ، وإن بغى التحرر، ولا يريد تشويه ثقافة الآخر، وإن أراد معرفة تكوينها وبنيتها ، وإن " أنا " الاستغراب أكثر نزاهة وموضوعية وحيادا من "أنا " الاستشراق ."(٢٦٦)، ولهذا فإن تفعيل فقه الاستغراب في هذا الاتجاه سيمكننا من ربط العلاقات مع الغرب بكل تكتلاته ، ويمكننا من البحث في المشترك الإنساني الذي بيننا ، فالإنسان الغربي مع كفره وفسوقه فيه من صفات الخير والمساحات والقناعات الايجابية التي نستطيع أن نستثمر فيها هذا فضلا عن وجود قطاع عريض من النخبة يتميز بالحياد والانصاف والموضوعية .

يقول الإمام النورسي تقعيدا لهذه الفكرة التي يمكن لمنظري فقه الاستغراب أن يؤطروا بها تنظيراتهم بخصوص مكونات المجتمع الغربي وعلاقة جزء منهم بالعالم الإسلامي "بينما يجب أن تكون كلُّ صفةٍ من صفات المسلم مسلمةً مثله، الا ان هذا ليس أمراً واقعاً، ولا دائماًاومثله، لا يلزم ايضاً ان تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعةً من كفره .وكذا الأمر في صفات الفاسق، لا يشترط ان تكون جميعُها فاسقة، ولا ناشئة من فسقه.إذن، صفةٌ مسلمةٌ يتصف بها كافرٌ تتغلب على صفةٍ غير مشروعة لدى المسلم. وبهذه الوساطة (والوسيلة الحقة) يكون ذلك الكافر غالباً على ذلك المسلم (الذي

---

(٢٦٥) نقلا عن محمد راتب الحلاق ،نحن والآخر دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي"، ص: ٢٩ ، غارديه، لويس: أهل الإسلام، ترجمة صلاح الدين برمدا، " وزارة الثقافة، دمشق،١٩٨١"، الطبعة الأولى: ص ٣١٢.

(٢٦٦) حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، حسن حنفي ص: ٢٦

يحمل صفة غير مشروعة. (ثم ان حقّ الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع. والكفر ليس مانعاً لحق الحياة الذي هو تجلٍ للرحمة العامة والذي ينطوي على سر الحكمة في الخلق."[٢٦٧] ونحن إذ نشارك في هذا المشروع الكبير، فإننا نقدم دعامتين أساسيتين في ركن المقصد التعاوني والتعارفي، وهو أن علم الاستغراب يجب أن لا يخرج في هذه المسألة عن رؤية أصيلة مفادها أنه لا يتم هذا إلا وفق الشروط التي تقدم بها الفيلسوف الإسلامي الكبير طه عبد الرحمن حين اكد أنه لا يمكن أن تتحقق هذه العلاقة بيننا وبين الغرب إلا وفق الشروط التالية :

ـ لا تعارف إلا باعتراف ولا اعتراف إلا في المعروف :اعتراف بالكينونة الغربية كما هي بكل ما فيها من ثقافات وطبائع واديان وفلسفات ومعتقدات ومذاهب فكرية واقتصادية. والاعتراف ليس معناه القبول بها وتبنيها، وإنما الانطلاق من رؤية الأمر الواقع حتى نتعامل مع الواقع كما هو واقع ..ولهذا يقول الدكتور علي القريشي:" حين يتوزع الناس بين شعوب وقبائل يظل المقصد هو التعارف : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا). ولا تبرز أهمية التعارف دون استصحاب مدركات وحدة الخلق وحقيقة الاختلاف ونسبية الحقيقة. فالتعارف في ظل هذه المسلمات يُنتج بالضرورة اعترافاً فيما يظل التعرف في ظل سيكولوجية تختزن التفاضل والاستعلاء قاصراً عن بلوغ حالة التعارف ناهيك عن الاعتراف. فالنازي الذي يستبد بعرقيته والإسرائيلي الذي يعتقد بأنه المفضل على بقية العباد لا يجد عنده من السعة والموضوعية ما يدفعه إلى الإقرار بأي امتياز يمكن أن يحوزه الآخر. وهذا ما يمكن أن يقع فيه بعض المسلمين عندما يقرأون قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت

---

(٢٦٧) سعيد النورسي ،كليات رسائل النور للنورسي ، الكلمات ، ٩٠

للناس) على غير معناها الكامل والصحيح".(٢٦٨)

ومن هنا يغدوا التعارف والاعتراف حقيقة ومقصد كوني قبل أن يكون مقصداً شرعياً، ونحن نعلم أن المقاصد الكونية سابقة على المقاصد الشرعية بما معناه أن الثانية تراعي الأولى ولا تصادمها، لأنها تتأسس وتتبني عليها، ولهذا لا يمكن للشريعة أن تأتي بخلاف مقررات وقواعد المقاصد الكونية التعارفية، فتحت بناءا على هذه القاعدة قنوات التعارف والتعاون في ساحات المعروف وما أكثرها.. وهذا ما يجعلنا نبني على هذه الحقيقة منطلقات ومقاصد فقه الاستغراب حتى لا ينشأ ويتأسس على عوج .

إن الإسلام " دعوة تنطوي على نشاط تعريفي حر، ولا تسمح أصولها بأن تتحول إلى دعاية" تقوم على استلاب الذهن والسيطرة السحرية، فالحرية شرط لأي استجابة ولا استجابة في ظل الإكراه. وفي هذا نفي لمقولة التعارض التي يتوهمها الانثروبولوجي الفرنسي " ليفي ستراوس" حين يتساءل عن الكيفية التي سيوفق فيها المسلمون بين ظاهرة التعددية وفكرة العالمية(٣٩)، وكأنه لا يدرك بأن "العالمية" في منظورها الإسلامي لا تعني "عولمة" Globalisation" الآخر، لأنه لا وجود في إطار مشروعها لأي برنامج يقوم على الإدماج، فالعقائد وبخاصة الدينية تمثل يقيناً عند أصحابها، ومن العبث التفكير بتغييرها بوسائل القهر والإكراه، كما أنه من غير المنطقي . في حالة الاعتقاد بفسادها أو بطلانها . أن يتم اللجوء إلى مقاطعة أصحابها أو إقصائهم أو قفل أبواب التواصل معهم، ذلك أن التعارف الذي يحث عليه الإسلام لا يضع التغيير أو الاحتواء غاية ولا شرطاً طالما أن ما يجمع الإنسان مع نظيره الإنسان في هذه الدنيا هو أكثر بكثير مما يفرقه ". (٢٦٩)

---

(٢٦٨) علي القريشي الآخر: في المنظور الإسلامي ص: ١٦

(٢٦٩) المرجع السابق ،،ص١٦

رابعاً: المقصد العلمي

إن كان من مدخل مناسب لهذه الجزئية فإننا نقول إن العلم مقصد شريف واشرف منه حين يكون القصد منه لله تعالى ، وحينها يتحول من مجرد كونه آلة إلى كونه وسيلة لتحقيق مطالب الخلافة والاستخلاف والشهود في الأرض، من هذا المنطلق يغدوا تأسيس علم الاستغراب ضرورة معرفية لازمة لحركة العلم في العالم الإسلامي وإضافة نوعية لفلسفة العلوم ، إذ يجب أن نتحول من مجرد حالات الفهم والتفهم للطرف الآخر ومن حالة الدعوة إلى أهمية موضوع الغرب وترجمة هذا الانشغال الذي يحظى بإجماع كل قطاعات ونخب الأمة إلى علم محكم البنيان والأصول والقواعد والمراجع.

لقد آن الأوان أن ننتقل في دراستنا للغرب من حالة العشوائية التي تفتقد إلى خارطة معرفية دقيقة إلى مرحلة التخصص، حيث يجب وضع الغرب داخل رؤية علمية منهجية، وهذا معناه في شكل من الأشكال أن نجعل علاقاتنا مع الآخرين (الغرب) قائمة على العلم، والعلم رحم بين أهله كما جاء في الأثر، وضمن هذا السياق والرؤية يمكن أن نجعل من علم الاستغراب الرحم الوظيفي الذي نحقق من خلاله مقصد التعارف المتبادل بلغة العلم . كما أن هذا اللون من المعرفة إذا ماكتب له النجاح، فإنه سيكون بمثابة الحسنة التي يهديها العالم الإسلامي إلى الحضارة الغربية لترى أخيرا وجهها من مرآة أخرى غير تلك التي ألفت أن تراه من خلالها منذ قرون ..

وقد دعا إلى هذا المفكر الجزائري مالك بن نبي إلى هذا" وذلك بجعل العلاقة بيننا وبينه (الغرب) قائمة على العلم، أي بمعرفة أن الظاهرة الغربية في عمومها، والظواهر الغربية الجزئية مسألة نسبية قابلة للدراسة، عند ذلك يمكن فهم الغرب والتعامل معه بإيجابية. ومن هذه الجهة يدعو إلى ما يمكن أن يطلق عليه علم الاستغراب، لفهم الغرب ومعرفة تاريخ تطوره، وكيفية سير

أنظمته الفكرية والحضارية. وهي دعوة نادى بها ابن نبي في ظرف كان التعامل مع الاستشراق تعاملاً تجزيئيًا وتناولاً في إطار الجزئيات دون وجود رؤية كلية تجعل الاستشراق في سياقه العلمي والتاريخي والحضاري، كأحد الأدوات المعرفية الغربية التي تربط بالحضارة الغربية في تعاملها مع الآخر الشرقي، أي الإسلامي بالأخص."(٢٧٠)

وفي نفس الوقت الذي نقدم فيه هذه الخدمة للغرب ليكتشف نفسه من خلال أقلامنا، فإننا سنكتشف في الوقت ذاته موقعنا في خارطة الإنسانية إن سلبا فسلبا، وإن ايجابا فإيجابا، أي أن رصيدنا العلمي سيعزز أكثر فأكثر بحقيقة قدراتنا وإمكاناتنا ونقاط ضعفنا وقوتنا ،بل وموقعنا في خارطة المستقبل بين الأمم، وهذا كان أحد المقاصد التي تبناها الاستشراق حين تأسس في العالم الغربي في بداياته الأولى قبل أن يتحول تدريجيا إلى المرشد العلمي للاستعمار الغربي .

ومع انكشاف هذه الاحتياجات المعرفية وتعاظمها، وتزايد ظهورها للعلن بدأت بعض الأطراف العلمية تستجيب إلى هذا اللون من المعرفة في الجامعات العربية والإسلامية، ومنها الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، وبعض أقسام الاستشراق في العالم العربي، وإن سجلنا هنا أنها محاولات أسست على استحياء، فهي محدودة لا ترقى لوحدها إلى مستوى الهم الحضاري للأمة ما لم تعزز بمبادرات أخرى على غرارها في كل الدول الإسلامية ،هذا فضلا عن التخوفات التي ما تزال تحيط بمثل هذه المبادرات من أن تخرج من دائرة الفعل الحضاري إلى ردة الفعل، وهو ما يفقدها ثقلها العلمي ومصداقيتها ومشروعيتها في الحكم على الآخرين، ما يؤدي بها إلى أن تفقد مقصديتها العلمية تمام على نحو ما وقع للاستشراق حين فقد بريقه

---

(٢٧٠) بدران حسن بدران الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري :أنموذج مالك بن نبي، ص ٨

العلمي وسقط في أعين الكثير من أوساط النخبة العلمية الغربية فضلا عن العلمين العربي و الإسلامي بسبب تحيزاته الفكرية وخروجه عن الموضوعية.

من هذا القبيل أدرجنا المقصد العلمي في هذه الدراسة كأحد أهم مقاصد علم الاستغراب، لأن هناك احتياج معرفي علمي يلقي بثقله في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ أمتنا وتاريخ الإنسانية جمعاء يفرض علينا تأسيس هذه الشعبة العلمية لاستيفاء تلك المطالب الضرورية في جانب معرفتنا بالآخر الغربي، واكتشاف الآخر لنفسه من زاوية ومنظور أخر، ولا يتحقق هذا المطلب إلا من خلال تفكيك هذه الرؤية والصورة النمطية في عقل الغرب ووعيه الجمعي ومذهبيته الفكرية، وإعادة تشكيلها وإراءتها له على وجهها الحقيقي، متوسلين هذا الهدف من خلال هذا الوسيط العلمي المعرفي المتمثل في فقه الاستغراب.

"إنّنا نزعم اليوم بأنّ ثمة حاجة موضوعية ومنهجية إلى تأسيس هذا العلم الجديد في أروقة الجامعات والمعاهدات والكليات في أنحاء المعمورة، ذلك لأنّ فهم السواد الأعظم من أبناء الأمة للمسألة الغربيّة تعوزه الموضوعية والمنهجيّة والواقعيّة، كما تفتقر في كثير من الأحيان إلى الموضوعيّة في الطرح والتحليل، والمنهجيّة في الفهم، والواقعيّة في التعامل، والاستشرافيّة في التخطيط، مما أدّى إلى وجود تصورات متعددة متناقضة للغرب في الذهنية الإسلاميّة المعاصرة. فالغرب عند كثير من المسلمين صورة لعالم مغمور بنزعة السيطرة والتفوق والمركزية الذاتية، والغرب عند مسلمين هو ذلك العالم الأكثر إنسانيّة وتحضرا، وهو معقل الحرية والعقلانية والإبداع.. والغرب عند طائفة ثالثة من أبناء الأمة عالم كله مصالح، فحيثما المصلحة فثمة الغرب، ولا وجود في ذلك العالم لشيء اسمه القيم والمبادئ والقوانين، بل المصالح ثم

المصالح، فهي التي تحكم كل شيء".[271]

إننا في حاجة ماسة إلى أفواج من الباحثين المتخصصين في علم الغرب يتقنون فلسفة التخصص ويؤمنون بها ـ حيث أصبح التخصص اليوم ثمرة للفكر كما أن الفكر ثمرة للتخصص ـ ، وإذا كان من فائدة نقتبسها من منهجية الاستشراق في دراسته للعالم الإسلامي فهي في طريقته وهيكليته العلمية حيث أصبح الاستشراق علما كاملا له مدارسه المتنوعة مثل الاستشراق الأمريكي والفرنسي والألماني والروسي والهولندي... ومعه تخصصاته الفرعية الدقيقة في مختلف المجالات التي تقع تحت مسمى الحضارة الإسلامية من منجزات وعلوم وتخصصات، وليكن لنا في المقابل ـ لا من باب ردة الفعل ـ الاستغراب الخليجي والمصري والجزائري والمغربي ....، وليكن مع كل ذلك استغراب سياسي واستغراب نفسي، واستغراب ثقافي، استغراب اجتماعي ...فالتخصصات الدقيقة التي تقع تحت هذا المقسم تتوالد وتتناسل منها المعلومات والمعارف تباعا على شاكلة يشكل كل قسم في الأخير موردا من الموارد الاستراتيجية المهمة في فهم البنية العميقة للغرب، والتحولات اللاّمرئية في مواقف الأشخاص والجماعات والمجتمعات الغربية على تنوعها .

أقول في نهاية هذه المقصد متأكدا وجازما إذا ما كتب لعلم الاستغراب أن يتأسس على يقينيات النظام المعرفي الإسلامي ويستوى على أصولها، فإنه سيأتي اليوم الذي يخاطب العالم الإسلامي بلسان الهدهد قائلا أتيتكم من الغرب بنبأ يقين وأحطت بما لم تحيطوا به، فيكون الخبر اليقيني والكشف العلمي للهدهد (فقه الاستغراب) سببا في إسلام أمم الغرب، هذا إن كان الكيان الإسلامي . طبعا ـ في مستوى حركة سلميان عليه السلام وحركيته

---

(٢٧١) في التواصل مع الآخر: معالم وضوابط ووسائل ورقة مقدمة إلى المؤتمر السنوي الثاني: نحن والآخر المقرر انعقاده ما بين ٦-٨ صفر لعام ١٤٢٧هـ الموافق ٦-٨ مارس لعام ٢٠٠٦م بدولة الكويت .

الرسالية في الأرض مع قدرتنا في التحكم في ميزانية التسخير الكونية المادية منها والمعرفية وتوجيهها نحو تحقيق عنصر الشهادة في الأرض وتحقيق رسالة الاستخلاف.

المبحث الثاني:
علم الاستغراب وسؤال التنظير

تحتل مسألة التنظير في دراسة الآخر موقعاً مهماً في عملية بناء المفاهيم والتصورات والأحكام ،وإذا كان المناطقة قديما يقولون إن الحكم عن الشيء فرع عن تصوره ،فإن الحكم على الآخر لا يتوقف عند حدود وتخوم التصور فحسب بل يمتد إلى درجة الإدراك الذي هو المعرفة المطابقة للواقع عن يقين يبنيه الدليل الملموس .. هذه المعرفة المطابقة للواقع كما هو هي التي تمنح لعلم الاستغراب القدرة التنظيرية والتي تحتاج بدورها إلى معززات منهجية ومعرفية لتشكيل الصورة الواقعية والمتوقعة ..

ومهما يكن من أمر؛ فإن قضية التنظير لدراسة الغرب قضية ومسألة لها ارتباط وثيق بفلسفة التنظير عموما، فهي على غرار القضايا الأخرى "قضية متشعبة، ولها مستويات متدرجة، فهي في مفهومها الواسع قد تترادف مع فكرة التأليف العلمي للعلم محل البحث، بما يقوم عليه ذلك من تصنيف وهيكلة ومفاهيم ومصطلحات ومقولات.. إلخ، ومع ما لها من هذا المفهوم المتسع"(٢٧٢)

وهي في الأخير تسعى وتستهدف إلى دراسة وتحليل سلوك الحضارة الغربية ومنتوجها المادي والمعرفي وفق نظريات وقواعد محددة نابعة من مفردات مفاهيمية تخص علم الاستغراب.... تمكننا من فهم الغرب في حالة الفعل ورد الفعل الواقع والمتوقع لما يكون تجاه العالم الإسلامي أو خارج نطاق الجغرافيا الإسلامية.

---

(٢٧٢) انظر: عبد الفتاح، سيف الدين. القرآن وتنظير العلاقات الدولية، في المداخل المنهاجية، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، سلسلة العلاقات الدولية، ج٣، ص٧٣

أولاً: مفهوم الفجوة التنظيرية بين الشرق والغرب

نقصد بالفجوة التنظيرية في دراسة الآخر الفارق يننا وبين الغرب في التوجه لدراسة الآخر دراسة علمية في مختلف المجالات لفهمه واستيعابه والتعامل معه...ويختلف مفهوم التنظير هنا عن أي مجال آخر في كون التنظير لدراسة الآخر يعني فيما يعني إضافة إلى مسح البيئة والمجتمع المستهدف دراسته مسحا أفقيا وعموديا مع الكشف عن العلل البنيوية التي تكمن وراء التغيير والتغير الحاصل فيه ..وهذا معناه أن التنظير ليس مجرد دراسة وصفية لحقل جغرافي أو معرفي ما إنما هو كما يقول فان دالين :" ليس أداة زخرفية يلهو بها العلماء وهم قابعون في أبراجهم العاجية، ولكنه أداة عملية تمكّنهم من اكتشاف الميكانيزمات الكامنة وراء الظاهرات، ويزودنا التنظير بالمعالم التي تقودنا على طريق البحث، وبدون التنظير لا يمكن اكتشاف معرفة جديدة. "[٢٧٣] ، وهي فجوة تنظيرية حادة تفصلنا عن الغرب في فهم الآخر فهما صحيحاً، تعقبها فجوة هائلة في تقدير حجم الآخر وطبيعته ،هذا فضلا عن الفجوة العلمية والمنهجية التي تلي هذا التطاول الزمني والبعد في دراسة الآخر بين الطرفين ..وإذا كان القارئ يستشعر معي في هذه الصفحات طبيعة المسألة التي نحن بصدد الكشف عنها، فإننا سنقول بصراحة أولا أننا أمام هزيمة أدبية وأخلاقية حيث عجزنا عن الموائمة بين أبسط شروط حركة الحياة وهي مسايرة الواقع، ومن ضمن شروط هذه المسايرة فهمه والتعرف على مكوناته وتركيبه وعناصره، ومن ثم الانخراط فيه انخراطا ايجابيا ...وهذا من تجليات هذه الفجوة بيننا بين الغرب .فالغرب له القدرة والإرادة والإمكانات التي تؤهله وتمكنه من دراسة الآخر، ونحن نملك الرغبة ولا نملك الإرادة، وهذه أزمة أخرى علاجها يستوجب إعادة النظر في متعلقات

---

(٢٧٣) حسن مصطفى عبد المعطي وهدى محمد قناوي، علم نفس النمو ، دار قباء للنشر والتوزيع ج١ ،ص : ١٨٨ .

هذه المسألة.

هذا وتلي هذه الفجوة فجوات أخرى تساهم في زيادة الفارق بيننا وبينهم في الإقبال على مثل هذا النوع من الدراسات مثل الفجوة التقنية والفجوة المعلوماتية والرقمية، وحتى فجوة استخباراتية عن الآخر ،وتليها فجوات أخرى تتبع الوضع العام في الحضارة الغربية مثل فجوة الأداء المؤسساتي للاستشراق، فالمعلومات المهمة لا نملكها والموجودة لا نستخدمها ولا نستفيد منها كما يستفيدون هم منها، وحتى الفجوة اللغوية لها نصيب من الأمر باعتبارها وسيلة للتواصل وفهم تراث الآخر. فالغرب قطع أشواطا هائلة في الإلمام بزمام اللغة العربية ،ومعها لغات العالم الإسلامي منذ أن بدأ الاستشراق إلى اليوم، إذ لا تزال الكثير من الدوائر الغربية تعتمد في تعريفها "المستشرق" بأنه من " تبحر في لغات الشرق وآدابه " كما في قاموس أكسفورد . " [٢٧٤]

لقد تفوق الغرب على الشرق من قبل كما هو شأنه اليوم، فقد أحصى إدوارد سعيد ما كتب عن الشرق خلال قرن ونصف، أي بين (١٨٠٠-١٩٥٠) فوجده أكثر من ٦٠ ألف كتاب،[٢٧٥]. وما ألف بعدها أكبر بكثير ..من هذه الأرقام ، خاصة مع ازدياد حجم فجوة التنظير الاستشراقي عن الإسلام مع مأسسة الصراع والعمل الاستشراقي ضمن مراكز الدراسات الاستراتيجية حيث أصبحت المطابع تقذف في اليوم الواحد عن شؤون الشرق وقضاياه ما لا يقدر الفرد على إحصائه بسهولة فضلا عن دراسته وتحليله..

لقد استفاد الغرب من مراجعة فكره تقييما وتقويما مع إدراكه لأهمية وخطورة

---

(٢٧٤) آربري، المستشرقون البريطانيون ، تعريب محمد الدسوقي النويهي، لندن: وليم كولينز ، ١٩٤٦،ص٨،

(٢٧٥) انظر: إدوارد سعيد ،الاستشراق ، ص، ٧٣

هذا البعد الاستراتيجي المؤسساتي في الصراع ،فقد كان من توصيات مؤتمر كولورادو المنعقد سنة ١٩٧٨ الحاجة الماسة والملحة إلى "مئات المراكز لفهم الإسلام ولاختراقه في صدق ودهاء ..." (٢٧٦)

أدرك الغرب جيدا ثمرة التنظير ودراسة الآخر من خلال هذه المراكز فعمل منذ بدايات القرن الماضي على تأسيسها وتوجيه سياساتها ورؤيتها للتركيز على زيادة فهم ودراسة العالم الإسلامي أكثر من ذي قبل ، "وفي دراسة قام بها مدير برنامج مراكز التفكير والمجتمع المدني في برنامج العلاقات الدولية بجامعة بنسلفانيا في مدينة فيلادلفيا الأمريكية نشرتها مجلة Foreign Policy في عدد كانون الثاني / شباط ٢٠٠٩، من أن عدد هذه المراكز في الولايات المتحدة الأمريكية وصل ما يقارب (١٨٧٢) مركزاً منتشرة في جميع الولايات الأمريكية من إجمالي حوالي (٤٠٠٠) مركز على مستوى العالم، .. في حين ذكرت الإحصائية أنَّ عدد هذه المراكز في العالم العربي لا يتجاوز (٢٥) مركزًا" كثيرٌ منها يفتقر لأبسط الإمكانات التي تؤهله للقيام بعمله ." (٢٧٧)

ثانيا: فجوة التنظير الإسرائيلي عن الشرق (نموذج تحليلي)

إذا ما نظرنا إلى الوضع الجيوسياسي في المنطقة العربية وتفحصنا دالة التنظير الإسرائيلية عن العالم العربي والإسلامي سنكتشف أننا أمام فجوة

---

(٢٧٦) التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي ،الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو ص: ٤٥٢ ..طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطا ، سنة ١٩٩١ م.

(٢٧٧) أنظر: مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية : مراكز الدراسات وإدارة الصراع بين الشرق والغرب، http://www.aqsaonline.org/default.aspx

تنظيرية واسعة بالمقارنة مع ما يقدم في العالم العربي والإسلامي كله عن دراسة حول إسرائيل فقط، وهذا يحيلنا إلى مدى خطورة الوضع وصعوبة حلحلته في المستقبل القريب في ظل بقاء دالة التنظير بين الطرفين على ما هي عليه.. إذ يبلغ عدد عدد مراكز الدراسات الاستراتيجية المتنوعة إسرائيل لوحدها " أكثر من (٢٠) مركزاً ضخماً، بخلاف تلك المراكز التي يمولها اليهود في دول الغرب والولايات المتحدة لتوجيهها بم يخدم أهدافها."(٢٧٨)

أما مقدار ما تترجمه إسرائيل من الكتب العربية إلى اللغة العبرية لمتابعة دقائق الأمور فيها فتشير الكثير من التقارير إلى أنه يتجاوز ١٥.٠٠٠ كتاب سنويا، هذا فضلا عن " كون إسرائيل تتبوأ المركز الرابع في العالم في نشاط البحث العلمي، وتتقدم عليها فقط سويسرا والسويد والدانمارك من حيث عدد المقالات العلمية لكل مليون مواطن، حيث نشر العلماء الإسرائيليون ٦٣٠٩ بحوث في دوريات علمية أجنبية، ويقارب دورهم في النشاط العلمي العالمي عشرة أضعاف نسبتهم من سكان العالم، .. وهي أعلى دولة في العالم من حيث نسبة الإنفاق على البحث العلمي من الناتج القومي. ..كما تعتبر فيها مراكز الدراسات ظاهرة إسرائيلية مميزة بصياغة التعاطي مع السياسة العالمية"(٢٧٩)

وقد تناولنا سابقا في موضوع الاحتياج العسكري للدليل الاستشراقي مسألة اهتمام الغرب بقطاع الفكر والتنظير باعتباره أداة استشعار الخطر القادم من الشرق. ورأينا كيف تحامل المجتمع الإسرائيلي ورجال السياسة والعسكرية على مؤسسة الاستشراق في إسرائيل بعد حرب وهزيمة ١٩٧٣م ، فبالقدر الذي اعتبرت هزيمة ٧٣ جرح غائر للجيش الإسرائيلي بقدر ما اعتبرت في الوقت

---

(٢٧٨) المرجع ذاته .

(٢٧٩) انظر: الجزيرة نت ، البحث العلمي في إسرائيل وصناعة القرار
/http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/٢٠١٢/٧/٢٢

ذاته نكسة استشراقية، لأنها فشلت في تقدير قيمة الآخر وتوقع جهوزيته المعنوية والفكرية وأهلية الكيان العربي للحراك بعد الهزيمة.

هذه العينة الإسرائيلية تعطينا تصورا واضحا عن مدى حساسية موضوع التنظير الغربي عن العالم الإسلامي والذي لا يقل في خطورته عن أي دولة أخرى؛ لأنها مسألة استراتيجية في تقديراتهم بعكس ما هي عندنا من نوافل البحث العلمي التي يمكن الاستغناء عنها .فهذا الكاتب الأمريكي مارتن كريمر مؤلف كتاب "الأبراج العاجية على الرمال: فشل الدراسات الشرق أوسطية بالولايات المتحدة الأمريكية" يهاجم هجوماً صاعقاً سائر المستشرقين الأميركيين ، وأساتذة دراسات الشرق الأوسط (ويعني المستشرقين الجدد) هناك لأنهم فشلوا في تنبيه الولايات المتحدة إلى خطورة الراديكاليين المسلمين". (٢٨٠)

ثالثاً: لماذا تفوق التنظير الاستشراقي على التنظير الاستغرابي

بالرغم من حالة العطالة التي تعيشها النخب الفكرية إزاء موضوع " علم الاستغراب" في العالم العربي والإسلامي وكون هذا الأخير في مرحلة جنينية لا تسمح لنا أن نقارنه بالتفوق والتقدم الذي تحققه الدراسات الغربية في التنقيب عن الشرق الإسلامي ، ومع كون المقارنة غير متأتية بالمقارنة مع الشوط الذي قطعه الغرب في هذا الميدان، وبين بعض المحاولات الاستغرابية العشوائية التي تفتقد إلى أهم عناصر النجاح وهي" **المأسسة** " و" **قوة التنظير**". وإذا تجاوزنا عامل المأسسة باعتباره ليس شرطا لازما ، فلا يمكن أن نتجاوز تلك الكتابات الاستغرابية التي تفتقد إلى القوة التنظيرية والتي من شروطها الاستناد إلى خارطة معرفية دقيقة ترتبط بعناصر الاحتياجات

---

(٢٨٠) . أنظر : موقع مركز تشبيك للتنمية والدراسات ، الاستغراب بين الضرورة والترف والتحريف... محاولة لفهم الغرب، http://www.alshirazi.com/world/article/٤٢٦.htm

الخاصة للعالم الإسلامي من دراسة الآخر (الأولويات والأهداف والاستراتيجيات والأدوات...)، عكس ما نجده في الاستشراق..

بالرغم من ذلك كله؛ فإننا سنقوم بهذه المقارنة والمقاربة لاستخراج عناصر القوة والضعف في التنظير الاستشراقي والإستغرابي للبناء عليهما تقييما وتقويما فيما يخص تطوير عناصر الدرس الاستغرابي ... لماذا أنشأ الغرب هذا الفرع من فروع المعرفة واهتم به حيث وفر له الآليات والإمكانات المناسبة لنجاحه، حتى اعتبر أحد القطاعات الإستراتيجية الضامنة لسلامة وديمومة الأمن القومي الغربي، وفي المقابل لا نجد في العالم الإسلامي ما يقابل عُشر هذا الحراك الفكري الغربي تجاه العالم الإسلامي ؟..لماذا نجحوا في دراستنا وعجزنا عن ذلك .؟ أين يكمن الإشكال. ؟ ما هي العوامل التي ساهمت في إنتاج هذا الكم الهائل من النظريات الاستشراقية حول العالم الإسلامي. ؟ لما عجزنا عن تقديم أنموذج استغرابي في جامعاتنا بعد أكثر من قرن على مضي دعوات ،جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، والشيخ رشيد رضا؟ ..ألا تعتبر الكتابات الأولية في الاستغراب قاعدة وأرضية للانطلاق نحو تأسيس محكم لعلم الاستغراب وتأصيل قضاياه .؟

أ- أين الخلل :

لقد بدأ الغرب المسيحي في دراستنا قبل قرون من الزمن وحالته الحضارية لم تكن جاهزة لهذا المطلب، ولم تكن أوضاعه أيام القرون الوسطى لتسمح له أن يرفع عينيه إلى مدى أبعد من أسكفة بابه وتخومه الجغرافية فضلا عن أن يهتم بالآخر في جوانبه الفكرية والثقافية والاقتصادية، ومع ذلك أسس هذا العلم واهتم به .؟ ، وكان أداته في احتلال العالم الإسلامي وإخضاعه ؟، وإذا كان الغرب قد تحرك بوعي أو بدون وعي إلى تأسيس هذه الشعبة العلمية الممثلة في الاستشراق، باعتبارها أحد احتياجاته المعرفية الملحة، أليس لنا ذات الاحتياجات المعرفية التي تدعونا وتدفعنا لدراسته. ؟ لماذا يكون لهم

استشراقهم ولا يكون لنا استغرابنا. ؟

هناك إذا شيء ما في ميزان الرؤية الحضارية يقول إن الوضع أشبه ما يكون بالكارثة ، فحركة التاريخ منذ قرون يصنعها الغرب كأفراد ومؤسسات، تاريخنا، اقتصادنا، سياساتنا، قراراتنا، مجتمعنا، علاقاتنا، يصنعها الغرب ... ولك أن تقول إن الأمة وصلت مع ما فيها من صفات الخيرية إلى مرحلة الكَلُّ الذي لا يقدر على شيء، حتى غدونا بحكم كلالتنا الحضارية أعجز عن دراسة وضعنا دراسة علمية فضلا عن أن ندرس واقع غيرنا باعتباره واقع متداخل مع محيطنا العربي والإسلامي ،ولذا كانت الصدمة بادئ الأمر كبيرة حين حاول البعض أن يوليه وجهه شطر الغرب لدراسته وكيف لا تكون كذلك واغلب المحاولات التي انطلقت في دراسته تفتقد إلى الأطر المنهجية والمعرفية الضامنة لسلامة البحث.

لقد أصاب حسن حنفي حين عبر عن هذا الوضع لدى الكثير من المفكرين العرب لما قال:" "بدلاً من أن يرى المفكر والباحث صورة الآخر في ذهنه رأى صورته في ذهن الآخر، بدل أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الآخر. ولما كان الآخر متعدد المرايا ظهر الأنا متعدد الأوجه."[٢٨١]..فمن الطبيعي والحالة هذه أن تختلط الموازين وتضطرب اضطراباً شديداً لغياب استراتيجية تنظيرية متكاملة عن الموضوع.. فحسن حنفي مثلاً نظر في الفكر الاستغرابي من زاوية اليسار الإسلامي ، كما نظر من قبله ادوارد سعيد وهو مسيحي الديانة ، ومن قبلهما جمال الدين الأفغاني، والطهطاوي وخير الدين التونسي والمطبقاني.. وغيرهم من المعاصرين من مختلف التوجهات الفكرية.

وبقدر ما اعتبر هذا التنوع تنوع ثراء يخدم الجملة المفيدة لعلم الاستغراب

---

(٢٨١) مازن المطبقاني ،الغرب من الداخل ،ص: ١٨

إذ يزيدها قوة إلى قوتها وبياناً إلى بيانها، بقدر ما يحس المتابع لكتاباتهم وتنظيراتهم أن هناك خللا ما في موقع ما ؟!. قد يرجع بعضهم هذا الخلل إلى كون كل علم يمر بمرحلة التأسيس يصعب عليه الجمع بين التأسيس النظري والتطبيق العملي، وموضوع الاستغراب قاعدته التطبيقية أوفر وأوسع من قاعدته النظرية ما أوجد هوة كبيرة بين التنظير والتطبيق تجسد في غياب واضح لإنتاج استغرابي على مدى عقود من الزمن بعد كتابات هؤلاء.. بل إننا نلاحظ ظهور محاولات للكتابة في الاستغراب خارج السياق الحضاري الإسلامي، وبعيدا عن مساقاته المعرفية الأصلية ووعائه الحضاري وبنيته العقدية. فكيف يمكن لباحث خلفيته المذهبية والفكرية بل والدينية لا تستند إلى النظام المعرفي الإسلامي أن يدرس الغرب في جوانبه العقدية والقيمية، بأي نظام معرفي، وبأي رؤية ومنظار أو منظور يمكن أن يتعرف عليه .

إن الغرب منظوراً إليه من زاوية الاستغراب ليس إلا الإنسان في حاجة إلى يد العون لانتشاله من خطيئته والاستفادة من منجزاته.. بعكس الشرق منظوراً إليه من زاوية الاستشراق ليس إلا الآخر مصدر تهديد أبدي، والفرصة السانحة لاستعباده والسيطرة عليه، ولذا بقي الآخر في الوعي الجمعي الغربي والذاكرة التاريخية الغربية العدو المنبوذ، مع هذه الرؤية النبيلة من الزاوية الاستغرابية نفتقد إلى تلك الآليات الواضحة لإنجاز هذا المقصد الرسالي، ومع الرؤية الاستشراقية المغرقة في القتامة والخطيئة وتوليد آليات الصراع امتلك الاستشراق والغرب أدوات فهم العالم الإسلامي والسيطرة عليه ، وهذا وضع لا يخدم الإنسانية وليس في صالحها.. أين الخلل إذا. ؟

نحاول في هذا السياق من الدراسة، وبهذه المنهجية أن نستعرض جملة من القضايا والمسائل باعتبارها عوامل قوة وتفوق التنظير الغربي في دراسة الشرق، وفي الوقت ذاته نعرج على جملة من العوامل التي كبحت جماح التنظير الاستغرابي في تاريخنا وواقعنا المعاصر ومنعته من أن يأخذ حريته

في الحركة والكشف والمتابعة والتنظير، حتى بقي حبيس مقالات ومقولات كتبت قبل قرن من الزمن .

ب- تفاعل التنظير الغربي عن الشرق بين نمو النظرية والتنظير

لقد استفاد الغرب في تنظيراته لدراسة العالم الإسلامي حين وظف كل المناهج المتاحة أمامه من مناهج كمية وكيفية ،وأصبح لهذا التنظير فلسفة خاصة ومنظرون يرجع إليهم في هذا الشأن، ولذلك نلاحظ أن فجوة التنظير الغربي لدراسة العالم الإسلامي كانت قائمة على أسس فلسفية وظفت الخلاصات المركزة لعلم الاجتماع الغربي في فهم المسلمين، ولذلك نستطيع أن نقول إن الفجوة التنظيرية هي بالدرجة الأولى فجوة سوسيولوجية.

فالتنظير الغربي فيما يخص شؤونه أو شؤون العالم الإسلامي " اقترن على ما يبدو في التفاعل بين حركتين أساسيتن : نمو النظرية والتنظير وقدرتها على إعادة تكوين صورة العالم، ونمو المنهج العلمي وأساليبه...والتفاعل بين الخطوتين أمر ضروري ولازم، فمن يفكرون ينظرون . بلا ملاحظة .بحث ومنهج، ومن يلاحظون بلا فكر كل منهما لا يصل إلى حقائق دقيقة ذات معنى، وإن وصل، فإما إلى تجريدات غير مبرهنة ، أو أكوام من البيانات فاقدة الروح والمعنى ".[٢٨٢]

والقدرة التنظيرية لهذا العلم في الغرب زاوجت بين الخطوتين في الكثير من مراحلها، وجوهر أو أس المشكلة لا يكمن في مدى تحيز التنظير الغربي ، فهو بالنسبة إلى الغرب تنظير مثمر ومنتج. ساعدهم ولا يزال في تحركيك آلات البحث وصب الاهتمام إلى نطاق الجغرافيا الإسلامية ومكوناتها، واستثمار ذلك في توليد آليات جديدة متجددة تزيد في إخضاع وإلحاق العالم

---

(٢٨٢) عبد الباسط عبد المعطي ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ص: ٥

الإسلامي به. وإنما المعضلة بالنسبة إلينا . لا لهم . تكمن في كون ثمرات هذا التنظير في الغرب منطلقاتها مستلة من نظام معرفي يغاير نظامنا المعرفي في القوة والاتجاه والمقاصد والغايات ، ما يعني أن لا ننتظر أن تكون مخرجاته تتساوق أو تتسق مع رؤيتنا للحياة وفلسفتها، أو رؤيتنا لذاتنا موضوع دراسته وهويتنا الحضارية التي نعرفها .

ج: روح التحدي في التنظير الاستغرابي الآسيوي

لقد استشرق الغرب واستغربنا، واستغربت معنا أمم أخرى يعدها الغرب في عداد الشرق الذي يعنى بدراسته، ومنها الصين واليابان، ولكن شتان بين الرحلتين المعرفيتين وبين الاستغرابيين. استشراق الغرب أثمر دراسة لأطراف وبُنية ودالة وفلسفة الحضارة الإسلامية، واستغراب المسلمين لا يزال ينتظر أن يثمر. وهو إذ ذاك لا يزال يراوح مكانه عاجزاً عن صناعة وصياغة نظريات تمكنه من القدرة على رؤية الآخر بوضوح. أما استغراب الأمم الآسيوية من غير المسلمين (الدراسات اليابانية والصينية عن الغرب) فقد كان أقدر على فهم الغرب من المسلمين.

ومع تتلمذ اليابان على يد الحضارة الغربية استطاع أن يؤسس لنفسه نموذجاً اقتصادياً حضارياً نابعاً من موروثة الثقافي الموغل في حضارة (الميكادو، والساموراي كما يقول مالك بن نبي)، فجنح بذلك بعيداً عن عقدة المركزية الأوروبية والغربية، لقد أسس لنفسه مركزية خاصة به . في سنة ١٩٧٩، وجه الخبير الياباني كونو سوكي ماتسوشيتا، رئيس إدارة الكهرباء الصناعية اليابانية، خطاباً سياسياً فكرياً إلى الغرب يدل على فهم عميق لمجريات الأمور في العالم الغربي ومثيلاتها في المجتمع الياباني، وكان مما جاء فيه:

"سننجح لا محالة، والغرب الصناعي حتماً مآله الإخفاق، ذلك لأنه يحمل في ذاته عناصر إخفاقه. لقد ظلت مؤسساتكم (يا أهل الغرب) تيلورية الفكر

(نسبة إلى مذهب تيلور الاقتصادي المعروف)، والخطر المحدق بكم، أن عقولكم تيلورية كذلك! إنكم تتخيلون أن حسن العمل يتجلى في الفصل بين ما ينبغي أن يقوم به أولئك الذين يفكرون، وأولئك الذين ينفذون. فالتدبير عندكم فن تمرير فكر القادة إلى أيدي العاملين والمنفذين. أما نحن فقد نبذنا المذهب التيلوري، وأحطنا علماً بالتحديات التي تجابهنا في المستقبل، وحرصنا على تنمية ذكاء كل العاملين، واستثمرنا أموالنا لتعميم هذا الذكاء، ولجعل الحوار المتبادل مستمراً بين كل العناصر الفاعلة، والعمل أسرة واحدة. إن الإدارة عندنا هي كيفية تجنيد ذكاء الكل، لصالح مشروع يخدم الكل."[٢٨٣]

إن المتأمل في هذا النص إذا أخذناه كنموذج وعينة دقيقة للاستغراب الياباني ليدل على عمق فهم المنظرين اليابانيين لما يجب أن يأخذوه من التجربة الغربية بعد دراستها وفهمها وفلترتها.. وهنا الفرق بين الدراسات العربية والإسلامية، والدراسات اليابانية " فمعظم ما استفدناه من بعثات الترجمة إلى الغرب في القرن التاسع عشر كان لصالح الأدب لا العلم، عكس البعثات اليابانية التي ذهبت لأوربا في الفترة نفسها وانصب اهتمامها كله على ترجمة الكتب العلمية، وشتان بين ما صرنا إليه وما صارت إليه اليابان".[٢٨٤]

ولم يتوقف الحد عند هذا الأمر فحسب بل "تُعقد اتفاقيات مع دور النشر المتميزة في العالم ، لتنشر إصداراتها في اليابان باللغة اليابانية في نفس يوم صدورها في بلادها بلغتها الأصلية، وبذلك لا تتأخر المعلومة عن المواطن الياباني، بل تصله المعرفة بلغته الأم في نفس الوقت، الذي تصل فيه

(٢٨٣) محمد بريش، تعميق الفهم في الفكر الاستراتيجي :مدخل إلى التغيير الثقافي ، إسلامية المعرفة، العدد التاسع ،ص: ٧٤

(٢٨٤) موقع يومية إيلاف الالكترونية

http://www.elaph.com/Web/Culture/٢٠٠٨/١١/٣٧٩٧٤٠.htm:

للمواطن الأوروبي أو الأمريكي"(٢٨٥) . وهذا أحد أسباب نجاح التجربة اليابانية أو إن شئت قلت "الاستغراب الياباني " في ردم الفجوة بينه وبين الغرب، وحرصه على متابعة الغرب في أدق شؤونه حتى أصبح معه كفرسي رهان في التكنولوجيا والعلم والتطور.

رابعاً: التنظير الاستغرابي وعلاقته بالتنظير الفقهي

حينما نفتح موضوع التنظير الاستغرابي من الزاوية المعرفية الإسلامية، فإننا سنفتح معه بالضرورة موضوع التنظير الفقهي الخاص بالعالم الغربي، وهنا نبدأ بسلسلة من الأسئلة المتعلقة بالعلاقة بين المجالين وحدود التأثير والتأثر بينهما .إلى أي مدى اعتبر الجمود في الحركة الفقهية في مسائل الغرب جزءا من الجمود في التنظير الاستغرابي ، أو العكس .؟، هل أثرت رؤيتنا الفقهية عن العالم الآخر باعتباره (دار كفر أو حرب) على نوعية البحوث الاستغرابية وجانب الموضوعية فيها.؟ ،هل يمكن أن نرصد في تاريخ أدبنا الفقهي تلك العلاقة المطردة المتساوقة بين التنظير الفقهي لمسائل الغرب وبين الرؤية الاستغرابية الإسلامية له. ؟، إلى أي مدى تأثر المستغرب (الدارس للغرب) بالأحكام الفقهية والعقدية المترتبة على هذه البيئة في كتاباته. ؟، هل مثلت الاختيارات الفقهية للفقه الافتراضي عن بلاد الغرب صورة من صور التنظير الاستغرابي الفقهي.؟ إلى أي مدى كانت الإجابة الفقهية عن النوازل الغربية القديمة والمعاصرة إضافة تعمق من فهمنا واستغرابنا لهذا الجزء من العالم.

في البداية ثمة أمر ذو بال لابد أن يتفطن له في دائرة التنظير لدراسة الغرب ،وهو ضرورة أن ينطلق المنظر من الواقع لا التاريخ ... فالغرب ليس

---

(٢٨٥) أنظر: شبكة الأخبار العربية

http://www.anntv.tv/new/showsubject.aspx?id=٤٧٤٠#.:

هو التاريخ الغربي كما الإسلام ليس هو كل التاريخ الإسلامي، إذ الكثير من الحقائق التي بناها فقهاء السياسة الشرعية الذين نظروا في الأحكام السلطانية مثلا قد تغيرت في الكثير من كلياتها فضلا عن جزئياتها .. فقد جرى العمل مثلا على تقسيم المعمورة سابقا إلى دار حرب ودار إسلام أو دار الكفر ودار الإسلام .. وبني على هذا التقسيم فلسفة الأحكام الفقهية في التعامل مع الغرب ككل ..كما بني على هذا الاجتهاد صياغة جل المفاهيم المتعلقة بهذا الجزء من العالم سواء في حالة السلم أو الحرب.

أما وقد تغيرت الأحوال والظروف والأسباب والحيثيات فلم يعد هناك مسوغ للانطلاق من ذات المصطلح في التنظير للدراسات الغربية حيث أصبح الغرب دار إقامة الشهادة على الناس... مع ملاحظة المتغيرات الجديدة الطارئة في البيئة والمجتمعات الغربية حيث غيرت كل الموازين، فقد أصبح أهل الإسلام فيها أمة من الأمم يتمتعون بالحقوق والواجبات مثل المواطن الغربي يملكون من حقوق المواطنة ما يملكه نظراؤهم، هذا فضلا عن تعاظم قدرتهم على افتكاك الحقوق الخاصة بهم بالطرق السلمية وهذا هامش لم يكن متاح في التاريخ القديم يجب مراعاته وملاحظته بدقة، وعلى سبيل المثال فقد أصبحت مادة التربية الإسلامية مدرجة في الكثير من مناهج التربية الغربية مراعاة للوجود الإسلامي فيها.

وربما يعكس هذا "التطور شيئاً من آثار الحضور الإسلامي المحلي المحدود في المجتمعات الغربية، أكثر مما يعكس اهتماماً بملايين المسلمين في العالم، أو بعراقة الحضارة الإسلامية وعمق إسهاماتها في تاريخ الإنسان! ويرى بعض نشطاء العمل الإسلامي في الغرب في هذه الظاهرة وأمثالها تأكيداً لوجهة النظر التي تقول إن الحضور الإسلامي المحلي في الغرب على محدوديته أكثر وزناً من مجموع الأمة الإسلامية التي يزيد عددها عن ألف

ومائتي مليون نسمة في ست وخمسين دولة." (٢٨٦)

وإذا حكمنا بمنطق الصراحة قلنا إن المسلم الذي يعيش في الغرب يصبح ويمسي آمنا في سربه على دمه وماله وعرضه بل ودينه أفضل من بقاع كثيرة في العالم الإسلامي، وهذه نازلة حضارية شرعية يكفي أن تغير لوحدها فلسفة التنظير الاستراتيجي حول الغرب من الجذور. ما يحتم علينا في التنظير الإسلامي لدراستنا حول الغرب تجاوز الاجتهاد الفقهي السابق حول الكثير من المسائل والأقضية التي تتعلق بالحالة الغربية انطلاقا من كونه كان استجابة لمرحلة زمنية معينة تحكمها قوانين وأعراف دولية تغيرت لغتها تغيرا لا تخطئه عين الملاحظ البسيط فضلا عن المجتهد والمنظر في المسائل الشرعية التي لها علاقة بغير المسلمين.. كما نذكّر أن البحث في الموضوع يرتبط ابتداءً بالنظام المعرفي الإسلامي حيث التنظير الفقهي مرتبط بسقف معرفي وقاعدة بيانات عقدية وقيمية لا تشذ عن باقي المفردات الأخرى التي تسبح داخل هذا النظام وبالتالي فإن الرؤية الفقهية والتنظير الفقهي القديم لهذه المسألة والمبني على المصالح ليس حاكما على الرؤية الاستغرابية التي تنطلق من منطلقات معرفية إسلامية أوسع واشمل من تلك الرؤية الضيقة للعالم والتي جاءت نتيجة اجتهاد ضرفي تغيرت مبرراته.

انطلاقاً من هذه الحيثيات والمسلمات المعرفية الواضحة لا بد التجديد في التنظير الفقهي المتعلق برؤية الآخر الغربي، حتى يتناسب مستوى التنظير الفقهي مع مستوى التنظير الاستغرابي المعاصر، فالرؤية القديمة قد ارتفع الكثير من مبرراتها كما ذكر الدكتور طه جابر العلواني إن" الفقه الموروث في مجال التنظير لعلاقة المسلمين بغيرهم فهو - على ثرائه وتنوعه وغناه وتشعبه - قد أصبح أغلبه جزءًا من التاريخ، لأسباب تتعلق بالمنهج، وأخرى بتحقيق المناط... إذ لم يأخذ أكثر فقهائنا عالمية الإسلام بعين الاعتبار في

---

(٢٨٦) فتحي ملكاوي ، التحيز في الفكر الغربي ، إسلامية المعرفة العدد ٣٧-٣٨ ، ٢٠٠٤م، ص:٧

تنظيرهم الفقهي لعلاقة المسلمين بغيرهم، بل عبروا عن نوع من الانطواء على الذات لا يتناسب مع حماس الرسالة الخاتمة والأمة الشاهدة. كما تأثر الفقهاء بالعرف التاريخي السائد في عصرهم حول التقسيم الدولي للعالم، فضاقت نظرتهم للموضوع، وابتعدوا عن المفهوم القرآني للجغرافيا." (٢٨٧)

أما الأسباب التي تتعلق بتحقيق المناط فقد ذكر جملة منها يحسن ذكر بعض منها كما أوردها توسيعا للفائدة:

أولاً: لم يعتد المسلمون في تاريخهم – بعد عصر الرسالة – على اللجوء إلى بلاد غير إسلامية طلبًا لحق مهدَر أو هربا من ظلم مفروض، بل كانت بلاد الإسلام في الغالب أرض عز ومَنَعة، ولم تكن تفصل بينها حدود سياسية مانعة.

ثانياً: لم تكن فكرة المواطَنة – كما نفهمها – اليوم موجودة في العالم الذي عاش فيه فقهاؤنا الأقدمون، وإنما كان هناك نوع من الانتماء الثقافي لحضارة معينة، أو الانتماء السياسي إلى إمبراطورية معينة يعتمد المعيار العقائدي، ويتعامل مع المخالفين في المعتقَد بشيء من التحفظ، مع اختلاف في درجة التسامح: من محاكم التفتيش الإسبانية إلى الذمة الإسلامية.

ثالثاً: لم تكن الإقامة في بلد غير البلد الأصلي تُكسب حق المواطَنة بناء على معايير ثابتة، مثل الميلاد في البلد المضيف، أو أمد الإقامة، أو الزواج. وإنما كان الوافد يتحول تلقائياً إلى مواطن إذا كان يشارك أهل البلد معتقدهم وثقافتهم، أو يظل غريباً – مهما استقر به المقام – إذا كان مخالفاً لهم في ذلك.

رابعاً: لم يكن العالم القديم يعرف شيئاً اسمه القانون الدولي أو العلاقات الدبلوماسية، اللذان يحتِّمان على كل دولة حماية رعايا الدول الأخرى المقيمين على أرضها، ومعاملتهم بنفس معاملة الرعايا الأصليين، إلا في بعض الأمور

---

(٢٨٧) طه جابر العلواني ، مدخل إلى فقه الأقليات ، إسلامية المعرفة، العدد ١٣ ،سنة ١٩٩٨م .

الخاصة التي تقتضي حقوق المواطنة التميز فيها.

خامساً: كان منطق القوة هو الغالب على العلاقة بين الإمبراطوريات القديمة - بما فيها الإمبراطورية الإسلامية - فكانت كل منها تعتبر أرض الأخرى "دار حرب" يجوز غزوها وضمها كلياً أو جزئياً إلى الدولة الغالبة، إذ من طبيعة الإمبراطوريات أنها لا تعرف حدوداً إلا حيث تتعسر على جيوشها مواصلة الزحف .

سادساً: لم يعش فقهاؤنا الوحدة الأرضية التي نعيشها اليوم، حيث تتداخل الثقافات، وتعيش الأمم في مكان واحد، وإنما عاشوا في عالم من جزر منفصلة، لا تعايش بينها ولا تفاهم. فكان "فقه الحرب" طاغيا بحكم مقتضيات الواقع يومذاك. وما نحتاجه اليوم هو "فقه التعايش" في واقع مختلف كمًّا ونوعاً.

سابعاً: كان بعض الفقهاء الأقدمين والمتأخرين يعبرون بفتاواهم عن نوع من المقاومة وردة الفعل على واقع مخصوص يختلف عن واقعنا، وفي هذا الاطار ".[٢٨٨]

لهذه الأسباب ولغيرها لابد من منهجية تنظيرية جديدة تفسح المجال وترفع السقف للباحثين في المسألة الغربية ، ومن خلالها تزود علم الاستغراب بطاقة حيوية جديدة تمكنه من الإبداع في اكتشاف الغرب بكل تمظهراته، والرجوع بعد هذه الحركة الكشفية بما يفيد العالم الإسلامي والنخب المؤطرة لحركة الفكر والتكتلات الفكرية المتنوعة، فليس من الشرط أن ينظر في الأمر الإسلاميون فقط إذ التنظير الاستغرابي ليس حكرا على طائفة دون أخرى، بل من المصالح والصالح العام أن تتوسع الفائدة لتشمل الليبرالي والعلماني

---

(٢٨٨) أنظر طه جابر العلواني ، مدخل إلى فقه الأقليات ، إسلامية المعرفة ،العدد ١٩ سنة ١٩٩٨م، ص١٢

والقومي، بل والمسلم وغير المسلم داخل الجغرافيا الإسلامية.

ويستدل على ذلك أن موضوع الاستغراب والاستشراق قد بحث فيه حتى المسيحيون العرب أمثال الكاتب الكبير ادوارد سعيد، كما كتب فيه قادة ورواد التيار الحداثي ممثلا في حسن حنفي في كتابه المعروف، وهي كتابات تنظيرية قمينة بالتثمين والبناء عليها والاسترشاد بها في بابها .

" وإذا كان التنظير الفقهي مما تدرك به الأحكام الكلية في أدائها العام، ومما يبعد عن الزلل عند مقارنة الأحكام الفرعية في نظام قانوني بما يشابهها في نظام قانوني آخر، فإن هذا التنظير الفقهي يصير ضروريا ويجاوز حدود الاحتياج، وذلك عندما يطرق الباحث مجالات قانونية حديثة لم يتعرض لها الفقه الشرعي القديم"[٢٨٩]، ومن هذه الاحتياجات الجديدة التوسع الإسلامي الهائل في البلاد الغربية والوضع والمريح الذي تتمتع به الأقليات الإسلامية فيها.. وهذا ما يقتضى توافقا في التنظير الاستغرابي والتنظير الفقهي..

من الذي سيمد الآخر بوفرة المادة وروح التجديد وسعة التنظير عن الغرب.؟، هل يمكن أن نعتبر التنظير الفقهي في صوره الجديدة (فقه الأقليات) في البيئة الغربية حافزا لرفع مستوى الرؤية لدى المنظِّرين في حقل الاستغراب، ودافعا لرفع الكوابح الملقاة على الاجتهاد التنظيري الاستغرابي السنني كتوجه نوعي داخل مدارس وتوجهات الاستغراب في العالم الإسلامي.؟ أم أن دراسة الغرب ومادة الاستغراب ونوعيتها هي من ستفرض على المنظرين فقهياً التجديد؟ ، الحقيقة الأولى تقول أن الحصيلة التي يجبلها علم الاستغراب كمعلومات أو كمادة تحليلية جاهزة عن واقع الغرب هي من ستكون سببا في تطوير وتحسين الاجتهاد الفقهي والذي يحتاج إلى وصف دقيق ودراسة متأنية لهذا الجزء من العالم وهذا ما سيوفره له "علم الاستغراب". إلا أن الحقيقة الأخرى تقرر أن الرؤية الاستغرابية تسترشد بالرؤية الفقهية عن

---

(٢٨٩) طارق البشري ، منهج النظر في دراسة القانون مقارنا بالشريعة ،العدد الخامس ،ص ٢٥

العالم الغربي، فمنها تستمد جزأ مهما من حركيتها التحليلية ..فكلما توسعت الرؤية الفقهية عن الغرب وأجابت عن أسئلته ونوازله الفقهية كلما كان ذلك سببا في توسع الرؤية الاستغرابية.

خامساً: شروط نجاح التنظير الاستغرابي

أ: . تنزيل التنظير الاستغرابي إلى الواقع

تبقى وظيفة التنظير الاستغرابي الأساسية هي تجويد صورة البحث وآلياته وطرقه وتقديم النموذج الإرشادي العلمي للباحث في موضوع الغرب ، وإذا كان هذا الجزء من هذا العلم على هذا القدر من الأهمية، فإنه في الجهة المقابلة يحتاج إلى تنزيل هذه المعرفة إلى الواقع في شكل مشاريع ميدانية واضحة ترفع من جودة التنظير، وتردم الهوة بينه وبين الواقع في علاقة تفاعلية ، وإلا بقي حبيس الأوراق والأبحاث ...إذا هناك تفاعل بين ما يقال أو يجب أن يقال عن الغرب وبين تطبيق هذه المعرفة والمقولات في الواقع، فالواقع هو الذي يستلهم منه التنظير روح التقعيد والتأصيل والاستشراف، ولذلك عد جانب العمل والتطبيق في الإسلام شرط من شروط ضروري، استنادا إلى مبدأ تراثي مقاصدي يقول: " "روح العلم هو العمل وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به" وهذا شأنه في كل الأبواب والمسائل والقضايا والعلوم.(٢٩٠)

فروح التنظير لدراسة الغرب وذروة سنامه وفائدته العظمى هو التطبيق والترجمة الميدانية في شكل دراسات ومراكز، وإلا كان طلقة فارغة تحدث دويا ولا تصيب هدفاً، هذا فضلاً عن الفجوة التي ستتضخم وتزداد بين التنظير باعتباره احتياج ومدد معرفي لازم لهذا العلم، وبين التطبيق الذي هو مخرج من مخرجاته وهو ما يؤدي إلى عدم جدوى التنظير. لاحظ مثلاً أن التنظير

---

(٢٩٠) الشاطبي، أبو إسحق. الموافقات، تعليق الشيخ عبد الله دراز بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت.، ج١، ص ٤٦.

الاستشـراقي كـان يتسـاوق مـع المشـاريع الميدانيـة التـي تتـرجم النظريـات والمقـولات الاستشـراقية فـي شـكل برمجيـات سياسـية واقتصـادية وثقافيـة وعسـكرية.. وكانـت هـذه الموائمـة بـين النظريـة والتطبيـق أو بـين التنظيـر والإشراف على تنزيل وتطبيق هذه النظريات أحد روافع النجاح في دراسة الغرب للشرق، فالمستشرقون مع كونهم فلاسفة الحركة الاستعمارية كانوا ضباطاً في أجهزتها.

"وكان المستشرق الهولندي سنوك هرجرونيه يعمل مستشاراً لحكومته في تخطيط سياستها ضد أندونسيا المسلمة، كما كان ماكدونالد المستشرق البريطاني مستشاراً لحكومته في تخطيط سياستها ضد المسلمين في شبه القارة الهندية. كما كان " جب " يعمل أيضاً مستشاراً للحكومتين البريطانية والأمريكية في تخطيط سياستها الموالية لإسرائيل. أما ماسنيون فكان يقدم خدماته الاستشارية للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، ولا يزال برنارد لويس يعمل مستشاراً للحكومة الأمريكية والإسرائيلية " (٢٩١)

كما كان نداف سفران المستشرق اليهودي المعروف "من المشاركين في حرب ١٩٤٨م، تولى إدارة مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد، كان أبرز مستشاري كيسنجر، حينما تولى منصب وزارة الخارجية الأمريكية... أما في إسرائيل فقد تولى كل من المستشرق تسفي لينير، والمستشرق اسحاق أورون مركز البحوث السياسية في وزارة الخارجية.. وعمل المستشرق "تسيفي البيلغ " حاكما عسكرا خمس مرات بعد كل حرب من الحروب التي شنتها إسرائيل ، كما عمل المستشرق موشي موعوز مستشارا لوزير الدفاع

---

(٢٩١) أنظر أحمد عبد الحميد غراب ، رؤية إسلامية للاستشراق ،المنتدى الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١١هـ لندن ،ص:

الإسرائيلي عيزر ويزمان " (٢٩٢)

هذا الاحتكاك المباشر للمستشرقين هو الذي ساعدهم على بلورة مشروعهم الثقافي والسياسي، كما سهل عليهم تجديد خطابهم وتطويره والخروج به من أزماته التي يتعرض لها بفعل انكشافه وتعريته في السنوات الأخيرة، وقد أخطأ وما أصاب من قدر وفكر بأن الاستشراق وفلسفة التنظير الاستشراقية قد توقفت وأصبحت علما في أدراج التاريخ، إذ أنه انتقل إلى فضاءات معرفية جديدة لم نعهدها من قبل فهو في طبعاته الأخيرة يمكن اعتباره وتصنيفه ضمن نطاق موضة الحداثة وما بعد الحداثة النابعة من الفلسفات الغربية العدمية. وهناك رفعوا من جرعات ومستويات التنظير بخصوص العالم الإسلامي إلى مراحل جديدة تمثل الجزء الأخير من مشروعهم المعلن في أدبيات الاستشراق وهو تفكيك البنية الميتافيزيقية والمنظومة المعرفية الإسلامية من الداخل بعد محاولة إسقاط الشرعية والمشروعية عنها من الخارج بتشويهها بين أبنائها قبل أعدائها تحت مسميات مختلفة،" ولا زالت الحالة، كما هي في وقتنا الراهن، وإن اختلفت التسميات. فالمستشرق المعاصر قد لبس رداءً جديداً وبات يمارس مهامَّ مستحدثة، ويؤسس خطاباً معرفياً يوظفه السياسيون في التعامل معنا، والتأثير في البيئة التي تحيط بنا. كما أوغل مستشرقو هذه الأيام بدراساتهم وتحليلهم الدقيق لتربة مجتمعاتنا، ووصلت مشارطهم إلى طبقات تستقر تحت أدمة بشرتنا، وعمدوا إلى توظيف تقنيات جديدة، بدأ تأثيرها يرهق منظومتنا الثقافية، التي باتت تعاني باستمرار من هزال دائم، وقهر مقيم، إزاء آلتهم الثقافية القاهرة". (٢٩٣)

---

(٢٩٢) إبراهيم عبد الكريم ،الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل ،دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ،عمان ،الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ٧٢

(٢٩٣) مقارنة محوسبة بين نهج برنارد لويس ودانيال بايبس في معالجة مسائل استشراقية معاصرة ،حسن مظفرالرزو، العدد : ٤٤ ،ص٦

ب: التشبع المعرفي بالغرب:

الكثير من الدراسات المعاصرة التي تدور وتسبح في فلك التنظير الاستغرابي توقفت عند حدود متن مادة الاستغراب وتخومه، ولم تقتحم عقبته الكؤود وميدانه الصعب ...قد يكون ذلك نتيجة الافتقاد إلى الآليات الضرورية واللازمة لتحقيق هذا المقصد مثل التشبع المعرفي الشامل والدقيق بالغرب كمنظومة متكاملة تمتنع وتتأبّى عن الفهم دون وجود رؤية موضوعية شاملة عنها. فمن لم يقبع في أحشاء التجربة الغربية ويعاين المجتمع الغربي عيانا لا خبرا، ويحلل منحنياتها البيانية صعودا ونزولا في مختلف الميادين ،لا يمكن أن يظفر بتفسير دقيق لظاهرة من ظواهرها الحالة فيها أو المرتحلة منها إلى القارات والمجتمعات الأخرى.

فهذا "لورانس المعروف بلورانس العرب (صاحب كتاب أعمدة الحكمة السبعة) قضى عقوداً طويلة وشاقة في العالم الإسلامي لدراسته والعمل عليه، وهكذا همفر (صاحب مذكرات المستر همفر)، وهكذا فينتور دي بارادي (الساعد الأيمن لنابليون) الذي قضى أربعين سنة يتجول في العالم الإسلامي ويدرسه قبل أن يلتحق بحملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) والذي اصطحب معه في حملته العسكرية أكثر من (١٦٧) عالماً، ومن مختلف الاختصاصات) ، وعلى نفس الطريق سار المستشرق اليهودي غولدزيهر (١٨٥٠- ١٩٢١) فقد سافر إلى الشرق عام ١٨٧٣ م وحطّ رحاله أولاً في القاهرة حيث كان أول أوروبي يقبل كطالب في الجامع الأزهر وقد لبس الزي الديني مثله في ذلك مثل بقية الطلاب". [٢٩٤]

إننا نوصي وبإلحاح أن يكون للمنظرين في الاستغراب اطلاع على الثقافة الغربية ويعاينوها عن كثب مثلما فعل المستشرقون حين درسوا العالم

---

(٢٩٤) موقع مركز تشبيك للتنمية والدراسات ، الاستغراب بين الضرورة والترف والتحريف ... محاولة لفهم الغرب، http://www.alshirazi.com/world/article/٤٢٦.htm

الإسلامي دراسة وافية ،ليس من مصادر الكتب بل من خلال تجاربهم الخاصة وزياراتهم لأصقاع وبقاع الأمة الإسلامية من شرقها إلى غربها، وهي المعرفة التي زادتهم قدرة على فهم الإسلام والمسلمين فكان شعارهم في تنظيرهم الاستشراقي عن الشرق كل الشرق "ليس الخبر كالمعاينة" ولم يكتفوا بالمعاينة والمشاهدة عن كثب بل شاركونا في الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية، فكانوا في كثير من الأحيان مراجع إليها ينتهي القول الفصل.

فهذا" أرمينوس فامبري (١٨٢٣/ ١٩١٣م) مستشرق ورحالة يهودي هنغاري، عمل في الآستانة سكرتيرا لفؤاد باشا ،وأسلم منذ ١٨٥٧م، وقد تجول في أواسط آسيا (١٨٦١/ ١٨٦٤م) ثم ذهب إلى بودابست وتنصر، وعين أستاذا للغات الشرقية في جامعاتها .. وكان يستغل صداقته الشخصية مع الملك إدوارد السابع ،والسلطان عبد الحميد، في تقديم الخدمات إلى هرتزل والصهيونية لقاء مبالغ مالية.. تحدث عنه هرتزل في مذكراته بقوله :" يؤلف كتبا بالألمانية، ويتكلم إثنى عشر لغة بإتقان، اعتنق خمسة أديان، وخدم في ديانتين منهما كرجل دين .."[(٢٩٥)]

لن ينجح التنظير الاستغرابي في دراسة الغرب كما نجح الاستشراق القديم والمعاصر في تحليل البنية العميقة للعالم الإسلامي وفهم جذوره من الأساس إلا إذا سلكنا مسالكهم في هذا المضمار ...

ليس الهدف هنا مراكمة أكبر قدر من المعلومات عن الغرب وفقط ،وإن كان هذا ضروريا، وإنما الهدف القدرة على تحليل الظاهرة الغربية تحليلا معرفيا شاملا يمكننا من رؤيتها كما هي في الواقع ..من خلال مصادرهم الأصلية ..وهنا لابد من تفعيل حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى العربية ، قصد الإلمام بما يكتبون وإلى أين انتهت أقلامهم وهذا مهم في رصد

---

(٢٩٥) إبراهيم عبد الكريم ،الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل،ص٤١

تحولات الفكر الغربي.. فمن الطرائف التي وردت في تقرير "حال التنمية الإنسانية في البلدان العربية"أن مجموع الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية منذ عصر الخليفة العباسي المأمون حتى اليوم لا يزيد على المائة ألف كتاب. وهذا الحجم يوازي - تقريباً- ما ترجمته إسبانيا - أو الناطقون باللغة الإسبانية- في عام واحد، وأن ما يترجم إلى العربية سنوياً - أي في الوقت الحالي- هو حوالي ٣٣٠ كتاباً"[٢٩٦]

ج ـ تعزيز التنظير الاستغرابي بالنظريات السننية

ليس غريباً أن نجد مفاتيح التنظير الاستغرابي في القرآن الكريم واضحة سهلة الاقتناء مع تلك الآيات البينات المستحثة على السير في الأرض وملاحظة مصير الأقوام وظواهر السماوات والأرض ومظاهرها وطبيعة المجتمعات البشرية ومصائرها، هذا اللون من الخطاب السنني جزء من الخطاب الإلهي الذي دأب عليه القرآن الكريم طوال فترة التنزيل ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٠

يقول الطاهر بن عاشور "وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقّق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله أو لتطمئنّ نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدةَ عيان، فإنّ للعيان بديع معنى" [٢٩٧]

فالسير منهج علمي قائم بذاته يستصحب معه كل الآليات والأدوات المحققة لمقاصده من عقل وحس وملاحظة وتمعن وإمعان، وتدبر واعتبار

---

(٢٩٦) انظر موقع :إسلام ويب .
http://www.islamweb.net/mohammad/index.php?group=articles&lang=A&id=٢٠٤٨٢

(٢٩٧) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤، ص: ٩٤.

واستخلاص وتفكير وتقدير قال الكرماني: "أمروا باستقراء الديار، وتأمل الآثار، وفيها كثرة، فيقع ذلك سيرا بعد سير وزمان بعد زمان، ليعلم أن السير مأمور به على حدة، والنظر مأمور به على حدة".(٢٩٨)

وبهذا؛ فالمنظّر في ميدان الاستغراب إذا كانت حصيلته المعرفية بالسنن الإلهية ضحلة فإن فهمه وتنظيره سيكون من جنس وكم تلك المعرفة ،نقول هذا ليس لأن البحث مرتبط بالنظام المعرفي الإسلامي فحسب ، بل لأن السنن والنواميس الإلهية هي الأداة التي نستطيع أن نفسر بها حركة التاريخ ونفهم بها وضع الآخر وتموضعه وواقعه وتوقعه، فنستشرف لمجتمعاتنا ومجتمعاتهم، فالواقع الراهن في الغرب اليوم ليس وليد الصدفة، وإنما هو نتاج تحريك غربي ذكي للسنن والقوانين، وحركة المجتمع والتاريخ فيه مرتبطة بحركة الإنسان ووعيه وقدراته التسخيرية ،فلما تحرك الإنسان تحرك معه التاريخ كله (المستقبل).

وإذا كانت النظريات الاستغرابية المطروحة لتفسير الواقع الغربي تحتاج إلى نموذج إرشادي Paradigm (منظور معرفي) يزودها بالإطار العام الذي يجب أن يكون عليه ذلك الواقع المدروس، فإن النظريات السننية فضلا عن كونها تمتاز بالوضوح فإنها تحتكم إلى نموذج إرشادي معرفي غاية في الدقة والإحكام. وهو ما يعطيها الأهلية والقدرة على التحليل والتركيب بأريحية معرفية ومنهجية ضامنة، ومن ثم فإن الجمع بين النظريات الاستغرابية في تحليل الواقع الغربي وبين النظريات السننية لا يعطينا تفسيرا علميا سننيا لما هو عليه الغرب فحسب، وإنما سيمدنا بصورة شاملة متكاملة عن هذا الجزاء من العالم كمسلسل واحد لا تفترق حلقاته.

إننا ننطلق كما في البيان القرآني من أن النظريات السننية والقواعد السننية

---

(٢٩٨) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، تحقيق أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ ، ص: ٦٥.

قطعيات لا تتغير، والقطعي السنني قطعي عقدي يتجاوز حدود الاجتهاد التنظيري القابل للأخذ والرد . وقد ذكر الدكتور طه جابر العلواني في هذا السياق كلاما للغزالي أورده العطار في حاشيته على الجوامع فقال:"وللإمام الغزالي تفصيل حسن في هذا المجال حيث قال النظريات قطعية وظنية، والقطعية كلامية وأصولية وفقهية، ونعني بالكلامية ما يدرك بالعقل من غير ورود السمع كحدوث العالم وإثبات المحدث وصفاته وبعثة الرسل ونحو ذلك، والحق فيها واحد والمخطئ آثم ..، ثم قال بعدها: قلت وسنن الكون وقوانينه تندرج في هذه القطعيات "(٢٩٩)

نقول هذا لأننا إذا تمكنا من المزاوجة بين التنظير الاستغرابي والنظريات والقواعد السننية في تحليل الظاهرة الغربية، أو أي ظاهرة إنسانية أخرى؛ فإننا سنتجاوز الأزمة المطروحة في العلوم الإنسانية ومنها العلوم الاجتماعية الغربية اليوم في تشييئها وتفكيكها للإنسان وللظاهرة الغربية نفسها. هذا مع عجزها المطبق عن صياغة قوانين تفسر الظاهرة الإنسانية كتلك القوانين التي تفسر الظواهر الطبيعية، وهذه أزمة ناتجة في الأساس من النظام المعرفي الغربي الذي استبعد الوحي وأقصى الأبعاد الروحية و الميتافيزيقية في العلوم الاجتماعية والنفسية واعتمد في الغالب الأعم على رؤية ونظرة وضعية إمبريقية positivist بحتة. فمن الطبيعي، والحالة هذه، أن يحدث خلل بنيوي في الرؤية للظاهرة الاجتماعية المركبة من المادة والروح.

هذه الرؤية الغربية نفسها هي التي ساهمت في إنتاج مجتمع " نفعي مادي لا وجود للأخلاق فيه.. كما لا يوجد له غاية إلا المادة ،فالتقدم في المفهوم

---

(٢٩٩) أنظر: هاوزين عمر، صباح البرزنجي، معالم في المنهج القرآني: حوار مع الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني، ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مطبعة شفان السليمانية، كردستان العراق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٩م، ص: ٢٢ .

الغربي عملية حركية تعني الانتقال دون تحديد الهدف من الحركة وبذلك يصبح التقدم بلا مرجعية ،أو يصبح مرجعية ذاته ، ومن ثم يصبح هو الوسيلة والغاية.. وتكمن خطورة هذه الحضارة ، انها تتوجه إلى شيئ كامن في الإنسان، وهي رغبته الطفولية في فقدان الحدود والهوية والتحرك خارج جميع المنظومات إلا المنظومة الطبيعية المادية.. وهذه الحضارة الاستهلاكية الجديدة ليست معادية للحضارات الشرقية وحسب، وإنما معادية للحضارة الغربية ذاتها"[٣٠٠]

إذا نجحنا في هذه المزاوجة بين المجالين وتمكننا من تقوية عناصر "الاستغراب السنني " كاتجاه من الاتجاهات الإسلامية المعاصرة الذكية"في تفسير الظاهرة الغربية، فإننا سنرجع بنتائج يحمد عقباها ليس على المجتمع الإسلامي فحسب ،بل وحتى على المجتمع الغربي أيضا باعتبار دراستنا له ستكون هدية إسلامية تمكنه من المراجعة والتقويم ورؤية نفسه من منظور الرؤية الإسلامية، كما تمكننا من الاستفادة منه ومن مظاهر القوة والايجابية فيه؛ دونما خوف على منظومتنا الفكرية والقيمية والعقدية من الاختراق .

وإذا كان القرآن قد مدح صنفا من الناس هم " **الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** " وصلا رحيميا تشريعيا في إطار تجويد وتمتين شبكة العلاقات الاجتماعية، فإن من ضمن ما أمر الله أن يوصل تكوينا المقدمات بالنتائج والبدايات بالنهايات والأسباب بالمسببات، وإيجاد المناهج المناسبة للوصول إلى المعرفة المطلوبة ودراستنا للآخر الغربي هنا لا تثمر طيبا إلا إذا تمكنا من إيصال ما أمر الله به أن يوصل داخل إطار هذا العنوان سننيا بالجمع والتوصيل بين النظريات السننية والنظريات الاستغرابية ، حتى لا يغدو دراسة

---

(٣٠٠) ابراهيم محمود عبد الباقي ،الخطاب العربي المعاصر :عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية ،المعهد العلمي للفكر الإسلامي ،أمريكا ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ،ص:٢٣٠،٣٢٢

الغرب ترفا علميا أو طلقة فارغة تحدث دويا ولا تصيب هدفا .

د: ماذا ستقدم الأركيولوجية السننية لعلم الاستغراب

قلنا سابقا أن التفقه في هذا الميدان يكسب التنظير الاستغرابي السنني مكنة في فهم بواطن الأمور ومساراتها، فالغرب المعاصر لم يصعد فجأة إلى مسرح التاريخ، كما أنه لم يستلم زمام المداولة في العالم من أيدي المسلمين جزافا ..لقد استلمها بشروطها واستحقاقاتها كما هو مقرر في علم المداولة السنني ،إذ لا تعاقب إلا بسنن.. فلا تسقط حضارة إلا إذا فقدت أهليتها الحضارية .. ولا تحل محلها أخرى إلا إذا استكملت الأهلية لذلك، وصدق الله القائل: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٠.والحضارة الغربية واحدة من هذه الحضارات التي تعاقبت وامتلكت زمام المبادرة والمبادأة.. وفي هذا الإطار التحليلي السنني يجب أن يكون تحليلنا لها.

ثم إن المزاوجة بين الحصيلة السننية للمنظّر وقدراته التحليلية في بُنى المجتمعات الغربية هي إضافة نوعية نستعيض بها عن تلك المعارف الممثلة في العلوم الاجتماعية والتي يفتقدها الكثير من المنظرين في هذا الميدان ، والتي تدخل بدورها في شروط نجاح العملية التنظيرية في هذا الحقل. صحيح أن الإلحاح في التنظير . ـ كما يقول الدكتور عماد الدين خليل " مضللاً في بعض الحلقات المعرفية، وقد ينشئ "تقاليد" تزداد بمرور الوقت شيوعًا، فيجد الباحثون أنفسهم ملزمين بأن يقولوا كلمتهم أو "وجهة نظرهم" في مسألة قد لا تحتاج إلى كبير عناء للتأشير على صيغ التعامل معها." . [٣٠١]

---

(٣٠١) عماد الدين خليل ، في منهج التعامل مع التراث ، إسلامية المعرفة ، العدد التاسع عشر ،ص: ١٤٢

ولكن هذا سيحدث لو ترك التنظير الاستغرابي على هوى الباحث الذي لا يستند إلى سقف معرفي يؤطر حركته العلمية في غدوها ورواحها، ويكبح جماح الإثم والعدوان في أحكامها الصادرة على النماذج الأخرى، أو حتى على أجزاء وأطراف النموذج الواحد داخل النظام المعرفي الواحد.. ولذا من السهولة أن نلاحظ أن من بين الذين نظروا للمسألة الغربية، أي الذين حاولوا أن يدرسوا الغرب كأمة وحضارة قلة قليلة منهم من تمكن من استقطاب غيرهم إلى فكرتهم وإقناعهم بنماذجهم التحليلية.

وهذا ليس، لأن الأفكار والمشاريع الأخرى التي لم تلق رواجا في العالم العربي والإسلامي ليست واضحة، أو أنها تفتقد إلى المصداقية والثقل العلمي؛ بل لأن تلك الأفكار التي نظرت لدراسة الظاهرة الغربية - على نحو ما فعل مالك بن نبي حول الظاهرة الغربية أو المسيري في تحليله لقطاع كبير من الأفكار في العالم الغربي - تمت ونمت وتطورت عن وعي كامل بشروط التنظير الخاصة بهذه الكتلة، ولكن من داخل النظام المعرفي الإسلامي مع تمكنهم من أداوت ما نطلق عليه في هذا البحث " **بالأركيولوجية السننية**" التي تتخذ من التحليل السنني والمفاهيم السننية والقواعد السننية كأدوات علمية للحفر المتأني في الظاهرة الغربية يستحضر من خلاله الباحث القوانين السننية الاجتماعية والنفسية والتاريخية و الطبيعية التي حكمت أطوار الحضارة الغربية وصولا إلى واقعها الراهن اليوم.

والأركيولوجية السننية بهذا المعنى، ليست مخصصة لبحث الظواهر الغربية فحسب ، وإنما تاريخ الإنسانية كله ، وإذا كان ميشيل فوكو قد نقل مصطلح الأركيلوجية بوصفه علم دراسة آثار الإنسان المادية من حقله الدلالي إلى حقل دلالي مفاهيمي فكري جديد. سماه فيما بعد الأركيولوجية المعرفية، ثم وظفه في التشكيك في الكثير من الثوابت والقطعيات ،فإننا في الأركيولوجية السننية ننطلق من هذه القواعد والقطعيات كرواسي معرفية للبحث في تاريخ الكدح الإنساني وفي طبقاته المختلفة : النفسية،

والاجتماعية، والتاريخية والحضارية، إننا إذ ننقل هذا المصطلح من حقله الدلالي التاريخي لنوظفه في حقل معرفي إسلامي جديد أسميناه "بالأركيولوجية السننية " إنما نتوخى في ذلك نوعا من المقاربة التجديدية في المعرفة الإسلامية.. ولا نقصد هنا المحاكاة ولا المظاهاة فنظامنا المعرفي بثرائه الدلالي والمفاهيمي يسمح لنا بمثل هذا الاجتهاد التنظيري .. باعتباره علم البحث في الماضي بالأدوات السننية الثابة والمحكمة .

من هذا المنطلق فإذا أردنا أن نعرف سر رواج تلك المشاريع الفكرية التي تحلل الظاهرة الغربية ،فإننا سنرجه إلى توظيفها هذه الآلية السننية ،ولذلك انكشف لهم من بين هذا الركام الهائل ما لم ينكشف لغيرهم من الكتاب والباحثين، ولعلي أعزو أمر نجاحهم في تنظيراتهم التي نضيفها إلى علم الاستغراب إلى ما يلي:

- إنه مع اعتبار التجربة الغربية والظاهرة الغربية مخرج من مخرجات نظام معرفي آخر، إلا أنهم انتبهوا إلى فاعلية وخطورة القانون الإلهي الذي يحكم الظاهرة الإنسانية ككل باختلاف أمشاجها وحضاراتها حيث تتداعى أخطاء الآخرين على الكل تباعا وهو ما عنته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنفال: ٢٥ .

والآية تمنحنا مؤشراً تحليلياً مهماً عن الفتن العابرة للقارات والحضارات والأمم، ومن هنا فإن ظلم الحضارة الغربية إذا قرأنا الآية قراءة سننية عامة سيكون شره مستطيرا على الإنسانية ككل.

من هذا المنطلق الأركيولوجي السنني دعا مالك بن نبي في تنظيراته حول المسألة الغربية إلى اكتشاف ذلك الترابط بين مشاكل العالم الغربي وصلتها بمشاكل العالم الإسلامي يقول في كتابه وجهة العالم الإسلامي: (ولا شك أن هذا الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب، الذي يجعل

من فوضاه الحالية مشكلة عالمية، ينبغي أن نحللها وأن نتفهمها في صلاتها بالمشكلة الإنسانية عامة، وبالتالي بالمشكلة الإسلامية". [٣٠٢]

والأكيد في الأمر أن مالك بن نبي في منزعه التنظيري هذا كان "يهدف من وراء ذلك إلى البحث عن حل سنني لمشكلات العالم الإسلامي، يضعه في إطاره الإنساني، ولا يغفل الحقيقة الموضوعية التي يسير بها منطق التاريخ، الذي صار من أهم ميزاته في أواخر القرن العشرين أن الإنسانية موحدة في مصيرها، ومتشابكة في علاقاتها، مما يحتم علينا البحث في عمق الظاهرة الحضارية في حركتها في التاريخ، دون عزل يقصي الأبعاد المتشابكة لها."[٣٠٣]

وهكذا نجح مالك بن نبي - فيلسوف الحضارة - في دراسة الغرب نجاحا لم يكتب لغيره للأسباب الآنفة الذكر حيث يعلن صراحة أن التجربة الغربية تمثل "درسا خطيراً لفهم مصائر الشعوب والحضارات، هي جد مفيدة لبناء الفكر الإسلامي، لأنها صادفت أعظم ما تصادفه عبقرية الإنسان من نجاح، وأخطر ما باءت به من إخفاق، وإدراك الأحداث من الوجهين كليهما ضرورة ملحة للعالم الإسلامي في وقفته الحالية، إذ هو يحاول ما وسعته المحاولة- منذ قضية فلسطين- أن يفهم مشكلاته فهماً واقعياً، وأن يقوم أسباب نهضته كما يقوم أسباب فوضاه تقويماً موضوعياً."[٣٠٤] .

لقد انطلق الأستاذ مالك بن نبي في تنظيراته من نظريات حاول وضعها لتفسير الظاهرة الغربية كما انطلق من مسلمات سننية أنار بها درب البحث فخرج بجملة مفيدة في الموضوع، وهذا صميم عمل المنظّر، حيث قدم للعالم

---

(٣٠٢) مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، دار الفكر المعاصر بيروت ، لبنان ،الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ص:١٢٣

(٣٠٣) احسن بدران حسن ،لظاهرة الغربية في الوعي الحضاري :أنموذج مالك ص ٥

(٣٠٤) مالك بن نبي ،مرجع سابق ،ص: ١٢٢

الإسلامي لغة تنظيرية في علم الاستغراب لم تعهدها الحضارة الإسلامية من قبل، تماما مثلما فعل ابن خلدون في تنظيراته المتنوعة لعلم الاستغراب في سفره الكبير " المقدمة".

ونرجع الكرّة في نهاية المطاف بعد هذه الجولة لطرح السؤال المحرج، هل سنتمكن في نهاية الأمر من إنشاء وتأسيس فقه الاستغراب يقوم على بيّنات علمية واضحة الأسس والأركان والمعالم، يسترشد بالنماذج التحليلية السننية التي قدمها مالك بن نبي وغيره من المفكرين؟.حتى ندرس الغرب وننخله نخلا علميا نستفيد من تجاربه ونتوقى شروره؟ أم أننا سنكتفي بالوقوف عند تخوم الحديث في عموميات الاستغراب دون الغوص في بحر هذا العلم ، فنكرر الصيحة ذاتها التي أطلقها من دعا من قبل إلى الاهتمام بالغرب وبقيت صيحته بين دفات الكتب وأسوار المؤتمرات ؟ حتما لن نستطيع أن نحقق المقصد الأول من دون الانخراط الفعلي في مشروع فقه الاستغراب السنني انخراطا علميا مؤسسا على أصول البحث العلمي المثمر، والذي يجيب على أسئلة الاستغراب واستشكالاته المتنوعة.

المبحث الثالث:
التنظير الاستغرابي وسؤال المنهجية

تأتي أسئلة المنهجية في مقدمات العلوم ، وذلك أن لكل علم منهجه وأدواته المنهجية المناسبة لتحقيق مقاصده ، وإذا كان الاستغراب هو علم دراسة الغرب؛ فإن السؤال المطروح هنا أن الغرب ليس موضوعا واحد ؟ أي غرب نقصد ونريد؟ هل هو الغرب الثقافي والاجتماعي، أو الاقتصادي والعسكري ، أو الغرب السياسي؟ فكل حقل من هذه الحقول والمواضيع تستوجب منهجا خاصا لدراسته وفهمه واستيعابه، وإلا وقعنا في الخطأ ذاته الذي وقع فيه الغرب حين درس الشرق من خلال الاستشراق، فكانت رحلته العلمية إلى الشرق تفتقد إلى خرائط المنهجية، فكانت كرحلة حمار الرحى المكان الذي ارتحل منه هو المكان الذي ارتحل إليه.

ولهذا؛ لم يكن الاستشراق يرى النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ولكن كان يرى يتيم أبي طالب، كما لم يكن يرى في العرب أرباب الحضارة وأسيادها، ولكن كان يرى فيهم البداوة والقساوة، فكيف ليتيم أن يكون نبيا، وكيف للأعراب أن يصنعوا الحضارة ، وكيف لأمة خرجت من واد غير ذي زرع - أن يعجب الكفار نباته - ، هكذا كان العقل الباطن الغربي يخاطب الوعي الغربي في كل لحظة تسول له نفسه أن يتوجه نحو الإنصاف وهذه نتيجة طبيعية وحصاد متوقع لهذه الرؤية التي تفتقد إلى أدواتها المنهجية فضلا عن مقاصدها النبيلة.

أولا: مداخل الصدق المنهجي ومخرجاته في علم الاستغراب

إذا كان البيان القرآني يقتضى منا تحقيق العدل كقيمة كونية كما في قوله تعالى (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ....)، فإن توظيف المنهج المناسب لدراسة الغرب في جوانبه المتعددة هو جزء لا يتجزأ من معاني العدل

التي تتدلى من هذه الآية، وهو عدل وقسط لا يتحقق إلا بآلياته المنهجية المناسبة.. وهذا ما يجب على المشتغلين بقضايا "الاستغراب وفلسفته " أن يفهموه حتى لا نعيد الوقوع في أخطاء مدارس الاستشراق التي وظفت المناهج توظيفا لا يتناسب مع طبيعة المواضيع المتناولة.

صحيح أن الاستشراق في الغالب الأعم لم يدخل إلى الشرق مدخل صدق، ولذا فمن الطبيعي أن تكون مخرجاته ونتائجه بعيدة كل البعد عن موازين الصدق في تناوله لمسائل الشرق، ولكن على الاستغراب وهو الذي يسعى إلى فهم الغرب ودراسته أن تتطابق مداخل الصدق التي يمتلكها ممثلة في طهارة ونقاوة المقاصد مع الآليات المنهجية في دراسة العالم الغربي ، حتى يحقق المطلب القرآني المعرفي الكلي أي حتى تكون مخرجاته متطابقة مدخلاته، خاصة وأن مقصد الشهود الحضاري والشهادة على الناس التي تنطلق منها "أسئلة الاستغراب" تقتضي منه الدقة (والقسط المنهجي) للإجابة عنها.

وهذا حتى نتجاوز الإجحاف والاضطراب في رؤية الآخر لدى الطرفين " إذ لا يظهر الشرق على حقيقته ولا الغرب على حقيقته، بل صورة كل منهما معكوسة في مخيلة الطرف الآخر ، صحيح أن الغرب اخترع شرقه، ولكن من الصحيح كذلك أن الشرق اخترع غربه،كل من موقعه، وكل بطريقته وآلياته ، وإذا كانت السمة الغالبة في الخطاب العربي المعاصر هي رفض الصورة التي يحملها الغرب تحديدا ، عن العربي والمسلم، مع البحث لها عن سياقات ودوافع، فإن هذا الرفض لا يوازيه تساؤل عن الصورة التي يبنيها العربي عن الغرب ، إنه يتشكى من تشويه الغرب لصورته ، لكنه لا يتنبه إلى أن صورة الغرب ليست أقل تشويها لديه" (٣٠٥)

---

(٣٠٥) مسعود ضاهر ،"العرب والغرب، تاريخ من العلاقات المشوهة" ، مجلة العربي ،وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد ٥١٨، يناير ٢٠٠٢ ، ص ١٤٤ .

ولذا، فإن من الأهداف التي ينخلها علم الاستغراب بالإضافة إلى " فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس " (٣٠٦). تحقيق التوازن والقسط في رؤية الآخر، فالقضاء على مركب العظمة ونرجسية المركزية الغربية، أو ما نسميه في هذه الدراسة "**بتحطيم صنم الكوجيتو الغربي**" لا يبيح لنا القفز على الحقائق أو الحيلولة دون توصيفها كما هي، وهذا ما لا يمكن الوصول إليه دون الإجابة الوافية الكافية عن أسئلة المنهجية وإشكالياتها في علم الاستغراب.

ثانياً: الجملة المفيدة لعلم الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي

حتى نحقق جزأ من مداخل الصدق ومخارجه في فقه الاستغراب لا مناص من المرور أولا على مسألة لا تقل أهمية عن سابقتها ،إن لم تكن أجوبتها عندها ، تلك إذا قضية الجملة المفيدة لعلم الاستغراب . إن فهم البنية المنهجية العميقة للاستغراب كعلم قائم بذاته مستقل في مصطلحاته ومعجمه وفهارسه ومنهجيته ، متوقف إلى حد كبير على إدراك وتحرير "**جملته المفيدة**" كأول خطوة من خطوات التأصيل المنهجي لهذا الحقل المعرفي القديم الجديد. فماذا نقصد بالجملة المفيدة لعلم الاستغراب في هذه الدراسة ؟ وكيف سنتعرف على إثبات النسبة في هذه الجملة ؟ وما هي عوائدها المعرفية على موضوعنا .؟

يعرّف علي جمعة في كتابه الطريق إلى التراث مفهوم الجملة المفيدة للعلوم انطلاقا من كونها المحدد المنهجي الذي يُفهم من خلاله أي علم من العلوم مهما كان الموضوع الذي يتناوله والقضايا التي يتبناها، والإشكالات التي يطرحها، وهي بقدر ما تمثل مدخلا منهجيا نتعرّف من خلاله على الصياغة اللغوية والمنطقية لأي علم من العلوم، تمثل كذلك إطارا معرفيا

---

(٣٠٦) أنظر : حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، ص ، ٢٤

نضبط فيه المفاهيم، ونحدد المصطلحات والمناهج فلكل علم مصطلحاته واستقلاليته.

"هناك مفهوم محدد وتصور معين تتداخل فيه الصياغة اللغوية مع الصياغة المنطقية، وتشكل طابعا عاملا عند صياغة الأفكار..هذا المحدد الأول لهذه الصياغات، هو الجملة المفيدة، ولقد اختلف مفهوم الجملة المفيدة – وكان بارزا ومهما – بين علوم البلاغة والنحو والأصول والمنطق وغيرها، وتنقسم الجملة المفيدة إلى قسمين ظاهرين، وقسم ثالث غير ظاهر، واختلفت تسمية كل قسم من هذه الأقسام باختلاف العلوم التي تعاملت معها، فأهل المنطق يتحدثون ما أسموه بـ: "الموضوع" و"المحمول" والبلاغيون يقولون: "المسند والمسند إليه" والنحويون يسمونها بـ: "المبتدأ والخبر" أو "الفعل والفاعل". ولذلك فالجملة المفيدة نفسها قد سميت بأسماء مختلفة، مثل: القضية، أو المسألة، أو"الدعوى". وكل تلك الألفاظ السابقة متفقة المعنى"[٣٠٧].

وعلى هذا المعنى فلا يخلو علم من العلوم دون أن يكون له جملته المفيدة، ففي" علم الأصول مثلا نجد أن الموضوع – أو الجزء الأول من الجملة المفيدة – هو "الأدلة الشرعية"، وأن "إثباتها للحكم هو المحمول، فالكتاب لا من حيث كونه موجودا في المصحف، أو من حيث كيف يرسم، ولا من حيث حفظه، ولكن من ناحية كيف نستنبط من الحكم الشرعي، وكذلك السنّة والإجماع والقياس"[٣٠٨].

قياسا عليه؛ فالجملة المفيدة مثلا في علم الاستشراق في جزئها الأول :الموضوع / المسند / المبتدأ : هي الشرق، والمحمول أو الخبر أو المسند

---

(٣٠٧) انظر: على جمعة محمد، الطريق إلى التراث الإسلامي: مقدمات معرفية ومداخل منهجية، ص:٢٢٥

(٣٠٨) المرجع ذاته ، ص٢٢٥

إليه هو دراسته من كل النواحي.. فإذا جمعنا بين الموضوع والمحمول خرجنا بجملة مفيدة أو مسألة أو دعوى أو قضية معرفية، وهي هنا في علم الاستشراق مسألة دراسة الشرق؟ وإثباتنا للحكم أو الخبر هنا لا من حيث كون (الشرق) في حيز جغرافي معين اسمه الشرق ولا من حيث توصيفه، ولكن من حيث الكيفية التي يدرس بها، والفائدة أو العائد المعرفي من دراسته.

وكذلك الأمر بالنسبة للاستغراب، فإن الموضوع أو الجزء الأول من الجملة هو الغرب، والجزء الثاني من جملته المفيدة هو بيان حقيقته من جميع أحواله المادية والمعرفية ، و(الغرب) هنا كما (الشرق) ليس من حيث كونه حيزا جغرافيا، وإنما من حيث حقيقته وطبيعته وكينونته، والفارق هنا بين الجملة المفيدة للاستغراب ومقابلها في الاستشراق أن الجملة المفيدة للاستشراق إثبات نسبتها التامة جوابها في النظام المعرفي الغربي مجزأة تضطرب مداخل الصدق (المقاصد) مع مخرجاتها (النتائج) اضطرابا كبيرا بسبب انعدام (القسط المنهجي) أو ضعفه.. هذا إن سلمنا جدلا بقسط المقاصد الغربية من دراسة الشرق أو دعوى الفضول العلمي. ولذلك؛ فإن العدل في رؤية الآخر الشرقي في متن الاستشراق كان جملة اعتراضية، وهذا ما برر للكثير منهم التنازل عنها؛ لأنه لا محل لها من الإعراب في فلسفة الحضارة الغربية، بعكس جملة الاستغراب، فإن نظامها المعرفي الذي تنتمي إليه وتستقي منه أجوبتها يصوبها إلى تحقيق مقصد العدل في الرؤية كل الرؤية (للأنا أو الآخر) إذ العدل كلية عقدية معرفية منهجية لا تتجزأ مع تغير الزمان والمكان .

ثالثاً: أثر الجملة المفيدة للاستغراب في تحديد سلمه المعرفي

بهذه الصياغة والتوصيف للجملة المفيدة التي هي موضوع أي علم من العلوم يسهل تحديد وتصنيف العلوم في إطار ما يسمى"بفلسفة العلوم" كما يمكن تحديد موقعها ضمن علوم التراث، هل هو من العلوم الأصلية أو

الفرعية؟ بالإضافة إلى تحديد المباحث والقضايا التي تلتقي وتشترك فيها هذه العلوم، مع إخراج فصول ومباحث وقضايا لا تتناولها إلا بالعرض.

وهنا تتدخل قضية إثبات النسبة بين الموضوع والمحمول ،فقولنا مثلا دراسة الغرب واجب شرعي وحضاري ؟ هذه جملة مفيدة أو قضية أو دعوى أو مسألة سمها كما شئت ، من قال في هذه الجمل المعرفية المفيدة أن دراسة الغرب واجب شرعي أو حضاري أو ضرورة ؟. ما الدليل على ذلك ؟ .. من أين لنا أن نستدل على وجوبها أو ضرورتها أو أهميتها أو خطورتها. هذه دعوى، ولا دعوى تقبل إلا بدليل سواء كان هذا الدليل من نوع الأدلة الحسية أو العقلية أو النقلية أو كان من الأدلة المعنوية أو المادية أو تشكل من مجموع الأدلة كلها، وهنا تتدخل نسبة إثبات الجمل المفيدة في العلوم لتجيب عن هذه الأسئلة والدعاوى والقضايا ومن ثم تحدد موقعها في سلم النظام المعرفي الذي تنتمي إليه، فالقول إن دراسة الغرب أو تفريغ الطاقات لتحقيق هذا المقصد واجب شرعي وحضاري استفدناه من مجموع الأدلة الشرعية والعقلية، ومن خلال التجربة الواقعية والتاريخية ،وهذا ما يعني بداهة تصنيفه وفق هذه الأولوية..

نستفيد من هذه المنهجية في تحديد الجملة المفيدة لهذا العلم أشياء كثيرة منها:

- أن تحرير الجملة المفيدة لعلم الاستغراب سيقودنا إلى فهم طبيعته وتحرير مستشكلاته.
- أن تحرير الجملة المفيدة لعلم الاستغراب والجواب عن أسئلته المعرفية والمنهجية سيمكننا من ترتيب درجة علم الاستغراب في السُّلم المعرفي الإسلامي أو فلسفة العلوم ،هل هو من العلوم والمعارف الضرورية أو الثانوية..

– ستزودنا هذه الآلية المنهجية (الجملة المفيدة لعلم الاستغراب) من تصور وإدراك العائد المعرفي والمخرجات المعرفية لهذا العلم ..
–أن التركيز على مفهوم الجملة المفيدة لعلم الاستغراب منهجيا سيثمر النظر الدقيق في توسيع قاعدة بيانات هذا العلم وتصنيفها .

– أن الجواب عن أسئلة هذا العلم فرع عن تصور مناهجه المتنوعة ،فعلم الاستغراب يحتوي على عشرات الجمل المعرفية المفيدة مقسمة إلى مجالات كثيرة منها الاقتصاد والسياسة والاجتماع والعمران والثقافة والفكر والعلوم ، ومعلوم أن لكل مجال طبيعته ومنهجه الخاص به في التحليل والتركيب والدراسة يختلف عن الآخر، وهذا ما يثمر ثروة منهجية واسعة ومتنوعة داخل حقل واحد ضمن إطار فلسفة الاستغراب تجمع في نهاية المطاف بين كل المجالات ضمن إطار رؤية توحيدية كليه .

وهكذا؛ " فعلينا عندما نقرأ في التراث أن نبحث في النسب التامة؛ أي أن نبحث في الجمل المفيدة، وإلا فإننا إن لم نستطع أن نحصل للمبتدأ على خبر، ولا للفعل على فاعل، فإنه لا يمكن أن يتشكل لدينا فهم صحيح لنصوص التراث " .(٣٠٩)

---

(٣٠٩) المرجع السابق ،ص:٢٢٥.

المبحث الرابع:

علم الاستغراب حتى لا يكون فتنة (الاستغرابوفوبيا)

انتهينا سابقاً بالقول أن الاستشراق أفسد في الغرب بالقدر الذي أفسده بولس وزيادة، فإذا كان بولس الرسول قد حرف عقيدة التوحيد في المسيحية، فإن الاستشراق والمستشرقون قد حرفوا الحقائق عن حضارة التوحيد، وفي كلا الجانبين كان الغرب هو الخاسر الأكبر، ولكن فعل الاستشراق هذا لم يكن ليتوقف عند حدود وتخوم العالم الغربي الذي أصبح يرى الشرق بمنظار الاستشراق المتحيز؛ فإن فتنته عمت وصمت الكثيرين فدخلت إلى أقطار العالم الإسلامي وأحدثت شرخاً معرفياً إن لم يكن على مستوى المعارف التي حاول تزويرها؛ فإنه كان شرخاً كبيراً على مستوى النخب التي تبنت الرؤية الاستشراقية ممثلة في النخب التغريبية. وعوض أن يكون "الاستشراق " البوابة التي تتصافح من خلالها الأيادي وتتعارف لتتعاون في ساحات المعروف الإنساني، وما أكثرها كان المنصة التي انطلق منها الغرب لغزو العالم الإسلامي، وبدل أن يكون المدرسة التي تُخرج سفراء الحوار بين الحضارات كان البوابة التي تخرجت منه أفواج التغريب وصدام الحضارات.

انطلاقاً من المعاني السابقة، وحتى لا يكون علم الاستغراب فتنة كما كان الاستشراق ، فلابد من دراسة المآلات والأمراض المتوقعة التي قد تصيب الاستغراب في طريق النشأة والنمو والتطور.. ولهذا؛ فلا مناص من رصد دقيق لتحولات الفكر الاستشراقي من مراحله الأولى، بداية من الفضول والظمأ العلمي الذي انتاب الغرب فجأة، فطفق يسير في العالم الإسلامي دراسة وتعرفا، إلى نهايته عند مرحلة الظمأ العسكري وتحوله من خطاب معرفي أيديولوجي إلى خطاب تنظيري عسكري أمني بامتياز. ما هي الشروط الموضوعية التي يجب أن تراعي لمنع هذا التحول في المسار الفكري لهذا العلم .؟

أولاً: فوبيا الاستغراب الأسباب والمبررات:

ليس من الغريب أن ينشأ في فوبيا الاستغراب في العالم الغربي لوجود مبرراته المرتكزة في العقل الأوروبي الذي يعتبر "الجحيم في الآخر " خاصة إذا تعلق الأمر بمثل هذه المشاريع و كان موضوعها "الغرب"، ولكن الغريب أن تأتي الدعوات من المشرق قبل المغرب تحذر من نشأة هذا التخصص والتوجه المعرفي الجديد في العالم الإسلامي ..للاعتبارات التبريرية السابقة الذكر ،فهل يمكن أن نعتبر هذه الظاهرة التي بدأت تتشكل مقبولة أو مبررة ؟ من هي تلك النخب التي تتبنى هذا الخطاب ؟ إلى أي مدى يمكن أن تنشأ هذه الظاهرة في الغرب ؟ وما هي الشروط الموضوعية التي يجب أن نؤسس عليها المعرفة الإستغرابية حتى يتلاقاه الكل القبول الحسن ويساهموا في إخراجه إخراجاً حسناً.؟

انطلاقاً من هذا الاستشكال المعرفي المطروح بدأت الكثير من الدراسات والأقلام المشتغلة في مجال النقد والمنشغلة بموضوع الغرب تظهر عندها "**فوبيا الاستغراب**"، ومع تزايد وإلحاح الدعوات إلى دراسة الغرب..أخذت في الطرف المقابل دعوات أخرى من أبناء العالم الإسلامي تحذر من هذا التوجه الفكري الجديد، وتبدي توجسها منه تارة باعتباره خطاب إيديولوجي بعيد عن المعرفة، وتارة أخرى لكونه سيساهم إذكاء خطاب الكراهية في العالم الإسلامي عن الغرب، ولهذا يعارض التيار التغريبي والعلماني وبشدة نشأة هذا النوع من المعارف، وبهذه الأرضية المعرفية الإسلامية؛ لأنه يعتبرها حلقة تنضاف لمسلسل الصراع بينه وبين المشروع الإسلامي الوسطي الأصيل وامتداد نوعي في ساحتها، ولذا نرى أقلامهم لا تفتأ تذكر مساوئ هذا الاتجاه، وإلى هؤلاء كان حسن حنفي يقول إن:" علم الاستغراب ليس مجرد نقيض الاستشراق أو الاستشراق معكوسا، هو رد فعل على التغريب ومحاولة انتشال

الأنا الحضاري من الاغتراب في الآخر"[310]

ثمة العديد من الهواجس التي قد تسمح للكثيرين أن يتساءلوا ويتوجسوا خيفة من دعوات المستغربين المنادين بضرورة الإسراع في تأسيس هذا العلم في السنوات الأخيرة. ومنها **الخوف من كون هذه الدعوة مجرد ردة فعل تفتقد إلى الأفق الاستراتيجي المعرفي والوضوح المنهجي الذي يكسبها الرؤية الاستشرافية والمكنة العلمية**، وبعضهم يتجاوز مجرد الاستفهام والتوجس ليؤكد أن "**الاستغراب المعاصر**" لا يعدو أن يكون مجرد ردة فعل عشوائية ناقمة من استفحال الخطاب الاستشراقي وردة فعل طبيعية بعد مرحلة استعمار طويلة الأمد للعالم الإسلامي وآخرون يبدون تخوفهم من مستقبل و فعالية هذا النوع من المعرفة قبل أن نحقق الشرط الأساسي الضامن لنجاحها وهي ضرورة التعلم من الغرب أولا حتى تكون لنا الأهلية لدراسته ثم السيطرة عليه.

أما التخوف الأول فإنه لا يرقى إلى درجة "**الفوبيا**" ،لأنه تخوف مشروع يأتي في إطار المساهمة في تطوير حلقات الدرس والمعرفة الاستغرابية، و قد عبر عن هذا التخوف المشروع في الأوساط العلمية والأكاديمية الإسلامية ـ الأستاذ قطب مصطفى سانو بقوله : " فإنّ الشأن في الدعوة إلى الدراسات الإستغرابية نخالها واقعة في ذات الدائرة التي تقع فيها سائر الدعوات المنبثقة عن ردود فعل لما تعاني منه الأمة من ابتلاءات حضاريّة في المرحلة الراهنة. وفضلا عن هذا، فإنّه من المعلوم أنّ المقصد الأجلّ الذي هدفت إليه الدراسات الاستشراقيّة هو التعرف على الشرق بغية توظيفه من أجل تحقيق مطامع الغرب وتطلعاته لا من أجل التواصل مع الشرق، ولهذا، فإنّنا نخشى أن يكون ذات المقصد ملحوظا في الدراسات الموسومة بالدراسات الاستغرابية، مما دفعنا إلى تجاوز هذه الدعوة، والتوجه نحو تأسيس علم متكامل شامل

---

(٣١٠) حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، ص: ٥ ، ٤٨ .

يروم معرفة الغرب معرفة موضوعيّة منهجيّة متوازنة تحقيقا لتواصل إيجابيّ شامل معه لما فيه مصلحة البشريّة برمتها." [٣١١]

وتخوف الأستاذ في محله ،لأنه يرى أن الدعوة إلى دراسة الغرب مع افتقادنا لعلم متكامل شامل يراعي مصلحة الطرفين قد يكون مصدر فتنة، لأنه لن يقدر على الإحاطة بالإشكالات المطروحة والاحتياجات الضرورية للكل، ورؤيتنا تتفق مع ما طرح، فسياق هذه الدراسة وهدفها المركزي يصب في إطار البحث عن هذه المرتكزات الأساسية الضرورية لتأسيس هذه المعرفة أولا في إطار علم ثابت له قواعده ومنهجيته وإشكالاته حتى نستطيع بعدها الإجابة عن كل أسئلة الاستغراب مهما كان مجالها وموضوعها.

وهنا نتجاوز مقولة من يزعم ويقول " أننا نفند من يقول أننا المشرق العربي لا ندرس الغرب بمثل ما يدرسنا الغرب، فمنذ أول القرن الماضي ونحن ننقل عن الغرب ما استطعنا نقله، ولم يكن هذا النقل مجرد ترجمة لما يكتبونه، وإنما هو درس لما يكتبونه، وبالتالي تحوير وتبديل وتفسير لوجهات نظرنا داخل عمليات النقل هذه .."[٣١٢] والحقيقة غير ذلك تماماً. فشتان بين دراسة ما يكتبه الغرب وندرسه في إطار المدارسة العلمية في جامعاتنا ومجامعنا العلمية فنقدم منه ونؤخر، وبين دراسة ما يكتبه الغرب في إطار علم كامل متكامل يمنحنا القدرة على فهم كل جملة يقولها الغرب في سياقها المعرفي.

أما الرؤية الثالثة؛ فقد عبر عنها طيب تيزيني مستدلا بها على أن

---

(٣١١) في التواصل مع الآخر: معالم وضوابط ووسائل ورقة مقدمة إلى المؤتمر السنوي الثاني: نحن والآخر المقرر انعقاده ما بين ٦-٨ صفر لعام ١٤٢٧هـ الموافق ٦-٨ مارس لعام ٢٠٠٦م بدولة الكويت.

(٣١٢) انظر :أحمد الشيخ ،من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب :المثقفون العرب والغرب " المركز العربي للدراسات الغربية ، الطبعة الأولى : ٢٠٠٠م ، ص٢٠

الاستشراق المعاصر ليس إلا نتيجة حتمية للاستشراق الذي تأسس هو الآخر تحت أهداف غير معرفية ، وهذا ما أدى حسب رأيه " إلى ظهور نزعة عربية سميت (الاستغراب) بدأ بها إدوار سعيد و جاء بعده الأستاذ حسن حنفي حيث يرى أنه يجب علينا أن نستعيد البضاعة التي أخذت منا .و بالنتيجة فإن الاستشراق و الاستغراب كلاهما يفضي إلى الآخر و هما خطابان إيديولوجيان لم يتأسسا على المعرفة ".(٣١٣)

وهناك وجهة ثالثة عبر عنها أحمد محمد سالم، من خلال النقد الموجه إلى صاحب كتاب " مقدمة في علم الاستغراب "، ومنطلق هذه الرؤية أن نتعلم من الغرب أولا ثم ننتقده أو نتجاوزه، وهو يستدعي في دعواه هذه النموذج الياباني الذي تعلم من الغرب ثم درسه وتمكن من تخطيه وتجاوزه. يقول " إن محاولته (حسن حنفي) لتأسيس هذا العلم قد أخذت طابعا خطابيا إنشائياً، أكثر من كونها دعوة علمية ،وذلك لأن حضور الغرب في حياتنا حضور القوي داخل آفاق الضعيف ،وحضور المتقدم داخل حياة المتخلف ،إن دعوة حنفي هذه تنطلق من مجتمعات ضعيفة لا تملك المواجهة الحضارية مع الغرب ،وذلك بعكس الاستشراق الذي رافق الاستعمار الامبريالي في مده على العالم الإسلامي، وكان اداة ناجحة في السيطرة على هذه الشعوب ، ومن ثم فإن دعوته إلى تأسيس علم الاستغراب في مواجهة علم الاستشراق لا تجد مبرراتها، ولا مقوماتها ،وذلك لأن مواجهة الغرب تبدأ من التعلم منه والاستفادة من انجازاته، لكن يتم بعد ذلك تجاوزه، بل السيطرة

---

(٣١٣) موقع جريدة الثورة:

ttp://thawra.alwehda.gov.sy/_print_veiw.asp?FileName=١٨٧٦٥٠٢١٩٢٠٠٧٠٥٠.٩٢٢٠٨١٠

عليه ، وهذا ما تأكده تجربة اليابان، ودول جنوب شرق آسيا ".[٣١٤]

تعليقا على ما سبق، نقول ليس من الشرط أن تتأسس الأفكار والعلوم بعيداً عن الواقع لأنها جزء لا يتجزأ منه ...، صحيح أن الاستشراق ثمرة الاستعمار.. كما أن الاستغراب في وجه من وجوهه ردة فعل له ، ولكنها ردة فعل طبيعية لا تسوغنا الحكم عليه على شاكلة الاستشراق، بأنه خطاب إيديولوجي لم يؤسس على المعرفة، فكل المحاولات المعاصرة التي دعت لدراسة الغرب تأثرت بصدمة الاستعمار ولها الحق أن تتأثر ، فالأمم الحية التي مرت عليها قوارع مثل بحجم الاستعمار الغربي إن لم تبادر بعد هذه المصائب إلى عمل علمي ومراجعة دقيقة ودراسة متأنية لعدوها فهي في عداد الموتى .كما أنه ليس شرطا أن يسبق التعلم من الغرب تأسيس علم الاستغراب ..لأن اليابان حين كان يتعلم من الغرب كان قد قطع أشواطاً في تأسيس الاستغراب الياباني الذي يتوافق مع منظومته العقدية والفكرية والثقافية وهذا ما حماه من الانصهار الثقافي في الغرب الأوروبي والأمريكي.

مع تقديرنا وتفهمنا لموقف النقاد من الاستغراب؛ فإننا نذهب بعيدا بالقول إن النداء والهبّة التي قام بها المصلحون في العالم الإسلامي حين دعوا إلى تحريك آليات النظر لتأسيس " الدراسات الاستغرابية " لم تكن في مستوى الحدث وجسامته، إذ بقيت حبيسة الأدراج ولم تترجم أو تفعل بالشكل اللائق بها في شكل دراسات معمقة أو مشاريع حضارية تضارع تلك التي أسستها الكنسية قديما والدول الغربية حديثا لفهم الشرق ودراسته ،وهذا ما يعني بقاء هذا التصور محصورا في مقولات وقراءات خداج لا تزيد إلا تخويفا لمن يقرؤها، وعليه فاكتمال الصورة الكاملة والتصور الصحيح عن الغرب يتعذر دون الانطلاق من داخل علم الاستغراب.

---

(٣١٤) أنظر: أحمد محمد سالم :إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر .دار رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة ٬الطبعة الأولى :٢٠١٠،ص٢١٣

ثانياً: علم الاستغراب والأيلولة الاستشراقية

من المخاوف التي يعبر عند الكثير من المعاصرين **الخوف على الاستغراب من الاستغراب** ذاته، وذلك خشية وصوله إلى النهايات التي وصل إليها الاستشراق.. **فكما هو معلوم أن الاستشراق بدأ فكرا وانتهى عنفا**، أي أنه أصبح منظرا للعنف في الغرب سواء كان عنفا فكريا أو معنويا تجاه كل ما يمت بصلة إلى الإسلام، وقد سلك الاستشراق طريق هذه المآلات منذ البداية حين سمح لنفسه أن يتحول إلى أداة طيعة للاستعمار ،لينتهي به الأمر آخر الأمر منظرا للعنف والقوة والصراع في الخطاب الفكري الغربي المعاصر.

وقد كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا شاهدا على ذاك كما يقول رسول محمد رسول حيث كان لها "دورا في استنفار المؤسسات الاستشراقية التقليدية لتثوير العداء ضد العرب، بعد أن قطعت شوطاً في التخلي عن طروحاتها في فضاء ما بعد الاستشراق " .[٣١٥]

ولكن هل يمكن أن يتحول الاستغراب إلى نفس النهايات، علما أنهما يفترقان في المقاصد والكثير من الآليات .. من زاوية تاريخ الأفكار (History of ideas) يمكن أن يحدث هذا، فقد رصدت الكثير من الدراسات تحولات الفكر وتغيرها بسبب جملة من العوامل الجغرافية والثقافية والسياسية.. قد يكون الاستشراق أحد تلك الصور الواضحة لهذا التغير الدراماتيكي، فالأفكار قد تنحرف عن مساراتها ومداراتها المعرفية، كما تتعرض إلى تشوهات عبر مراحل تطورها ومحاولات تجديد خطابها أو خطأ في تنزيلها.

وهنا تتدخل وظيفة التنظير والمنظرين في مجال الاستغراب لتثبيت وتنمية أفكار ونظريات الاستغراب وتطويرها ومتابعة المنحنى البياني لعلم الاستغراب

---

(٣١٥) انظر: علي بن ابراهيم النملة ،الاستشراق والإسلام في المراجع العربية ، ص ٤٢

دراسةً وتقويماً، والتقويم هنا كما هو " إشباع المسائل بأمور قيمية، مما يجعلها إما مقبولة أو غير مقبولة، واجبة الإتيان أو واجبة الترك" (٣١٦). وهذا حتى لا تنحرف المقاصد الاستغرابية عن أصل الرسالة الاستخلافية وأهدافها. هو كذلك متابعة تحصيل الوسائل المناسبة لهذه العلم حتى يبلغ منتهاه ،" قد يحيد المرء عن الطريق الموصل إلى "الأصل" إلى "المقصد"، أو قل ينحرف عن "الوسيلة" أو "الواسطة" كالذي يعلم المبدأ ويعلم النتيجة المبنية عليه، ولكن لا يعلم القاعدة التي ينبغي التوسل بها للانتقال من المبدأ إلى النتيجة.. لأن في طلب الوسيلة طلباً للأصل وطلبا للمقصد.." (٣١٧)

وإذا ما تحققت هذه الشروط الموضوعية التقويمية؛ فإن ديمومة دالة الإنتاج الاستغرابية ضمن مداراتها المعرفية الإسلامية سيزدان أكثر بمعززات الاجتهاد التنظيري الاستغرابي، ويمنعه من انحرافه إلى مساقات ونهايات الاستشراق التي أوحل فيها نفسه، وحينها سنجنب هذا العلم الأيلولة الاستشراقية التي انتهى عندها الاستشراق حتى أصبح اسمه منبوذا لدى الكثير في الأوساط الغربية قبل الإسلامية، وبدأت الأصوات تتعالي بضرورة إعادة إنتاج علم جديد أكثر واستيعابا لما يجري في العالم الإسلامي بعد أن انتهت صلاحية أفكار الاستشراق واستهلكت واستهلك معه مقولاته ونظرياته التي اشتهر بها.

ثالثاً: الوقوع في مرض اللازمة الاستشراقية

من الأمراض التي يُخشى على "الاستغراب" الإصابة بها هو مرض "اللأزمة الاستشراقية"، نقصد في دراستنا هذه " باللاَّزمة الاستشراقية " ذلك

---

(٣١٦) على جمعة محمد، الطريق إلى التراث الإسلامي، ص:١٥٦...

(٣١٧) طه عبد الرحمن ، العمل الديني وتجديد العقل ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،الطبعة الثانية ١٩٩٧م،ص،٦٦

السلوك والموقف العام الذي يطبع عادة مواقف رواد الاستشراق من غمط حق الحضارة الإسلامية ويطر لمنجزاتها، بصفة تنم عن عقلية التعالي النابعة من كوجيتو المركزية الأوروبية المثقل بفلسفة الكره للآخر كل الآخر، يصل في الغالب الأعم إلى درجة المرض الذي يعميهم عن الاعتراف بالحقيقة كما هي. نطلق على هذا السلوك في هذه الدراسة **"باللأزمة الاستشراقية"** باعتبارها لازمة فكرية مرضية تخص مفكري الحضارة الغربية ومنظريها من قطاع الاستشراق وما قاربه في الأفكار والتصورات، فنقول عن دارس ما في هذا المجال سلك ذات السلوك، وتبنى الأحكام الاستشراقية ذاتها أنه مريض باللازمة الاستشراقية، وهذا ما أعاق تطور الفكر الاستشراقي، وجعل من رؤيته للشرق مصدرا للقلق والحروب والأزمات بين شعوب العالمين، إن أغلب الدماء التي أريقت على ضفاف الشرق والغرب طيلة قرون من الزمن يحمل وزرها الخطاب الاستشراقي العنصري، وبدرجة أقل يتحملها فشلنا عن جدارة واستحقاق في دراسة الغرب والنهوض بأمتنا إلى مستوى "التدافع والدفاع" الذي كان سيمنع الكثير من الأزمات التي أزهقت جرائها الأرواح والأفكار جراء الصراع .

هناك لأزمة حقيقية في الخطاب الاستشراقي القديم والمعاصر تعتبر تحديا حقيقيا في وجه **"الاستغراب" قبل "الاستشراق"**، وإذا كان الاستشراق قد عجز من تجاوز هذه اللأزمة لعراقتها فيه كعراقة الداء العضال في الجسد، فإن الاستغراب ممثلا في المشتغلين فيه ،عليهم تحديات كبيرة للحيلولة دون الوصول إلى هذا المأزق الفكري .

مشكلة الغرب مع العالم الإسلامي ليس في جهله وإنما في تجاهله له ، فمعرفته العميقة والشاملة به، وبالكثير من ملفاته وقضاياه لم تمكنه من صياغة خطاب في مستوى ما يعلنه في صالونات حوار الحضارات والأديان، وفي ترويجه لفكرة السلام بين الأمم، وإلا فإن الواقع يدل على شيء آخر تماما :"فالدراسات العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية حول العرب

والمسلمين ـ مثلاً ـ لا تكاد تحصى، وهناك مؤتمر سنوي يضم غالبية الباحثين الأمريكيين والمقيمين في أمريكا حول تطور بلدان الشرق الأوسط مما يعني وجود نوايا خبيثة وتجاهل، وليس جهلاً لدى أصحاب القرار الأمريكي مما قد ينعكس بشكل أزمات متلاحقة بين العرب والأمريكيين ".(٣١٨)

وهذا معناه أن الآخر ـ الغربي ـ لا يعجز عن فهم الآخر ـ العربي و المسلم، كما هو عليه، وإنما لا يريد أن يظهر الآخر على الحقيقة التي عليه، يذكر الأستاذ الجابري في كتابه "الإسلام والغرب: الأنا والآخر" مقولة للكاتب الغربي فيليبس سيناش مفادها أن المشكلة تكمن في كون الإسلام لدى الغرب مادةً وموضوعاً دسماً لتمثل متخيل أكثر منه موضوعا للمعرفة الموضوعية".(٣١٩)

وهذا كله من آثار اللازمة الاستشراقية التي تمنعه من رؤية الحقيقة، وعلى الرغم من دخول الاستشراق المعاصر مرحلة يشاء البعض أن يطلق عليها "**المراجعة** " منوها أن الاستشراق المعاصر حاول ويحاول أن يصحح أخطاء المعرفة الاستشراقية السابقة عن العالم الإسلامي ، إلا أن الملاحظ أنه حاول بالفعل واكثر من أي وقت مضى، ولكن في الاتجاه المعاكس ـ بفعل **جاذبية اللأزمة الاستشراقية المتحكمة فيه** أن " اتخذ من تاريخ الفشل في التبشير القديم دروسا للعبرة لتطوير الوسائل وتحديث المناهج مع الإبقاء على الأهداف الدائرة نفسها حول وجوب الغزو والاختراق ". (٣٢٠)

ومن هنا بدأت أصوات تتعالى من الداخل والخارج بجدوى إيجاد فرع

---

(٣١٨) مسعود ظاهر :العرب والغرب وتاريخ العلاقات المشوهة ، مجلة العربي العدد ٥١٨، ٢٠٠٢م، ص ١٤٢

(٣١٩) الجابري، الإسلام والغرب ،الشبكة العربية للأبحاث والنشر ،الجزء الأول ،الطبعة الأولى: ٢٠٠٩م، ص ١٢٢

(٣٢٠) المرجع ذاته ، ص١٣٠

جديد لفهم الشرق لتعذر تخلص جمهور المنظرين الغربيين من هذه اللازمة الفكرية يقول مصطفى نصر المسلاتي في متابعاته للاستشراق "إن ابرز ما تقدّم به علم الاستشراق فيما مضى، أنه كان علماً تبريرياً وتعليلاً نظرياً قام على التبريرات والتعليلات لما قام به في الغرب، وكنتيجة لتراكمات وعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية؛ فإن الغرب في حاجة إلى علم جديد لكي يصل إلى الإدراك العلمي الحقيقي لما يجري في الشرق"(٣٢١)

قد يقول البعض، إن توقع إصابة الاستغراب باللازمة الاستشراقية غير وارد نظرا لكونه علم نشأ محاطا بذلك الجهاز المناعي القوي ممثلا في قوة وحصانة "النظام المعرفي الإسلامي ومتانة مفرداته ومقولاته وقواعده " وهي الحصانة التي تمنعه من الشطط في الرؤية والحكم على الآخر الغربي أثناء دراسته له..وهذا كلام صحيح من الناحية النظرية، ولكنه يحتاج إلى متابعة يقظة من أرباب التنظير الاستغرابي للحيلولة دون خروجه من أهدافه وسياقاته الحضارية الإسلامية ..

---

(٣٢١) مصطفى نصر المسلاتي ، الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، دار اقرأ ، طرابلس ،ليبيا ،الطبعة الأولى : ١٩٩٨م ،ص٢٢٩.

المبحث الخامس:
علم الاستغراب حتى لا يكون كَلاً

يحلو للكثير من كتاب الاستغراب والمنظرين في هذا المجال أن يقارنوا الاستغراب ـ في مراحل تأسيسه ـ في والوسائل والقدرات التنظيرية و التسخيرية التي يجب أن يمتلكها بتلك التي امتلكها الاستشراق من قبل ..ومع الالتقاء في الكثير من هذه الآليات والوسائل المنهجية التي وظفها الاستشراق لدراسة الشرق . فإن محاولة تقليده في كل الآليات وإسقاط كل المناهج والوسائل والنظريات الاستشراقية ومحاكاتها في مشروع الاستغراب يعد مسألة خطيرة، خاصة فيما يتعلق بتلك المناهج التي وظفها لدراسة التراث الإسلامي والمعارف الإسلامية، والتي أنتجت تلك القراءات الشاذة لموروثنا..

وإذا كان تقليدهم ومحاكاتهم في المنهجية التي درسوا بها التراث الإسلامي سيجعل من علم الاستغراب فتنة؛ لأنه سينتهي في مقارباته دون شك إلى تفكيك المشهد والصورة الغربية دون تركيبها بعيدا عن معايير الحق في دراسة الآخر وفهمه وهذا ما يتنافى والرؤية الإسلامية، فإن التوقف عند الوسائل التنظيمية التي انتهجها الاستشراق دون إبداع أو تطوير سيجعل من الاستغراب كَلاً ليس على الاستشراق فقط بل على نظرياته التنظيرية الأولى، والتي تحتاج مع الوقت إلى المراجعة والتطوير وهو ما يجعله عاجزا في المستقبل عن التكيف مع أي معطى علمي جديد مع الإشارة هنا إلى أن الإبداع في دراسة الغرب يغدو أكثر إمكانا من قبل مع التطور والتقارب الحاصل في بنية العالم وشعوبه من تقارب وتداخل الجغرافيات الثقافية والسياسية بين الطرفين، وبالتالي تقارب المصالح وتداخلها ، وارتقاء المرافعة الحضارية بين العالمين إلى مواطن لم تعهدها البشرية من قبل ..وهذا ما ينبغي أن يراه ويبصره المشتغلون في هذا الميدان.

وإذا كان المطلوب من المقاربة الاستغرابية أن تزاوج في بعض الأحيان بين الكثير من النظريات الاستشراقية الغربية في دراسة الآخر باعتبارها نظريات قامت على العلم والاجتهاد انطلاقا من حقول الانثربولوجيا والاثنولوجيا والاثنوجرافيا والكارتوغرافيا ..كما رأينا من قبل، فإن على المنظرين في هذا القطاع المعرفي الاستراتيجي الجديد أن يطعموا هذه الحقول بالنظريات الإسلامية التي تستمد رؤيتها ومقاصدها من النظام المعرفي الإسلامي والرؤية الكلية الكونية الإسلامية حتى لا يتحول هذا العلم إلى وسيلة من وسائل الطغوى ويؤسس من جديد لأخلاق الصرعة.

وعليه حتى لا يكون الاستغراب فتنة في مقولاته ونظرياته، وحتى لا يكون كلاً على غيره في مناهجه وآلياته، لابد من انتهاج وابتكار منهجية تتوافق مع طبيعته وطبيعة أهدافه ومقاصده ..وهو ما سنحاول عرضه في النقاط التالية:

أولاً: مأسسة الفكر والرؤية الاستغرابية وعوائدها المعرفية:

انتهينا سابقا في دراستنا لعوامل قوة التنظير الاستشراقي كونه فكر انتقل من الفردية إلى الجماعية، ومن التأسيس إلى المؤسسة، ومن البساطة والاختزال إلى الدقة والمكنة في البحث، ومن العشوائية في الإنتاج الفكري إلى التخطيط المنظم للكتابة الاستشراقية ، وقلنا حينها أن الاستشراق اعتمد هذه الآليات في دراسته وكانت السبب في نجاح مشروعه على المستوى الغربي. والاستغراب ليس بدعا في ذلك، فما لم ننتهج ونتوسل بتلك الآليات التنظيمية لتنزيل التنظير الاستغرابي إلى الواقع ،فإننا سنبقى نراوح مواقعنا لقرون أخرى من الزمن دون نتيجة تذكر.. ومن هذه الآليات والوسائل الانتقال بهذا العلم من أفق التأسيس إلى رحاب المؤسسات أو ما نطلق عليه هنا بضرورة مَأْسَسَة التنظير الاستغرابي ..

ففضلا عن كون العالم يعيش مرحلة سمتها وطابعها المميز " **المؤسسية**"

في كل شيء ،فإن من مظاهر هذه المرحلة والمواجهة الحضارية مأسسة الصراع والمرافعة عن المشاريع والبرامج عن طريقها، فمن يملك رصيدا مؤسساتيا نوعيا يملك القدرة على الإنتاج أكثر من غيره ويملك معها توجيه العقول بل والأنظمة أيضا، وهنا تتدخل مؤسسات الفكر والأفكار في توجيه الدراسات الاستشراقية والاستغرابية على السواء.

ففي الحين الذي أصبح فيه هذا المفهوم، (مفهوم التنظير من داخل المؤسسات) "جزءاً لا يتجزأ من نتائج الحضارة في الغرب ولوازمها، وأصبحت وسيلتها الفاعلة في إدارة الصراع والحوار الحضاري، وأصبحت جزءا من البيئة العقلية للنظام الحضاري الغربي، ومرتكزا من مرتكزات النظام المعرفي، وحاسة من حواس صاحب القرار السياسي .. إنها مختبرات الفحص والتحليل والاختبار لكل الظواهر الاجتماعية والفكرية التي تمكن من التخطيط المستقبلي، وصناعة القرار، في الوقت الذي نرى فيه عالم المسلمين – إلا من رحم الله . لا يزال يمارس حالة من الانتظار حتى تسقط الحضارة الغربية لصالحه دون، أن يكون صالحا والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٥."(٣٢٢)

وفي الجملة ، فإن إيجاد البيئة والمناخ المؤسساتي للبحث الاستغرابي سواء في الجامعات أو في المعاهد الاستغرابية المخصصة لهذا العلم، سينتهي بالبحث إلى الإبداع في مجال الدراسات الغربية كما وكيفا، وسيمنع من مراكمة المعلومة وتكدسها لتوظيفها في الأبحاث الإستراتيجية وتحليل الظاهرة الغربية، فضلا عن الخبرة التي ستوفرها هذه المؤسسات للأفراد من خلال

---

(٣٢٢) أنظر:. فتحي شهاب الدين ،السنن الإلهية في قيام الأمم وسقوطها ،دار النشر للجامعات القاهرة ،الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م ،ص:١١.

التخصصات الدقيقة فيها عبر لجان متخصصة بدورها في مسائل جزئية عن الشأن الغربي.

ثانياً: استقلالية مراكز الدراسات الاستغرابية

من العوامل التي ساهمت في نجاح وإبداع مراكز الدراسات الإستراتيجية في دول مثل الولايات المتحدة وإسرائيل موضوع "**الاستقلالية الفكرية** "، فضلاً عن وجود مراكز تابعة مالياً وفكرياً للخط السياسي للأحزاب داخل الكثير من الدول الغربية مثل المعهد الملكي للدراسات الدولية في لندن، ومعهد بروكنغز في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن نسبة كبيرة من هذه المراكز والتي عرفت بأبحاثها النوعية تمتعت طوال عقود من الزمن بحرية واستقلالية فكرية ومالية ما ساعدها على العطاء والتنظير والحركة أفضل من غيرها وهذا ما وفر مصداقية عالمية أكثر لبحوثها حول الشرق ..

وفي الوقت نفسه فإن تبعية الكثير من هذه المراكز المشتغلة بسياسات الشرق الأوسط لسياسات الدول والأحزاب الغربية" قد مثل عقبة مؤثرة في تطوير الفهم الحقيقي لصانع القرار الأوروبي تجاه الإسلام.."[٣٢٣] كما أن اشتغال الكثير من رجال الأمن فيها شكل أحد تلك التحديات في توجيه نتائجها" فالعقلية الأمنية لا تستطيع التفهم الموضوعي للإسلام ومحتوياته الفكرية والحضارية، هذه العقلية تعيش باتجاه أو بفرضيات أحادية تنطلق من أن الإسلام السياسي هو مصدر تهديد للمصالح الأوروبية"[٣٢٤]

فمن صالح الأنظمة في العالم العربي والإسلامي أن توفر لمراكز الفكر

---

(٣٢٣) أوروبا والإسلام ، أوراق المؤتمر الدولي الثالث ١٩٩٦م، الأردن من منشورات جامعة آل البيت ١٩٩٨م، ص:٧٧

(٣٢٤) المرجع السابق ،ص:٧٧

الاستغرابي بعد تأسيسها فضاءات واسعة من الحرية مع التغطية المالية المناسبة وغير المشروطة، والحق في الحصول على المعلومة ليس باعتباره حقا إنسانيا فحسب، وإنما باعتباره ضرورة لجودة الدراسات الجديدة عن الغرب السياسي والاقتصادي والاجتماعي .. هذا مع ضرورة البحث في أجواء هادئة هافة هادية بدون إخضاع أو توجيه يمنعه من إصدار الأحكام والدراسات والرؤى التي يراها مناسبة من عمق دراسته.

إن ما ينطبق على المفكر الاستراتيجي الذي ينظر في الدراسات الشرقية في الغرب هو ما ينطبق على نظيره في الشرق.. ونعبر عن هذا الانشغال باستفهام واستفسار يصيغه إدوارد سعيد في النص التالي " هل يفترض أن يكون الخبير الموضوعي فوق السياسة أو انه ينبغي أن يكون ملحقا سياسيا للحكومات .. هل هناك وسيلة ما يعتمدها المفكر المستقل للمحافظة على استقلاله حين يعمل في خدمة الدولة مباشرة ؟ وما هي العلاقة بين الولاء السياسي والرؤية الثاقبة ". (٣٢٥)

إن تجميع النخب الماهرة في ميدان التحليل والتنظير والاستشراف المستقبلي للأمة، وتنظيمها في مراكز دراسات إستراتيجية استغرابية أضحى ضرورة حضارية وفريضة إسلامية، نظرا لاستحالة فهم الغرب فهما شموليا إلا بهذه الوسائل، وتكفي الإشارة هنا إلى أن هذا اللون من التفكير الاستراتيجي كان متجذرا في ثقافتنا الإسلامية السياسية مع قلة تطبيقها بشكل مؤسساتي لانعدام هذا المنحى في ذلك الزمان، فقد روى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قال: وددت أنّ لي ليلة من عبيد الله بألف دينار من بيت المال، فقيل له يا أمير المؤمنين: مثلك يقول هذا مع تخوفك! فقال: إنكم لا

---

(٣٢٥) ادوارد سعيد " الإسلام والغرب ص،٥٤، نقلا عن أوروبا والإسلام ، أوراق المؤتمر الدولي الثالث ١٩٩٦م، الأردن من منشورات جامعة آل البيت ١٩٩٨م، ص:٧٧

تدرون، إني أرجع منه بأضعاف ذلك فيما أنتفع به منه"[٣٢٦].إشارة إلى خبرته وقوة استشرافه ومعرفته الموسوعية الشاملة عن أحوال المسلمين وغيرهم.

ثالثاً: تأسيس الوقفيات العلمية للاستغراب

يساهم قطاع الأوقاف في الغرب اليوم في تمويل مشاريع وأبحاث الدراسات الموجهة إلى التعرف على الشرق الإسلامي من خلال برامج مباشرة في الجامعات ككليات الاستشراق أو معاهد دراسات الشرق الأوسط ،والكثير من هذه المراكز المهتمة بموضوع الشرق في مختلف جوانبه تندرج في الغرب تحت مسمى الأوقاف *Endowment* ، هناك ما يمكن أن نطلق عليه بالفجوة الوقفية[٣٢٧] الكبيرة بين الغرب والشرق في تمويل المشاريع العلمية الوقفية الخاصة بالدراسات الشرقية، ويكفي أن نعلم أن في أمريكا لوحدها ما يربو عن مليون و ٤٠٠ ألف مشروع وقفي" [٣٢٨] يمس مختلف قطاعات وبُنى المجتمع والنشاط المدني، تندرج الكثير من مراكز دراسات الشرق الأوسط وبرامج التعرف على الشرق والإسلام تحت مسمى هذه الوقفيات ."وبالنظر إلى حجم الوقفيات في بعض الجامعات الأمريكية والبالغ عددها ٥٠ جامعة نجد أن مال الوقف فيها بلغ عام ٢٠٠٤ م ١٣٢ مليار دولار، وهو بالقطع

---

(٣٢٦) بهاء الدين البغدادي ، التذكرة الحمدونية ،دار صادر بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ، ج٦ ، ص١٤٤

(٣٢٧) الفجوة الوقفية مصطلح نطلقه هنا ونقصد به ذلك التفاوت الكبير بيننا وبين الغرب في استغلال الأوقاف و استثمارها، وتعني فيما تعنيه الفارق الكبير بين الشعوب والدول التي تنتشر فيها الثقافة الوقفية ومدى استغلال الأوقاف في التنمية، ففي أمريكا مثلا ما يزيد عن ١٠ مليون وقفية خيرية تمس مختلف قطاعات المجتمع المدني ، وهذا رقم لوحده يدلنا على حجم هذه الفجوة ويقدر بعضهم حجم الفجوة الوقفية بيننا وبين الغرب بمئات السنوات .

(٣٢٨) موقع ميديا بلوس ـ موقع إخباري معلوماتي ـ http://media-plus-tn.com/?p-٢٨٦٩٤

أكبر من جميع أموال الأوقاف في البلاد الإسلامية "[٣٢٩]، وجامعة واحدة مثل جامعة هارفارد الأمريكية "تصل قيمة أوقافها إلى ٣٢ مليار دولار، وبالتالي فهي تزيد عن رؤوس أموال جميع البنوك السعودية مجتمعة ."[٣٣٠]

ومع هذه الوفرة المالية الوقفية في الجامعات الغربية لا تزال تحضى بالإقبال على التبرع السخي من جهات عربية داعمة، إذ أعلن الأمير الوليد بن طلال " عن هبة مالية قدرها ٢٠مليون دولار قدّمها عام ٢٠٠٥ لصالح الجامعة في إطار تطوير برنامج الدراسات الإسلامية بالجامعة، ويعتبر بذلك ثاني أكبر مانح في تاريخ الجامعة، وفي عام ٢٠٠٥ أعلن عن تقديم هبة قيمتها ٢٠ مليون دولار لمصلحة جامعة جورج تاون Georgetown بعاصمة الولايات المتحدة واشنطن لدعم مشروع توسعة مركز التفاهم الإسلامي–المسيحي(CMCU) والمركز يعد رائداً في العالم فيما يتعلق بالبحوث والدراسات الدينية، وخاصة الدراسات الإسلامية والعلاقات الإسلامية–المسيحية، وهو جزء من مدرسة ايدموند والش Edmund A. Walsh المختصة بالعلاقات الخارجية في جامعة جورج تاون Georgetown ، كما تبرع بمبلغ ٥مليون دولار أمريكي لصالح الجامعة الأمريكية ببيروت لتأسيس مركز للدراسات والبحوث الأمريكية، ومبلغ ١٠مليون دولار للجامعة الأمريكية بالقاهرة لتأسيس وتشغيل مركز للدراسات والبحوث الأمريكية. وفي عام ٢٠٠٣، قدّم.. هبة قدرها مليون يورو لمعهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة إكزتر Exeter البريطانية. كما قدم " هبة قدرها ١٦مليون جنيه استرليني لصالح جامعة كامبريدج Cambridge

---

(٣٢٩) أنظر : محمد عبد الحليم عمر ، نظام الوقف والنظم المشابهة في العالم الغربي : دراسة مقارنة ،بحث مقدم على المؤتمر الثاني للأوقاف "الصيغ التنموية والرؤى المستقبلية ،جامعة ام القرى مكة المكرمة، ص: ٣٤

(٣٣٠) موقع صحيفة الرياض :http://www.alriyadh.com/٧٠١٧٩٦

University وجامعة إدنبرة Edinburgh University في بريطانيا لإنشاء مركزين للدراسات الإسلامية في الجامعتين."[331]

حسبما هو معلن في موقع المؤسسة المانحة ،فإن مراكز الدراسات التي أسسها أو دعمها رجل الأعمال السعودي من خلال مجموع هذه الهبات تهدف إلى ربط العلاقات والمثاقفة بين الشرق والغرب وتعريف الغرب بالإسلام، ومنها تلك المراكز التي أسست في بيروت أو القاهرة باعتبارها مراكز تهتم بدراسة الغرب... هي مبادرة تثمن في إطار تشجيع الوقفيات العلمية الاستغرابية ولكن الأجدر والأفضل أن تؤسس هذه المؤسسات الوقفية الاستغرابية بناءً على أرضية معرفية واحتياج دقيق للعالم الإسلامي يحدده العلماء في هذا الشأن، ولا بأس أن يكون لها بعد ذلك فروع ومشاريع توأمة فكرية مع جامعات ومراكز غربية باعتبار هذه الفكرة ستخدم مشروع الاستغراب في العالم الإسلامي.

لابد من الإبداع والذكاء المالي في توجيه الأوقاف إلى خدمة البنية التحتية العلمية، وتخصيص جزء هائل منها لهذا المجال المعرفي المهم ، والذي أصبح احد أدوات الصراع والسيطرة في العالم، فمن يفهم الآخر جيدا يستطيع أن يحاوره جيدا ويتغلب عليه جيدا. عمل كهذا سيرتقي بها إلى ميادين لم تعهدها الثقافة الوقفية من قبل. على غرار ما نشهده من ازدهار حركة الوقف في تركيا منذ العشرية الأخيرة، فقد قام الأتراك مؤخرا بكسر السقف الوقفي النمطي المتعارف عليه سابقا ليدخلوا بالأوقاف الإسلامية ميادين لا تزال بكرا على أنظمة الأوقاف حيث أصبح الوقف يغطي "مشاريع متطورة وفائقة التكاليف مثل: النانوتكنولوجي، والبيوتكنولوجي، والحاسبات الفائقة، وعلوم

---

(٣٣١) انظر: صحيفة الرياض اليومية الصادرة بتاريخ الأحد ٦ جمادى الأولى١٤٢٩هـ -١١ مايو ٢٠٠٨م - العدد١٤٥٦٦

البلازما، والطاقة النووية وغيرها، واعتمدوا عليها كأساس للنهضة التركية الحديثة. وأخيرا أنشأ الأتراك كلية وقفية لعلوم الفضاء، وقرروا إطلاق أول مكوك فضاء تركي إلى الفضاء سنة ٢٠٢٢م بأموال الأوقاف. وهكذا يمكن للوقف الإسلامي أن يقود حياة المسلمين إلى مراشدها، نحو التنمية والبناء، ومن ثم الرخاء." (٣٣٢)

إننا ندعوا من خلال هذه الدراسة إلى ضرورة إنشاء وقفيات للدراسات الإستراتيجية المتنوعة الخاصة بالبحث الاستغرابي، كما ندعوا معها إلى ضرورة تخصيص أصول مالية وعقارات ومخصصات وقفية ثابتة في المجالات التالية:

- وقفيات المنح الخاصة بالاستغراب ، حيث تقدم منح معتبرة لكل من يرغب في تخصيص رسالة الماجستير أو الدكتوراه في موضوع من مواضيع الدراسات الغربية في أي جامعة في العالم سواء كان في الشرق أو الغرب .

- وقفيات خاصة بدور نشر تترجم أهم ما يكتب في الغرب عن الإسلام والعالم الإسلامي.

- وقفيات تخصص لجوائز عربية وإسلامية سنوية للأعمال المتميزة في مجال الدراسات الغربية.

- وقفيات خاصة بمراكز دراسات الأبحاث الاستغرابية كمراصد المعلومات التي توفر قاعدة بيانات دقيقة عن مختلف القطاعات في الغرب.

---

(٣٣٢) انظر جريدة أخبار الخليج : مقال أحمد علي سليمان : الأوقاف تصل بالأتراك إلى الفضاء .

http://www.akhbar-alkhaleej.com/١٢٥٧٩/article/٤٧٢٠٢.html

- وقفيات داعمة لكليات الاستغراب في الجامعات تساهم في دعم برامج وأقسام ومساقات الكليات التي تهتم بدراسة الغرب.

رابعاً: إحياء الابتعاث الاستغرابي

يعتبر الابتعاث اليوم أحد أهم الموارد الإستراتيجية الضرورية لفهم الآخر عن قرب دون وسائط قد تكون سبباً في القراءة الخاطئة لمقدرات الآخر وطبيعته ، ولا يخفى على ذي بال أن الاستشراق ما كان له أن يعلو هذا العلو في سماء المعرفة إلا حين اعتمد هذه المنهجية، فقد بدأ الاستشراق يوم أن بدأت البعثات الغربية تجوب أراضي وحواضر العالم الإسلامي شرقا وغربا بسبب الريادة الحضارية للأمة والتي استقطبت وأثارت العقول الغربية كشفا واستزادة، ولك أن تقول بسبب الغلبة التي كانت للأمة الإسلامية، فكان من الطبيعي أن يولع المغلوب - الغربي - بإتباع الغالب - الإسلامي، وقد كان.

أ: الابتعاث: أحد أدوات الصراع بين الشرق والغرب

لا يزال "نظام الابتعاث "يمثل أحد أدوات الصراع والمغالبة الحضارية بين الشرق والغرب، فقد اهتم الغرب وحرص أكثر من العالم الإسلامي على تأطير حركة الابتعاث من الجانين والتأثير فيها حتى تخدم أهدافه ، تحدث الدكتور مازن المطبقاني عن هذا الأسلوب الغربي في كتابه أوروبا في مواجهة الإسلام مبينا فلسفة الغرب وطريقته في هذا المنحى بقوله :" ولاشك وأن المبشرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين قد فشلوا ،ولكن هذه الغاية يمكن الوصول إليها من خلال الجامعات الغربية فيجب أن تختار طلابا من ذوي الطبائع الضعيفة، والشخصية الممزقة ، والسلوك المنحل من الشرق، ولاسيما البلاد الإسلامية، وتمنحهم المنح الدراسية ،وتبيع لهم الشهادات بأي سعر ، ليكونوا المبشرين المجهولين لنا،لتأسيس السلوك الاجتماع والسياسي الذي نصبوا إليه في البلاد الإسلامية .مبشرين ووعاظ ، ومدرسين لأهدافنا،

ومآربنا باسم الإسلام والمسلمين ".[٣٣٣]

والأدهى والأمر أن هذه المسألة لم تعد سراً ، فالغرب يفتخر علانية أن هذه الفئة هم وكلاؤه وعملاؤه في بلادهم، وسنورد فيما يلي نصا للمفكر والفيلسوف الغربي " سارتر " يسخر من هذه الطبقة قائلا : "" كنا نُحضر أبناء رؤساء القبائل وأبناء الأشراف والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا ، ونطوف بهم بضعة أيام في لندن وباريس وأمستردام ، فتتغير ملابسهم ، ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة ، ويرتدون السترات والسراويل ويتعلمون لغتنا وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا، وكنا نزوج بعضهم من أوربا، ونلقنهم أسلوب الحياة على أثاث جديد، وطرز جديد من الزينة ، واستهلاك أوربي ، وغذاء أوربي ، كما نضع في أعماق قلوبهم أوربا ، والرغبة في تحويل بلادهم إلى أوربا ، ثم نرسلهم إلى بلادهم حيث يرددون ما نقوله بالحرف تماماً مثل الثقب الذي يتدفق منه الماء في الحوض، هذه أصواتنا تخرج من أفواههم ، وحينما كنا نصمت كانت ثقوب الأحواض هذه تصمت أيضاً ، وحينما كنا نتحدث كنا نسمع انعكاساً صادقاً وأميناً لأصواتنا من الحلوق التي صنعناها، ونحن واثقون أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم ، وليس هذا فحسب ، بل إنهم سَلبوا حق الكلام من مواطنيهم."[٣٣٤]

هذا عن فهم الغرب لأهمية وخطورة مسألة الابتعاث .. أما العالم الإسلامي فلا يزال يفكر بعيدا عن هذا المستوى من الاهتمام بهذا الجانب الخطير في أوساط الشباب والنخب العلمية، وقد تحدث مالك بن نبي حول أهمية هذا الموضوع واعتبره أحد أدوات الصراع الفكري والحَكَم الفصل بين العالم الإسلامي الغربي. فقال:" إن البلاد المستعمرة لا تعرف على العموم ما هو

---

(٣٣٣) مازن المطبقاني ، أوروبا في مواجهة الإسلام ،ص١٨٨.

(٣٣٤) يحي هاشم فرغل " العلمانية بين الخرافة والتخريب " ص ٢٧٠

الصراع الفكري، وهذه البلاد على العموم، تجهل قيمة الفكرة في مصير المجتمعات، كما تجهل الخطط التي ترسم من أجل التحكم في مصير الشعوب المتخلفة عن طريق أفكارها فحينما ترسل إلى الخارج بعثة من الطلاب للدراسات العليا، فقد قامت تلقائياً بعمل يتصل بالصراع الفكري، ولكنها لا تعلم بالضبط مقتضيات هذا الصراع، وأسلوبه ووسائله وأهدافه وعلى ذلك فإن عملها ينتهي بمجرد ما تخرج البعثة من أرضها. "(٣٣٥)

ولذا يهتم الغرب في إطار معركة العقول والابتعاث بسحب الكادر العلمي العربي الإسلامي من بيئته لخدمة أهدافه في إطار مشروع السيطرة على مقدرات الأمة ومخزونها الاستراتيجي الممثل في الكادر العلمي، ولذا يعمدون إلى تهيئة المناخ اللازم لحركة البحث العلمي في بلدانهم مع غلق كل الأفق الممكنة لها في البلاد المستضعفة، يقول الدكتور عمر عبيد حسنة : "حيث لابد أن ندرك أن اليد التي تمنح المسلم ، الحرية هناك ، هي اليد نفسها ، التي تمنعها هنا ، ليتم الاستقطاب ، والتحكم من جانب ، ولإعطاء دليل عملي واقعي ، على أن حضارة الغرب ، بعطائها ، تتميز عن حضارة المسلمين ، فتهفو النفوس إليها، وتهاجر الأجنة إلى بلادها." (٣٣٦)

ب: لماذا لم يشكل الابتعاث في تاريخنا قاعدة للاستغراب

منذ بدايات القرن التاسع عشر والوفود والبعثات العلمية العربية والإسلامية تتهاطل على العالم الغربي لدراسته والاستفادة من تطوره وحضارته ، ولكن سرعان ما كان مفعول هذه البعثات ينقلب عكس المقاصد المرجوة منها، بعكس بعثات المستشرقين التي كللت باكرا بإنشاء علم الاستشراق، فلماذا نجح

---

(٣٣٥) مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر دمشق سوريا ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨، م، ص٣٣

(٣٣٦) أحمد القديري، الإسلام و صراع الحضارات، سلسلة كتب الأمة :وزارة الأوقاف القطرية العدد ٤٤، ذو الحجة ١٤١٥ هـ، السنة الرابعة عشرة، ص ٢٧

الغرب حيث فشلنا.؟

منذ أن بدأ محمد علي باشا في مصر نظام الابتعاث فتح على الأمة بابا كان شره مستطيرا على ما تبقى من القيم الإسلامية، وعوض أن يجلبوا العلم جلبوا العلمانية، وبدل أن يكونوا سفراء الأمة الإسلامية في دراسة الغرب أضحوا عيون عيونهم بيننا، هذا، ويكفي أن تطلق بصرك مليا في كتابي الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" و"مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية " لتجد ذلك الانبهار بالحضارة الغربية دونما أي تحفظ. وصدق في حق هؤلاء وأضرابهم مقولة مالك بن نبي حين قال" وكان المبتعثون العرب إمّا في " مزابل الغرب " وإمّا في " مقابره " ، وهكذا عاشت الثقافة العربية بين فكرتين " ميتة " و " مميتة ".[(٣٣٧)]

تحدث الأستاذ مالك بن نبي في كتابه " مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي " في الفصل السادس عشر عن الأفكار الميتة والأفكار المميتة، وذكر نماذج تطبيقية على أولائك المبتعثين إلى الغرب ليدرسوا النموذج الغربي ويأخذوا من ايجابيات حضارته. وهو شاهد على ذلك العصر وهذه الظاهرة ، فمشكلة من يدرسون الغرب ليستفيدوا منه يقعون كما يقول مالك بن نبي بين أنياب الأفكار الميتة والأفكار المميتة، الأفكار الميتة الناجمة من مجتمع ما بعد الموحدين وهي أفكار تساعد على القابلية للاستعمار والأفكار المميتة هي أفكار مستعارة من الغرب تولد الاستعمار.. وهنا يتساءل عن السبب الذي يجعل نخبنا المثقفة أو من يرومون دراسة الغرب لا يستفيدون منه إلا من نفاياته..

---

(٣٣٧) أنظر : مجلة جامعة أم القرى العدد : ٣٢ / مخطط الانحدار وإعادة البناء. الدكتور: خالص جلبي، الرياض: منشورات كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفيّة، ١٩٩٦ م ،ص ١٠٣./مالك بن نبي، ترجمة الدكتور، بسام بركة، والدكتور: أحمد شعبو وإشراف وتقديم عمر مسقاوي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق دار الفكر الطبعة الأولى، ١٩٩٢ م ،ص ١٤٦.

هكذا يميز مالك بن نبي في مشكلة تكمن لدينا وبين مشكلة الغرب التي هي مشاكله، ومع ذلك يقول بلغة المنصف "أن العالم الثقافي الغربي ليس كله ميتاً. إذ أنه ما يزال يبعث الحياة في حضارة تنظم حتى الآن مصير العالم." [٣٣٨]. إذا مشكلة الطهطاوي كما طه حسين و سلامة موسى ومن سلك مسلكهم في الدعوة إلى دراسة الغرب والأخذ منه جملة وتفصيلا توصيفها وجوابها عند مالك بن نبي ولا ينبئك مثل خبير.

لم يهتم طلاب البعثات العربية بدراسة الغرب، ولربما لم يخطر على بالهم أن يدرسوه ،لأنهم فقدوا وعيهم وإحساسهم بهذا المقصد لمجرد أن نزلوا بلاد القوم فقبضوا قبضة من أثر حضارتهم وكذلك سولت لهم أنفسهم ، وبذلك كان مردود هذه البعثات في أغلب الأحيان عكس المطلوب، بل الأدهى والأمر أن هذه الفئات المبتعثة كانت وبالا وحربا ضروسا على القيم الإسلامية، ويكفي أن نعلم أن أساطين وفلاسفة التغريب في العالم الإسلامي هم من خريجي الجامعات والمعاهد الغربية.

فالطالب المسلم كما يقول مالك بن نبي " الذي يلتحق بمدرستها هو بين نموذجين: الطالب المجد، والطالب السائح.وكالا الطالبين: المجد والسائح؛ لا يذهبان إلى منابع الحضارة، بل إلى حيث تتقطر فيها أو تلقى فيها نفاياتها.يذهبان إلى حيث لا يجدان: حياتها، حرارتها، حقيقتها المتجسّدة في الفلاّح والحرفي والفنان والعالم، هذا الحشد من الرجال والنساء الذين يصنعون كل يومٍ في مدنهم وفي قراهم مجدها اليومي.هذا الوجه الأساسي قد أفلت منا سحابة أجيال لأن (الأفكار الميتة) وعصر ما بعد الموحدين قد وضعا لأعيننا ما يوضع للفَرس من كمامات تمنع من إجالة الرؤية؛ فلم يستبن لنا شيءٌ آخر

---

(٣٣٨) مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر- بيروت لبنان / دار الفكر-دمشق سورية ،الطبعة: ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م / ط١: ١٩٨٨م ، ص: ١٤٩

غير التافه والمجرد، وحتى المميت.[٣٣٩]

لقد فقد الطالب المبتعث الرغبة في دراسة الآخر، ولم تكن هذه الظاهرة بين العرب فحسب، بل كان السمة العامة في الأمة في الأعصر المتأخرة، حتى في زمن الدولة العثمانية رغم قوتها ومسيس حاجتها إلى معرفة المتربصين بها، مع ضرورة التعرف على مظاهر وأسرار القوة عند أعدائها. يذكر صاحب كتاب "الإسلام " شمتز دوملان مقولة للصدر الأعظم رشيد باشا حيث يقول في حق الطلبة المبتعثين الغرب:" إننا نرسل أبناءنا إلى أوربا ليتعلموا المدنية الإفرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الإفرنكي..."، وكان يقصد بالداء الإفرنكي ـ السفلس ـ وهو نوع من الأمراض الجنسية إلى الدولة العثمانية حيث كانت خلوا من مثل هذا. [٣٤٠]

ليست المشكلة إذا في التلمذة على يد الغرب فيما يمكن التعلم والتتلمذ منه والاستفادة من منجزاته، وما لا يتعارض مع فلسفة المبادئ ودستور الأخلاق في المجتمع الإسلامي، فتلك سنة الله عزوجل في علم المداولة والتداول في شؤون الدنيا ، فقد وقف الغرب مرارا وتكرارا موقف التلميذ أمام أستاذه (الحضارة الإسلامية)، ولكنه أخذ منها ما كان يعتقد أنه يصلح له، وكان في ذلك محتاطا حذرا مهووساً بقلق معرفي كبير كان ينتابه أثناء النقل والانتقال . فلم ينقل دارسوا الغرب من العرب والمسلمين من الغرب مخلفاته ونفاياته الفكرية والثقافية أو العنصر المميت في الثقافة الغربية بتعبير فقيه الحضارة مالك بن نبي رحمه الله، ويتركون لبها ولبنابها.

ج : الابتعاث الاستغرابي وأثره على جودة مؤسساته: رؤية استشرافية

استدراكا على ما طرح في موضوع الابتعاث في مشروع الاستغراب لابد من مراجعة دقيقة لشروطه وآلياته ومقاصده ومتطلباته، وإذا كان الغرب

---

(٣٣٩) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،ص: ١٥٢

(٣٤٠) نقلا عن عماد الدين خليل ، قالوا عن الإسلام ، ص: ٤١٤

يحرص أشد الحرص على أن يكون المبتعث العربي والمسلم إلى البلاد الغربية صفرا في ميدان فقه الحضارة ، فإنه لابد من الحرص أشد الحرص على أن تتشبع هذه الفئات بالقدرات المنهجية والمعرفية وأدوات تحليل مضمون الحضارة الغربية حتى يصبحوا مراجع في مسائله وقضاياه في العالم الإسلامي مستقبلاً.

ومن هنا، فلابد من سياسة في ترشيد البعثات العلمية في العالم العربي والإسلامي باعتبارها أحد الروافع والموارد الإستراتيجية المؤسسة للفكر الاستغرابي. وعلى سبيل المثال لا الحصر لو أخذنا عينة نموذجية استشرافية لترشيد هذه الحركة في العالم العربي فلنأخذ على سبيل المثال السعودية باعتبارها من أكبر البلدان العربية من حيث حجم البعثات العلمية إلى الخارج في السنوات الأخيرة.

فإذا ما أخذنا في الحسبان أن عدد الطلاب السعوديين المبتعثين إلى أمريكا فقط في عام ٢٠١٢ تجاوز ٣٠ ألف طالب وفق بعض الإحصائيات الأمريكية، فإن مرصد التعليم العالمي السعودي وفي إحصاءات ٢٠١٤، قال" إن عدد الطلبة المبتعثين قد بلغ سنة ٢٠١٢ في العالم كله ١١٧.٤٥٥ طالب مقارنة بعدد الطلبة الذين يدرسون على حسابهم حيث بلغ تعدادهم السنة ذاتها ١٥.٠٨٧ طالب أي ما يفوق إجمالي ١٣٢ ألف طالب سعودي في السنة الواحدة "[٣٤١] .

وهذا رقم بالموازين الاستراتيجية المستقبلية ولغة الحضارات رقم مرجح، لو سخرنا منه ٢.٥ % لتوجيههم إلى الدراسات الاستغرابية المتنوعة، فإننا سنحصل على ٣٣٠٠ طالب في كل سنة، وإذا فرغنا منهم ١% على افتراض

---

(٣٤١) وكالة وزارة التعليم العالي للتخطيط والمعلومات مرصد التعليم العالي السعودي ، التعليم العالي في المملكة العربية السعودية : مؤشرات محلية ومقارنات محلية ٢٠١٤، ص١٥٣.

أن النسبة السابقة كبيرة، فان العدد سيكون ١٣٢٠ طالب في كل سنة يتوجهون لمختلف تخصصات الاستغراب الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.. في العالم الغربي. وهذه عينة استشرافية لبلد عربي واحد من مجموع البلدان، حتما ستحدث نقلة نوعية في أبحاث الاستغراب وستؤسس لمدرسة سعودية استغرابية نموذجية شرط أن تتوفر الإرادة السياسية لمثل هذه المبادرات الحضارية، وحينها يمكن الارتقاء بهذا الفضاء المعرفي إلى مستوى المؤسسات ومراكز الدراسات باعتبار وجود اكتفاء ذاتي في نوعية وجودة الكادر العلمي المؤهل لقيادة مثل هذه المشاريع الحضارية المرجحة .

إذا تكمن أهمية حركة الابتعاث النوعي إلى الغرب بالإضافة إلى التعرف المباشر على طبيعة الغرب فإنها ستتيح الفرصة المناسبة لتطوير المشاريع المستقبلية "للاستغراب" وتغذيتها فكريا وإداريا بالكادر المناسب المشبع بالثقافة الإدارية، فالاستثمار الذكي في المورد البشرية المؤسّسة لهذا العلم، لا يقتصر على مجال التنظير وإنتاج الدراسات العلمية المحكمة فحسب، وإنما يمتد إلى ضرورة وجود كفاءات تتمتع بذات القدر من الخبرة في التنظير مع القدرة على الإدارة الذكية لبيئة العمل التنظيرية ولفرق البحث وتنزيل الموارد المالية الخاصة بمراكز الدراسات الاستغرابية المتنوعة حسب استراتيجياتها المخططة، سواء كانت معاهد أو كليات أو مراكز وجمعيات أو دور نشر.. وهذا حتى نجمع بين الاحتياجات المعرفية والاحتياجات الإدارية في معادلة شاملة تعود بالمتميز لهذا القطاع في العالم العربي والإسلامي.

الخاتمة والتوصيات

تتوزع خاتمة البحث والدراسة على جملة من التوصيات المعروضة على شكل ملاحظات تقيمية وتقويمية ومشاريع ومقترحات، تمثل في أغلبها خلاصات دقيقة وإجابات شافية لأسئلة الاستغراب وإشكالاته التي تصاحبه من مرحلة التأسيس إلى مراحل التقعيد والتنظير والاستشراف، وذلك كله من زاوية ومنظور النظام المعرفي الإسلامي والرؤية الكلية الكونية. سنعرضها فيما يلي على شكل ملاحظات منهجية فكرية ومشاريع مستقبلية:

أولاً: الملاحظات والتوصيات الفكرية والمنهجية:

- أن النظر في مثل هذه القضايا المصيرية ودراستها من زاوية المنظور المعرفي الإسلامي من شأنه أن يجيب عن الكثير من الأسئلة والإشكاليات باعتبار المنظور المعرفي هو البوابة والقالب الذي نستطيع من خلاله الإجابة عن كل سؤال واستشكال، ففي النظام المعرفي نستطيع أن نفهم موضع كل شيء، وحينما نضع مفردة الشرق والغرب أو الاستشراق والاستغراب في نظام معرفي ما، ونبحث من خلاله على أجوبة محددة للعلاقات التي تربط بين هذه المفردات؛ فإن الأجوبة التي نحصل عليها في النظام الإسلامي، تختلف عن تلك التي نحصل عليها في أي نظام معرفي آخر - وإن سجلنا هنا التقاطع والاتفاق في بعض الجوانب والمقولات - والمرجع في ذلك أن الجواب يختلف لاختلاف المنطلقات والمناهج والقطعيات والمراجع التي يستمد منها كل نظام أدلته، ولهذا فإنني أوصي من خلال هذه الدراسة باعتماد هذا النموذج في الدراسات الإسلامية حتى نستطيع تحرير المضمون المعرفي للكثير من الأسئلة التي تحمل طابعا فكرياً أو فلسفياً. وقد تبين لنا والحمد لله إلى أي مدى أخذت الدراسة أبعادها الكلية الشمولية في ظل النظام المعرفي الإسلامي.

- أن معرفة الآخر ضرورة إنسانية وفريضة شرعية تقع تحت مطالب ومتطلبات فقه الاستخلاف، وهذه المعرفة لا تتأتى من دون تلك القواعد والكليات والمناهج والنظريات التي يجب مدارستها في إطار ما يسمى "بعلم الاستغراب". وهو من العلوم الأساسية التي تجرى مجرى الضرورة لكونه يندرج ضمن الاحتياجات الاستخلافية للأمة ولاندراج الكثير من المقاصد الشرعية والمقاصد الكونية تحت أسجافه ومسائله وقضاياه ، ومن هنا كان الاضطلاع بهذه الشعبة المعرفية واجبا من الواجبات الحضارية، فكما يطلب الشارع الحكيم السلم الاجتماعي والاستقرار الداخلي باعتباره كلية شرعية مقاصدية، كذلك يطلب السلم الدولي والكوني والإنساني، وينخله نخلا وهذا مالا يتم إلا بمعرفة كل طرف للآخر معرفة تعارفية علمية تنطلق من كليات التعارف الكونية، وتنتهي عند الاستثمار في ساحات المعروف الإنساني وما أوسعها.

- إن الكشف عن هذا العلم الذي يندرج ضمن إطار الفقه الحضاري ثم إخراجه من دائرة القوة إلى دائرة الفعل، هو نوع من النظر في ملكوت الله واستجابة نوعية حضارية لأصداء النداء الإلهي، للسير في مملكته، وفهم آيات الأنفس والآفاق المبثوثة في المجتمعات الإنسانية المختلفة والمجتمع الغربي واحد من هذه المجتمعات، وما يربطهما من قوانين وسنن ونواميس، باعتبار الإنسانية كلها بشرقها وغربها قطعة من الابتلاء الإلهي البيني، مصداقا لقوله تعالى:" وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون "، ولذلك أدرج هذه المحاولة "**مجرى التضرع إلى الله تعالى في استنزال هذا العلم من عنده**" كما قال الإمام الرازي، وإمداده بتوفيقات إلهية لكل من ألقى قلمه وأفكاره ومقترحاته ضمن هذا الإطار.

- ضرورة الرجوع إلى ما كتب في التراث الإسلامي عن الآخر، وعلى وجه الخصوص العالم الغربي، وإعادة استخراجه، وقراءته، في إطار المراجعات التي تصب في التجديد والإصلاح وجمع مادة هذا العلم في التراث الإسلامي،

فليس صحيحاً أن العالم الإسلامي كان يجهل طبيعة الآخر الغربي كما يشاع، بل كان على دراية واطلاع بمقدراته وقدراته، إلا أن جهلنا بثقافة وأدب الاستغراب في تاريخنا جعلنا نحكم على الموروث الإسلامي بخلوه من هذا الاتجاه الفكري، ومن هنا فإن إعادة استخراج مادة الاستغراب المتنوعة من تراثنا الإسلامي خطوة ايجابية حتى لا نبدأ في مشروعنا هذا بداية صفرية.

– تنوعت مدارس الاستغراب المعاصرة تنوعا ثريا يجعل دراسته وملاحظته ضرورة من ضرورات تطوير هذا الاتجاه المعرفي في الأمة ..من الاستغراب الإصلاحي الذي قاده ونظَّر له الرواد الأوائل أمثال الأفغاني ومحمد عبده، إلى الاستغراب الحركي الذي تبنته الحركات الإسلامية من بعدهم وصولا إلى الاستغراب المعرفي الذي قادته مدرسة إسلامية المعرفة، و الاستغراب اليساري الإسلامي الذي قاده حسن حنفي من خلال مقدمته، ثم الاستغراب التغريبي الذي دعا له دعاة التغريب في العالم الإسلامي ، وانتهاءً عند الاستغراب السنني الذي نظَّر له فلاسفة الفكر الإسلامي المعاصر وعلى رأسهم مالك بن نبي ..كل ينطلق من رؤيته وفلسفته وتصوره للكيفية والمنطلقات والأهداف والمقاصد الخاصة بهذا العلم، وفي كل خير.. إلا أننا نوصي ـ وهذا ليس تحيزا ـ بالاستثمار أكثر ضمن إطار (الاستغراب السنني) في بداية الأمر ، لكونه الأقدر على رؤية المشهد الغربي كاملا من المنظور الحضاري، ثم البناء عليه فيما بعد في كل متعلقات هذا العلم.

– ضرورة إعادة قراءة واعية للفكر الاستشراقي القديم والمعاصر قراءة استغرابية جديدة ، باعتباره أحد قطاعات الفكر التي غذت العقل الأوربي والغربي طيلة قرون بالمعلومات عن الشرق، مع التركيز على الروافع والآليات والنظريات التي نجح من خلالها في دراسة واقع الشرق الإسلامي، للاستفادة مما يمكن الاستفادة منه وللحذر من الوقوع في مطباته وأخطائه ومزالقه .

- حتى لا يكون الاستغراب فتنة وكي لا يكون كلاً على منجزات الاستشراق لابد من الإبداع والتجديد في آليات دراسة الغرب وأدوات تحليل الظاهرة الغربية، وهنا يجب الاستعانة بكل العلوم المعاصرة الممكنة في فهم الظاهرة الغربية وتحليل عناصرها الظاهرة والخفية .. ولا بأس مثلا بتوظيف علوم والكارتوغرافيا والاثنوجرافيا والاثنولوجيا والانثربولوجيا .. ومعها حصيلة العلوم الاجتماعية ولكن بنسختها السننية لا بمفاهيمها الغربية.

ثانياً: المقترحات والتوصيات الخاصة بالمشاريع:

- تمر الإنسانية اليوم في مرحلة تعتبر سماتها الأساسية " المؤسسة والمؤسساتية " في المرافعة عن الأفكار والبرامج والمشاريع وأصبح كسب الرهانات لا يتم ولا يتحقق إلا من خلال هذه الآليات السننية ولذا فإن ترجمة فكرة الاستغراب في أوعية مؤسساتية ضرورة لا تقل عن ضرورة هذا العلم في أصله.. حتى تجمع الطاقات والكفاءات والمواهب والمكنات العلمية في إطار اجتهاد تنظيري استغرابي جماعي .

- نقترح في هذا الإطار تأسيس وقفيات استغرابية، تشبه تلك الوقفيات التي قطع الغرب شوطا هائلا في دراسة الشرق من خلالها، مثل الجامعات، والمعاهد، والكليات ، أو مراكز الدراسات الإستراتيجية المتخصصة في مختلف معارف الاستغراب .كأن تكون مراكز خاصة بدراسة تجارب المجتمع المدني الغربي، ومراكز تعنى بمتابعة الحركات الفكرية في الغرب ، وأخرى تتخصص في الجانب الاقتصادي، ومراكز في تقييم الجانب العسكري ..وكذا مراكز في فهم الجوانب المشتركة بين العالمين للاستثمار فيها ومراكز أخرى فقط لرصد الجانب المعلوماتي والإحصائي.

- نوصي المشتغلين في هذا الميدان بالتركيز على ثقافة التخصص في مجال الدراسات الاستغرابية في جزئيات ومحاور دقيقة، فلم يعد العصر ليسمح كما

كان من قبل بالحديث عن الغرب أو الشرق في جزئية من جزئياته إلا للمتخصص فيها، كالتخصص في الاستغراب السياسي أو الثقافي أو الفكري أو الاقتصادي أو العلمي أو الاجتماعي، لأن التخصص ثمرة للفكر كما أن الفكر ثمرة للتخصص.

- نوصي في هذا الإطار تخصيص مخصصات مالية كبيرة لابتعاث طلبة من العالم العربي والإسلامي إلى الغرب لدراسته لمعاينته عن كثب وفق برنامج المنح الاستغرابية.. شرط أن يتم ذلك وفق أرضية تعد سابقا تضمن سلاسة وفعالية وجودة الأبحاث التي تعد في هذه البلدان من الطلبة المبتعثين مع توفير بيئة ومناخ البحث العلمي لهم في تلك البلدان .

- نوصي بتأسيس جوائز مالية عربية إسلامية عالمية سنوية تخصص لمواضيع الاستغراب في مختلف المجالات الثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية والدينية..

- نوصي الجامعات بتخصيص وتشجيع طلبتها على رسائل الماجستير والدكتوراه التي تتجه إلى هذا الاتجاه في أقسام جامعات العالم العربي والإسلامي المتنوعة، والتفكير الجدي في برامج التوأمة مع مختلف الجامعات الغربية ولا حرج في تبادل البعثات قصد توسيع أفق الحوار العلمي والمعرفي بين الطرفين.

- نوصي بتكثيف حركة الترجمة الواعية من اللغات الغربية المتنوعة إلى اللغة العربية خاصة للكتابات التي تصب في إطار تحسين هذا المسعى ،فمعرفة ما يكتبه الآخر عنا جزء لا يتجزأ من فهمه ودراسته.

فهرس المصادر والمراجع:

- القرآن : رواية حفص عن عاصم

- صحيح البخاري

- صحيح مسلم

الكتب :

– ابن عابدين ، رد المحتار على الدر المختار ،دار الفكر بيروت ،الطبعة الثانية ١٩٩٢

- إبراهيم محمود عبد الباقي ،الخطاب العربي المعاصر :عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية ،المعهد العلمي للفكر الإسلامي ،أمريكا ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ،ص:٣٣٧

- ابراهيم محمود عبد الباقي ،الخطاب العربي المعاصر :عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية ،المعهد العلمي للفكر الإسلامي ،أمريكا ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

– ابن الحاج المدخل، دار الفكر ، دط، ١٩٨١م

– ابن الفراء ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ،تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩م

– ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، مقدمة المحقق ،أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، ١٤١٧هـ ،دط،دت

– ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ،١٩٦٤ م،دط،دت

– ابن خردانبه، المسالك والممالك ، دار صادر أفست ليدن، بيروت .

– ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير،محمد أحمد حسب ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف القاهرة ، دط ، دت، ج ٤

- أبو الحسن ابن ذي الوزارتين الخزاعي ، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، ،تحقيق احسان عباس ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ١٤١٩ هـ

- أبو حامد الغزالي ،المنقذ من الضلال ، تحقيق محمد محمد جابر ، المكتبة الثقافية بيروت لبنان ، دط،دت

– أحمد الشيخ ،من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب :المثقفون العرب والغرب " المركز العربي للدراسات الغربية ، الطبعة الأولى :٢٠٠٠م

- أحمد بن يحي بن فضل الله القرشي العدوي تقي الدين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي أبو ضبي الطبعة الأولى : ١٣٢٣هـ

- أحمد عبد الحميد غراب ، رؤية إسلامية للاستشراق ،المنتدى الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، لندن

- أحمد محمد سالم : إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر .دار رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة 'الطبعة الأولى :٢٠١٠

- أحمد محمد سالم :إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر .دار رؤية للنشر و التوزيع ،القاهرة، الطبعة الأولى : ٢٠١٠

- آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة: ، ١٩٩٤م
- أدونيس، الثابت والمتحول بحث في الإبداع والإتباع عند العرب علي ، دار الساقي، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٩٤م
- آربري، المستشرقون البريطانيون ، تعريب محمد الدسوقي النويهي، لندن: وليم كولينز ، ١٩٤٦
- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير : فيليب حتي ،الدار المتحدة للنشر بيروت لبنان ،١٩٨١ م .
- أغناطيوس كراتشكو فيسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صاح الدين عثمان هاشم ،طبعة جامعة الدول العربية ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م
- التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي ،الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو ص: ٤٥٢ ..طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطا ، سنة ١٩٩١ م.
- الجابري، الإسلام والغرب ،الشبكة العربية للأبحاث والنشر ،الجزء الأول ،الطبعة الأولى :٢٠٠٩م، ص ١٢٢ .
. الجاحظ ، التارج في أخلاق الملوك ، تحقيق :أحمد زكي باشا ، المطبعة الأميرية ١٩١٤م
- الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية دار السراج بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٠م .
- الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، تحقيق : أبو عبدالله السورقي ، إبراهيم حمدي المدني ، المكتبة العلمية المدينة المنورة ، دط ، دت
- السيد أحمد فرج ، حوار الحضارات في ظل الهيمنة الأمريكية هل هن ممكن ؟، دار الوفاء ،جمهورية مصر العربية ، الطبعة الأولى٢٠٠٤ .
- الشاطبي، أبو إسحق. الموافقات، تعليق الشيخ عبد الله دراز بيروت: دار المعرفة للطباعة و النشر، د.ت
- الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤هـ
- الفخر الرازي ،التفسير الكبير ، دار الكتب العربية ، بيروت لبنان ،الطبعة الأولى ٢٠٠٠م
- القرضاوي ، فقه الأولويات : دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة ،المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى: ١٩٩٩م
- القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر بيروت ، دط، دت
- الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، تحقيق أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ
- المسعودي، التنبيه والإشراف، دار الصاوي القاهرة ،دط،دت،
- المسيري ،موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، دار الشروق للنشر والتوزيع، ج١٦ ،٢٠٠٤
- النورسي ، كليات رسائل النور ، ملحق أمير داغ الثاني، دار سولز للنشر القاهرة، الطبعة الأولى:١٤١٥هـ ١٩٩٥م
- الواقدي ،فتوح الشام /، الأزدي ، فتوح الشام ،/ البلاذري ، فتوح البلدان /
- أليسكي جورافسكي– الإسلام والمسيحية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

، الكويت ، ١٩٩٦م.
- أندريه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر. الطبعة الأولى : منشورات وزارة الثقافة السورية .ج١
- أنور الجندي ،أعلام القرن الرابع الهجري ، مكتبة الأنجلو المصرية، دط،دت -
- بدر الدين العينى ،شرح البناية شرح الهداية . البناية شرح الهداية، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م
- بهاء الدين البغدادي ، التذكرة الحمدونية ،دار صادر بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ . -
- تراث الإسلام ،مجموعة من المؤلفين ، سلسلة عالم المعرفة العدد ٨ الجزء الأول ، ١٩٨٥م
- ترجمة سعد غراب ،مقدمة المسالك والممالك للبكري ، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢ م
- جمال الشلبي ، صورة العرب والمسلمين في الإعلام الغربي : حالة فرنسا، أوراق المؤتمر الدولي الثاني ،أوربا والإسلام ١٩٩٦ م،جامعة آل البيت الأردن
- جمال الشلبي ، صورة العرب والمسلمين في الإعلام الغربي : حالة فرنسا، أوراق المؤتمر الدولي الثاني ،أوربا والإسلام ١٩٩٦ م،جامعة آل البيت الأردن
- جمعة سيد يوسف ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي وما بعدها بتصرف . سلسلة عالم المعرفة ١٤٥/١/١٩٩٠م
- جوستاف أ. فون غرونيباوم : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، د ت
- جولدزيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢،
- حامد محمد الخليفة ، الموقف الإسلامي وتأصيل الهوية ،دار القلم دمشق ،الطبعة الأولى :٢٠٠٥م
- حسن البنا، مجموعة الرسائل ، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة، بيروت، دط، دت .
- حسن بدران مسعود ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري . أنموذج مالك بن سلسلة كتب الأمة ، وزارة الأوقاف قطر ، العدد ٧٣
- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٩٢م
- حسن مصطفى عبد المعطي وهدى محمد قناوي، علم نفس النمو ، دار قباء للنشر والتوزيع ج١
- حميدة عميراوي: دور حمدان خوجة في تطوير النهضة الوطنية. دار البعث ،قسنطينة الجزائر ،دط ،
- خالص جلبي مخطط الانحدار وإعادة البناء. ، الرياض: منشورات كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفيّة، ١٩٩٦ م
- خير الدين التونسي ،أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٨٣ هـ/١٨٦٧م.
- خير الدين الزركلي ،الأعلام للزركلي ، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر ،٢٠٠٢ ، ج٧
- رفاعة الطهطاوي ، تلخيص الإبريز في تلخيص باريس ،شركة كلمات عربية للترجمة و النشر القاهرة
- رودي بارث ، الدراسات العربية والإسلامي في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، المركز

القومي للترجمة مصر القاهرة ،العدد ١٧٨٤، ٢٠١٢ م
ـ سعيد إدوارد ،الاستشراق ، ترجمه : كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م
– سعيد، إدوارد. تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حريري، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنقد، ١٩٦٦
ـ سليمان الرحيلي ،السفارات الإسلامية إلى الدول البيزنطية ،مكتبة التوبة الرياض ،الطبعة الأولى ١٤١٤هـ
ـ شذرات من كتب مفقودة في التاريخ ، إحسان عباس ،درا الغرب بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٨٨.
ـ شكيب أرسلان. حاضر العالم الإسلامي: دار الفكر، بيروت لبنان الطبعة الرابعة ١٩٧٣م
ـ شيخ الإسلام ابن تيمية، الفتاوى الكبرى ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى :١٩٨٧م
ـ طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م، ج١
ـ طه عبد الرحمن ، العمل الديني وتجديد العقل ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٩٩٧م
ـ عادل عيساوي ، فقه السنن الإلهية وأثرها في البناء الحضاري ،وزارة الأوقاف قطر ،الطبعة الأولى ٢٠١٢
ـ عالم ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ – الدار العربية للعلم – بيروت ، لبنان – ط ١ – ٢٠٠٥ –
–عبد الباسط عبد المعطي ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الكويت
– عبد الحميد أبو سليمان الرؤية الكونية الحضارية القرآنية : المنطلق الأساس لإصلاح الإنساني ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠٠٨ م.
ـ عبد الحميد بن باديس ، آثار ابن باديس، تحقيق عمار طالبي ، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ،الطبعة الأولى ١٩٦٨ م
ـ عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة: لجنة البيان العربي، ١٩٦٥
ـ عبد الفتاح محمد وهيبة ، مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية جامعة بيروت ، ١٩٧٩ م.
– عبد الفتاح، سيف الدين. القرآن وتنظير العلاقات الدولية، في المداخل المنهاجية، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، سلسلة العلاقات الدولية، ج٣
– عبد الله ابراهيم ، الثقافة العربية ومرجعيتها المستعارة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء بيروت ، الطبعة الأولى :١٩٩٩
– عبد الله صالح أبو بكر ،حوار الحضارات : تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا ،إصدار هيئة الأعمال الفكرية السودان الخرطوم ، الطبعة الثانية: ٢٠٠٢م.
ـ عبد الله صالح أبو بكر، حوار الحضارات : تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا ،إصدار هيئة الأعمال الفكرية السودان الخرطوم ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م
ـ عبد المجيد النجار، فقه التحضر، دار الغرب الإسلامي الطبعة الاولى ١٩٩٩م ، ج١
– علي القريشي ، الآخر في المنظور الإسلامي.

- علي بن إبراهيم الحمد النملة ، التنصير ، مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته ، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ
- علي بن ابراهيم النملة ،الاستشراق والإسلام في المراجع العربية ،بيسان الرياض ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م
- علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م .
- علي حسين الشامي ، الدبلوماسية : نشأتها وتطورها وقواعدها . دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٤ م
- علي عزت بيجوفيتش ، الإسلام بين الشرق والغرب ، ترجمة محمد يوسف عدس ، دار النشر للجامعات ، الطبعة الثانية :١٩٩٧
- عماد الدين خليل ،قالوا عن الإسلام ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م،
. غارديه، لويس: أهل الإسلام، ترجمة صلاح الدين برمدا، " وزارة الثقافة، دمشق،١٩٨١"، الطبعة الأولى: ص ٣١٢.
- غريغوار منصور مرشد مقدمات الاستتباع ،الشرق موجود بغيره لا بذاته، ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا واشنطن ، الطبعة الأولى :١٩٩٦م
. فتحي شهاب الدين ،السنن الإلهية في قيام الأمم وسقوطها ،دار النشر للجامعات القاهرة ،الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م
- فخر الدين الزيعلي الحنفي ،كتاب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، المطبعة الكبرى الأميرية القاهرة الطبعة الأولى ١٣١٣هـ
- فهمي سعد، مقدمة التحقيق، كتاب آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ،لابن اسحاق بن الحسين المنجم ،عالم الكتب بيروت الطبعة الأولى :١٤٠٨هـ
- فيصل خرتش ، رحلات رافقت الحروب الصليبية ،جريدة الشرق الأوسط، الاربعاء ٢٧ جمادى الثاني ١٤٢٦ هـ ،٣ اغسطس ٢٠٠٥ العدد ٩٧٤٥
- مازن المطبقاني ،أوروبا في مواجهة الإسلام : الوسائل والأهداف .،مكتبة وهبة القاهرة ، الطبعة الأولى :١٩٩٣م
– مازن بن صلاح المطبقاني ، أثر المملكة العربية السعودية الرائد في الاهتمام بالدراسات الاستشراقية خلال ربع قرن ،الطبعة الأولى :٢٠٠٥
– مازن صلاح المطبقاني :الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، الرياض، دراسته وتصنيفه بغية مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥.
- مازن صلاح مطبقاني ، الغرب من الداخل :دراسة للظواهر الاجتماعية ،الطبعة الثانية ٢٠٠٥ م، الرياض
- محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، صورة الأرض ، دار صادر ، أفست ليدن بيروت ،دط
- مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، دار الفكر المعاصر بيروت ، لبنان ،الطبعة الأولى:٢٠٠٢
- مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دار الفكر المعاصرة بيروت / سوريا ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م

ـ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر دمشق سوريا ، الطبعة الثالثة ،١٩٨٨م
ـ مايكل كرايتون: أكلة الموتى ، ترجمة تيسير كامل – سلسلة روايات الهلال – ، الطبعة الثانية: ١٩٩٩م
ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط ، الطبعة الثالثة ،دت
ـ محمد أسد ،الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٥٦م
ـ محمد الغزالي ،الطريق من هنا، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ،دت،دط
ـ محمد الغزالي ، الفساد السياسي ، دار نهضة مصر ،الطبعة الأولى ،دط،دت
. محمد أمين ناشر النعم ، المشكلات الثقافية للأقليات المسلمة حلول ومقترحات ،المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، الطبعة الاولى ٢٠٠٦م،طهران ايران .
– محمد جلاء إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، دار العربي للنشرو التوزيع القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٥
ـ محمد راتب الحلاق نحن والأخر : دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٧
ـ محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٠م، ج٧
ـ محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف ، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ـ ، دمشق الطبعة الأولى ، ١٤١٠
–محمد عبد الغني، الشريف الإدريسي أشهر جغرافي العرب والإسلام، سلسلة أعلام العرب، رقم ٩٧، الهيئة العليا للتأليف والنشر، د.ن، ١٩٧١، ص ٧٦-٧٧
ـ محمد عز الدين توفيق ، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية ،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٢م
ـ محمد علي أبو هندي، مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية ، دراسة في فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابري ،دار السلام للطباعة والنشر ،القاهرة ، الطبعة الأولى :٢٠١٠ م
ـ محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر ، الطبعة الأولى :٢٠٠١
ـ محمد علي جمعة ،الطريق إلى التراث الإسلامي (مقدمات معرفية ومداخل منهجية) دار : نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،ط٢ ،٢٠٠٥
ـ محمد عمارة ، الحضارات العالمية تدافع أم صراع ،دار نهضة مصر القاهرة ،الطبعة الأولى ١٩٩٨م
ـ محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ، المؤسسة العربية للدراسات العربية والنشر، بيروت، ١٩٧٢
ـ محمد فتح الله الزيادي ، الاستشراق أهدافه ووسائله، ، دار قتيبة دمشق، الطبعة الثانية:٢٠٠٢م
ـ محمد قطب،واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة جدة، الطبعة الثانية: ١٩٩٨
ـ محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري سلسلة كتاب الأمة، الدوحة – ١٤٠٤هـ
ـ مصطفى السباعي ،الاستشراق والمستشرقون ،مالهم وما عليهم ، دار الوراق للنشر والتوزيع المكتب الإسلامي الرياض ،دط،دت

. مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ،سلسلة كتب الأمة وزارة الأوقاف قطر، العدد ٥٧، السنة ١٤١٨هـ
- مصطفى نصر المسلاتي ، الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، دار اقرأ ، طرابلس ،ليبيا ،الطبعة الأولى : ١٩٩٨م
- مطاع صفدي ، نقد العقل الغربي ، الحداثة مابعد الحداثة ، مركز الانماء القومي بيروت لبنان ، دط، ١٩٩٠
- مكسيم رودنسون الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام القسم الأول تصنيف – شاخت وبوزورث. ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت؛ عالم المعرفة، أغسطس ١٩٧٨م
- مهدي كلشني ، القرآن ومعرفة الطبيعة ، مطبعة سبهر ،طهران ، الطبعة الأولى: ١٩٨٥ م
- موسى، سلامة: الأدب للشعب،" مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى القاهرة، ١٩٥٦
- موسى، سلامة: اليوم والغد، ، المطبعة العصرية، الطبعة الأولى : القاهرة، ١٩٢٧
– هاوزين عمر، صباح البرزنجي، معالم في المنهج القرآني: حوار مع الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني، ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مطبعة شفان السليمانية، كردستان العراق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٩م
- هنري لورنس، الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا: ١٦٩٨-١٧٩٨ م،ترجمة بشير السباعي، دار شرقيات للنشر والتوزيع القاهرة ،الطبعة الأولى: ١٩٩٩م
- هنري لورنس، الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا ١٦٩٨.١٧٩٨:م
- ويل ديورانت، قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود ، دار الجيل بيروت، ١٩٨٨م
- يوسف كمال ، منهج المعرفة من القرآن، دار الوفا ، مصر القاهرة ،١٤٠٦هـ
-القنوجي ، أبجد العلوم، دار ابن حزم ،الطبعة الأولى :٢٠٠٢م

المؤتمرات والندوات :

- أعمال ندوة العلاقات الدولية بين الأصول الإسلامية وبين خبرة التاريخ الإسلامي ، مركز البحوث والدراسات السياسية جامعة القاهرة،٢٠٠٠م ،ج١.
- أوروبا والإسلام ، أوراق المؤتمر الدولي الثالث ١٩٩٦م، الأردن من منشورات جامعة آل البيت ١٩٩٨م
- دور مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن وشروط الانتقال إلى فاعلية أكبر ، مركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات قطر ، يناير ٢٠١٣
- في التواصل مع الآخر: معالم وضوابط ووسائل ورقة مقدمة إلى المؤتمر السنوي الثاني: نحن والآخر المقرر انعقاده ما بين ٦–٨ صفر لعام ١٤٢٧هـ الموافق ٦–٨ مارس لعام ٢٠٠٦م بدولة الكويت
- كالة وزارة التعليم العالي للتخطيط والمعلومات مرصد التعليم العالي السعودي ، التعليم العالي في المملكة العربية السعودية : مؤشرات محلية ومقارنات محلية ٢٠١٤
- نظام الوقف والنظم المشابهة في العالم الغربي : دراسة مقارنة ،بحث مقدم على المؤتمر الثاني للأوقاف "الصيغ التنموية والرؤى المستقبلية ،جامعة ام القرى مكة المكرمة.
- أعمال ندوة أسس العلاقات الدولية في الإسلام ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية،٢٨ رجب

١٤٠٨هـ
المجلات والدوريات :
- مجلة الاجتهاد ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان : العدد:٢٢/٤٩/٥٠/ ٥٢ /٥٣
- إسلامية المعرفة : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، العدد: / ٥ / ١٣/ ٢١/٢٢/٢٥ /٣١/٣٢//٤٠/٤٣ /٤٥/٤٨/ ٥٢ .
- جريدة الأهرام الرقمي ،العدد التاسع ، ٢٠١٠.
- جريدة الشرق الأوسط الاربعاء ٢٧ جمادى الثاني ١٤٢٦ هـ ٣ اغسطس ٢٠٠٥، العدد ٩٧٤٥
- مجلة " العربي" ،وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد : /٥١٨/ ٥٤٠/ ٥٤٤
- مجلة المسلم المعاصر ،السنة السابعة والثلاثون ،القاهرة ، العدد : ٣٧/ ١٤٨/١٠٨/١١٣/ ١٤٨../
- مجلة المنار ، ١٩٠٦م.

مواقع الانترنت :
جريدة أخبار الخليجhttp://www.akhbar-alkhaleej.com/١٢٥٧٩/article/٤٧٢٠٢.html :.
موقع صحيفة الرياض:http://www.alriyadh.com/٧٠١٧٩٦
موقع:http://site.matariaonline.com/dindetail.asp?id=٢٩
http://www.alriyadh.com/Contents/٢٨-٠٨-٢٠٠٣/Mainpage/Thkafa_٧٥٦٥.php_
- موقع :إسلام ويب.
http://www.islamweb.net/mohammad/index.php?group=articles&lang=A&id=٢٠٤٨٢
- موقع جريدة الثورة
:ttp://thawra.alwehda.gov.sy/_print_veiw.asp?FileName=١٨٧٦٥٠٢١٩٢٠٠٧٠٥٠٩٢٢٠٨١٠
- موقع : www.onefd.edu.dz/infpe/٢MEF/cours-Pdf-٢mef/.../L٣-ENV٣-GEO.pdf
- مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية : http://www.aqsaonline.org/default.aspx
- موقع يومية إيلاف الالكترونية
:http://www.elaph.com/Web/Culture/٢٠٠٨/١١/٣٧٩٧٤٠.htm
- موقع مؤمنون بلا حدود/ http://www.mominoun.com/arabic/ar-sa/articles .
- موقع الألوكة، رابط الموضوع :
http://www.alukah.net/sharia/٠/٤٦٣٠٦/#ixzz٣٤PyKLVcz
- شبكة الألوكة : رابط الموضوع :
: http://www.alukah.net/culture/٠/٤٤٥٦٦/#ixzz٣٤vT٠٤kA٨
- جريدة الشرق الأوسط :
http://www.aawsat.com/details.asp?section=١٩&article=٣١٥٦٤٦&issueno=٩٧٤٥

#.U٥mlQyjuE٣Y

ـموسوعة ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org/wik

ـ موقع ميديا بلوس ـ موقع إخباري معلوماتي .http://media-plus-tn.com/?p=٢٨٦٩٤

ـ موقع الجزيرة:http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/٢٠١٣/٩/١٤/٣٥

ـ موقع مختارات من التراث الإسلامي:

http://www.bibalex.org/reissuingtheclassics/Home/StaticPage_Ar.aspx?page=١
٥

ـ موقع مركز تشبيك للتنمية والدراسات http://www.alshirazi.com/world/article/٤٢٦.htm ,

ـ معهد الإمام الشيرازي الدولي للدراسات واشنطن.

http://www.siironline.org/alabwab/nadawat٪٢٠&٪٢٠motamarat٪٢٠٪٢٨٠٨٪٢٩/٠
٣٩.htm

فهرس الموضوعات

المقدمة: ٥
الفصل الأول: مدخل منهجي ومعرفي ١٧
المبحث الأول: دراسة الغرب من أين نبدأ. ؟.......................... ١٩
المبحث الثاني: ماذا سيقدم النظام المعرفي الإسلامي لعلم الاستغراب............ ٢٤
الفصل الثاني:العائد المعرفي للدراسات المتأملة في الغرب في الدول الإسلامية......... ٣١
المبحث الأول: دراسة الغرب في الأدب الجغرافي العربي والإسلامي................ ٣٣
المبحث الثاني: التأليف الإسلامي الاثنوجرافي عن الغرب المسيحي.............. ٣٩
المبحث الثالث: التأمل الاثنولوجي الإسلامي في العالم الغربي ٤٣
المبحث الرابع: التأليف الكارتوغرافي الإسلامي عن الغرب ٥٠
المبحث الخامس: عينات من خبراء شؤون الغرب في الدول الإسلامية الأولى...... ٥٧
المبحث السادس: كتابات مقارنة الأديان مدخل التعرف على الآخر في الدول الإسلامية الأولى.. ٦١
المبحث السابع: تأمل الغرب ودراسته في الأدب الفقهي الأول.................. ٦٤
الفصل الثالث:التحقيب المعرفي الكرونولوجي للعلاقات الإسلامية الغربية:
البدايات، العلاقات، المكاسب... ٦٩
تمهيد... ٧١
المبحث الأول: التحقيب المعرفي لدراسة الغرب................................ ٧٣
المبحث الثاني: التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية في مرحلة النبوة وعصر الخلافة الراشدة.. ٨١
المبحث الثالث: التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية في العهد الأموي والعباسي.. ٩٠
أولا: التنافس الإسلامي الإسلامي على معرفة الغرب ٩٠
ثانيا: أهمية الدبلوماسية في التعرف على الآخر في هذه المرحلة................ ٩٣
ثالثا: ذروة التعارف والتدافع بين الشرق الغرب (الحروب الصليبية)............. ٩٦
رابعا: الحروب الصليبية والصدمة المعرفية للغرب المسيحي ٩٨
أ : تحويل الصدمة المعرفية إلى انطلاقة حضارية............................. ١٠٠
ب: استشكال معرفي: هل أوتي العالم الإسلامي من قلة المعلومة بالغرب؟............ ١٠٤
المبحث الرابع: التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية في مرحلة الاستعمار...... ١١٢
أولا: سمة هذه المرحلة (تدافع الإزالة والإزاحة) ١١٢

ثانيا: طبيعة العلاقة بين الطرفين في هذه المرحلة حضاريا (العلاقات العلمية) ١١٥
المبحث الخامس: التحقيب المعرفي للعلاقات الإسلامية الغربية بعد الاستعمار.......... ١١٩
أولا: سمة هذه المرحلة (تدافع التوازن) ١١٩
ثانياً: دخول الفاعل الإسلامي إلى الجغرافيا الغربية.. ١٢٣
الفصل الرابع: دراسة الغرب في الفكر الإسلامي المعاصر ١٣٣
تمهيد : ١٣٥
المبحث الأول: لماذا الاستغراب جملة اعتراضية في مشاريع النهضة ١٣٧
المبحث الثاني: الاستغراب الإصلاحي ١٤٠
المبحث الثالث: نموذج الاستغراب الحركي ١٥٢
المبحث الرابع: نموذج الاستغراب الأكاديمي ١٦١
أولاً: جهود إدوار سعيد في دراسة الغرب الاستشراقي...................................... ١٦١
ثانياً: نموذج مازن صلاح المطبقاني ١٦٤
المبحث الخامس: نموذج الاستغراب الإسلامي اليساري ١٧١
المبحث السادس: اتجاه الاستغراب السُّنني المعرفي ١٨١
أولاً: نموذج الاستغراب السُّنني ١٨٣
ثانياً: نموذج الاستغراب المعرفي ١٨٨
المبحث السابع: نموذج الاستغراب التغريبي ١٩٣
الفصل الخامس:البناء المعرفي للاستشراق ودوره في فهم العمق الاستراتيجي للشرق.. ١٩٩
المبحث الأول: موقع الاستشراق في النظام المعرفي الغربي ٢٠١
أولا: الحمولة الدلالية والمفاهيمية للاستشراق ٢٠٤
أ: الحمولة الدلالة اللغوية ٢٠٥
ب: الحمولة الدلالة الحضارية ٢٠٦
ثانياً: الاستشراق من العلوم الوظيفية.. ٢٠٨
المبحث الثاني: كرونولوجيا المعرفة الاستشراقية وإعادة التشكل ٢١٠
أولا: كرونولوجيا المعرفة الاستشراقية ٢١٠
ثانياً: لماذا تخلي الاستشراق عن مكتسباته واستراتيجيته الاصطلاحية ٢١٤
المبحث الثالث: المنابع الفكرية والأصول المرجعية المؤطرة للاستشراق ٢١٨
أولاً: منبع المركزية الأوروبية والغربية.. ٢١٩
ثانياً: المنبع الأصولي التوراتي والإنجيلي ٢٢٢
المبحث الرابع: مدارس الاستشراق ومناهجهم ٢٢٧
أولا: مدارس الاستشراق هل هم سواء في رؤيتهم للشرق...................................... ٢٢٧

ثانياً: مناهج الاستشراق في دراسة الشرق وأثرها في تكون العقل الاستشراقي ٢٢٩
المبحث الخامس: الاحتياجات الغربية الاستراتيجية من الاستشراق ٢٣٣
أولاً: الاحتياج المعرفي الغربي للاستشراق ٢٣٣
ثانياً: الاحتياج العسكري للدليل الإرشادي الاستشراقي ٢٣٦
المبحث السادس: الروافع المساعدة على نجاح الاستشراق: رؤية استغرابية.............. ٢٤١
أولاً: مأسسة الرؤية الاستشراقية ٢٤٢
ثانياً: انتقال الاستشراق من الفردية إلى الجماعية ٢٤٢
ثالثاً: انتقال الاستشراق من الجامعات إلى الجمعيات العلمية ٢٤٥
رابعاً: انتقال الاستشراق من الندوات التقليدية إلى المؤتمرات التقويمية.................. ٢٤٦
خامساً: انتقال الاستشراق من اللجان إلى مراكز الدراسات الاستراتيجية ٢٤٧
سادساً: الاهتمام بالتخصص باعتباره ثمرة للفكر ٢٤٩
سابعاً: توظيف الانثربولوجيا والعلوم الاجتماعية في فهم العمق الاستراتيجي للشرق....... ٢٥١
الفصل السادس: التنظير الاستغرابي: مفهومه، أدواته، نظرياته، مستقبله.............. ٢٥٥
تمهيد : ٢٥٧
المبحث الأول: علم الاستغراب وسؤال المقاصد ٢٦٠
أولاً: المقصد التدافعي.. ٢٦٠
ثانياً: المقصد الشهودي ٢٦٦
ثالثاً: المقصد التعارفي والتعاوني ٢٧١
رابعاً: المقصد العلمي ٢٧٥
المبحث الثاني: علم الاستغراب وسؤال التنظير ٢٧٦
أولاً: مفهوم الفجوة التنظيرية بين الشرق والغرب ٢٨١
ثانياً: فجوة التنظير الإسرائيلي عن الشرق (نموذج تحليلي)............................... ٢٨٣
ثالثاً: لماذا تفوق التنظير الاستشراقي على التنظير الاستغرابي ٢٨٥
أ : أين الخلل :... ٢٨٦
ب: تفاعل التنظير الغربي عن الشرق بين نمو النظرية والتنظير ٢٨٩
ج: روح التحدي في التنظير الاستغرابي الآسيوي ٢٩٠
رابعاً: التنظير الاستغرابي وعلاقته بالتنظير الفقهي ٢٩٢
خامساً: شروط نجاح التنظير الاستغرابي ٢٩٨
أ: . تنزيل التنظير الاستغرابي إلى الواقع ٢٩٨
ب: التشبع المعرفي بالغرب... ٣٠١
ج : تعزيز التنظير الاستغرابي بالنظريات السننية ٣٠٣

د: ماذا ستقدم الأركيولوجية السننية لعلم الاستغراب.................................... ٣٠٧
المبحث الثالث: التنظير الاستغرابي وسؤال المنهجية.. ٣١٢
أولاً: مداخل الصدق المنهجي ومخرجاته في علم الاستغراب.................................... ٣١٢
ثانياً: الجملة المفيدة لعلم الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي........................ ٣١٦
ثالثاً: أثر الجملة المفيدة للاستغراب في تحديد سلمه المعرفي ٣١٦
المبحث الرابع: علم الاستغراب حتى لا يكون فتنة (الاستغرابوفوبيا)......................... ٣١٩
أولاً: فوبيا الاستغراب الأسباب والمبررات ٣٢٠
ثانياً: علم الاستغراب والأيلولة الاستشراقية ٣٢٥
ثالثاً: الوقوع في مرض اللازمة الاستشراقية ٣٢٦
المبحث الخامس: علم الاستغراب حتى لا يكون كلاً ٣٣٠
أولاً: مأسسة الفكر والرؤية الاستغرابية وعوائدها المعرفية ٣٣١
ثانياً: استقلالية مراكز الدراسات الاستغرابية ٣٣٣
ثالثاً: تأسيس الوقفيات العلمية للاستغراب ٣٣٥
رابعاً: إحياء الابتعاث الاستغرابي ٣٣٩
أ: الابتعاث: أحد أدوات الصراع بين الشرق والغرب ٣٣٩
ب: لماذا لم يشكل الابتعاث في تاريخنا قاعدة للاستغراب.................................... ٣٤١
ج: الابتعاث الاستغرابي وأثره على جودة مؤسساته: رؤية استشرافية.......................... ٣٤٤
الخاتمة والتوصيات: ٣٤٧
فهرس المصادر والمراجع ٣٥٢
فهرس الموضوعات.. ٣٦١